



الجمعية السعودية لدراسات الدعوة الإسلامية
Saudi association for da'wah studies

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الجمعية السعودية للدراسات الدعوية

مَجَلَّةُ الدِّعْوَاتِ الدَّكْوِيَّةِ

مجلة علمية دورية محكمة

العدد السابع - محرم ١٤٣٧ هـ

عناوين الأبحاث:

- بلاغة الخطاب الدعوي في سورة نوح .
- آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم (دراسة وصفية تحليلية).
- المسؤولية الدعوية تجاه المريض النفسي.
- تعزيز ثقافة الوقف (دراسة دعوية مقارنة).
- المسؤولية الدعوية للداعي إلى الله في عيادات التجميل .
- قاعدة المشقة تجلب التيسير (دراسة دعوية تأصيلية) .

الجمهورية السعودية
للدراستات الدعوية
Saudi Education by Quran Studies



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الجمعية السعودية للدراسات الدعوية

مجلة
الدراسات الدعوية
مجلة علمية محكمة

العدد السابع

١٤٣٧هـ

المراسلات:

تتم المراسلات باسم رئيس هيئة تحرير المجلة على العناوين التالية:

المملكة العربية السعودية ص ب ٤٨٤٧ - الرياض ١١٤١٢

هاتف وفاكس: ٢٥٨٥١٣٢ - ١١ - ٠٠٩٦٦

موقع الجمعية الإلكتروني:

<http://www.imamu.edu.sa/dawastud/index.htm>

المشرف العام
د. أحمد بن علي الخليفي
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير
أ. د. حمد بن ناصر العمار

أعضاء هيئة التحرير

أ. د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي
د. عبدالله بن إبراهيم الشويمان

أ. د. سليمان بن قاسم العيد
د. خالد بن هدويب المهيدب

أمين المجلة
راشد بن محمد الجاسر

ردمك: ١٦٥٨ - ٣٨٨٤ إيداع: ١٤٢٩ / ٩٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قواعد النشر

أولاً: يشترط في البحث الذي ينشر في المجلة ما يلي:

- ١ - أن يكون البحث متخصصاً في الدعوة والحسبة.
- ٢ - أن يكون متسماً بالأصالة وسلامة الاتجاه.
- ٣ - أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
- ٤ - أن تتحقق فيه السلامة اللغوية.
- ٥ - أن تكتب الآيات بالرسم العثماني.
- ٦ - أن يكون ملتزماً بعلامات الترقيم المتعارف عليها.
- ٧ - أن لا يكون قد سبق نشره أو قدم للنشر لجهة أخرى.
- ٨ - أن لا يكون مستلاً من بحث أو رسالة نال بها الباحث درجة علمية.

ثانياً: أن تكون الهوامش والمصادر على النحو التالي:

- ١ - توضع هوامش كل صفحة أسفلها على حدة.
 - ٢ - تثبت المصادر والمراجع في قائمة في آخر البحث مع استيفاء معلوماتها، مثال: معالم الدعوة، عبد الوهاب بن لطف الديلمي ط١ (جدة، دار المجتمع، ١٤٠٦هـ).
 - ٣ - توضع نماذج من صور المخطوط إن وجد في المكان المناسب.
- ثالثاً: عند ورود أعلام أجنبية في متن البحث تكتب بحروف عربية، وتكتب بين قوسين بحروف لاتينية.

رابعاً: يشترط عند تقديم البحث ما يلي:

- ١ - أن يقدم الباحث طلباً لرئيس تحرير المجلة بنشر بحثه، والتزاماً بعدم نشره إلا بعد موافقة خطية من هيئة تحرير المجلة.
- ٢ - يقدم الباحث خمس نسخ من البحث يتضمن ملخصاً باللغتين (العربية - والانجليزية) بحدود (٢٥٠) كلمة.

- ٣ - أن لا تزيد صفحات البحث عن (٦٠) صفحة مقاس (٢٩٤).
- ٤ - أن يكون البحث مكتوباً على برنامج (Word Microsoft) متوافق مع الإصدارات الحديثة.
- ٥ - أن يترك مسافة قدرها (٤,٥) سم على كل جانب من صفحة (٢٩٤) وكذلك (٥) سم من أعلى وأسفل الصفحة، لتكون الكتابة على مساحة قدرها (٢٠×١٢) سم بما في ذلك رقم الصفحة الذي يكون في وسط أسفل الصفحة.
- خامساً: يتم تحكيم البحوث المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين على الأقل من المتخصصين.
- سادساً: يلتزم الباحث بتقديم البحث الذي يجتاز التحكيم وبعد إجراء التعديلات إن وجدت على قرص حاسوبي، وإرساله بالبريد الإلكتروني.
- سابعاً: لاتعاد البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- ثامناً: يعطى الباحث نسختين من المجلة وعشر مستلقات من بحثه الذي تم نشره.
- تتبيه: الأبحاث الواردة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها.



المقدمة

الحمد لله الذي شرف العلم وأهله ، والذي أعلى جانب النظر والبحث وجعلها من قيم دينه ، والصلاة والسلام على نبي الرحمة المهداة محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين ، ، ،
وبعد :

يسرنا أن نُرحِّب بكم بين يدي هذا العدد السابع من أعداد "مجلة الدراسات الدعوية" والذي يصدر من الجمعية السعودية للدراسات الدعوية في ثوب علمي رصين محكم.

وقد اشتمل هذا العدد على الأبحاث العلمية الآتية :

١. بلاغة الخطاب الدعوي في سورة نوح عليه السلام.
٢. آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم "دراسة وصفية تحليلية".
٣. المسؤولية الدعوية تجاه المريض النفسي.
٤. تعزيز ثقافة الوقف "دراسة دعوية مقارنة".
٥. المسؤولية الدعوية للداعي إلى الله في عيادات التجميل.
٦. قاعدة المشقة تجلب التيسير "دراسة دعوية تأصيلية".

نسأل الله أن تكون هذه الأبحاث العلمية لبنة في البناء العلمي للمجتمع على أساس من العلم والبرّ والتقوى.

وبهذه المناسبة فإننا نهيب بالعلماء والباحثين والمختصين تناول الموضوعات الرئيسة في مجال الدعوة في أبحاثهم ونشرها عبر هذا المنفذ من خلال بريد الجمعية الإلكتروني bsserah@gmail.com ، وتقديم الجديد النافع ، ، ، وعلى طريق العلم والبحث والفضل نتواصى ونتواصل ...

رئيس هيئة التحرير

أ. د. حمد بن ناصر العمار

البحث رقم (١)

بلاغة الخطاب الدعوي في سورة نوح عليه السلام

إعداد

د. يوسف بن عبدالله العليوي

قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، والصلاة والسلام على من أرسله الله هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. أما بعد:

فإن من أحسن الأقوال وأشرف الأعمال الدعوة إلى الله ﷻ كما قال سبحانه:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [نصت: ٣٣]،
 وأعظم بعمل أسنده الله ﷻ إليه حيث قال: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥]، وقال: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

والخطاب الدعوي يهدف إلى التأثير في المدعويين واستمالة قلوبهم إلى الحق وإقناعهم به، ويستثمر الوسائل والأساليب التي تسهم في تحقيق ذلك، ومن أهمها بلاغة القول والتفنن في نظمه وأساليبه بحسب ما يقتضيه مقام الدعوة والمدعويين.

وكلما كان الداعية مراعيًا للبلاغة في خطابه كان أسدَّ قولاً، وأكثر تأثيراً، وأقوى إقناعاً، وأقدر على التواصل، وأقرب للقبول، وأبعد عن عشرات الكلام وسقطاته، ويتحقق له ((إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ))^(١)، ويحصل بذلك ما أراداه الله ﷻ في الخطاب الدعوي من الحكمة والحسن في قوله سبحانه: ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالنِّيِّ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ورسل الله عليهم السلام هم القدوة في منهاج الدعوة وخطابها، وقد قال الله ﷻ لرسوله محمد ﷺ بعد أن ذكر جملة من الأنبياء: ﴿ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدَاهُمْ ائْتَدِيَهُ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وإن من صفاتهم ومنهجهم بلاغة القول وفصاحته، ومن ذلك ما ذكره الله ﷻ في بيان النعم التي أنعم بها على داود عليه السلام، ومنها: فصل الخطاب،

(١) النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٧٥.

كما في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخِطَابَ﴾ [ص: ٢٠]، وما فسر به "فصل الخطاب": بيان الكلام، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه^(١)، قال ابن عطية (٥٤٢هـ): ((إن الله تعالى أتاه أنه كان إذا خاطب في نازلة فصل المعنى، وأوضحه، وبيّنه، لا يأخذه في ذلك حصر ولا ضعف))^(٢).

ومما بيّن منهج الأنبياء في فصاحة القول وبلاغته في الدعوة إلى الله قول موسى عليه السلام حين أمره الله تعالى بتبليغ الدعوة إلى فرعون وملأه: ﴿وَأُحْيِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَلِّئُنِي﴾ [القصص: ٣٤]، وموسى عليه السلام كما يظهر من الآية لم يعد فصاحة القول وإبانة الدعوة، ولكنه يطلب الأفضح والرد الذي يصدق، كما قال في موضع آخر: ﴿وَإِخْلُ عُنُقَهُ مِنَ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٧-٣٢]، لأنه يدرك أن من يقدم عليهم يتطلبون بياناً عالياً وحجة غالبية، ومعيناً على القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى ذاك الملك المتكبر الجبار العنيد^(٣).

وأمرنا الله تعالى أن نتأسى بإبراهيم عليه السلام ومن معه في براءته من قومه، فقال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [المتحنة: ٤].

والتأسي هنا ليس في مجرد فعل التبرؤ، وإلا جاء نظم الآية على حكاية الفعل، كأن يقال: إذ تبرؤوا من قومهم ومما يعبدون من دون الله وكفروا بهم...، ولكن الآية جاءت بحكاية القول المنبئ عن الفعل، مما يدل على أن التأسي بالقول مقصود، قال

(١) ينظر في قول ابن عباس وغيره: معالم التنزيل: ٧٧/٧، وزاد المسير: ١١١/٧-١١٢، والجامع لأحكام القرآن:

١٤٩/١٨.

(٢) المحرر الوجيز: ١٨/١٤.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢٣٦/٦.

ابن عاشور (١٣٩٣هـ): ((المراد بقولهم هذا لقومهم أنهم قالوه مقال الصادق في قوله، فالانتساء بهم في ذلك القول، والعمل بما يترجم عليه القول مما في النفوس))^(١). كما أن التأسى بالقول لا يحصل تمامه حتى يكون بالمسلك البليغ الذي سلكوه، مما ينبئ عن قوة إيمانهم بالله وتمسكهم بدينه، وشدة تبرؤهم من الكفر وأهله، ولو لم يكن هذا مقصوداً لجاء نظم القول بغير هذه الصورة، وربما يكفي أن يقولوا: تبرأنا منكم ومن معبوداتكم وكفرنا بطريقتكم وسنعاديكم ونبغضكم إلى أن توحدوا الله. ولكن فزق عظيم بين هذا القول وذاك القول.

وقد عرض القرآن الكريم تجارب الأنبياء في دعوتهم وخطابهم لأقوامهم؛ للاقتداء بهم والتسلية بقصصهم ونجاتهم ومآل أقوامهم.

ومن هؤلاء الأنبياء الكرام نوح عليه السلام، الذي أفردت سورة كاملة باسمه، عرضت قصته بصورة موجزة في دعوة قومه وخطابه إياهم، والقصة نفسها خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولقومه، فاشتملت السورة على نوعين من الخطاب: الأول: خطاب نوح عليه السلام لقومه، وهو خطاب مباشر صريح، كما سردته السورة. والثاني: خطاب القصة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم وقومه، وهو خطاب تعريضي غير مباشر، مقصود من سرد القصة.

وسيتناول هذا البحث كلا النوعين من الخطاب في هذه السورة باعتبارها أنموذجاً من نماذج الخطاب الدعوي في القرآن الكريم.

ويتناول الخطابين وأساليبهما بمنهجية بلاغية تحليلية، تجيب على سؤال البحث: ما الخصائص البلاغية لنظم الخطاب الدعوي من خلال سورة نوح؟ ولن يكون من مقصود البحث تتبع نظم السورة لفظة لفظة وجملة جملة وأسلوباً أسلوباً، إلا ما يكشف عن الخصائص البلاغية والظواهر الأسلوبية للخطاب الدعوي في السورة.

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٤٥/٢٨.

وللوصول إلى هذه الخصائص البلاغية تناول البحث نوعي الخطاب بالتحليل، ثم خلاص بعد ذلك إلى بيان تلك الخصائص، ولذا بُني البحث على ثلاثة مباحث: الأول: الخطاب الدعوي لنوح عليه السلام مع قومه. والثاني: الخطاب الدعوي بالقصة. والثالث: خصائص النظم في الخطاب الدعوي. ومهدت قبلها بتمهيد تناول سياق السورة، ثم ختمتها بخاتمة تبين نتائج البحث.

وسميته "بلاغة الخطاب الدعوي في سورة نوح".

وإني لأرجو أن يكون هذا البحث وأمثاله دافعاً لمن يتصدر لدعوة الناس إلى الله تعالى على منابر الجمعة والإعلام وغيرها أن يتناولوا من البلاغة ما يسهم في رقي خطابهم؛ ليكون أكثر قبولاً وأعمق تأثيراً.

أسأل الله تعالى أن يكتب لي فيه التوفيق والسداد، وأن يتقبله مني بقبول حسن، والحمد لله رب العالمين.

تهديد

الأول: سياق السورة:

من المقرر عند البلاغيين أن سياق النص مؤثر في تحليله وإدراك خصائص نظمه، سواء كان سياقاً مقالياً داخلياً، أم سياقاً مقامياً خارجياً؛ فإن البلاغة قائمة على مراعاة السياق تحقيقاً للأصل البلاغي: لكل مقام مقال، وما البلاغة إلا: مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال^(١).

ولكي نكشف عن بلاغة النظم القرآني للخطاب الدعوي في السورة لا بد أن نتبين السياق الذي وردت فيه، وستناوله من جانبين: سياق النظم، وسياق النزول.

أ- سياق النظم:

جاءت السورة في النظم بعد سورة "المعارج"، وهي سورة مكية، بينت في مطلعها إعراض كفار مكة عن دعوة الحق واستهزاءهم بها، حتى سألوا العذاب واستعجلوه تهكمًا وتعجيزًا: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١].

ولما كان إعراض الكفار وتهكمهم مما يؤذي النبي ﷺ، ويصيبه بالهم والحزن، ويفت في صبره، أمر بالصبر الجميل: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ ﴿وَنَزَاهُ قَرِيْبًا﴾ [٧-٥]، وهو الصبر الذي لا يشوبه جزع ولا شكوى إلا إلى الله تعالى، كما ورد عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) والحسن البصري (ت ١١٠ هـ)^(٢).

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ١٦٨ و ٤١٥ و ٤٣٢، والإيضاح مع شروح التلخيص: ١٢٢/١، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٤٠٢/١.

(٢) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم، وجامع البيان للطبري، ومعاني القرآن للفراء: عند تفسير سورة يوسف: ١٨. وروي في حديث مرفوع لا يصح عن جبان بن أبي حيلة أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله: ﴿فَاصْبِرْ جَمِيلًا﴾ [يوسف: ١٨] فقال: ((صَبْرٌ لَا شَكْوَى فِيهِ)). أخرجه ابن أبي حاتم والطبري في تفسيريهما، وقال ابن كثير في تفسيره: ((وهذا مرسل)) لأن جبان من التابعين.

ثم بينت السورة ذلك اليوم الذي يسألون عذابه، وما فيه من الأهوال والأحوال، وما أعده الله للمجرمين المكذبين من شديد العذاب: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ الآيات [٢١-٨].

وبيّنت أنه لا نجاة من ذلك العذاب إلا للمؤمنين المصدقين: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ الآيات [٣٥-٢٢].

ثم جاءت خاتمتها إنذارًا ووعيدًا للمكذبين: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ * ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فَدَرَّهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ...﴾ الآيات [٤٤-٣٦].

ثم جاءت بعدها "سورة نوح" لتكون نموذجًا واقعيًا لما جاء في سورة "المعارج" من أمر النبي ﷺ بالصبر والثبات على الدعوة، والإنذار والوعيد لكفار مكة، فعرضت للنبي ﷺ صورة من صور الصبر الجميل والثبات الطويل عند نوح عليه السلام، وعرضت للكفار صورة واقعية لسنة الله ﷻ في حلول الوعيد بمن كذب، وأُنذر فأعرض: ﴿بِمَا خَطِئْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

فوقعت "سورة نوح" موقع الاستدلال والاستظهار لما في "سورة المعارج" (١).

ولعل اختيار قوم نوح عليه السلام لمشاهدة قوم النبي ﷺ لهم في عبادة الأوثان، وسؤال العذاب، كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، وهم مع ذلك أظلم منهم وأطغى، وأشد قوة وأكثر جمعًا، فما أغنت عنهم آلهتهم ولا قوتهم من شيء لما جاء أمر الله، قال البقاعي (ت ٨٨٥هـ): ((لما حُتمت "سأل" بالإنذار للكفار - وكانوا عباد أوثان - بعذاب الدنيا والآخرة، أتبعها أعظم عذاب كان في الدنيا على تكذيب الرسل بقصة

(١) ينظر: البرهان في تناسب سور القرآن: ١٩٥، ونظم الدرر: ٤٢٢/٢٠-٤٢٣، وتناسق الدرر في تناسب

السور: ١٢٩، وروح المعاني: ٦٧/٢٩.

نوح عليه السلام، وكان قومه عباد أوثان، وكانوا يستهزئون به، وكانوا أشد تمردًا من قريش وأجلف وأقوى وأكثر، فلم ينفعهم شيء من ذلك عند نزول البلاء وبروك النعمة عليهم وإتيان العذاب إليهم^(١).

ب- سياق النزول:

التعرف على سياق النزول مما يكشف عن المقام الذي اقتضى أن تكون السورة بالنظم الذي جاءت عليه. وكثير من المدونات التي تناولت نزول السورة تذكر أمرين يتصلان بمقام السورة:

الأول: أن السورة مكية بالاتفاق^(٢)، وهي بذلك تحمل شيئًا من خصائص الخطاب المكي في القرآن الكريم^(٣).

الثاني: أن السورة نزلت بعد سورة النحل، وقبلهما الكهف^(٤).

وليس فيما وقفت عليه من أقوال المفسرين ما يحدد زمن نزول السورة، ولكن الظاهر من سياق السور التي ذكر أنها نزلت قبلها أن السورة جاءت في حال اشتد فيها عناد المشركين وتكذيبهم ومكرهم واستهزأؤهم بالنبي ﷺ وبما جاء به، حتى وجد في نفسه ما وجد من الضيق والحزن، وقد قال الله ﻻﻧﺒﻴﻪ ﷺ في أول سورة الكهف:

(١) نظم الدرر: ٣٢٢/٢٠، وينظر: البحر المحيط: ٣٣٢/٨، والتحرير والتنوير: ١٨٧/٢٩.

(٢) ينظر: تنزيل القرآن لابن زحجة: مجلة معهد الشاطبي، عدد (٢): ٢٦٣، والمحرر الوجيز: ٣٧٢/٥، وروح المعاني: ٦٧/٢٩، والتحرير والتنوير: ١٨٦/٢٩.

(٣) مما ذكر من الخصائص الموضوعية والأسلوبية الغالبة على السور المكية: الاهتمام بتقرير توحيد الله ﻻﻟﻪ ﻻ ﻳﻠﻪ ﻭﺍﻟﻪ ﻫﻮ ﻻ ﻳﻮﺩﻉ ﻟﻪ ﺷﻴﺌﺎ وأصول العقيدة، وذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة، وتسليية النبي ﷺ وتثبيتته، وإنذار المشركين ومجادلتهم، وآيات السجدة، وقصر الآيات، وكثرة أساليب التأكيد والتقرير كالتقسيم والتكرار وضرب الأمثال، والنداء بـ"يا أيها الناس، يا بني آدم"، والافتتاح بالحمد لله، والافتتاح بالحروف المقطعة، وذكر ألفاظ لم ترد إلا فيها مثل ألفاظ: كلاً، الوصف، الخرص، الحنون، الزخرف، الزجر، التضرع، الصور، الصبحة، الوزر والأوزار، سواء وردت بلفظها أم بالاشتقاق المتعلقة بها. ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/١٨٨، والمكي والمدني في القرآن الكريم: ٢٨.

(٤) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٩٩/١، وتفسير القرآن حسب ترتيب النزول: ١٤٩.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقال في آخر سورة النحل: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقد اقتضت هذه الحال تثبيت قلب النبي ﷺ وتسليته، ومن ذلك إنذار المشركين ووعيدهم، فتتابعت هذه السور وغيرها في تسلية النبي ﷺ وإنذار المكذبين، وقد استفتحت سورة الكهف بالإنذار: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَا كَثُرَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١-٥].

وبه استفتحت أيضًا سورة النحل: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ١-٢].

وفي كلا السورتين أمر النبي ﷺ بالصبر، وتسليته في مواجهة قومه ودعوتهم. ثم جاءت في هذا السياق "سورة نوح" لتشعر بمزيد من التثبيت والتسلية للنبي ﷺ والذين آمنوا معه، وبمزيد من الإنذار والوعيد لمن كذبوا وأعرضوا عنه، في سيرة واقعية عن نوح عليه السلام.

ومن خلال ما سبق يتضح أن المخاطب بالسورة اثنان:

- ١- النبي ﷺ تسلياً له ولمن معه من المؤمنين.
 - ٢- المشركون تأكيداً لهم تحقق الإنذار والوعيد.
- وقد حوت السورة بما تضمنته من قصة نوح عليه السلام مع قومه أنواعاً من المخاطبات:

- ١- خطاب الله ﷻ لنوح عليه السلام في الآية الأولى.

- ٢- خطاب نوح عليه السلام لقومه في الآيات (٢-٤، ١٠-٢٠).
- ٣- خطاب نوح عليه السلام لله جل جلاله في الآيات (٥-٢٤، ٢٦-٢٨).
- والبحث يتناول الخطاب الدعوي في السورة، من خلال نوعين من الخطاب:
- ١- خطاب نوح عليه السلام لقومه، وهو خطاب مباشر صريح، كما سردته السورة.
- ٢- خطاب القصة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم وقومه، وهو خطاب تعريضي غير مباشر، مقصود من سرد القصة.

المبحث الأول

الخطاب الدعوي لنوح عليه السلام مع قومه

جاء خطاب نوح عليه السلام لقومه في أربع عشرة آية (٢-٤، ١٠-٢٠) تضمنت ما يأتي من المعاني والأساليب البلاغية التي نظمها:

أولاً: الإخبار بمهمته وحقيقته دعوته لقومه وثمراتها لهم إن حققوها، وبها بدأ الخطاب: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا اللَّهَ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّضْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾.

وجاء مضمون هذا الخبر مؤكداً بياناً، مع النداء بلفظ القوم المضاف إلى ضمير المتكلم، والتقييد بالجار والمجرور "لكم" أي: لأجلكم، مما يفيد الاهتمام بهم، وتقدم المجرور يشعر بمزيد من الاهتمام، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((جمع في صدر دعوته خمسة مؤكدات، وهي: النداء، وجعل المنادى لفظ "يا قوم" المضاف إلى ضميره، وافتتاح كلامه بحرف التأكيد، واحتلاب لام التعليل، وتقدم مجرورها))^(١).

وأكد الخبر لأن المتوقع من المخاطبين الشك والإنكار.

وقد جاء ذكر هذه المهمة مصرحاً بها أيضاً في بدء الخطاب من قصة نوح عليه السلام في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٢٥-٢٦﴾، وذكر خوفه عليهم من العذاب تعليل للنذارة وبيان للداعي إليها.

وكذلك في سورة الأعراف بدء خطابه بحقيقة الدعوة، وإن كان صرح بمهمة الرسالة والتبليغ والإنذار بعد حوار: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا

(١) التحرير والتنوير: ١٨٨/٢٩.

اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿[الأعراف: ٥٩-٦٣].

والإنذار دعوة يصحبها تخويف وتحذير، قال الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ): ((الإنذار: إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبار فيه سرور))^(١)، وهو غالب مع الكافرين والظالمين، كما أن التبشير غالب مع المؤمنين، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مَنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ [الكهف: ١-٤]، وقال سبحانه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحزاب: ١٢].

والرسول يجمع بين النذارة والبشارة: النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين، كما قال الله ﷻ عن النبيين والمرسلين: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، وقال عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال عن كتابه الكريم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مَنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢].

ونوح عليه السلام ذكر في تفسيره للنذارة ما هو بشارة: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٢﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ

(١) المفردات في غريب القرآن: ٤٨٧ مادة (نذر).

أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فقولهُ: ﴿أَنْ اَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونَ﴾ تفسير لقولهُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((و"أَنْ" في "أَنْ اعبدوا" تفسيرية؛ لأن وصف "نذير" فيه معنى القول دون حروفه))^(١). وقولهُ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ الآية، بشارة لهم إن حققوا ما أمرهم به.

لكن وصف نوح ﷺ مهمته في هذه السورة بـ"الندارة" مع أنه يجمع بينها والبشارة؛ لأن الأمر له من الله ﷻ في بدء السورة جاء بالإنذار: ﴿أَنْ أَنْذِرُ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فكان الوصف بالندارة استجابة للأمر بها. ولم غَلِّب الأمر بالندارة؟

لأن من مقاصد سياق السورة - كما سبق - إنذار كفار مكة لما كذبوا وأعرضوا وتعتنوا، تسلياً للنبي ﷺ؛ فكان التركيز على الإنذار. وهذا هو الأصل في قصص الأنبياء التي تساق لتذكير قوم النبي محمد ﷺ بمصير المكذبين من قبلهم، أنهم يُنذرون بمثله.

وبشرهم نوح ﷺ بثمرات الإيمان إن هم أطاعوه فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وهي ثمرات يرغبون فيها تجمع بين خيري الدنيا والآخرة، فالمغفرة ينجون بها من عذاب الدنيا والآخرة، وتأخير الأجل طول بقاء وتمتع في الدنيا، وغبرّ عنهما بالفعل المضارع الذي يدل على تجدد الثمرات ودوامها لهم، وفي ذلك مزيد ترغيب في الإيمان.

لكن نوحاً ﷺ يشعر بأنهم معرضون بعيدون عن الاستجابة لما فيهم من الجهل والإصرار عليه، فيتمنى أن يعلموا: ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، والتمني رغبة في حصول

(١) التحرير والتنوير: ١٨٨/٢٩.

المطلوب، ويغلب أن يكون بعيداً أو مستحيلاً، وحينما يكون التمني بـ"لو" فإن التمني يكون في صورة الممتنع؛ لما تفيده "لو" من الامتناع^(١)، كما قال الله ﷻ عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ زَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨].

ثانياً: الترغيب في استغفار الله وبيان آثاره، وجاء في الآيات (١٠-١٢):
﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

والأمر بالاستغفار هو دعوته لقومه المذكورة قبل هذه الآية: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ﴿تُمْ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿١٠﴾ تُمْ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ فهذا الأمر بالاستغفار هو من القول الذي قاله لهم ليلاً ونهاراً وجهاراً وإسراً^(٢).

ودعوة الرسل هي دعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده واجتناب الإشراك به، وعبر هنا عنها بالاستغفار؛ لأن المقام مقام إنذار لقوم معرضين مستكبرين؛ ففيه إشارة لهم وتذكير بعظم المنكر الذي اقترفوه وشدة عاقبته، مما يستوجب الاستغفار، وحقيقته بالنسبة للمخاطبين هو تحقيق الإيمان الذي به تتحقق مغفرة الذنوب؛ فإن الإيمان يجب ما قبله، ولذا قال في مفتتح السورة: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا رَبَّكُمْ﴾ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ وقال بعد: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ وإنما دعوته لهم ليؤمنوا، لكن الإيمان سبب للمغفرة، ومما يدل على هذا دعاؤه في خاتمة السورة:

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٢٤١/٢.

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ١٩٧/٢٩.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ فجعل المغفرة لمن كان حاله الإيمان. وإنما عبر بالمسبب عن السبب، على سبيل المجاز المرسل؛ ترغيبًا في حصول السبب، وبيانًا لقبح إعراضهم عن عظيم الجزاء^(١).

والأمر بالاستغفار في مقام الدعوة والإنذار من نوح الأنبياء في خطاب أقوامهم، وظهر ذلك في قصص الأنبياء في سورة هود، وقد بدأت السورة به: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ [هود: ١-٣]، وقال هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ [هود: ٥٢]، وقال صالح عليه السلام: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ [هود: ٦١]، وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ [هود: ٩٠]، وفي سورة إبراهيم ذكر الله تعالى بعض الأقوام الذين أرسل إليهم، ثم قال: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴿١٠﴾ [إبراهيم: ١٠]، ونبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال لقومه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ [فصلت: ٦].

والعلاقة بين الإيمان والمغفرة جاء في قول سحرة فرعون حينما هددهم بعد إيمانهم: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ [طه: ٧٣]، ونفى الله تعالى المغفرة عن الكافرين إذا لم يؤمنوا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ [النساء: ١٦٨].

(١) ينظر: الكشاف: ٣٧٤/٦، والمحرر الوجيز: ٣٧٣/٥، والبحر المحيط: ٣٣٢/٨، والدر المنصور: ٤٦٨/١٠

والتحريير والتنوير: ١٩٦/٢٩.

وجاء الترغيب في الاستغفار في خطاب نوح عليه السلام لقومه في ثلاث جمل، تحملها أساليب بلاغية تتأزر لتبلغ بالترغيب غايته، وهو في الوقت نفسه خطاب لقوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

الجملة الأولى جملة إنشائية طلبية فيها طلب الاستغفار: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾، ومن الأساليب البلاغية التي تبرز الترغيب فيها:

مجيء الطلب بصيغة الأمر، وهي تفيد الجزم بحصول المطلوب وشدة الرغبة فيه. ومن ذلك: تخيير لفظ الربوبية في وصف الله تعالى وإضافته إليهم: ربكم؛ وفي هذا تذكير لهم بنعمته عليهم، مما يستوجب استغفاره والإيمان به.

الجملة الثانية جملة خبرية تتضمن وصف الله الذي يُطلب منه المغفرة: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، وفيها من الأساليب البلاغية التي تبرز الترغيب:

تصدير الخبر بـ "إن"، التي تفيد التأكيد، والترغيب يقتضي التأكيد. كما أن من مقتضيات التأكيد في هذه الجملة وقوعها كالجواب عن سؤال ناشئ من جملة الطلب عن علة استغفار الرب تعالى؛ ولذا جاء الخبر مؤكداً من النوع الطلبي، الذي يكون فيه المخاطب ممن يتساءل عن الحكم الذي تضمنته الجملة أو يتردد فيه.

ومن ذلك: مجيء "كان" بصيغة الفعل الماضي، وإن كانت تدل في الأصل على حصول الوصف في الزمن الماضي مع الانقطاع كما هو رأي الأكثر، أو من غير نظر إلى انقطاع أو عدمه عند آخرين، إلا أنها تستعمل كثيراً لإفادة الدوام والاستمرار، وملازمة الصفة للموصوف، مفيدة معنى: لم يزل^(١)، وعليه مجيء "كان" مع صفات الله تعالى؛ لتفيد ملازمتها له منذ الأزل، كهذه الآية وغيرها، قال السيوطي

(١) ينظر: مع الهوامع: ٣٨٠/١، والأفعال في القرآن الكريم: ٤٣/١، و١٢٠٨/٣، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم: ٣٣٣/٨.

(ت ٩١١هـ): ((ومن الدلالة على الدوام: الواردة في صفات الله تعالى، نحو: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، أي: لم يزل متصفاً بذلك))^(١).

وعلى ما سبق من قول في "كان" يكون اجتمع فيها إفادتها لتحقيق المغفرة لمن استغفر، ودوام اتصاف الله ﷻ بها.

ومن الأساليب: تخير صيغة المبالغة في وصف الله ﷻ بالمغفرة: غفار؛ وهي معدول بها عن الوصف باسم الفاعل، الذي يدل على المعنى وصاحبه مجرداً من الدلالة على القلة أو الكثرة والضعف أو القوة، فإذا جاءت صيغة المبالغة دلت على المعنى وصاحبه، وقوة المعنى وكثرته.

والتعبير بصيغة المبالغة "غفار" يفيد الترغيب من وجوه عدة:

منها: تأكيد المغفرة وتقريرها في النفوس؛ لأن صيغة المبالغة قائمة مقام تكرير اسم الفاعل "غافر، غافر، غافر..." والتكرير يفيد التوكيد والتقرير.

ومنها: محبة الله ﷻ للمغفرة والاستغفار؛ لكثرة حصولها منه سبحانه، وكثرة المغفور لهم، والله ﷻ يقول: ﴿وَلِيَّ لَعْفَاً لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، وقال النبي ﷺ: «اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مِنْزِلًا وَبِهِ مَهْلِكَةٌ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَسَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي، فَارْجِعْ فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ»^(٢).

وفي ذلك تعظيم لرجاء مغفرة الله ﷻ في نفوسهم.

ومن الأساليب: مجيء الجملة مفصولة عما قبلها؛ لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً، ولأنها في مقام التعليل للطلب، وجملة التعليل تتصل بالجملة المعللة، وكأنها جواب عن سؤال متضمن في جملة الطلب عن علة استغفار الرب ﷻ. وهذا من

(١) مع الهوامع: ٣٨٠/١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٣٠٨).

النوع الذي يسميه البلاغيون: شبه كمال الاتصال؛ إذا كانت الجملة الأولى متضمنة ما يثير التساؤل فتكون الثانية جوابًا عنه؛ ولذا صدرت بإنّ كما ذكر آنفًا^(١).

والذي يظهر أن هذه الجملة الخبرية ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ في مقام الجملة الأولى من جواب الطلب، أي: استغفروا ربكم يغفر لكم، لكن عدل عن هذا الجواب إلى الجواب بالتركيب المذكور؛ ليتضمن جواب الطلب مع تضمنه الأساليب المذكورة التي تفيد قوة الترغيب في الاستغفار.

الجملة الثالثة مع ما عطف عليها فيها جواب الطلب: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٢٣﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَجَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾، وما فيها يرغّب في الاستغفار:

جميء جواب الطلب بأمر محبوب مرغوبة، تتشوف لها النفوس وتتعلق بها القلوب، من الغيث المدرار والأموال والبنين والجنات والأنهار. ثم إنهم كانوا أهل زراعة فاقحطوا - كما ذكره بعض المفسرين^(٢) - فيقع هذا الجزء منهم موقعًا عظيمًا، فهم أحوج ما يكونون إلى هذه الأمور ليستعينوا بها على القيام بشؤون فلاحتهم وحياتهم، ويكون بها قوام عيشهم واكتسابهم، فكان التعبير بهذا الجزء من مقتضى حالهم وحال النفس البشرية عامة، وروي عن قتادة (١١٨هـ) أنه قال: ((كانوا أهل حب للنديا وتعظيم لأمرها فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يجبوها))^(٣).

ولم يكتف الجزء بالغيث وحده الذي عادة ما يكون به حياة الزرع وإدراار الضرع، فتزداد به الأنعام والأموال والأولاد، بل بُيّن حاله بأنه مدرار؛ دلالة على كثرته وتتابعه، وأُعقب بالإمداد بالأموال والبنين والجنات والأنهار؛ لأن من الأمطار ما

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٥٣/٣.

(٢) ينظر: معالم التنزيل: ٢٣٠/٨، والجامع لأحكام القرآن: ٣٠٢/١٨، والتحرير والتنوير: ١٨٣/٢٩.

(٣) ينظر: المخرر الوجيز: ٣٧٤/٥، والجامع لأحكام القرآن: ٣٠٢/١٨، والبحر المحيط: ٣٣٣/٨.

يغيض في الأرض ولا ينبت به الزرع فلا يكون به قوام الحياة، فبين الله ﷻ أن الغيث المدرار غيث يحصل به النفع العظيم لهم.

ولم يقف الجزاء عند مثل هذا النفع العظيم بل زادهم الله الكريم جزاء بإجراء الأثمار التي يكون بها دوام السقي لأنعامهم وجنائهم، فيدوم لهم النفع والخير بما ينزله الله من السماء وما يجريه في الأرض.

والتعبير عن جزاء الإيمان والاستغفار بطيب الحياة ورغد العيش يتكرر في القرآن، ومن ذلك ما ذكر آنفاً من آيات في أمر الأنبياء لأقوامهم بالاستغفار، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقوله: ﴿وَأَلُو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] (١).

وعبر عن هذه الأمور المحبوبة المرغوبة بالأفعال المضارعة: يرسل، ويمدد، ويجعل؛ لما يفيد المضارع من تجدد حصول الفعل وتكرره واستمرار تجدد (٢)، كما يفيد أيضاً استحضار صورة الفعل في مشاهدة السامع، كأنه يواقعه وينظر إليه (٣)، واستحضار الصورة في هذا السياق يزيد النفس تشويقاً وترغيباً.

ومن ذلك: تخير الألفاظ التي تزيد في ترغيبهم إلى الاستغفار، ومنها:

التعبير بالسماء، والمقصود بها في الآية: السحاب، أو المطر؛ تسمية للشيء باسم مكانه ومصدره، من باب المجاز المرسل. والعرب تعبر بالسماء عن السحاب، وعن المطر؛ لأنه منها يكون، قال في لسان العرب: ((وسُمي المطر سماءً لأنه ينزل من

(١) ينظر: الكشف: ٢١٥/٦، والبحر المحيط: ٣٣٣/٨، والتحرير والتنوير: ١٩٩/٢٩.

(٢) ينظر: شروح التلخيص: ٧٨/٢-٩٠، والتبيان في البيان: ١٧٦/١، والطرز: ٥٢٨، ومواهب الفتاح، ضمن شروح التلخيص: ٣١/٢.

(٣) ينظر: شروح التلخيص: ٨٨/٢، والتبيان في البيان: ١٧٦/١، والطرز: ٢٦٧.

السماء))^(١)، وقال: ((يُسمى العشب أيضاً سماءً؛ لأنه يكون عن السماء الذي هو المطر، كما سُموا النبات ندى؛ لأنه يكون عن الندى الذي هو المطر))^(٢).
والذي يظهر أن استعمال العرب للسماء عن الغيث يكون في مقام الخير والنفع، وجاءت الآية بمثل ذلك.

والذي غلب في القرآن: التعبير بإنزال الماء من السماء، وأما التعبير بإرسال السماء مدراراً فما جاء إلا في آيتين في مقام الدعوة إلى الاستغفار مع نوح ومع هود عليهما السلام، ولعل في هذا التعبير دلالة على كثرة ما ينزل عليهم من الغيث، وكأن السماء نفسها ترسل عليهم بغيثها، وزاد هذه الدلالة تأكيداً صيغة المبالغة في لفظة الحال: مدرار؛ دلالة على كثرة الغيث.

ولعل التعبير بمادة "ر س ل" المقترنة بالإدراج في هذا المقام؛ لأن هذه المادة عند العرب تحمل في دلالاتها معاني الخصب والرخاء والكثرة والإدراج؛ فهم يعبرون بالرّسل عن الخصب والرخاء، واللبن الكثير المتتابع الدر، والرّسيل عن الماء العذب، قال في اللسان: ((والرّسل: اللبن ما كان، وأرّسل القوم فهم مُرسلون: كثر رسلهم، وصار لهم اللبن من مواشيهم... ورَجُلٌ مُرْسِلٌ: كثير الرّسل واللبن والشّرب))^(٣).

ومن ذلك التعبير بالجمع: أموال، وبنين، وجنات، وأنهار؛ تكثريراً لفضل الله عليهم إذا استغفروا واستجابوا.

ومن ذلك: تخصيص البنين بالذكر دون البنات؛ لأن الحاجة إلى البنين في القيام بشؤون المعيشة والرزق أكثر من البنات، كما أن كثيراً من أهل مكة في الجاهلية كانوا يكرهون ولادة البنات كما أخبر الله عنهم، فذكر الله ﷻ في هذا المقام ما يحبون أن يكون لهم من الولد.

(١) لسان العرب: ٣٩٧/١٤، مادة (سما).

(٢) المرجع السابق.

(٣) لسان العرب: ٣٨١/١١ مادة (رسل)، وينظر: مفردات القرآن: ١٩٥، وتاج العروس: ٦٩/٢٩.

ومن ذلك التعبير بالإمداد: يمددكم؛ لما في الإمداد من معنى الإعطاء مع طول الأمد؛ فإن "مدّ" أصلها كما قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): ((جَرَ شَيْءٌ فِي طَوْلٍ، وَاتَّصَلَ شَيْءٌ بِشَيْءٍ فِي اسْتِطَالَةٍ. تَقُولُ: مَدَدْتُ الشَّيْءَ أَمْدُهُ مَدًّا، وَمَدَّ النَّهْرُ، وَمَدَّةُ نَهْرٍ آخَرَ، أَيْ: زَادَ فِيهِ، وَوَاصَلَهُ، فَأَطَالَ مَدَّتَهُ))^(١).

ثم إن التعبير جاء بـ"الإمداد" وليس "المدّ"؛ لأنه أمر محبوب، قال الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ): ((أكثر ما جاء "الإمداد" في المحبوب و"المدّ" في المكروه نحو: ﴿وَأَمْدَدْنَاَهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَحَلِيمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢]، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنٍ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، ﴿وَنُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنٍ﴾ [نوح: ١٢]، ﴿وَنُمِدُّكُمْ بِرُكُومٍ يَحْمَسَةَ الْآفِ﴾ [الآية [آل عمران: ١٢٥]، ﴿أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦]، ﴿وَتُمَدُّ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مرم: ٧٩]، ﴿وَيُمَدُّهُمْ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْعَيْبِ﴾ [الأعراف: ٢٠٢])^(٢). ولعل ما في "الإمداد" من مدّ وتكرار نطق الدال يوحي أكثر باستطالة أمد المحبوب.

ومن ذلك: التعبير بالجعل: يَجْعَلُ. وَالجُعْلُ: ما يُجْعَلُ لِلإنسانِ على الأمرِ يفعلُه، وهو أعم من الأجرة والثواب^(٣). ويتضمن التعبير به في الآية معنى التمليك، ومعنى التصيير؛ فهو يجعلها لهم بعد أن لم تكن كذلك؛ وهذا أبلغ في الترغيب بجرائهم وفي الامتنان عليهم.

ولعل السر في التعبير بـ"الإمداد" للأموال والبنين، و"الجعل" للجنات والأَنْهَارِ: أن الأموال والبنين تذهب ثم يمدون غيرها، وأما الجنات والأنهار فهي باقية لهم دائمة في أرضهم.

(١) مقاييس اللغة: ٢٦٩/٥ مادة (مدّ).

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٤٦٥ مادة (مدّ).

(٣) ينظر مادة (جعل) في: مقاييس اللغة: ٤٦٠/١، والمفردات في غريب القرآن: ٩١.

ومن الأساليب: التقييد بـ"لكم" وتقديمه على المفعول به في الجملتين: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾، وفي هذا إشعار للمخاطبين بالاهتمام وتأکید العطاء لهم وتمليكهم إياه.

ومنها: تكرار "يجعل" و"لكم" في قوله: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾، وفي هذا عدول عن الإيجاز إلى الإطناب، والإيجاز أن يقال: ويجعل لكم جنات وأنهارًا. وفي هذا التكرار مزيد ترغيب بالاستغفار لإظهار كل جزاء بصورة مستقلة، فتعدد لدى المخاطب الجزاءات ويظهر تنوعها، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((وإعادة فعل "يجعل" بعد واو العطف في قوله: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ للتوكيد؛ اهتمامًا بشأن المعطوف؛ لأن الأنهار قوام الجنات، وتسقي المزارع والأنعام))^(١).

ومجيء الوصل عطفًا بالواو يعمق هذا التنوع والاستقلال، فيزيد في الترغيب. والتعبير بالجنات دلالة على كثرة أشجارها وتنوعها؛ فإن الجنة هي البستان الذي كثر شجره حتى صار يستر الأرض، وقيل: لا تكون "الجنة" في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب، فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجنة، وقد تسمى العرب النخيل: جنة^(٢).

والتعبير بالأنهار دلالة على كثرة مائها؛ فإن الأنهار تشق الأرض من كثرة جريانها، كما أن ماءها عذب، فيكتمل انتفاعهم بها لأنفسهم ولزروعهم وأنعامهم.

ثالثًا: الاستدلال بالربوبية على الألوهية، وبإخلاق على البعث، في الآيات (١٣-٢٠): ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾

(١) التحرير والتنوير: ١٩٨/٢٩.

(٢) ينظر مادة (جنن) في: لسان العرب: ٩٢/١٣، وتاج العروس: ٣٧٤/٣٤.

وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْأَلُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿١﴾.

وقد انتقل الخطاب من الأمر بالاستغفار إيماناً بالله وحده لا شريك له إلى الاستدلال بربوبية الله ﷻ على توحيده، ومثل هذا الاستدلال كثير في الخطاب الدعوي في القرآن، ومن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

وبدأ الخطاب باستفهام توبيخي إنكاري: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا تعظمون الله، ولا ترجون ثوابه ولا تخافون عقابه^(١)، وكأن هذا الاستفهام جاء بعد تولي من المخاطبين وإنكار.

وفي بناء هذا الاستفهام من الأساليب البلاغية التي تقرر معناها:

التعبير بصيغة الفعل المضارع: ترجون؛ دلالة على تكرار الفعل منهم وعدم اختصاصه بوقت دون وقت، ولذا جاء النفي بـ"لا" دون غيرها من أدوات النفي؛ وفي هذا مزيد توبيخ لهم وإنكار عليهم^(٢).

(١) ينظر: جامع البيان: ٢٣/٢٩٤، وتفسير القرآن العظيم: ٨/٢٣٣.

(٢) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٤/٣٠١.

تنكير "وقاراً"، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم^(١)، فهم لا يرجون الله أي وقار، والعياذ بالله، وهذا أدمى لتوبيخهم والإنكار عليهم.

تقديم لفظ الجلالة "الله" على "وقاراً"، وهذا التقديم مع كونه مراعيًا لفواصل الآيات إلا أنه مراعي لسياق الخطاب، فالكلام سيق للاستدلال على ألوهية الله ﷻ، وإنكارها هو سبب الإنكار عليهم وتوبيخهم^(٢).

وقد عدل في توبيخهم والإنكار عليهم إلى أسلوب الاستفهام؛ لعظم ما هم عليه من الكفر بالله وإنكار ألوهيته، والاستفهام فيه قوة تنبيه للنفس وإثارة للذهن واستمالة للمخاطب للنظر والتدبر والتأمل؛ فمثل هذا الاستفهام وإن قصد به معان أخرى غير المعنى الأصلي للاستفهام، إلا أن المعنى الأصلي باق، حيث يجول في نفس المخاطب ويتردد فيها، ولعله أن يتجاوب معه فيجيب داخل نفسه ويتبصر ويرجع، فيجمع الاستفهام في مثل هذا المقام بين إرادة الاستفهام وإرادة معانيه.

وحصل بهذا الاستفهام حسن الانتقال من الأمر بالإيمان والاستغفار إلى الاستدلال عليه، ثم بين ما هم عليه من حال نعمة الله ﷻ عليهم وربوبيته لهم التي تستوجب الإيمان به وحده.

وتضمن هذا الخطاب التذكير بأربعة أدلة:

الدليل الأول: خلقهم أطوارًا: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۖ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

وتضمن هذا الدليل أمرين: خلقهم، وتطور خلقهم بأن جعله أطوارًا، أي: حالاً بعد حال من كونه نطفة إلى تمام خلقه، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۖ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا

(١) ينظر: عروس الأفراح: ٣٥٤/١.

(٢) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٣٠١/٤.

الْعَلَقَةَ مُضَعَّةً فَخَلَقْنَا الْمُضَعَّةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿المؤمنون: ١٢-١٤﴾.

والاستدلال بخلق الإنسان وتطوره على الإيمان بالله والبعث بعد الموت كثير في القرآن، من ذلك: قول الله ﷻ: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿١٠﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف: ٣٧-٣٨]، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضَعَّةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آخِلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدِّدْ إِلَىٰ أَزْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿١٢﴾﴾ [الحج: ٥-٧].

وجاء من الأساليب البلاغية التي تقرر دليل نعمة الله عليهم بالخلق:

التعبير بلفظ الجلالة "الله" في سياق تعداد النعم التي هي أُلصق بوصف الربوبية؛ لكن لما لم يكن المقصود هو مجرد الإخبار عن تلك النعم، وإنما الاستدلال بها على الألوهية، كان ذكر لفظ الألوهية تعريضاً بأن الذي حصل منه تلك النعمة العظيمة أحق بالألوهية وحده.

ومن ذلك: الإخبار عن الخلق بالفعل الماضي. وإن كان يدل على حصول الحدث في الزمن الماضي إلا أن سياقه هنا للإشعار بتحقيق حصول النعمة عليهم. وأكد الخبر بـ"قد": ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، و"قد" تأتي مع الفعل الماضي لتأكيد تحققه.

الدليل الثاني: خلق السماوات وما فيهن: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا خَلَقْنَا اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلْنَا الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١١﴾﴾.

انتقل من دليل خلقهم إلى خلق السماوات وما فيهن من كواكب مشاهدة لهم، وهو انتقال من الأدنى إلى الأعلى على سبيل الترقى، وقد قال الله ﷻ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [إعراق: ٥٧]، قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): ((نبههم على النظر في أنفسهم أولاً؛ لأنها أقرب منظور فيه منهم، ثم على النظر في العالم وما سوي فيه من العجائب الشاهدة على الصانع الباهر قدرته وعلمه من السموات والأرض والشمس والقمر))^(١).

وتضمن هذا الدليل ثلاثة أمور:

الأول: خلق السماوات سبعاً طباقاً.

الثاني: جعل القمر نوراً فيهن.

الثالث: جعل الشمس سراجاً فيهن.

والاستدلال بخلق السماوات وما فيهن على ألوهية الله ﷻ كثير في الخطاب الدعوي في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنذِرَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَفَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢]، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا زُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٣-٥].

(١) الكشف: ٢١٦/٦، وينظر: البحر المحيط: ٣٣٤/٨، والتحرير والتنوير: ٢٠٢/٢٩.

وجاء تقرير هذا الدليل في خطاب سورة نوح عليه السلام بأساليب بلاغية عدة، منها: عرض الدليل بصيغة الاستفهام: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾، وهو استفهام تقرير، يراد به حمل المخاطب على الإقرار بأمر قد استقر عنده^(١)، وفيه معنى التوبيخ لهم والإنكار عليهم عدم الانتفاع بما يعلمونه مما يدل على الله القدير.

ومع ما في الاستفهام من معاني التقرير والتوبيخ والإنكار إلا أنه لم يخل من المعنى الأصلي للاستفهام، كما قيل في الاستفهام السابق.

والرؤية في الآية تتعلق بما هو علمي وما هو بصري، أما العلمي فخلق السماوات سبعا طباقاً، وهم لا يرون إلا السماء الدنيا، وأما البصري فالقمر والشمس والسماء الدنيا، ولذا يصح أن تكون الرؤية علمية بصرية، وعُبر عن العلم القلبي بالرؤية تنزيلاً له منزلة العلم البصري؛ لتحقيق اليقين فيه^(٢).

والتعبير بالأفعال الماضية (خلق، جعل، جعل) في هذا السياق يدل على تحقق حصول الأفعال.

وعُبر بـ "جعل" مع القمر والشمس، مع أنهما مخلوقتان كالسماوات، فلم يعبر عنهما بالخلق مثلها؛ ولعل ذلك لما في نور القمر وضياء الشمس من المنافع لهم؛ ولهذا ذكرتا دون غيرها من الكواكب، والجعل مع ما فيه من معنى الخلق والتصيير إلا أن فيه معنى العطاء والتملك كما سبق، فما في القمر والشمس من النور والضياء جعل لهم عطاء ومنة من الله ﷻ، وهذا مما يزيد من وقع التوبيخ والإنكار عليهم. قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((وقد اجتمع في قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ استدلال وامتنان))^(٣).

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٢٩٤، وأساليب الطلب: ٤٢٤.

(٢) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم: ٤/٣٠١.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٩/٢٠٤.

وكرر الفعل "جعل" مع القمر والشمس: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾، وهذا عدول عن الإيجاز إلى الإطناب؛ لما يقتضيه المقام من إظهار كل نعمة بصورة مستقلة، وفي ذلك مزيد تقرير وتأكيد لعظمة الله وقدرته وعظم نعمته عليهم في مقابل إعراضهم وإنكارهم.

ووصل الجمل بالواو يعمق التقرير ويزيد في التوبيخ والإنكار.

ومن بديع النظم القرآني: التعبير عن القمر بالنور والشمس بالسراج.

ووصف القمر بالنور وهو منير، كما قال الله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((والإخبار عن القمر بأنه نور مبالغة في وصفه بالإنارة بمنزلة الوصف بالمصدر. والقمر ينير ضوءه الأرض إنارة مفيدة بخلاف غيره من نجوم الليل فإن إنارتها لا تجدي البشر... وفي جعل القمر نورًا إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته؛ فإن القمر مظلم، وإنما يستضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه، بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعض وتمام، هو أثر ظهوره هلالاً ثم اتساع استنارته إلى أن يصير بدراً، ثم ارتجاع ذلك، وفي تلك الأحوال يضيء على الأرض إلى أن يكون المحاق))^(١).

وأما الشمس فعبر عنها بالسراج، وهو ((المصباح الزاهر الذي يُسْرَجُ بالليل))^(٢). وشبهت الشمس به؛ لما فيه من الإضاءة والتوهج، وهو تشبيه بليغ حذف منه الأداة ووجه الشبه؛ مبالغة في وصف الشمس بالضياء، فأعطيت اسم السراج مع وصفه، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((جعلت الشمس سراجاً لأنها ملتبهة وأنوارها ذاتية فيها صادرة عنها إلى الأرض وإلى القمر، مثل أنوار السراج، تملأ البيت وتلمع أواني

(١) المرجع السابق: ٢٩/٢٠٣-٢٠٤.

(٢) لسان العرب: ٢/٢٧٩.

الفضة ونحوها مما في البيت من الأشياء المقابلة»^(١)، وقال: ((وإخبار به عن الشمس من التشبيه البليغ، وهو تشبيهه، والقصد منه: تقريب المشبه من إدراك السامع؛ فإن السراج كان أقصى ما يستضاء به في الليل، وقل من العرب من يتخذه، وإنما كانوا يرونه في أديرة الرهبان أو قصور الملوك وأضرابهم))^(٢).

وقد وصفت الشمس بالضياء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، ويرى ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) أن إثار لفظ السراج في هذه السورة دون الضياء كما في سورة يونس لعله ((لمقاربة تعبير نوح في لغته، مع ما فيه من الرعاية على الفاصلة؛ لأن الفواصل التي قبلها جاءت على حروف صحيحة، ولو قيل: ضياء، لصارت الفاصلة همزة، والهمزة قريبة من حروف العلة، فيثقل الوقف عليها))^(٣).

أما مراعاة الفاصلة فهو ظاهر؛ ولعل ذلك كان سبباً أيضاً في تقلص ذكر القمر على الشمس بخلاف المواضع الأخرى في القرآن كقوله ﷻ: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ١-٢]، كما أن في التقلص مراعاة للترقي من الأدنى إلى الأعلى الحاصل في الاستدلال بالخلق، فكان الترقي من خلق الإنسان إلى خلق ما هو أعظم منه: السماوات، ثم من خلق القمر إلى ما هو أعظم منه: الشمس. والشمس أعظم من القمر خلقة وإنارة؛ ولذا توصف الشمس بالضياء والسراج الوهاج لقوة إنارتها وانتشارها، بخلاف القمر فإنه نور، ولا يلزم من النور الإنارة، ونوره الحاصل من الشمس لمعرفة حساب الأيام، وإنارته تنير شيئاً من الظلمة، ولا تذهبها، وليست دائمة كل الشهر، وليست متوهجة، وإلا أصبح الليل كالنهار، والليل نعمة للسكون والنهار نعمة لابتغاء المعيشة، كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ

(١) التحرير والتنوير: ٢٩/٢٠٤.

(٢) المرجع السابق: ٢٩/٢٠٣.

(٣) المرجع السابق.

سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٍ أَفْلا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفْلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمَنْ رَحْمَتِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

وأما التعليل بمقاربة لغة نوح فتعليل بأمر غير معلوم، والخطاب القرآني منظوم بلغة العرب مخاطبًا به العرب، وخطاب نوح وإن كان موجهاً في الأصل لقومه إلا أنه في سياق نزوله مقصود به قوم النبي محمد ﷺ، ولذا نزل بلغتهم.

والذي ظهر لي أن الشمس إذا ذكرت مع السماوات وصفت بالسراج، وذلك في ثلاث آيات: هذه الآية على التشبيه البليغ، وآيتين على الاستعارة، هما: قوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ [النبأ: ١٢-١٣]. وإذا لم تذكر معها وصفت بالضياء، ولم ترد إلا في آية يونس السابقة، وقد قرن بها ذكر اختلاف الليل والنهار، ولعلها مع النهار أنسب بوصف الضياء، ومع السماوات تصور كالسراج معلقًا وهو مضيء وهاج.

والاستدلال بالشمس والقمر على ألوهية الله ﷻ وارد بكثرة في الخطاب القرآني، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِعَمْرِ غَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، وقوله: ﴿وَلَعِنَ سَاءَ لَثْمُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

الدليل الثالث: خلق أصل الناس من الأرض: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

انتقل من دليل القدرة والمنة في خلق السماوات وما فيهن إلى دليل القدرة والمنة في خلق الأرض وما فيها، واستدعى ذكر الأرض التذكير بخلق الإنسان من ترابها، ثم عودته إليها ميتاً، وبعثه منها بعد ذلك، فأدمج الاستدلال على البعث مع الاستدلال على الألوهية.

ولما سبق دليل الإنشاء من الأرض، وهو أمر مقرر، استدعى ذكر الرجوع إليها بالموت، وهو أيضاً مقرر، ثم أخبر عن البعث بعده، وهو منكر عندهم؛ فجاء الإخبار عنه مؤكداً بالمصدر، للدلالة على أنه أمر واقع لا محال، وإذا كان الله قادراً على أن ينشئهم فكذلك يعيدهم، كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿أَوَّمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٢١﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧-٧٩].

ومما جاء من أساليب بلاغية لتقرير الاستدلال:

إظهار لفظ الجلالة والأصل الإضمار، وفي هذا الإظهار تقرير لألوهية الرب ﷻ، وزاد ذلك تأكيداً وتقريباً واهتماماً بتقديم لفظ الجلالة.

وعُبر عن الإنشاء بالإنبات، وهو في الأصل يقال في النبات دلالة على إخراجها ونمائها، قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): ((النون والباء والتاء: أصل واحد يدل على نماء في مزروع. ثم يستعار)) ومما ذكره من الاستعارة: ((يقال: إن في بني فلان لنباتة شر.

ونبتت لبني فلان نابتة: إذا نشأ لهم نشء صغار من الولد))^(١)، وبعد أن ذكر الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) حقيقة النبت والنبات وأنه ما يخرج من الأرض من الناميات، قال: ((ومتى اعتبرت الحقائق فإنه يستعمل في كل نام؛ نباتاً كان، أو حيواناً، أو إنساناً، و"الإنبات" يستعمل في كل ذلك))^(٢). ومما ورد استعماله في غير المزروع قول الله ﷻ عن مريم عليها السلام: ﴿وَأُنْبِتْهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، وهذه الآية في سورة نوح: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾.

واستعارة لفظ الإنبات لإنشاء الخلق لما بينهما من المشابهة في النماء والتكوين من الأرض. والإنبات من الأرض ملحوظ فيه أصل خلق أدينا آدم ﷺ؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، والتذكير بأصل خلق الإنسان من التراب وتعميمه على البشر جميعاً يتردد في القرآن، كما في قول الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [فاطر: ١١]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [غافر: ٦٧]، ويكثر في مقام الاستدلال على البعث بعد الموت، كما في بعض الآيات السابقة، ولعل التعبير بالإنبات من الأرض في سورة نوح يتناسب مع ذكر البعث في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾؛ والقرآن يستدل بإنبات النبات على البعث كما في قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَجْرٍ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنَقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَحْسَنِ مَسْمًى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِحَيْجِ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٥-٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ

(١) مقاييس اللغة: ٣٧٨/٥ مادة (نبت).

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٤٨٠ مادة (نبت).

آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ [فصلت: ٣٩].

ومما يدل على مراعاة الاستدلال على البعث في التعبير بالإنبات تأكيده بالمصدر: إخراجًا، كما أكد الإنبات به: نباتًا، أما الإعادة إلى الأرض فلم تؤكد، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((و"نباتا": اسم من أنبت، عومل معاملة المصدر فوقع مفعولاً مطلقاً لأنبتكم؛ للتوكيد... وقد أدمج الإنذار بالبعث في خلال الاستدلال، ولكونه أهم رتبة من الاستدلال عليهم بأصل الإنشاء عطفت الجملة ب"ثم" الدالة على التراخي الرتي في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾؛ لأن المقصود من الجملة هو فعل ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾، وأما قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ فهو تمهيد له. وأكد ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ بالمفعول المطلق لرد إنكارهم البعث))^(١).

وعبر عن الإنبات بالفعل الماضي؛ للدلالة على تحقق حصول الفعل، وتمكينه في النفس، وفي هذا تقرير للاستدلال.

وأما الإعادة والإخراج فعبّر عنهما بالفعل المضارع: يعيدكم، يخرجكم؛ لأنهما في المستقبل، ولأن السياق لتقرير دليل القدرة والمنة في خلق الأرض وخلقهم، وجاء الحديث عنهما تبعاً.

الدليل الرابع: بسط الأرض للخلق: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿٦٠﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٦١﴾﴾.

امتن الله ﷻ على خلقه ببسط الأرض ومهداها لسهولة الانتفاع منها، واتخاذ الطرق الواسعة والمختلفة للسير فيها، وقد جاء مثل هذا الامتنان في آيات أخرى، كقوله ﷻ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٦٢﴾ كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

(١) التحرير والتنوير: ٢٩/٢٠٤-٢٠٥.

لَا يَأْتِ لِأُولِي النَّهْيِ ❁ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٣-٥٥﴾، وقوله: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ❁ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٩-١٠]، وقوله: ﴿أَلَمْ نُجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ: ٦].

وجاء من الأساليب البلاغية التي تقرر هذه المنة:

إظهار لفظ الجلالة والأصل الإضمار، وقد جاء الإظهار مع كل جملة تتضمن نعمة يستدل بها على ألوهية الله ﷻ، وفي هذا التكرير مع الإظهار تقرير للألوهية، وتأکید بأن كل نعمة كافية للدلالة على وحدانية الله وتعظيمه، فكيف إذا اجتمعت تلك النعم! والتعبير عن حصول النعمة بالفعل الماضي (جعل) يدل على تحقق حصول الفعل. والتعبير بالجعل كما سبق فيه معنى التصيير والتخليق والعطاء، فهو سبحانه ما فعل ذلك إلا لهم، ولذا قدم الجار والمجرور متعلق بالجعل: لكم؛ لبيان أن هذه النعمة من أجلهم. وفي المقابل عبر عن انتفاعهم بالفعل المضارع: لتسلخوا؛ دلالة على دوام هذه النعمة وتجدد انتفاعهم منها.

وفي هذا مزيد تقرير لمنة الله لهم، ومزيد توبيخ لهم على عدم تعظيمهم له وقد أنعم عليهم.

وشبهت الأرض بالبساط تشبيهاً بليغاً حذف منه الأداة ووجه الشبه، وكان الأرض هي بساط حقيقة؛ تقريراً وتقريباً لمنة الله عليهم، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((البساط: ما يفرش للنوم عليه والجلوس من ثوب أو زربية، فالإخبار عن الأرض ببساط تشبيه بليغ، أي كالبساط، ووجه الشبه: تناسب سطح الأرض في تعادل أجزائه، بحيث لا يوجع أرجل المشاة، ولا يُقَضُّ جنوب المضطحين))^(١).

(١) التحرير والتنوير: ٢٩/٢٠٦.

المبحث الثاني

الخطاب الدعوي بالقصة

من أكثر الأساليب الدعوية حضورًا في القرآن الكريم القصة، وقيل أن تجد سورة لا تحمل في طياتها قصة من قصص الماضي أو المستقبل؛ ويأتي القرآن بها لما فيها من تقرير المعاني والتأثير في النفوس.

ومن طبع البشر أنهم يميلون إلى سماعها وقراءتها وروايتها وتتبعها ومشاهدتها في الواقع، ويشعر المتلقي لها أنه يعيش أحداثها؛ فيتفاعل معها ومع شخصياتها، وكأنه جزء منها ومنهم، يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم، ويود لو يحسن لشخصية تحتاج الإحسان أو يبطش بأخرى تستحق البطش، ولذا تتسلل المعاني والقيم وتتغلغل في نفوس القراء والمستمعين والمشاهدين من حيث لا يشعرون، وقد قال الله ﷻ: ﴿لَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْخَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْعَافِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وأمر الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ بالقص فقال ﷻ: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وجاءت سورة نوح عليه لتعرض خلاصة سيرته وتجربته في دعوة قومه، من خلال

أسلوب قصصي، نتناوله كما يأتي:

أغراض القصة:

تهدف القصص في القرآن إلى تحقيق عدة أغراض، من أهمها: تثبيت قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين في صراعهم مع الباطل وأهله. ومنها: إنذار الكافرين بمصير الأمم المكذبة لرسولها، وبين هذين الغرضين أغراض أخرى حسب كل قصة، ويدل على

ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿٢﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿٣﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤﴾﴾ [هود: ١٢٠-١٢٣]، وقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥﴾﴾ [هود: ٤٩].

ولا تخرج قصة نوح في هذه السورة عن ذنوب الغرضين، فهي بهذا العرض الموجز للسيرة الدعوية تهدف إلى إنذار قوم النبي ﷺ الذين أعرضوا عنه وكذبوه وآذوه؛ فيرون في قوم نوح ﷺ سنة الله ﷻ في أهل الإعراض والتكذيب والعصيان.

وهذا الغرض مقصد للقصة فيما يظهر من سياق السورة النظمي والنزولي، وفيما يظهر من الأساليب التي جاءت عليها من أول السورة إلى خاتمتها، وقد قال الله ﷻ في أول السورة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا يُغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾﴾ [نوح: ١-٤]، وفي آخر السورة بين عاقبة مكرهم وضلالهم: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿١﴾﴾ [نوح: ٢٥]. قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((أعظم مقاصد السورة ضرب المثل للمشركين بقوم نوح وهم أول المشركين الذين سلط عليهم عقاب في الدنيا، وهو أعظم عقاب، أعني: الطوفان. وفي ذلك تمثيل لحال النبي ﷺ مع قومه مجاهم))^(١).

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٨٦/٢٩.

ويتعلق هذا الغرض بمقصد أساس للقصة وهو تسلية النبي ﷺ في مواجهة قومه وإعراضهم عنه وأذيتهم له؛ فما أصاب قوم نوح ﷺ لما أعرضوا واستكبروا سيصيب قومه إذا أعرضوا واستكبروا، وسينجيح الله ﷻ والذين آمنوا معه من كيدهم ومكرهم كما نجى نوحًا والذين آمنوا معه.

وفي القصة تعريض للنبي ﷺ بالافتداء بنوح ﷺ في دعوته وصبره، فإذا كان نوح ﷺ قد صبر طويلاً على مكر قومه وإعراضهم عنه، صبر ألف سنة إلا خمسين عامًا، فالنبي ﷺ أولى بالصبر، وهذا غرض من أغراض القرآن الكريم في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، قال القرطبي (٦٧١هـ): ((ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي ﷺ تنبيهًا له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم))^(١).

وقد أمر الله ﷻ رسوله ﷺ بالافتداء بأولي العزم من الرسل في الثبات والصبر فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يهتدي في دعوته بسنة الأنبياء والرسل من قبله ويتبع سيرتهم، قال سبحانه بعد أن ذكر جملة من الأنبياء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ آفَقْتَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال في إبراهيم ﷺ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمَا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية [المتحنة: ٤]، ثم أكد ﷻ الحث على الافتداء بعد ذلك فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ...﴾ الآية [المتحنة: ٦].

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٩٧/١١.

عناصر القصة:

أ- مشاهد القصة:

تضمنت القصة المشاهد الآتية:

مشهد البداية: تكليف نوح عليه السلام بالرسالة.

بدأت القصة في الآية الأولى بمشهد تكليف نوح عليه السلام بالرسالة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهي بداية مؤكدة توجز في آية واحدة عناصر الرسالة: المرسل: الله تعالى، والرسول: نوح عليه السلام، والمرسل إليه: قومه، ومضمونها: الإنذار، وصيغتها ونصها: الأمر ﴿أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وجاء التعبير عن الله تعالى بضمير العظمة: إنا، وأسند الإرسال إليه: أرسلنا، وفيه تنويه بشأن الرسالة وتشريف للمرسل بها وامتنان عليه. وهو المطرد في القرآن أن يأتي الإرسال مسنداً إلى ضمير العظمة، ويكاد يكون هو الأصل في التعبير عن الرب وأفعاله تعالى إلا في مقام الوجدانية؛ فإن الأصل أن يأتي الضمير بالإنفراد، كما في سورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما.

وتقدم ضمير العظمة وهو مسند إليه على الخبر الفعلي في حال الإثبات يفيد في هذا السياق مزيداً من التأكيد والتقدير؛ ليس تأكيد الخبر وتقدير حقيقته فحسب، ولكن تأكيد المقصد من سياق الخبر وتمكينه في نفس الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وفي نفوس قومه المكذبين؛ فإن الذي أرسل محمداً هو الله الملك العظيم الذي له كمال القدرة والجبروت، وهذا فيه مزيد تسلية وتأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة قومه، وفيه إشعار بعظم الإنذار على تكذيب الرسول؛ لأن الرب العظيم الذي أرسل نوحاً ونصره على قومه الذين كذبوه هو الذي أرسل محمداً وسينصره على قومه إن كذبوه.

ودخول حرف التوكيد "إن" على المسند إليه المقدم -ضمير العظمة "نا"- يعمق ما فيه من تعظيم وتقدير، وكان التأكيد لإسناد الإرسال إلى الله العظيم، لا تقييد

الإرسال بنوح عليه السلام فحسب، ولو كان التأكيد للإرسال لقدم فعل الإرسال مسبقاً بالمؤكّد كما في قوله عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩].

والتعبير بلفظ "القوم" مضافاً إلى نوح عليه السلام: "قومه، قومك" فيه معان:

الأول: حض نوح عليه السلام على المبادرة إلى الدعوة وتبليغ الرسالة والصبر عليها حرصاً على هداية قومه ونجاتهم؛ فإن قوم الرجل: شيعته وعشيرته^(١)، وفي هذا تعريض للرسول محمد عليه السلام بالصبر على دعوة الناس عامة ودعوة قومه خاصة.

الثاني: أن قوم النبي أولى الناس بمشايعته واتباعه ومناصرته.

الثالث: أن كوزهم قوم النبي عليه السلام لا يمنع عقوبة الله عليه السلام لهم إذا عصوه.

وفي هذين تعريض لقوم النبي محمد عليه السلام، ولهذا لما أنزل الله عليه السلام على رسوله عليه السلام: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] نادى قومه حتى اجتمعوا له فقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرَوْا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ؛ لَا أَعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا...». وقال: «إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»^(٢).

ولعل تقرير هذه المعاني وتأكيدهما اقتضى إظهار لفظ القوم الثاني: ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ والأصل الإضمار: أنذرهم. وقال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((وعُدِلَ عن أن يقال له: أنذر الناس، إلى قوله: ﴿أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ إلهاباً لنفس نوح؛ ليكون شديد الحرص على ما فيه نجاتهم من العذاب، فإن فيهم أبناءه وقرابته وأحبته))^(٣)، والنبي يرسل إلى قومه خاصة، بخلاف نبينا محمد فإنه أرسل إلى الناس كافة، ولذا جاء في حقه الأمر بإنذار الناس: ﴿أَكَاَنَّ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

(١) ينظر في مادة (قوم): لسان العرب: ٤٩٦/١٢.

(٢) أخرجه البخاري: (٢٦٠٢ و ٤٤٩٢)، ومسلم (٢٠٦ و ٢٠٨).

(٣) التحرير والتنوير: ١٨٧/٢٩.

والتعبير بالإنذار سبق بيانه من قبل، وقال في الظلال: ((والحالة التي كان قوم نوح قد انتهوا إليها، من إعراض واستكبار وعناد وضلال... تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته، وأول ما يفتتح به الدعوة لقومه، الإنذار بعذاب أليم في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً))^(١).

وإسناد الإتيان إلى العذاب مع تنكيه ووصفه بالأليم بصيغة فعيل المشعرة بالمبالغة وملازمة الألم للعذاب فيه تهويل له ولوعيدهم. وهذه البداية توحى من أول القصة بغرضيها: التثبيت والإنذار؛ فهي تحمل شحنة هائلة بتسلية النبي محمد ﷺ، كما تحمل رسالة قوية بإنذار قومه.

المشهد الثاني: مشهد تبليغ الندارة والدعوة.

وجاء هذا المشهد في الآيات من الثانية إلى الرابعة، وتضمنت استحابة نوح ﷺ لأمر الله له، وتوجهه إلى قومه بالنداء مخبراً إياهم بمهمته وحقيقة دعوته لقومه وثمراتها لهم إن هم حققوها: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا يُغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

وسبق بيان ما فيها من أساليب بلاغية في المبحث الأول.

المشهد الثالث: مشهد إصرار نوح على دعوة قومه في مقابل إصرارهم على

الإعراض عنه.

وجاء في الآيات من الخامسة إلى العشرين، يرويها نوح ﷺ مخاطباً ربه وهو العليم به ﷻ، وتضمن المشهد أمرين:

الأول: تنويع نوح ﷺ في وسائل الدعوة وأوقاتها، ما بين ليل ونهار: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٢٠﴾﴾، وجهار وإسرار: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهْرًا ﴿٢١﴾﴾ ثم إنِّي

(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٧١.

أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴿١﴾، مع ترغيب وترهيب، وتذكير بنعم الرب عليهم في أساليب بلاغية متنوعة، كما سبق بيانها في المبحث الأول.

وهو تنويع يشعر بحرص نوح عليه السلام على دعوة قومه وإصراره عليها في مقابل إصرارهم على الإعراض عنها.

والتعبير بـ"ثم" يشعر بطول أمدتهم معهم، واستغراق كل أسلوب من الأساليب التي سلكها في دعوتهم.

الثاني: إعراض قومه عن دعوته: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٢﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴿٣﴾.

وهو إعراض شديد، يصوره نوح عليه السلام بصورة شتى:

منها قوله: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده^(١)؛ فإن قوله: فلم يزيدهم دعائي، بعد قوله: إني دعوتهم ليلاً ونهاراً، يشعر بأنهم قريبو الاستجابة؛ لأن الدعوة بعد الدعوة تزيد المدعو قرباً وليئناً، لكن التعبير يفاجئنا بأن قومه لا يزدادون بدعوته شيئاً أبداً إلا الإعراض: فلم يزيدهم دعائي إلا فراراً، وعبر عن ذلك بصيغة القصر تأكيداً لحالهم.

وإسناد الزيادة إلى الدعوة مجاز إسنادي (عقلي) من إسناد الشيء إلى سببه، وفيه تصوير لشدة إعراضهم عن الحق، وأن موقفهم من نوح عليه السلام ليس لذاته وإنما لدعوته^(٢).

والتعبير بالفرار فيه دلالة على شدة إعراضهم، ويصور حالهم حينما يريد نوح عليه السلام أن يدعوهم وهم يسلمون أرجلهم للريح هرباً؛ حتى لا يسمعوا دعوته ولا يستجيبوا لها.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٩٤/٢٩.

(٢) ينظر: الكشف: ٢١٤/٦، والبحر المحيط: ٣٣٢/٨.

ومنها قوله: ﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾، وفي هذا التعبير إيغال في تصوير إعراضهم بعد أن وصفهم بالفرار إعراضًا عنه^(١).

وجعل الأصابع في الآذان كناية عن الإعراض، وهم قد يفعلون ذلك حقيقة، لئلا يسمعو نوحًا عليه السلام^(٢). ومبالغة في تصوير شدة إعراضهم غَيْرَ بالإصبع، والذي يدخل في الأذن بعضه، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((وأطلق اسم الأصابع على الأنامل على وجه المجاز المرسل بعلاقة البعضية، فإن الذي يُجعل في الأذن الأتملة لا الأصبع كله، فغير عن الأنامل بالأصابع للمبالغة في إرادة سد المسامع، بحيث لو أمكن لأدخلوا الأصابع كلها))^(٣).

ولم يكتفوا بصم آذانهم عن السماع بل بالغوا في الأعراض حتى غطوا أنفسهم بثيابهم لئلا يسمعو ولا يروا، وليعلموا نوحًا أنهم لا يريدون أن يسمعو منه شيئًا: ﴿وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾، والاستغشاء: التغطية، وفي لسان العرب: ((استغشى ثيابه وتغشى بها: تغطى بها؛ كي لا يرى ولا يسمع))^(٤). وقد يأتي التعبير باستغشاء الثياب كناية عن الإعراض وإن لم يكن ثمة استغشاء، وقد يراد مع الكناية حقيقة الفعل.

والتعبير بحرف الطلب "الألف والسين والتاء" في "استغشوا" يصور رغبتهم الشديدة في التغطية إعراضًا، وكأنهم يطلبون ذلك من ثيابهم. كما أن التعبير يشعر بأنهم يطلبون تغطية أبدانهم جميعها وليس مواضع أعينهم وآذانهم في وجوههم ورؤوسهم؛ وفي ذلك تصوير لشدة إعراضهم.

وفي قوله: ﴿وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ مزيد إيغال في تصوير إعراضهم، والإصرار: الثبات على فعل الشيء مع شدة العزم على ملازمته وعدم الرجوع عنه^(٥)،

(١) "الإيغال" عند البلاغيين هو: ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم أصل المعنى بدونها. وينظر: شروح التلخيص:

٢٢٤/٣، ٢٢٠/٣.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٣٧٣/٥، والبحر المحيط: ٣٣٢/٨، والتحرير والتنوير: ١٩٥/٢٩.

(٣) التحرير والتنوير: ١٩٥/٢٩.

(٤) لسان العرب: ١٢٦/١٥ مادة (غشا).

(٥) ينظر: المرجع السابق: ٤٥٠/٤ مادة (صر).

كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، قال ابن عطية (ت ٥٥٤٢هـ): ((وأكثر استعماله في الذنوب))^(١).

ثم وصفهم بالاستكبار: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ وهو أبلغ من "التكبر" لما يشعره حرف الطلب "الألف والسين والتاء" من تصوير رغبتهم في الكبر وطلبهم له. وأكد فعل الاستكبار بالمفعول المطلق دلالة على تمكنه منهم، وهو كبر عظيم، كما أفاده تنكير "استكبارًا"^(٢).

والتعبير بصيغة الماضي (جعلوا، واستغشوا، وأصروا، واستكبروا) دلالة على تحقق حصول هذه الأفعال منهم.

وقول نوح: كلما دعوتهم، يدل على أنها أفعال مستمرة معهم، تتكرر مع تكرر دعوته لهم. وفيه إشارة إلى إصرار نوح ﷺ في دعوته، إذ لا يوهنه إعراضهم من أول مرة بل يكرر عليهم وينوع في أساليبه معهم^(٣).

ويأتي خطابه لله ﷻ مؤكداً بـ"إن"، ونوح يعلم أن الله به عليم خبير، لكنه التأكيد الذي يرجع إلى المتكلم لا إلى المخاطب؛ ليكشف ما في نفس نوح من الرغبة في بيان قيامه بما أمره ربه من الدعوة والإنذار واجتهاده في ذلك أيما اجتهاد في مقابل إعراضهم واستكبارهم؛ ليعلل بعد ذلك بأسه من استجابتهم وإيمانهم.

المشهد الرابع: مشهد اليأس من استجابة الكافرين والدعاء عليهم.

في المشهد السابق يعرض نوح ﷺ إصراره على الدعوة مع شدة إعراض من كفر من قومه لعلهم يتقون، لكنه في النهاية أيس من استجابتهم وأدرك أنهم لا يؤمنون، فتوجه إلى الله ﷻ بهذا القول: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا هَسَارًا ﴿١﴾ وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَئُوسَ وَثَعْلُوقَ وَنَسْرًا ﴿٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٤﴾﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٥﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنَاهُمْ

(١) المحرر الوجيز: ٣٧٣/٥، وينظر: لسان العرب: ٤٥٠/٤.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٩٦/٢٩.

(٣) ينظر: البحر المحيط: ٣٣٣/٨.

يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٤٠﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٤١﴾

وفي هذا المشهد يصور نوح ﷺ إعراضهم بصورة أخرى تؤكد ما سبق، لكن تصوير الإعراض في المشهد السابق لبيان قيامه بالدعوة واجتهاده فيها، وأما هنا فيصورها لبيان يأسه ممن كفر من قومه تمهيداً لطلب الدعاء والانتصار عليهم، ولذا كرر فعل القول "قال" مع إظهار اسم نوح وحقه الإضرار استثنائاً لقول جديد جاء في وقت لاحق غير متصل بالقول الأول.

ويزيد المشهد هنا انتقالمهم من الإعراض والاستكبار إلى المواجهة والمكر الكبار. ويأتي خطاب نوح ﷺ لربه هنا مؤكداً كما قيل في المشهد السابق. والمشهد يترقى في بيان حال القوم الكافرين من العصيان، إلى اتباع الملام، إلى المكر الكبار، إلى التواصي بالبقاء على الشرك وعبادة الأصنام، إلى الإضلال. والتعبير بصيغة الماضي في هذه الأحوال (عصوا، واتبعوا، وقالوا، أضلوا) يفيد تحقق حصول الأفعال منهم.

كما أن التعبير بالجمع من غير استثناء يشعر بغلبة الضلال في القوم، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، ولذا قال نوح ﷺ: ﴿إِنَّكَ إِنَّ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فقد عمّ الضلال في بيئته لا يتوقع معها إلا أن ينشأ فيها المواليد أشد من آبائهم، كما يشعره الوصف بالفجور وصيغة المبالغة: كفّار. ووصف المواليد بذلك باعتبار ما سيؤولون إليه عند الكبر، على طريقة المجاز المرسل في التعبير عن الشيء بما سيكون، قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): ((فإن قلت: بم علم أن أولادهم يكفرون؟ وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة؟ قلت: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فذاقهم وأكلهم، وعرف طباعهم وأحوالهم، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول له: احذر هذا؛ فإنه كذاب، وإن أبي حذرنيه، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك. وقد أخبره الله ﷻ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن.

ومعنى ﴿لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجْرًا كَفَّارًا﴾: لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر، فوصفهم بما يصيرون إليه^(١).

والمكر: التوصل إلى إيقاع الخصم بنوع من الحيلة من حيث لا يشعر^(٢)، وأكد مكروهم بالمفعول المطلق "مكراً"، مع وصفه بالكِبَارِ مبالغة في بيان كبره وعظمه. وعُجِبَ عن توأسيهم بالبقاء على الشرك بصيغة المضارع المؤكد بالنون "لا تدرن... ولا تدرن" دلالة على شدة رغبتهم في المداومة على عبادة الأصنام.

وكرر النهي "لا تدرن" لمزيد من التأكيد، ولم يكتفوا بالإجمال والعموم في قولهم: ﴿لَا تَدْرُنْ أَهْتَكُمُ﴾، بل ذكروا بعد ذلك أسماء الآلهة: ﴿وَلَا تَدْرُنْ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَـُٔوْتًا وَيَـُٔوقَ وَتَسْرًا﴾ اهتماماً بشأنها وإظهاراً للرغبة في المداومة على عبادتها، سواء أكان ذكرها تفصيلاً بعد إجمال، أو عطفًا للخاص بعد العام^(٣).

ولعل في ذكر هذه الأصنام أيضًا تعريضًا بمشركي العرب؛ لأنهم كانوا يعبدون أصنامًا بأسمائها، كما روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما "وَدًّا" كانت لكلب بدومة الجندل، وأما "سُوَاع" كانت لهذيل، وأما "يَـُٔوت" فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما "يَـُٔوق" فكانت لهمدان، وأما "تَسْر" فكانت لحمير آل ذي الكلاع. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم عبثت^(٤).

(١) الكشاف: ٢٢٠/٦، وينظر: تفسير الفخر الرازي: ١٤٦/٣٠، وتفسير القرآن العظيم: ٢٣٧/٨.

(٢) ينظر مادة (مكر): لسان العرب: ١٨٣/٥.

(٣) ينظر: الكشاف: ٢١٨/٦، والبحر المحيظ: ٣٣٥/٨، التحرير والتنوير: ٢٠٩/٢٩.

(٤) أخرجه البخاري: حديث رقم (٤٩٢٠).

ولما وصف نوح ﷺ أحوالهم حتى انتهوا إلى ما يقتضي اليأس منهم دعا عليهم: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَالًّا﴾ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾. قال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): ((دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به))^(١).

وتأتي دعوات نوح ﷺ متناسبة مع أحوالهم وما صدر عنهم، فدعاؤه ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَالًّا﴾ يتناسب مع قوله عنهم: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ ﴿وَمَكْرًا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾. ودعاؤه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ يتناسب مع قوله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾، ودَيَّارًا أي: أحدًا^(٢). ودعاؤه ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ يتناسب مع قوله عنهم: ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ والتَّبَار: الخسار والهلاك والضلال^(٣).

ويعبّر عن قومه بوصف ملابس لهم: الظالمين، الكافرين؛ لأنهم استحقوا العقوبة والدعاء بسبب الظلم والكفر، وفيها تعريض بكفار مكة أنهم يصيبهم ما أصاب قوم

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٣٦/٨.

(٢) ينظر: جامع البيان: ٣٠٧/٢٣، والهداية إلى بلوغ النهاية: ٧٧٤٨/١٢.

(٣) ينظر: جامع البيان: ٣٠٩/٢٣، والهداية إلى بلوغ النهاية: ٧٧٥٠/١٢.

نوح إذا استمروا على كفرهم وظلمهم، قال ابن عطية (ت ٥٤٢هـ): ((ذكر "الظالمين" لتعم الدعوة كل من جرى مجراهم))^(١).

ولا ينسى نوح عليه السلام في سياق دعوته أولئك الذين استجابوا له وصبروا معه فيدعو لهم بالمغفرة: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. وقد خصّ وعمّ في دعائه اهتماماً بشأن من خصّهم: والديه ومن دخل بيته مؤمناً، ثم عمّ جميع المؤمنين والمؤمنات، وبهذا دعا نوح عليه السلام لوالديه ثلاث مرار: مرة بخصوصهم، ومرة مع من دخل بيته، والثالثة مع المؤمنين والمؤمنات، وهذا من عظيم بره ووفائه.

وهذا دعاء في ختام السورة يتناسب مع غاية الدعوة التي بدأها خطابه في أول السورة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٢﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴿٣﴾ الآية.

كما أن دعاءه على قومه في ختام السورة بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ يتناسب مع ترغيبهم في أول السورة بقوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فلما لم يؤمنوا لم يستحقوا إلا أن يهلكوا.

وفي دعائه للمؤمنين أيضاً ترغيب لقومه أن يدخلوا في هذا الدعاء في اللحظات الأخيرة قبل أن يعمهم الهلاك والخسار.

والدعاء على الظالمين جاء في القرآن متصلاً بمشهد النهاية في قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم سواء كان الدعاء من الأنبياء بعد أن يتسوا من استجابة أقوامهم، أم من الله تعالى، ومن ذلك: قول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]، وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لَثَمُودٍ﴾ [هود: ٦٨]، وقوله:

(١) المحرر الوجيز: ٣٧٦/٥.

﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]، وقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وقوله عن لوط عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، وقوله عن بعض رسله: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٩-٤١]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

وكم هو شديد دعاء نوح عليه السلام على مشركي مكة؛ لأنهم يدركون أنه تهديد لهم أن يدعو عليهم محمد صلى الله عليه وسلم كما دعا نوح عليه السلام على قومه، وهم يعرفون من هو محمد صلى الله عليه وسلم، وهم يخشون دعوته في البلد الحرام، ويرون أن الدعوة فيه لا تُرد تعظيمًا له، وقد شق عليهم ذلك حقًا حينما دعا النبي صلى الله عليه وسلم عليهم، كما روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى سجد النبي صلى الله عليه وسلم ووضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أعني شيئًا، لو كان لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه، ثم قال: «اللَّهُمَّ عَلَيَّ بِقُرَيْشٍ» ثلاث مرات، فشق عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمي: «اللَّهُمَّ عَلَيَّ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيَّ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمِّيَّةَ بْنِ

خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» وعدّ السابع فلم يحفظ، قال: فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله ﷺ صرعى في القلب قلب بدر^(١).

هم يدركون ذلك التهديد بالدعاء عليهم ولكنه الاستكبار الذي يعمي ويصم ويغشى القلوب، فاستحبوا العمى على الهدى، والعياذ بالله.

المشهد الخامس: مشهد العقوبة.

وهو مشهد النهاية من حيث تسلسل الأحداث في الواقع ولكنه في القصة أتى في الآية الخامسة والعشرين معترضاً بين آيات المشهد السابق، قال الله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْجَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾.

لقد قدم القرآن هذا المشهد الذي يتضمن نهاية القصة بملاك المكذبين المعاندين قبل أن يأتي الدعاء عليهم بالهلاك: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَبَابًا﴾ ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْتَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فما السر في هذا التقديم؟ إن هذا العدول عن التسلسل الزمني الطبيعي في رواية أحداث القصة يرجع إلى مقام القصة والغرض من سياقها، الذي يتمثل في تسلية الرسول محمد ﷺ، مع إنذار مشركي العرب، كما سبق بياهما.

وهذان المقصدان نلاحظهما في هذا التقديم تعجلاً بتهديد كفار مكة بالعقوبة التي تحل بهم كما حلت بقوم مثلهم، بل هم أظلم منهم وأطغى وأشد قوة وأكثر جمعاً، ومع ذلك ﴿لَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾، وتعجلاً بتسلية رسول الله ﷺ بالنصر في مواجهتهم كما نصر الله نوحاً عليه السلام على قومه^(٢).

كما أن هذا التقديم يشعر كفار مكة بأن عقوبة المكذبين الظالمين لا تنتظر دعاء الرسول، فهم يستحقونها ولو لم يدع عليهم، أما إذا دعا فذلك مزيد إكرام له، ويدل على ذلك مجيء ذكر العقوبة بعد تعداد الخطايا: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ

(١) أخرجه البخاري: (٢٤٠)، ومسلم: (١٧٩٤).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/٢١٢.

يَزِدُّهُ مَالَهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا حَسَنًا ﴿١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَقَالُوا لَا تَنْزِرُنَّ آهَتَكُمْ وَلَا تَنْزِرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوءًا وَلَا يَعْثُونَ وَيَعُوقُونَ وَنَسُوا ﴿٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴿٤﴾، ولذا قال **علاء**: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ ﴿٥﴾ فقدم بيان سبب عقوبتهم على فعل العقوبة مؤكداً بـ"ما" التي وقعت صلة، قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): ((تقدم ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان فإدخالهم النار إلا من أجل خطيئاتهم، وأكد هذا المعنى بزيادة "ما")^(١)، وقال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((أي أغرقوا فأدخلوا نارًا، من أجل مجموع خطيئاتهم، لا بمجرد استجابة دعوة نوح، التي ستذكر عقب هذا؛ ليعلم أن الله لا يقرب عباده على الشرك بعد أن يرسل إليهم رسولاً، وإنما تأخر عذابهم إلى ما بعد دعوة نوح لإظهار كرامته عند ربه بين قومه، ومسررة له وللمؤمنين معه، وتعجيلاً لما يجوز تأخيره))^(٢).

وأما قوله بعد: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَّارًا﴾ بتكرار فعل القول معطوفاً على القول السابق فيدل على أن القولين متصلان زمنياً لا منفصلان متباعداً، لكن فصل بينهما بذكر العقوبة لما قيل.

ويصور القرآن مشهد النهاية بصورة موجزة موحية، يقدم فيها أولاً سبب العقوبة كما سبق، وقوله: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ أي: بسبب كثرة خطاياهم عوقبوا، وليس ما استحقوا عليه العقوبة خطيئة واحدة بل خطيئات وخطايا^(٣) ((وليس خطايا قوم كفروا ألف سنة بقليلة))^(٤)، وهذه الخطايا ذكرها نوح **عليه السلام** بمجملتها في شكواه السابقة إلى ربه: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا حَسَنًا ﴿١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَقَالُوا لَا تَنْزِرُنَّ آهَتَكُمْ وَلَا تَنْزِرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوءًا وَلَا يَعْثُونَ وَيَعُوقُونَ وَنَسُوا ﴿٣﴾

(١) الكشاف: ٢١٩/٦، وينظر: تفسير الفخر الرازي: ١٤٥/٣٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٢١٢/٢٩.

(٣) قرأ أبو عمرو البصري: "خطايا" جمع تكسير. ينظر: النشر في القراءات العشر: ٣٩١/٢.

(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية: ٧٧٤٧/١٢.

وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴿١﴾ وكم هي عظيمة تلك الخطايا! وإن خطيئة واحدة من هذه تستحق العقوبة، فكيف بما جميعاً؟!

ويصوغ العقوبة بصيغة الماضي: ﴿أَعْرِفُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا﴾، ولئن حصل الغرق لقوم نوح في الدنيا فإن دخول النار سيحصل لهم في الآخرة ومع ذلك صيغ فعلاً ماضياً دلالة على تحقق العقوبة^(١).

ودخول الفاء التي تفيد التعقيب يختصر الزمن بين العقوبتين في نفس المتلقي، حيث ينتقل بها من ((من تيار البحار إلى حرارة النار))^(٢) في سرعة هائلة رهيبة. قال في ظلال القرآن: ((والتعقيب بالفاء مقصود هنا؛ لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم، والفاصل الزمني القصير كأنه غير موجود، لأنه في موازين الله لا يحسب شيئاً. فالترتيب مع التعقيب كائن بين إغراقهم في الأرض وإدخالهم النار يوم القيامة))^(٣).

وفي هذا التعبير طباق بين الإغراق بالماء والإحراق بالنار، يوحي بعظيم قدرة الله ﷻ الذي يجمع بينهما من غير فاصل.

وصيغت الأفعال لما لم يسم فاعله، والله ﷻ هو الذي أغرقهم ويدخلهم، ولعل ذلك لأن المقصود هو العقوبة ونوعها بغض النظر عن فاعلها، فيراد أن يكون اهتمام المتلقي منصباً عليها ومتعلقاً بما لا غيرها. كما أن النفوس مع هذا الإجمال تذهب كل مذهب في تصور كيفية الإغراق والإدخال.

ودخول الفاء على نفي وجودهم النصير: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ يشعر بسرعة العقوبة وشمولها لجميع المكذبين في وقت واحد ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٣٧٦/٥، والبحر المحيط: ٣٣٧/٨، والدر المصون: ٤٧٧/١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢٣٦/٨.

(٣) في ظلال القرآن: ٣٨١٦/٦، وينظر: الكشف: ٢١٩/٦، والتحرير والتنوير: ٢١٢/٢٩.

والانتقال من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة في مشاهد النهاية للمكذبين متكرر في القرآن الكريم، كما في قوله ﷺ: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٠﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ [هود: ٦٠]، وقال عن فرعون وقومه: ﴿وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ [هود: ٩٩]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ وَلَتُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿٦٢﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٣﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿٦٤﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمَنْ وَرَّاهِ عَذَابَ غَلِيظًا ﴿١١٧﴾ [إبراهيم: ١١٣-١١٧]، ولما ذكر عاقبة المنذرين في سورة القمر خاطب أهل مكة فقال: ﴿أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿١٠٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ ﴿١٠٣﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿١٠٤﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴿١٠٥﴾ [القمر: ٤٣-٤٦].

والملاحظ أن حكاية مشهد العقوبة تحوّل من نوح ﷺ إلى الرب ﷻ تعظيماً لقدرته في عقوبة المكذبين: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ [هود: ١٠٢].

وفي ذلك كله مزيد تسليية في نفس النبي محمد ﷺ ومزيد تهويل ووعيد في نفوس قومه.

ومشهد العقوبة لم يكن مجرد سرد لحلقة من حلقات القصة فحسب، بل ربط معه سبب حصول تلك النهاية الأليمة: ﴿مِمَّا خَطَبَا يَهُمُّ أَعْرَفُوا﴾ وهذه صورة من صور التعقيب القرآني على قصصه.

والملاحظ في أحداث القصة ما يأتي:

١- السرد:

الأحداث قائمة على السرد من أول القصة إلى نهايتها، وليس فيها أي حوار. وقد بدأ سرد القصة في الآيات الأربع الأولى من قول الله ﷻ، وتتضمن تكليف نوح ﷺ بالدعوة واستجابة نوح وقيامه بها.

ثم انتقل سرد الأحداث إلى نوح ﷺ، يرويها موجهًا الخطاب إلى الله ﷻ، ذاكراً دعوته لقومه وحرصه على هدايتهم مع إعراضهم عنه وإصرارهم على كفرهم، ثم دعاءه عليهم ودعائه للمؤمنين.

وفي أثناء ذلك رجع السرد في الآية الخامسة والعشرين إلى قول الله ﷻ مخبراً عن نهاية القوم.

ولعل أسلوب السرد في السورة على لسان نوح ﷺ يتناسب مع الغرض الأساس منها، وهو تسلية النبي محمد ﷺ بعرض تجربة للصبر الجميل تعد أمودجاً له يرويها صاحبها.

٢- انتقاء الأحداث:

مع أن سورة نوح تعد من السور التي بسطت قصته عليه السلام إلا أن ثمة أحداثاً لم تتعرض لها السورة، وتعرضت لها سور أخرى كسورة هود والشعراء والمؤمنون، وعلى سبيل المثال طوت السورة صفحاً عن بعض المحاورات التي حصلت بين نوح عليه السلام وقومه، وبينه وبين ابنه، ولم تفصل في الطوفان الذي أغرق القوم وكيفيته وما سبقه من صنع نوح عليه السلام السفينة تهيئة للنجاة، وغيرها من الأحداث. ولعل السر في ذلك أن انتقاء الأحداث وطريقة عرضها وتفصيلها خاضع لما يقتضيه المقام والغرض من القصة^(١).

ولما كان مقصد السورة تسليية النبي عليه السلام وحثه على الصبر الجميل كما صبر نوح عليه السلام كان التركيز في سرد نوح لتجربته الدعوية على مشهد قيامه بالدعوة وإصراره عليها وتنوع وسائلها مع طول أمدها وإصرار قومه على إعراضهم ومكرهم؛ فحاء هذا المشهد مطبئاً فيه بالنسبة إلى المشاهد الأخرى، وبصرّف فيه المعنى بصور متنوعة كما في التعبير عن الإعراض بجعل الأصابع في الأذان، واستغشاء الثياب، والإصرار، والاستكبار، والعصيان، واتباع غيره، ومكرهم به، والدعوة إلى البقاء على الشرك.

أما مشهد العقوبة الذي يخاطب كفار مكة وينذرهم فحاء موجزاً، لكنه سريع مهول، كما سبق في الحديث عن المشهد، وهي عادة القرآن في عرض نهايات الأمم المكذبة بصورة موجزة سريعة مهولة، توحى بعظم قدرة الله جل جلاله وهوان المكذبين عليه مهما كانوا من القوة أو القرب من الرسول.

وحتى لو جاءت النهاية فيها شيء من التفصيل فهو تفصيل لا يزال في إطار الإيجاز.

(١) ينظر: التصوير الفني في القرآن: ١٤٣.

ب- شخصيات القصة:

برز في القصة شخصيتان رئيستان: نوح ﷺ، وقومه. وهما نموذجان للنبي محمد ﷺ وقومه؛ لأن الخطاب بالقصة لهما ابتداءً تسليية وإنذارًا. كما جاءت إشارة إلى شخصيات أخرى.

١- شخصية نوح ﷺ:

من الطبيعي أن تكون شخصية نوح ﷺ هي الشخصية البارزة في القصة؛ وقد سميت السورة به.

وُضِحَ باسمه في ثلاثة مواضع رئيسة من السورة: في بدايتها: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، وفي موضع ذروة الأحداث من القصة: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ الآيات، وفي النهاية: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

وهو الشخصية المحورية التي تقوم عليها القصة؛ لأن المقصد الأساس منها هو تقديم نموذج للنبي محمد ﷺ في الصبر الجميل، يتمثل هذا النموذج في شخصية نوح ﷺ. ولا تعرض القصة من حياة نوح ﷺ إلا مرحلة الرسالة؛ لأنها التي تكمن فيها العبرة، ويدور عليها مقصد القصة^(١).

كما لا تُظهر القصة لنوح ﷺ أيَّ صفات جسدية أو خارجية؛ لأنها لا تفيد في مقصد القصة شيئًا، وإنما تُظهره بالصفات المعنوية والنفسية التي لها علاقة بمقصدتها حينما يعرض نموذجًا ليقندي النبي محمد ﷺ بها.

ومن أبرز الصفات: الصبر الجميل، الذي يكون معه التضحية والثبات والإصرار، وهي الصفة التي تدور عليها أحداث القصة، وصورتها بصور عدة على لسان نوح ﷺ، فهو مع شدة إغراض قومه يتلطف بهم ويدعوهم في كل الأوقات والأحوال المناسبة، وينوع في وسائل الدعوة، مع تطاول الزمان وشدة العصيان.

(١) ينظر: التصوير الفني في القرآن: ١٦٢.

وثمة صفات أخرى لنوح عليه السلام تظهر من سياق القصة، ومنها:

المبادرة إلى الدعوة، كما هو ظاهر من قول الله تعالى عنه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بعد أمره بالإنذار، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((لم تعطف جملة ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ بالفاء التفرعية على جملة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ لأنها في معنى البيان لجملة ﴿أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ لدالتها على أنه أنذر قومه بما أمره الله أن يقوله لهم، وإنما أدمج فيه فعل قول نوح للدلالة على أنه أمر أن يقول فقال؛ تنبيهاً على مبادرة نوح لإنذار قومه في حين بلوغ الوحي إليه من الله بأن ينذر قومه))^(١).

ومن صفاته: الفصاحة وإبانة القول: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قال البغوي (ت ٥١٦هـ): ((أبين لكم رسالة الله بلغة تعرفونها))^(٢)، وقال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): ((أي: بين الندارة، ظاهر الأمر واضح))^(٣). والبيان يكون بفصاحة اللسان ووضوح الدعوة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

ومنها: الإخلاص لله والتجرد عن إرادة الدنيا، فلم تكن دعوته لدنيا يصيبها، وإنما أخلصها لله: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ ﴿وَأِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ﴾، وقد قال الله تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وهذا منهج الأنبياء كما أخبر الله عنهم.

ومنها: التلطف في الدعوة، كما نجده في نداء نوح لقومه بإضافتهم إليه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ومنها: الحرص على هداية قومه، وتبين ذلك من استمراره في دعوته وتنويع وسائلها وأساليب خطابها، في مدة متطاولة مع شدة إعراضهم عنه.

(١) التحرير والتنوير: ١٨٧/٢٩، وينظر: تيسير الكريم الرحمن: ٨٨٨.

(٢) معالم التنزيل: ٢٢٩/٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢٣١/٨.

وتظهر شخصية نوح عليه السلام متفاعلة مع أحداث القصة ومع شخصياتها الأخرى، فهو عليه السلام يبدأ دعوته لقومه بالتلطف معهم والنصح لهم وتشويقهم للإيمان، ثم يواجهه قومه بالإعراض فلا يفتر أو يتراجع بل يصبر على هداية قومه فينوع في وسائله وأساليبه ويزيدهم ترغيبًا، لكنهم يزدادون إعراضًا ومكرًا، فما كان منه إلا أن يسلم أمره إلى الله ويدعو عليهم بعد أن يتس منهم. ثم هو لا ينسى أولئك الذين استجابوا له وآمنوا به فيسأل الله لهم المغفرة والنجاة: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

٢ - شخصية القوم:

جاء ذكر قوم نوح على وجه العموم من غير تصريح باسمهم أو باسم أحد منهم؛ لأنه لا يتوقف على ذلك فائدة. وعلى خلاف شخصية نوح التي لم توصف بأوصاف مباشرة إلا أنه نذير مبين، وأما صفاته الأخرى فيدل عليها تصوير حاله في دعوة قومه، فإن القوم وصفتهم القصة بصفات مباشرة، منها ما هو حسي ومنها ما هو معنوي:

أما الحسي فليس تصويرًا لأجسادهم وأشكالهم، ولكنه وصف لبعض أفعالهم التي يواجهون بها نوحًا تصويرًا لشدة إعراضهم، ومن ذلك فرارهم من نوح، وجعل أصابعهم في آذانهم، واستغشاء ثيابهم.

وأما الأوصاف المعنوية فذكرت القصة عنهم إصرارهم على الكفر، واستكبارهم، وعصيانهم، ومكرهم، ودعوتهم إلى البقاء على الشرك، وإضلالهم.

كما وصفتهم القصة بالكفر، والظلم، والفجور، وكثرة الخطايا، وأنهم لا يعلمون.

وجاء وصفهم بهذه الصفات متسقة مع مشاهد القصة، ففي كل مشهد يذكر نوح عليه السلام من صفاتهم ما يلائمه.

٣- شخصيات مؤمنة:

جاء في القصة إشارة إلى شخصيات أخرى مؤمنة (والدا نوح، ومن دخل بيته مؤمناً، والمؤمنون والمؤمنات)، وذلك في دعاء نوح الأخير الذي ختمت به القصة، والوصف المشترك بينهم أنهم مؤمنون، وتفرد الوالدان بذكرهما صراحة ثم ضمناً مرتين، والداخلون بيته ذكروا مرتين.

وهذا الدعاء الأخير فيه ترغيب للدخول في الإيمان لتحقيق المغفرة، وفيه تأنيس للنبي محمد ﷺ ولمن آمن معه أنهم مؤيدون منصورون من عند الله وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين.

٤- الأصنام:

أشارت القصة إلى هذه الأسماء: ودّ، وسواع، ويعوث، ويعوق، ونسر، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح، سُمي بها القوم أصنامهم التي اتخذوها آلهة من دون الله ﷻ. ووردت على لسانهم حينما تواصلوا بالبقاء على الشرك: ﴿وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَئُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾. وقد ذكروها بأسمائها اهتماماً بشأنها وإظهاراً للرغبة في المداومة على عبادتها. وفي ذكر هذه الأصنام تعريض بمشركي العرب؛ لأنهم كانوا يعبدون أصناماً بأسمائها، كما سبق ذكره آنفاً في الحديث عن المشهد الرابع من مشاهد القصة.

ج- الزمان:

يأتي الزمان في القصة القرآنية كبقية العناصر متسقاً مع الغرض منها، وكثيراً ما يغفل القرآن الزمن لأنه لا غرض من إيراده، وفي هذه القصة لا نجد أي ذكر لزمن وقوع القصة، وإن كان القرآن أشار في مواضع أخرى إلى أن نوحاً عليه السلام أول الأنبياء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَنَمُودٌ ﴿٤٣﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٤﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤]، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ

نُوحٍ وَالْأَحْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ [غافر: ٥].

وإيراد زمن وقوع القصة لا يضيف شيئاً يناسب مقاصدها؛ ولهذا طوي، لكن الزمن لم يغيب عن القصة، وجاء مصرفاً فيه القول بصور متنوعة تناسب مع سياق الخطاب كما يأتي:

١- الزمن المعين:

وجاء في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ فأخبر نوح عليه السلام أنه يقوم بدعوته في الليل والنهار، ولا يعني ذلك أنه في كل يوم يواصل ليله بنهاره، ولكن لما كان السياق لبيان حرصه على القيام بما أمره به ربه جمع بين الزمنين منكرين متعاقبين متعاطفين كناية عن حرصه وعدم فتوره وكأنه يستغرقهما جميعاً لا يغادر منهما وقتاً، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((جعل دعوته مطروفة في زماني الليل والنهار للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصّد الوقت الذي يتوسم أنهم فيه أقرب إلى فهم دعوته منهم في غيره، من أوقات النشاط وهي أوقات النهار، ومن أوقات الهدوء وراحة البال وهي أوقات الليل))^(١).

٢- الزمن المبهم:

وجاء في آيتين: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّضْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أما الأولى فجاءت في سياق الإنذار الذي يرغبهم في المبادرة إلى الإيمان حتى لا يقع عليهم العذاب، ولذا أجهّم زمن العذاب ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وأكد بـ"من" تحقيقاً له، وكان إتيانه قريب، وفي هذا تخويف لهم وتعجيل لاستجابتهم.

(١) التحرير والتنوير: ١٩٤/٢٩، وينظر: المحرر الوجيز: ٣٧٣/٥، وتفسير القرآن العظيم: ٢٣٢/٨.

وأما الثانية فسياقها الترغيب إلى الإيمان، ومما رغبهم فيه تأخير الأجل وطول الحياة، وأهم الأجل لتذهب النفس كل مذهب في تصور طوله، وفي ذلك ترغيب لهم، لكن الأجل مهما طال فهو عند الله له حد معين مسمى، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((هو وعد بخير دنيوي يستوي الناس في رغبته، وهو طول البقاء، فإنه من النعم العظيمة؛ لأن في جبلة الإنسان حب البقاء في الحياة، على ما في الحياة من عوارض ومكدرات. وهذا ناموس جعله الله تعالى في جبلة الإنسان لتجري أعمال الناس على ما يعين على حفظ النوع))^(١).

٣- الإشارة إلى الزمن:

ثمة مواضع في السورة تشير إلى الزمن وإن لم تذكره صراحة، وجاءت بألفاظ متنوعة، من ذلك:

التعبير عن طول الزمان بالحرف (تَمَّ) كما في قول نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۗ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۗ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۗ﴾. والتعبير به كما قلت سابقاً: يشعر بطول أمدده معهم، واستغراق كل أسلوب من الأساليب التي سلكها في دعوتهم.

إن القصة لم تذكر زمن لبث نوح عليه السلام في دعوة قومه كما جاء في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، وهو زمن طويل، لكن مجرد الإخبار عن الزمن لا يوحى بطول المعاناة كما يوحى بها "تَمَّ"، وهي تخاطب النبي محمداً ﷺ بالصبر الجميل.

وجاء الدلالة على الزمان بالحرف (تَمَّ) في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۗ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۗ﴾.

(١) التحرير والتنوير: ١٨٩/٢٩.

والسياق في بيان ربوبية الله ﷻ ومنته على القوم التي تستوجب الإيمان به وحده وهم مع ذلك معرضون، ولما ذكر جملة من أدلة القدرة والمنة في السماوات والأرض، استدعى ذكر الأرض التذكير بخلق الإنسان من ترابها، ثم عودته إليها ميتاً، وبعثه منها بعد ذلك، فأدمج الاستدلال على البعث مع الاستدلال على الألوهية، كما ذكر سابقاً.

ولعل في العطف بـ"ثم" إشارة إلى طول زمان نعم الله عليهم في الدنيا، وطول بقائهم فيها، وفي هذا مزيد توبيخ لهم وإنكار على إعراضهم وعدم إيمانهم، كما هو سياق الآيات التي بدأت بالاستفهام التوبيخي الإنكاري: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۖ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ الآيات.

ومن الإشارة إلى الزمن قوله تعالى: ﴿مَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْجَلُوا نَارًا﴾ فإن الإدخال في النار يكون في اليوم الآخر، لكن طوي ذكره وعبر بفعل الإدخال متصلاً بفاء التعقيب لاختصار الزمن بين العقوبتين في نفس المتلقي مما يشعر بمزيد من التهويل والترهيب، كما سبق ذكره.

ومن الإشارة إلى الزمن التعبير ببعض الأفعال التي تدل في مقام الترغيب على طول زمان النعم بالأمور المرغوب بها، كما في التعبير بصيغة المضارع (يرسل، يمدد، يجعل، يجعل): ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۖ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَسِينِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ فهذه الصيغة تشعر المخاطبين بتجدد العطاء زماناً بعد زمان، وهذا فيه مزيد ترغيب لهم.

ومما يتعلق بالزمن في القصة العدول عن التسلسل الزمني في سرد أحداثها، فقدم الإخبار عن عقوبة القوم قبل دعاء نوح عليهم، لما سبق بيانه في الحديث عن مشاهد القصة.

د- المكان:

المكان في القصة القرآنية كالزمان يُذكر ويُطوى بناء على ما يقتضيه الغرض من القصص، وفي قصة نوح عليه السلام في هذه السورة لا يذكر المكان الذي تؤدي فيه مشاهد القصة؛ لأنه لا يقدم لمقاصد القصة أي فائدة تذكر، إلا أن المكان لم يغيب عن القصة في سياقات تناسبه، ومن ذلك:

١- (السماء، والجنات، والأنهار) في سياق الترغيب في الإيمان والاستغفار: ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُبَيِّنْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١١﴾﴾.

و"السماء" هنا المقصود بها: الغيث، فعبر عنه بالمكان، والجنات: الحدائق والبساتين ذات الأشجار المتنوعة والكثيرة، والأنهار: مجاري المياه الكثيرة العذبة. وذكر هذه الأماكن يرمز إلى جزيل العطاء، وقد سبق بيان ما في التعبير بهذه الأماكن من البلاغة في سياق الترغيب.

٢- (السموات، والأرض) في سياق الاستدلال على ألوهية الله جل جلاله بربوبيته وإنعامه على القوم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٣﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٦﴾﴾.

وعُبر عن السماء بالجمع المعدود "سبع سماوات" إظهارًا لعظم قدرة الله جل جلاله الذي يمسك السماوات ولو شاء لانطبقت السبع كلها على الأرض بمن فيها، وفي ذلك تحويل للقوم.

وأما الأرض فأفردت لأنهم لا يرون إلا إياها، وليس في ذكر السبع هنا تحويل، وإنما يفيد ذكر الأرض تقرير منة الله عليهم التي يعايشونها، ولذا أظهر ذكرها والأصل الإضمار في قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٦﴾﴾ تأكيدًا للمنة عليهم في هذه الأرض.

فالسماوات هنا ترمز إلى القدرة، والأرض ترمز إلى النعمة، وقد سبق بيان ما في هذه الآيات من الأساليب البلاغية.

٣- (الأرض) في دعاء نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾. وهل الأرض هنا جميع الأرض؟ أو الجزء من الأرض الذي كان القوم يسكنونه؟ وهل كان في وقت نوح وقومه أحد على الأرض غيرهم؟ أو لم يكن أحد غيرهم؛ فكانوا هم الناس على الأرض؟^(١).

وإذا كان المقصود بالأرض ديارهم دون سائر الأرض ففي التعبير مبالغة لاستقصاء جميع من كفر من قومه وقطع ديارهم.

وعلى كلٍ فذكر الأرض هنا يرمز إلى الشمول والإحاطة بجميع الكافرين.

٤- (بيت نوح) في دعائه عليه السلام لمن اتبعه من المؤمنين: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾. وبيت الرجل: داره الذي يأوي إليه ويبعث فيه.

وما مقصود نوح عليه السلام ببيته هنا؟ داره، أم مسجده، أم دينه، أم السفينة؟ كل ذلك قيل^(٢).

والذي يظهر حمل البيت على ظاهره، كما قال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): ((ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن))^(٣). والذي يدخل بيته غالبًا والداه وزوجه وأولاده وأهلوهم وقربته وأصحابه المقربون، وإنما قيد الدخول بالإيمان ليخرج من لم يكن متصفاً به كزوجه وولده وغيرهما، وخص أهل بيته بعد والديه ترفيهاً فيمن له حق، ثم عمم الدعاء لأهل الإيمان. وذكر البيت هنا يرمز إلى وفاء نوح عليه السلام وبره بأهل بيته وأصحابه.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/٢١٤.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/٣٧٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٨/٢٣٧.

المبحث الثالث

من خصائص النظم في الخطاب الدعوي في السورة

في المبحثين السابقين عرضت بصورة تحليلية مضامين الخطاب الدعوي وأساليها البلاغية، وفي هذا المبحث أعرض أهم الخصائص البلاغية في نظم الخطاب الدعوي في السورة.

وسأتناول هذه الخصائص: الفصاحة والإبانة، النداء، التأكيد، التقابل، الاستفهام الحجاجي، الإيجاز، وحدة النظم.

١ - الفصاحة والإبانة.

من السمات المهمة في الخطاب الدعوي البليغ أن يكون واضحًا بينًا مُبينًا، يفهمه المخاطبون به، وهذه غاية الفصاحة وأساس للبلاغة، قال ابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ): ((من شروط الفصاحة والبلاغة: أن يكون معنى الكلام واضحًا ظاهرًا جليًا، لا يحتاج إلى فكر في استخراجه، وتأمل لفهمه))^(١).

وقد وصف نوح عليه السلام خطابه بالإبانة في ابتداء دعوته لقومه في هذه السورة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، كما جاء في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]، وسورة الشعراء: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٥].

والبيان عن المعاني والأحكام يكون بفصاحة اللسان، كما في قوله تعالى: ﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَأُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَأُ بِلسَانِكَ لِيُبَيِّنَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مرم: ٩٧].

(١) سر الفصاحة: ٢٢٠.

ويتحقق بمراعاة شروط الفصاحة التي نبه إليها علماء البلاغة، سواء كان ذلك في المفرد أم في الكلام، أما في المفرد فأن يكون موافقاً للغة العرب في تصريفه، واستعماله في معانيه، وأن يسلم من الغرابة، ومن تنافر الحروف بحيث يسهل نطقه على اللسان. وأما في الكلام فأن يكون موافقاً للغة العرب في تأليفه وإعرابه، وأن يسلم من تنافر كلماته، ومن تعقيد سواه كان التعقيد لفظياً أم معنوياً^(١).

وإنما يقصد إلى الإبانة في الخطاب الدعوي لتتضح الدعوة للمدعوين، وتقوم الحجة عليهم. ولذا فالمعتبر في وضوح الدعوة هو المدعو لا الداعي، ولذا جاء وصف الإبلاغ الدعوي في الآيات السابقة وغيرها بـ(الإبانة) وليس بـ(البيان)، ليدل على أن العبرة في الخطاب أن يكون مبيناً للمخاطب، لا أن يكون بيّناً وواضحاً عند المتكلم به، وإلا فما قيمة الدعوة حينئذ، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، قال ابن كثير (٥٧٧٤هـ): ((هذا من لطفه تعالى بخلقه؛ أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم؛ ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم))^(٢)، وقال عند قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾: ((أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيّناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة))^(٣)، ولقد سأل موسى ﷺ الله ﷻ فصاحة اللسان؛ ليفقه المدعوون الخطاب، قال الله ﷻ عنه لما أمره بدعوة فرعون: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٣﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٤﴾﴾ [طه: ٢٥-٢٨]، وسأل الله أن يعينه بمن هو أفصح منه، فقال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونُ﴾ [القصص: ٣٤].

(١) ينظر: شروح التلخيص: ١/٨٠-١٢١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/٤٧٨.

(٣) المرجع السابق: ٦/١٦٢.

٢ - حسن الابتداء بالنداء.

عني البلاغيون بـ "حسن الابتداء"، وجعلوه دليلاً على جودة البيان، وعدّوه من المواضع التي ينبغي على المتكلم أن يتأنق فيها غاية التأنق؛ لأنه أول ما يطرق السمع ويصل إلى القلب، فإذا كان الابتداء حسناً أقبل السامع على الكلام فوعاه، وإلا أعرض عنه وجفاه^(١).

وقد استفتح نوح عليه السلام خطابه الدعوي بما يحسن الابتداء به: استفتح بنداء قومه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ونداء "القوم" مطرد في الخطاب الدعوي مع جميع الأنبياء الذين ذكر الله تعالى تفاصيل دعوتهم وحكى خطابهم لأقوامهم، وقد جاء مع خطاب نوح عليه السلام في غير هذه السورة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الآية [الأعراف: ٥٩]، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ الآية [يونس: ٧١].

ومع غير الأنبياء يظهر هذا النداء في الخطاب الدعوي، كما في قول الرجل الذي جاء مناصراً للرسول عليهم السلام في مواجهة أصحاب القرية: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وقول الرجل الذي جاء مناصراً لموسى عليه السلام في مواجهة فرعون: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ الآية [غافر: ٢٩] وقد تتابعت نداءاته بعد ذلك. والجن حينما ولّوا إلى قومهم مندرين: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠-٣١].

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٥٣١/٤.

وأمر الله ﷻ رسوله ﷺ بالنداء في خطابه الدعوي، فقال: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٩]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [آية [ال عمران: ٦٤].

ولم يأت في القرآن نداء في حكاية خطاب دعوي صادر من رسول أو غيره إلى قومه إلا بلفظ "القوم" متصلاً بضمير التكلم.

أما النداء بمثل "يا أيها الذين آمنوا، يا أهل الكتاب، يا أيها الناس" فإنه يأتي في خطاب الله ﷻ، أو في الأمر للنبي ﷺ بقوله، ولم يأت في حكاية خطاب مباشر من نبي إلى قومه.

وأما عيسى ﷺ فنادى بني إسرائيل بلفظهم: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف: ٦]، قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): ((قيل: إنما قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولم يقل: يا قوم، كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه)).

وجاء نداء المدعو إذا كان فرداً أو فئة مخصوصة بالوصف الملائم، كما نادى إبراهيم ﷺ أباه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، وكما نادى إبراهيم ويعقوب عليهما السلام بتيهما: ﴿وَوَصَّىٰ بِمَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ونادى يوسف ﷺ صاحبي السجن: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَأَرَبَاتٌ مُتَّفِرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

والأصل في الخطاب أن يبدأ المتكلم بالنداء تنبيهاً للمخاطب أن يصغي إليه، خاصة إذا كان أمراً ذا بال، ولذا غلب أن يلي النداء أمر أو نهي أو استفهام أو إخبار بحكم يخص المخاطب، قال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((كل ما نادى الله له عباده

من أوامره ونواهيهِ وعظاته وزواجره ووعده ووعيدهِ واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمورٌ عظام وخطوبٌ جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها^(١).

واستفتح نوح والأنبياء عليهم السلام خطابهم الدعوي ببناء أقوامهم مضيفهم إلى أنفسهم؛ طلباً لإقبالهم، واستمالَةً لقلوبهم، واستحلاباً لقبولهم، وإظهاراً لنصحهم والتلطف معهم، وتعظيماً لشأن ما يدعوهم إليه^(٢).

وقد يتكرر النداء في الخطاب، كما تكرر نداء نوح عليه السلام في "سورة هود": ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ فَعُصَيْتُمْ عَلَيْكُمْ أَلَنْتُمْ كُفُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿١﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنِ اجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رَحْمًا وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا جَاهِلُونَ ﴿٢﴾ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾. وتكرر النداء في "سورة هود" ظاهر مع جميع الأنبياء الذين سردت السورة قصصهم وخطاباتهم، وورد مع إبراهيم عليه السلام في خطاب أبيه في "سورة مريم"، ومع لقمان في خطاب ابنه في "سورة لقمان".

وفي تكرار النداء تأكيد لأغراض النداء في الخطاب به أول مرة^(٣)، وقال محمد رشيد رضا (١٣٥٤هـ) عند تكرار النداء في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ الآية [الأعراف: ٢٧]: ((تكرار النداء في مقام الوعظ والتذكير من أقوى أساليب التنبيه والتأثير، يعرف ذلك الإنسان من نفسه، ويشعر به في قلبه. ونظيره في التنزيل قصة الجن من سورة الأحقاف، إذ جاء فيها الوعظ والإنذار بتكرار النداء: يا قومنا... يا قومنا...، ووعظ مؤمن آل فرعون في سورة غافر: يا قوم... يا قوم))^(٤).

(١) الكشاف: ٩٦/١.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٣٣/٢، والتحرير والتنوير: ١٨٨/٢٩.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٣٤/٢، والتحرير والتنوير: ٥٣/١٢.

(٤) تفسير المنار "تفسير القرآن الحكيم": ٣٦١/٨.

٣- التأكيد.

يأتي التأكيد لتقرير المعاني وتفخيمها وتقويتها والتعبير عن الاهتمام بها، وله ألفاظ وأساليب كثيرة عند العرب وفي كلام الله ﷻ.

ويعد التأكيد من الظواهر الأسلوبية الملحوظة في الخطاب الدعوي في القرآن الكريم، وسار مع آيات السورة من أولها إلى آخرها، وتنوعت في صور عدة، منها: التأكيد بـ(إنّ) وجاء عشر مرات، بدءاً من استفتاح السورة بقول الحق ﷻ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، ثم في خطاب نوح ﷺ لقومه في ثلاثة مواضع: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ... وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ... إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، وبقية المواضع في خطابه لربه واصفاً حاله مع قومه: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي... وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ... ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ... رَبِّ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ... إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ﴾.

ومن أدوات التأكيد: (قد) الداخلة على الفعل الماضي، في موضعين: أحدهما: في قول نوح مبيئاً نعمة الله ﷻ على قومه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾. والثاني: في وصف حالهم مخاطباً ربه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾.

ومن التأكيد: التكرار، ومن ذلك تكرار لفظ الموجه لهم الدعوة: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، وتكرار فعل الجعل المسند إلى الله ﷻ في خطاب نوح لقومه: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ وتكرر معه ذكر قومه المخصوصين به (لكم)، ومن تكرار الفعل: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، وكثر لفظ الجلالة مع إظهاره والأصل الإضمار في خطابه لهم مذكراً بنعمة الله عليهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا... أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا... وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا... وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾، وكثر الفعل وأداة النفي في ذكر قول قومه: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ

وَيَعُوقُ وَنَسْرًا»، وكرّر في دعائه لام الجر مع المخصوصين بالدعاء إظهاراً لمزيد العناية بهم: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ .

ومن التأكيد: التأكيد بالمصدر (المفعول المطلق) في مواضع عدة: ﴿وَاللّٰهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا... وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا... وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا... اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا... وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا... وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا﴾.

ومن التأكيد: القصر، وجاء في السورة بطريق الاستثناء بعد النفي، وهو من أقوى طرق القصر الوضعية: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا... وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا... وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا... وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا... وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

ويبرز التأكيد في خطاب نوح عليه السلام لقومه ودعوته إياهم، وفي إخباره عن حاله مع قومه.

أما في خطابه لقومه فلما هم عليه من التكذيب والإنكار والإعراض، وهو مقام يقتضي التأكيد؛ لتقرير الدعوة ومواجهة الشك فيها وإنكارها بلغة قوية حاسمة. كما أن مقام الدعوة مقام خطابي يتسم بالقوة والتقرير والحجاج فيقتضي التأكيد ليكون أداة إقناع وتأثير. وهو مقام ترغيب وتشويق إلى الإيمان فيقتضي التأكيد ليقوي في نفوس المدعوين الرغبة في الدعوة. وفي صور التأكيد السابقة ما يدل على ذلك كله.

وأما في إخباره عن حال قومه فيريد نوح أن يؤكد قيامه بما أمره الله به، واهتمامه بدعوة قومه، وحرصه عليهم، وصره على أذاهم، في مقابل إعراضهم عنه وتكذيبهم له؛ ليكون ذلك التقرير مسوغاً لليأس منهم والدعاء عليهم. وهذا التأكيد أوقع في نفوس المخاطبين بالسورة: الرسول محمد عليه السلام تسلية له وحثاً له على الاقتداء بنوح في دعوته وصره، وكفار مكة إنذاراً لهم وترهيباً.

٤ - التقابل.

يقصد بالتقابل: الجمع بين المعاني المتضادة، من خلال أسلوب (الطباق والمقابلة): (الطباق) يجمع بين معنى واحد وما يضاده، و (المقابلة) يجمع بين معنيين أو معان ثم يذكر ما يضادها^(١).

وقد يكون بين لفظتين في جملة واحدة أو أكثر، أو بين جملتين متعددي الألفاظ المتقابلة، أو بين مشهدين متقابلين متعددي الجمل.

وهو من الظواهر البلاغية التي تكثر في القرآن العظيم، وفي قول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرمر: ٢٣] فسّر بعض العلماء وصف القرآن: (مثاني)، بأنه يذكر الشيء وضده، وفي تفسير ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): ((قال بعض العلماء: ويروى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: ﴿مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ أَنَّ سِيَاقَاتِ الْقُرْآنِ تَارَةً تَكُونُ فِي مَعْنَىٰ وَاحِدٍ، فَهَذَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ، وَتَارَةً تَكُونُ بِذِكْرِ الشَّيْءِ وَضَدِهِ، كَذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ الْكَافِرِينَ، وَكَصِفَةِ الْجَنَّةِ ثُمَّ صِفَةِ النَّارِ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا، فَهَذَا مِنَ الْمَثَانِي، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، وكقوله ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، إلى أن قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيَيْنَ﴾ [المطففين: ١٨]، ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩]، إلى أن قال: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥]، ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني، أي: في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً، فهو المتشابه^(٢)، قال ابن كثير في موضع آخر: ((وهذا معنى تسمية القرآن (مثاني) على أصح أقوال العلماء... وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه. وحاصله: ذكر الشيء ومقابله^(٣))).

(١) ينظر في الطباق والمقابلة: شروح التلخيص: ٢٨٦/٤ و ٢٩٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٩٤/٧.

(٣) المرجع السابق: ٢٠٣/١.

ويأتي التقابل في كلام الله ﷻ بصور متنوعة:

يأتي بالألفاظ المتضادة في الظاهر، كمقابلة الحياة بالموت في قوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

ويأتي التقابل بين اللفظ وما يتعلق بضده، كالرحمة و الشدة في قوله ﷻ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ويأتي بين الإثبات والنفي في لفظ واحد، كقوله ﷻ: ﴿يَسْتَنخَفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَنخَفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨].

ويأتي بين الأمر والنهي كقوله ﷻ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠].

وقد يأتي التقابل بين المعاني والأحوال ولو لم تكن كلها بألفاظ متضادة في الظاهر، فيأتي بين مشاهد كاملة، ويكثر هذا في القرآن بين حال أهل الإيمان وحال أهل الكفر، ومآلمهم في الجنة وفي النار.

وتكاد كل سورة تحوي تقابلاً، بل تأتي السورة من القرآن قائمة كلها على التقابل بين المعاني، ومن ذلك سورة محمد، وسورة الليل.

والتقابل في الخطاب الدعوي يأتي كثيراً في مقام الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

وهو بذلك يراعي التوازن في خطاب النفس البشرية، التي يتنازعها جانب الرجاء والخوف، فيخاطب جانب الرجاء بالوعد والترغيب، وجانب الخوف بالوعيد والترهيب. ولذا كانت العبودية لله ﷻ لا تتم إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينتهي المرء عن المعاصي، وبالرجاء يأتمر ويقبل على الطاعات، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْدُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفي قصة نوح عليه السلام جاء التقابل في مواضع عدة، من ذلك:

١- في مقام ترغيب القوم في الإيمان قال الله جل جلاله عن نوح عليه السلام: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

والتقابل بين (يُؤَخَّرُ - لَا يُؤَخَّرُ) إثباتاً ونفيًا، وفيه تحفيز لهم وترغيب على المبادرة إلى الإيمان قبل أن يفجأهم الأجل، فإذا جاء فإنهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

٢- في مقام الإخبار عن القيام بالدعوة والاجتهاد فيها قال الله جل جلاله عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ وقال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

والتقابل هنا بين (ليل - نهار) (أعلنت - أسررت) ، ولعل الغرض من ذكر المتضادات في هذا المقام بيان شمول دعوته لكل الأوقات واستعماله كل الأساليب في جميع الأحوال دلالة على اجتهاده وحرصه في القيام بأمر ربه، وبياناً لشدة إعراض قومه في مقابل ذلك.

٣- في مقام الحجاج مع القوم للاستدلال على ألوهية الرب جل جلاله يقول الله سبحانه عن نوح عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿٦﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿٧﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٨﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٠﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿١١﴾﴾.

والتقابل بين (السموات - الأرض) (القمر - الشمس) (يعيدكم - يخرجكم) فيه إظهار للقدرة الإلهية وبيان لعظم المنة الربانية على القوم حيث سخر لهم هذه المخلوقات؛ مما يستوجب شكر الرب بعبوديته والإيمان به.

وفي التقابل بين الإعادة إلى الأرض والإخراج منها تصوير لقدرة الرب على البعث بعد الموت؛ فإن الذي ينبت الناس ويخلقهم من الأرض، ثم يميتهم، قادر على إحيائهم مرة أخرى، وهو أهون عليه ﷻ.

٤- في مقام الدعاء في خاتمة السورة جاء التقابل بين الدعاء للكافرين والدعاء للمؤمنين، مما يبين عظم الفلاح والتسلية للمؤمنين، وسوء العاقبة والندارة للكافرين: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٣٥﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجِرًا كَفَّارًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٣٧﴾.

٥- الاستفهام الحجاجي: يعد الاستفهام من الظواهر الأسلوبية في القرآن الكريم، وفي قصص الأنبياء، وأكثر سور القرآن متضمنة له، بل إن منها ما استفتحت به كالأنفال والعنكبوت والحاقة والإنسان والنبأ والغاشية والشرح والقارعة والفيل والماعون. ومنها ما ختمت به كمریم وطه والأحقاف والملوك والقيامة والمرسلات والمطففين والتين.

وأمر النبي ﷺ بخطاب الاستفهام في مواضع عدة، منها قول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٥﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ [يونس: ٣٤-٣٥] وقوله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ [الرعد: ١٦].

والأصل فيه طلب الفهم والعلم بالشيء غير المعلوم بأدوات خاصة كالهزمة وهل وما غيرها. ويسمى الاستفهام على الأصل: الاستفهام الحقيقي.

وكثيراً ما يخرج عن هذا الأصل إلى معان وأغراض تفهم من خلال السياق وقرائن الأحوال كالتقرير، والإنكار، والتوبيخ، والتعجب، والتشويق، والحض، والتمني، وغيرها، ويسمى الاستفهام حينئذ: الاستفهام المجازي. والاستفهام الحجاجي يأتي متعلقاً بهذه المعاني المعدول إليها^(١).

وبعد الاستفهام في مقام الحجاج من الأساليب التي تكتنز طاقة إقناعية عالية التأثير؛ تهمز المخاطب وتنبه عقله وتثير تفكيره وتحرك عاطفته وتستميل قلبه وتحمله على الإذعان والافتناع والاستجابة.

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) إلى أن المقصود في الاستفهام المجازي إنما هو محض التنبيه، فقال بعد أن تحدث عن بعض الشواهد في معنى الإنكار: ((اعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه، فيحجل ويرتدع، ويعي بالجوأب))^(٢)، وعقب الدكتور محمد أبو موسى على قول الجرجاني بقوله: ((وهذا التنبيه عند الشيخ يكفي لتلقي كل ما يثار حول الفكرة من حقائق وبراهين تؤدي إلى رفضها أو قبولها أو الإقرار بها أو الخجل منها أو استنكارها أو استبعادها إلى آخر ما يعطيه الموقف. المهم أن يلتفت السامع إلى هذه الحقائق، ثم ندعه يتعامل معها بوعيه، ويتدبرها بفكره، وينتهي فيها إلى ما يراه))^(٣).

ولهذا نجد حاضراً في الحوار بين الرسل وأقوامهم، ومع كفار مكة، وخاصة في الاستدلال على ألوهية الله ﷻ، وعلى البعث بعد الموت، وفي الترغيب في الإيمان والترهيب من الضلال، ومن أمثلة ذلك قول الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ

(١) ينظر: الحجاج في القرآن: ٤٢٥.

(٢) دلائل الإعجاز: ١١٩.

(٣) دلالات التراكيب: ٢٤٤، وينظر: علم المعاني، لفيود: ١٢٧/٢.

فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ قَتَلْنَا فَأَنَّا نَبُغِ اللَّهُ فَمَا نَبُغِ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣١-٣٢﴾، وقول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَزْنَابٌ مَّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٣﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩-٤٠﴾، وقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ كَذَبُوا فَاخَذْنَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤١﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٤٢﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٤٣﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٤٤﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ يَذُوبُهُمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤٥﴾ [الأعراف: ٩٦-١٠٠]، وأي رهبة تثيرها هذه الاستفهامات المتتابعة في النفوس!

ونوح عليه السلام في خطابه لقومه يلجأ إلى الاستفهام: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿٢﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿٣﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿٤﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٥﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿٦﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿٧﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٨﴾.

وهو استفهام يحمل معاني التعجب والتوبيخ والإنكار، جاء بعد لغة ترغيبية هادئة: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٣﴾، لكن القوم أهل إصرار واستكبار، كلما دعاهم نوح عليه السلام ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٤﴾، فانتقل الخطاب إلى تذكيرهم بربوبية الله عز وجل لهم وعظم نعمته عليهم مما يستوجب الإيمان به وعبوديته وحده، وجاء هذا الاستدلال على ألوهية الله وعلى البعث بلغة الاستفهام لما فيه من قوة التنبية وإثارة الذهن للنظر

والتدبر والتأمل. وسبق ما في هذه الآيات من الأساليب البلاغية في الحديث عن خطاب نوح لقومه.

٦- الإيجاز: الإيجاز هو: التعبير الوافي عن المعنى المراد بلفظ قليل. ويقسم جمهور البلاغيين الإيجاز إلى: إيجاز حذف: وهو ما كان بحذف شيء من الكلام. وإيجاز قصر: وهو ما لم يكن بحذف^(١).

و((الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام، وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه))^(٢). ومع هذا فإن العرب كما قال ابن جني (٣٩٢هـ): ((هم إلى الإيجاز أميل، وبه أعنى، وفيه أرغب. ألا ترى إلى ما في القرآن وفصيح الكلام من كثرة الحذف، كحذف المضاف، وحذف الموصوف، والاكتفاء بالقليل من الكثير... مما يزيل الشك عنك في رغبتهم فيما خفّ وأوجز، عما طال وأمل))^(٣).

والإيجاز سمة في نظم القرآن الكريم، وخصيصة من خصائصه الأسلوبية، كيف وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ» وفي رواية: «أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»^(٤)، والكلم الجوامع: ((الكلمات البليغة الوجيزة الجامعة للمعاني الكثيرة))^(٥)، وذكر البخاري (٢٥٦هـ) بعد روايته لهذا الحديث قول الزهري (١٢٤هـ): ((بلغني أن "جوامع الكلم" أن الله يجمع الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٣/١٨٣ و ١٩٠، ومعجم المصطلحات البلاغية: ١/٢٢٤ و ٣٤٤ و ٣٤٧ و ٣٤٩ و ٣٦١.

(٢) كتاب الصناعتين: ١٩٠.

(٣) الخصائص: ١/٨٣-٨٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٢٩٧٧)، ومسلم في صحيحه: برقم (٥٢٣).

(٥) المفهم لما اشكل من تلخيص كتاب مسلم: ٥/٢٦٧، وينظر: فتح الباري: ١٧/١٢٦.

الواحد والأميرين، أو نحو ذلك))، وقال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((جزم غير الزهري بأن المراد بجوامع الكلم: القرآن، بقريته قوله: «بُعِثت» والقرآن هو الغاية في إيجاز اللفظ واتساع المعاني))^(١)، قال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) عن القرآن العظيم: ((جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه، وذلك معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أوتيت جوامع الكلم»))^(٢).

و(جوامع الكلم) هي إيجاز القِصَر. وتَمُدُّحُ العرب بالإيجاز إنما هو في أمر هذا النوع أكثر من غيره، قال العلوي (٧٤٩هـ): ((وهذا القسم من الإيجاز له في البلاغة موقع عظيم، دقيق الجري، صعب المرتقى، لا يختص به من أهل الصناعة إلا واحد بعد واحد))^(٣).

والمتأمل في الخطاب الدعوي في سورة نوح يجد الإيجاز ظاهرًا بصورة عامة، ولو كان هناك بعض من صور الإطناب كالتكرار مثلاً، إلا أن تلك الصور تأتي ضمن خطاب يوصف بالنظر إليه كله دون جزئياته بصفة الإيجاز والقصر.

لقد أوجزت السورة دعوة نوح ﷺ التي امتدت ألف سنة إلا خمسين عامًا في ألفاظ قليلة، أوجزت بدءها وختامها وأحداثها، وكأنها جرت في أيام معدودة.

(١) فتح الباري: ١٧/١٢٦. والذي يظهر أن الحديث عام في كل ما أوتيته النبي ﷺ، ويشمل القرآن والسنة، وقد قال النبي ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» [أخرجه أحمد في مسنده: ٤١٠/٢٨ برقم (١٧١٧٤)، وأبو داود في سننه: برقم (٤٦٠٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١١٧/٣]، وقال أبو موسى الأشعري ﷺ في حديث له: «وكان رسول الله ﷺ قد أعطي جوامع الكلم بخواتمه» [أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (١٧٣٣)].

(٢) تأويل مشكل القرآن: ٣.

(٣) الطراز: ٢٥٩، وينظر: الإعجاز البلاغي: ٩٢-٩٣.

كان هذا هو خطاب نوح عليه السلام لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ أَنْ
 اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٢﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ
 أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٤﴾
 يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٥﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ
 أَنْهَارًا ﴿٦﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٧﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿٨﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ
 اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿٩﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ
 أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١١﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٢﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ
 الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٣﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿١٤﴾﴾.

إنها كلمات قلنل يخاطبهم بما ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، لكنها كلمات جمعت
 حقيقة الدعوة وغايتها وثمراتها والحجة عليها.

وأما خاتمة القوم التي فيها نذارة لأهل مكة وتسلية للرسول محمد صلى الله عليه وسلم فكانت
 موجزة أشد الإيجاز لكن وقعها على النفوس عظيم: ﴿يَمَّا خَطِبْتَاهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا
 نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿١٥﴾﴾.

٧- وحدة النظم: ويقصد به: الترابط بين ألفاظ النص وتراكيبه ومعانيه وأجزائه،
 فيظهر على أنه وحدة نصية واحدة، معانيه متناسبة متنسقة في غاية الحبك،
 وألفاظه وتراكيبه منسجمة في غاية السبك.

وهذا أمر أشار إليه العرب، ومما يحكى في ذلك أن عمر بن لجأ (ت ١٠٥هـ)
 قال لابن عم له: أنا أشعر منك. قال: وكيف؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وأنت
 تقول البيت وابن عمه. ولهم في ذلك أقوال وأشعار، منها:

وَشِعْرٌ كَبَعْرِ الْكَبْشِ فَرَّقَ بَيْنَهُ لِسَانٌ دَعِيٌّ فِي الْفَرِيضِ دَحِيلُ

قال الخاتمي (٣٨٨هـ): ((يقول: هو مختلف المعاني، متباين المباني، جارٍ على غير مناسبة ولا مشاكلة ولا مقاربة؛ لأن بعر الكبش يقع متبدداً متفرقاً متبايناً))^(١).

وقال عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ): ((لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يُعْلَق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتُجْعَل هذه بسبب من تلك))^(٢). وذكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ) أنه ((سر البلاغة؛ لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لما اقتضاه من الحال))^(٣)، وقد قيل: ((البلاغة: القوة على البيان مع حسن النظام)) وقيل: ((البلاغة أن يكون أول كلامك يدل على آخره، وآخره يرتبط بأوله))^(٤).

وأما كلام الله المعجز فإنه أولى بذلك، قال الرازي (ت ٦٠٦هـ): ((أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط))^(٥). وقال ولي الله الملوي (٧٧٤هـ): ((والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها، وما سيقت له))^(٦).

وقد عد التناسب في القرآن من دلائل إعجازه، قال الرازي (ت ٦٠٦هـ): ((القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً معجز

(١) الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي: ٩.

(٢) دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٥٥.

(٣) نظم الدرر: ٦/١.

(٤) ينظر القولان في: العمدة: ٢٤٤/١.

(٥) تفسير الفخر الرازي: ١٤٥/١٠.

(٦) البرهان في علوم القرآن: ٣٧/١، ونسب القول إلى بعض مشايخه دون أن يسميه، وسماه البقاعي في نظم الدرر: ٨/١.

بحسب ترتيبه ونظم آياته^(١)، وقال البقاعي (ت ٨٨٥هـ): ((بهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللب؛ وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقتين: إحداهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب. والثانية: نظمها مع تاليتها بالنظر إلى الترتيب)).

وقام علم من علوم القرآن عليه، وهو: علم المناسبة، أو المناسبات، عرفه البقاعي (ت ٨٨٥هـ) بأنه: ((علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه))^(٢).

والله عَلَيْهِ يقول: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١-٢]، وقال: ﴿فَرَأْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قال أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ): ((القرآن كله كالسورة الواحدة))^(٣)، قال الرازي (ت ٦٠٦هـ): ((القرآن كله كالسورة الواحدة؛ لاتصال بعضه ببعض))^(٤). ونقل الزركشي (ت ٧٩٤هـ) عن القاضي أبي بكر بن العربي (٥٤٣هـ) قوله في كتابه "سراج المريدين": ((ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة: متسقة المعاني منتظمة المباني، علم عظيم))^(٥).

(١) تفسير الفخر الرازي: ١٣٩/٧.

(٢) نظم الدرر: ٦/١.

(٣) عن مغني اللبيب: ٣٢٩.

(٤) تفسير الفخر الرازي: ٢١٤/٣٠.

(٥) البرهان في علوم القرآن: ٣٦/١.

ومن صور الترابط والانسجام في الخطاب الدعوي في سورة نوح ﷺ ما يأتي: أ- التلاؤم الصوتي:

يقصد به التناسب الصوتي بين الألفاظ والتراكيب في النظم، بحيث تظهر في النطق منسجمة متألّفة لا متنافرة. وذكره الرماني (ت ٣٨٤هـ) قسماً من البلاغة التي عدّها وجهاً من وجوه إعجاز القرآن، وقال: ((التلاؤم: نقيض التنافر. والتلاؤم: تعديل الحروف في التأليف، والتأليف على ثلاثة أوجه: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا... والمتلائم في الطبقة العليا: القرآن كله، وذلك بيّن لمن تأمله... والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليه من حسن الصورة وطريق الدلالة))^(١)، وذكره الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) من وجوه النظم المعجز، قال: ((وتلاؤم الحروف والكلمات والفواصل والمقاطع في الآيات))^(٢).

ومن قبل قال الجاحظ (ت ٢٥٥هـ): ((ومن ألفاظ العرب ألفاظ تنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض استكراه... وأنشدني أبو العاصي قال: أنشدني خلف الأحمر في هذا المعنى:
وَبَعْضُ قَرِيضِ الْقَوْمِ أَنْبَاءُ عَلَّةٍ يَكِيدُ لِسَانَ النَّاطِقِ الْمُتَحَفِّظِ))

قال الجاحظ: ((وأجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فيعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً جيداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان... وكذلك حروف الكلام وأجزاء الشعر من البيت تراها متفقة لمسأ، ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكراهة، تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مؤاتية، سلسلة النظام خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد))^(٣).

(١) النكت في إعجاز القرآن: ٩٤-٩٦.

(٢) بصائر ذوي التمييز: ٦٨/١.

(٣) البيان والتبيين: ٦٥-٦٧. وينظر: شرح ديوان الحماسة: ١٠/١، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٢٩١/١، ومقاييس البلاغة: ١٨٣-١٩٦.

وقال المرزوقي (٤٢١هـ) في حديثه عن خصال "عمود الشعر" عند العرب: ((وعيار التحام أجزاء النظم والتتامه على تخير من لذيذ الوزن: الطبع واللسان، فما لم يتعثر الطبع بأبنيته وعقوده، ولم يتحبس اللسان في فصوله ووصوله، بل استمر فيه واستسهلاه بلا ملال ولا كلال فذاك يوشك أن يكون القصيدة منه كالبيت، والبيت كالكلمة؛ تسامًا لأجزائه وتقارنًا))^(١).

وهذا التلاؤم الصوتي بين الألفاظ من النوع الذي سماه البلاغيون: ائتلاف اللفظ مع اللفظ، وهو: أن يكون في الكلام لفظ يصح معه واحد من عدة ألفاظ، فيختار منها ما بينه وبين ذلك اللفظ الأول ائتلاف وملاءمة، وإن كان غيره يسد مسده في المعنى^(٢).

وأما القرآن الكريم فإن نظمه قائم على التلاؤم والتناسب في ألفاظه وتراكيبه ومعانيه، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) مشيرًا إلى أن من بلاغة النظم ((فصاحة اللفظ وانسجام النظم، وذلك بسلامة الكلام في أجزائه ومجموعه مما يجزئ الثقل إلى لسان الناطق به... وقد سلم القرآن من هذا كله مع تفننه في مختلف الأغراض وما تقتضيه من تكاثر الألفاظ))^(٣)، وقال الدكتور محمد أبو موسى: ((وقد أقام القرآن أسلوبه على نظام من التآلف الصوتي العجيب، لوحظ ذلك في حروفه وكلماته وجمله، وصارت أصواته - كما يقول المرحوم الرافعي - ألحانًا لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هو توقعها))^(٤).

وسورة نوح يجري عليها ما يجري في سائر القرآن من التلاؤم بين الألفاظ، وائتلاف بعضها مع بعض، بانسجام تام من غير ثقل في النطق ولا نبو في السمع.

(١) شرح ديوان الحماسة: ١٠/١.

(٢) ينظر: كتاب الصناعتين، للعسكري: ١٢٠، ومنهاج البلغاء: ٢٢٢، والطرز، للعلوي: ٤٦٩، وأنوار الربيع، للمدني: ٢٣٤/٦، ومعجم المصطلحات البلاغية، لمطلوب: ١٦/١، ومقاييس البلاغة، للربيعي: ١٩٩.

(٣) التحرير والتنوير: ١١٢/١.

(٤) خصائص التراكيب: ٣٦٣.

ومن مظاهر التلاؤم الصوتي في الخطاب الدعوي في سورة نوح: السجع، وهو: توافق الفواصل في الحرف الأخير^(١). وله حظوة في كلام العرب، غير أنه كان يصدر منهم عن طبع سليم، ويقع ((سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، حيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه))^(٢).

وقد وجد فيهم من يتصنع السجع ويتكلفه تكلفاً ويقصد إليه قصدًا لا يقتضيه مقام الكلام، كالكهان وغيرهم، وفيهم وفي اتباع طريقتهم ورد ذم رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قضى في امرأتين من هذيل اقتلتا، فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فأصاب بطنها وهي حامل، فقتلت ولدها الذي في بطنها، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقضى أن دية ما في بطنها عُرة عبد أو أمة، فقال ولي المرأة التي عرمت: كيف أعزّم -يا رسول الله- من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهّل، فمثل ذلك يُطل، فقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُفَّانِ» من أجل سجعه الذي سجع^(٣)، ومسلم عن المغيرة بن شعبة ؓ: «أَسَجَّعَ كَسَجَّعِ الْأَعْرَابِ؟»^(٤).

وورد السجع كثيراً في القرآن العظيم، وبعض العلماء يسمي ما جاء في القرآن (فاصلة) ويتحاشى لفظ (السجع) لما ورد فيه من الكراهة. والكراهة الواردة مختصة بالمتكلف والذي يراد به إبطال حق أو إحقاق باطل^(٥).

(١) ينظر: كتاب الصناعتين: ٢٦٠، والتبيان، للطبي: ٥٢١/٢، وشروح التلخيص: ٤/ ٤٤٥.

(٢) سر الفصاحة: ١٦٣.

(٣) أخرجه البخاري: (٥٧٥٨)، ومسلم: (١٦٨١).

(٤) أخرجه مسلم: (١٦٨٢).

(٥) قال النووي (٥٦٧٦) في شرح صحيح مسلم [١٧٨/١١]: ((قال العلماء: إنما ذم سجعه لوجهين: أحدهما: أنه عارض به حكم الشرع، ورام إبطاله. والثاني: أنه تكلفه في مخاطبته. وهذا الوجهان من السجع مذمومان. وأما السجع الذي كان النبي ﷺ يقوله في بعض الأوقات، وهو مشهور في الحديث فليس من هذا؛ لأنه لا يعارض به حكم الشرع، ولا يتكلفه، فلا نهي فيه، بل هو حسن. ويؤيد ما ذكرنا من التأويل قوله ﷺ: «كَسَجَّعِ الْأَعْرَابِ»، فأشار إلى أن بعض السجع هو المذموم)). وينظر: فتح الباري: ٢١٨/١٠، وكتاب الصناعتين: ٢٦١، والمثل السائر: ٣١٠/١-٣١٢.

وذكر بعض العلماء أن القرآن قد يعدل إلى حذف حرف أو ذكر لفظ دون آخر أو تقديم وتأخير في النظم مراعاة للفواصل، وعلى سبيل المثال فإن سورة "القمر" رائية الفواصل، والمتأمل في نظمها يلحظ مراعاة حرف الفاصلة في جميع آياتها، وأن السورة تعدل عن الأصل حتى لا ينخرم النظم الصوتي للآيات، ومن ذلك مثلاً: حذف ياء المتكلم: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾، وتذكير "منقعر" وإفرادها: ﴿تَنْزِيْعُ النَّاسِ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾، وإضافة الهشيم إلى "المحتظر" وليس "الخطيرة": ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾، وإفراد "الدبر": ﴿سَهْزَمَ الْجَمْعِ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. وإفراد "النهر": ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾، وتقديم المفعول به: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ﴾.

على أن من العلماء من يرى عدم الاكتفاء بتفسير العدول بمراعاة الفاصلة فحسب، وإنما يتعاقد أيضاً مع مراعاة المعنى والسياق^(١). وأياً كان الرأي فإن مراعاة الفاصلة أثراً في نظم القرآن العظيم.

والقرآن نزل بلسان العرب، وعلى قوم يعنون بالسجع في كلامهم ويتأثرون به في خطابهم، فلا عجب إذن أن يعنى به ويقصد إليه ما دام سياق الخطاب يقتضيه، وقد جاء بانسجام عجيب تتأثر معه النفوس وتطرب له الآذان ولا تستثقله الألسن.

واستحب بعض العلماء السجع في الخطاب الدعوي إذا كان مما يعين على التأثير في النفوس بالحق، كما قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((ربما كان في بعضه ما يستحب، مثل أن يكون فيه إذعان مخالف للطاعة، كما وقع لمثل القاضي الفاضل في بعض رسائله، أو إقلاع عن معصية، كما وقع لمثل أبي الفرج ابن الجوزي في بعض مواعظه. وعلى هذا يحمل ما جاء عن النبي ﷺ، وكذا عن غيره من السلف الصالح))^(٢).

(١) ينظر آراء العلماء في مراعاة الفاصلة: البرهان في علوم القرآن: ٦٠/١ - ٦٧ و ٧٢.

(٢) فتح الباري: ١١٣/١٦.

والفواصل في سورة نوح عليه السلام متنوعة لكنها منسجمة، وفي خطاب نوح عليه السلام لقومه جاءت الفاصلة في الآيات (٢-٤) بالنون، ثم الآيات (٥-١٤) كل آية ختمت بالراء المفتوحة، ثم الآيات (١٥-٢٠) ختمت كل آيتين بالجيم المفتوحة. وبعد الآيات الأربع الأولى جاءت فواصل السورة بمد الفتحة، لم يتخلف أبداً. ومن صور مراعاة السجع: تقدم ذكر الليل على النهار في قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ مع أن زمن الدعوة عادة يكون في النهار. ومن ذلك تحوير وصف الغفار دون الغفور والغافر في قوله سبحانه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾.

ومن ذلك تأخير المفعول به "وقارا، أنصارا، ديارا" في قوله سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ وقوله: ﴿بِمَا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ وقال نوح رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا. ومن ذلك تقدم "فجاجاً" على "سبلاً" بعكس ما في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [آية: ٣١]، قال السمين الحلبي (٧٥٦هـ): ((لتناسب الفواصل))^(١).

ومن التلاؤم الصوتي في السورة: مجيء الفاصلة "سراجاً" في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((لم يخبر عن الشمس بالضياء كما في آية سورة يونس: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ [يونس: ٥]، والمعنى واحد وهو الإضاءة؛ فلعل إيثار السراج هنا لمقاربة تعبير نوح في لغته، مع ما فيه من الرعاية على الفاصلة؛ لأن الفواصل التي قبلها جاءت على حروف صحيحة، ولو قيل: ضياء، لصارت الفاصلة همزة، والهمزة قريبة من حروف العلة فيثقل الوقف عليها))^(٢).

(١) الدر المصون: ٤٧٢/١٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٠٣/٢٩. وسبق في المبحث الأول التعقيب على قوله: ((لمقاربة تعبير نوح في لغته)).

ومن التلاؤم الصوتي: العدول عن "إنبات" مصدرًا لـ "أنبت" إلى "نبات" في قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ ومما فسر به: كون المصدر القياسي أثقل في النطق، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((نباتًا: اسم من أنبت، عومل معاملة المصدر فوق مفعولًا مطلقًا لـ ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾ للتوكيد، ولم يجر على قياس فعله فيقال: إنباتًا؛ لأن ﴿نَبَاتًا﴾ أحف، فلما تسنى الإتيان به لأنه مستعمل فصيح لم يُعدل عنه إلى الثقيل كمالاً في الفصاحة))^(١)، وقيل غير ذلك^(٢).

ومن التلاؤم: ترك تكرار "لا" في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾. وذكر ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) أن عدم إعادتها ((لأن الاستعمال جارٍ على أن لا يزداد في التأكيد على ثلاث مرات))^(٣)، وتكرارها في جميع الأسماء مع تقاربها يحدث ثقلًا صوتيًا، كما أن التوازن بين لفظي "يعوق" و"يعوث" أكثر تلاؤمًا بترك التكرار.

ب- التناسب المعنوي:

ويقصد به: الترابط بين الألفاظ أو التراكيب أو أجزاء النص من جهة المعنى. ونوه حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) بأهمية التناسب، وجعل علم البلاغة هو الطريق إلى معرفة طرقة، قال: ((معرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان إلا بالعلم الكلي في ذلك، وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع، فيعرف حال ما خفيت به طرق الاعتبارات من ذلك بحال ما وضحت فيه طرق الاعتبار، وتوجد طرقهم في جميع ذلك تتراعى إلى جهة واحدة من اعتماد ما يلائم واجتناب ما ينافر))^(٤).

(١) المرجع السابق: ٢٠٤/٢٩.

(٢) ينظر: تفسير الفخر الرازي: ١٤٠/٣٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٢١٠/٢٩.

(٤) منهاج البلغاء: ٢٢٦-٢٢٧.

والتناسب يأتي على صور عدة، ويكون بمراعاة النظير والموافق، ويكون بمراعاة الضد والمطابق، قال ابن سنان (ت ٤٦٦هـ): ((فأما تناسب الألفاظ من طريق المعنى فإنها تتناسب على وجهين: أحدهما: أن يكون معنى اللفظتين متقاربًا. والثاني: أن يكون أحد المعنيين مضادًا للآخر أو قريبًا من المضاد. فأما إذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمتناسبة))^(١).

ومن صور التناسب في سورة نوح ما يأتي:

١ - براعة الاستهلال:

من حسن الابتداء ما سماه البلاغيون: براعة الاستهلال، إذا كان الابتداء مضمناً فيه ما يشير إلى المقصود ويناسب الغرض، مما يُعد مظهرًا من مظاهر الترابط والتماسك وحسن النظم بين أجزاء النص.

وقد ذكر نوح عليه السلام في بداية خطابه مقصوده منه، وهو إنذار قومه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وهذا إعلان لهوية الخطاب من أول وهلة، كما أن الآية الأولى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إعلان لهوية السورة من أول وهلة.

وكلاهما - خطاب نوح، والسورة - أعلننا منذ البداية أن المقصود هو الإنذار: نوح ينذر قومه، والسورة تنذر قوم محمد عليه الصلاة والسلام.

(١) سر الفصاحة: ١٩٩.

٢- مراعاة النظر:

من الأساليب البديعية التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالتناسب بين أجزاء النص ما سماه البلاغيون: مراعاة النظر، وهو: أن يجمع المتكلم بين أمور متناسبة من غير تضاد. وقيد بغير التضاد ليخرج ما كان التناسب بالتضاد، ويبحث في الطباق والمقابلة. ولاتصال هذا الأسلوب بالترابط بين معاني النص سمي أيضاً: التناسب، والاتلاف، والتوفيق، والمؤاخاة^(١).

ومن مراعاة النظر في السورة: الجمع بين العبادة والتقوى والطاعة في قوله: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾، ومن ذلك الجمع بين الأولاد والبنين والجنات والأنهار: ﴿وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

٣- التقابل:

سبق الحديث عن التقابل باعتباره ظاهر أسلوبية في الخطاب الدعوي في القرآن الكريم، وهنا أشير إليه باعتباره أيضاً مظهرًا من مظاهر التناسب بين المعاني وأداة من أدوات الترابط داخل النص، والشواهد عليه في السورة ظاهرة، سبق ذكرها من قبل.

٤- رد العجز على الصدر:

من الأساليب البديعية ما سماه البلاغيون: رد العجز على الصدر، أو: رد الأعجاز على ما تقدمها، ويسمى: التصدير. وهو: أن يكون لفظ آخر الكلام موافقًا للفظ أوله^(٢).

وهو كثير في القرآن الكريم، وقد يأتي على مستوى الآية، وقد يأتي على مستوى السورة، ويعد مظهرًا للتناسب والترابط على مستوى النص.

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٣٠١/٤، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٢٤٣/٣.

(٢) ينظر: شروح التلخيص: ٤٣٣/٤، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٢٢٨/٢، ٢٠/٣.

ومما ورد منه في السورة قول الله ﷻ عن نوح ﷺ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾.

وجاءت خاتمة السورة دعاء بالمغفرة للمؤمنين: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ وهي الثواب الذي ذكره نوح ﷺ في أول السورة لمن آمن بالله: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا مَا يَأْمُرُكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾. وهذا يتناسب آخر السورة مع أولها.

٥- حسن الانتقال:

ويسمى: حسن التخلص، وحسن الخروج.

وهو أن ينتقل المتكلم من غرض إلى غرض ومن معنى إلى آخر ببراعة لا يجد معها المتلقي شعورًا بالخروج والانتقال، وهذا يدل على قوة تماسك الكلام وترابطه، قال ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) متحدًا عن أركان الكتابة: ((الركن الثالث: أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة؛ لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض، ولا تكون مقتضية، ولذلك باب مفرد أيضًا يسمى: باب التخلص والاقتضاب، وهذا الركن أيضًا يشترك فيه الكاتب والشاعر))^(١)، وقال: ((حقيقة التخلص إنما هي الخروج من كلام إلى آخر غيره بلطفية تلائم بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج إليه، وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة من ذلك، كالخروج من الوعد والتذكير بالإنذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهي ووعد ووعد، ومن محكم إلى متشابه، ومن صفة لنبي مرسل ومملك منزل إلى ذم شيطان مرید وجبار عنيد، بلطائف دقيقة ومعان آخذ بعضها برقاب بعض))^(٢).

وحيثما تتأمل مشاهد القصة في السورة نجد الانتقال من مشهد إلى آخر يأتي بأحسن أسلوب وأوثق رباط، فقد بدأت السورة بأمر الله ﷻ لنوح ﷺ بالدعوة، ثم

(١) المثل السائر: ٩٧/١.

(٢) المرجع السابق: ١٥٣/٣.

اعقبته باستجابة نوح عليه السلام للأمر، ثم بيان صبر نوح على دعوة قومه مع إعراضهم واستكبارهم، ثم يأسه من استجابة قومه وبيان عاقبتهم والدعاء عليهم بالهلاك وللمؤمنين بالمغفرة والفلاح.

٦- الوصل والفصل:

الوصل هو: العطف، والفصل: ترك العطف، سواء أكان العطف بين الجمل أم بين المفردات، وسواء بين الجمل التي لا محل لها من الإعراب أم التي لها محل، وسواء كان العطف بالواو أم بغيرها من حروف العطف، وإن كانت الواو أكثر اعتبارات بلاغية من غيرها.

وهذا المبحث البلاغي من المباحث المهمة التي لقيت عناية من البلاغيين، حتى جعله عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) ((من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخالص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام، هم بما أفراد)) وقال: ((وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدًا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال: معرفة الفصل من الوصل. ذاك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة))^(١).

وهو شديد التعلق بإحكام نظم النص والترابط بين ألفاظه وتراكيبه، سواء كان الرباط معنوياً كما هو في الفصل، أم لفظياً كما في الوصل بأداة العطف. وفي كلا الحالين فإن التناسب بين معاني التراكيب أمر لا بد منه، قال الدكتور بسيوني فيود: ((المناسبة والتلاؤم والتآلف مطلوب بين المفردات وبين الجمل، سواء أعطفت أم اقرنت بدون عطف، فكما لا يجوز أن تقول: هو يكتب الشعر ويأكل السمك، فإنه

(١) كلا النصين في دلائل الإعجاز: ٢٢٢.

بمتنع أيضاً قولك: هو يكتب الشعر يأكل السمك، بدون واو، وكذا بمتنع الجمع بين مرارة الفراق وكرم الممدوح بلا عطف^(١).

وخطاب السورة كله بين وصل وفصل، فإذا اقتضى السياق الفصل ترك العطف، وإذا لم يقتضه بقي العطف.

ومن الفصل قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿ فصلت الآية الثانية لكونها بياناً لقوله سبحانه: ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والجملة المبيّنة بمنزلة المبيّنة. قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): ((ولك أن تجعلها استثناءً بيانياً لجواب سؤال السامع أن يسأل: ماذا فعل نوح حين أرسل الله إليه: ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾^(٢).

ومن الفصل قول الله ﷻ عن نوح عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿إِنْ اِعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقَوْهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا يُغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ فصلت الآية الثانية عن الأولى لكونها في محل جواب سؤال عن جزاء الطلب: وماذا لنا لو عبدنا واطعنا وأطعنا؟ وليس بين السؤال وجوابه عطف، بل هما متصلان لفظاً ومعنى.

ومثله قول نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ففصل بين جملة الطلب ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ وجملة الخبر ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾؛ لكون الثانية في محل جواب سؤال عن علة الطلب.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴿ جاء الفصل في الآية الثانية لكونها تعليلاً للطلب في الآية الأولى.

(١) علم المعاني: ١٨٢/٢، وينظر: دلالات التراكيب: ٢٧٤.

(٢) التحرير والتنوير: ١٨٨/٢٩.

ومن الوصل وهو كثير قول نوح: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ فهذه جمل اشتركت في صيغة الإنشاء، وليست كل واحدة بمنزلة الثانية وليس ثمة ما يقتضي الفصل، فحسن الوصل مع ما بينها من التناسب.

ومثل ذلك الجملتان الخبريتان اللتان وقعتا جزاءً للطلب: ﴿يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فاشتركتا في الخبرية والجزاء في مقام الترغيب، وليس ثمة ما يقتضي الفصل فحسن الوصل.

ومثلهما في الاشتراك في الخبرية والجزاء ترغيباً قول نوح: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ والوصل هنا مع تعدد الجمل يشعر بعظم الجزاء ووفرتة.

ومن الوصل قول نوح عن موقف قومه: ﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَتَغَفَرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعَسَوْا تِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ والوصل هنا مع تعدد الجمل يشعر بشدة إعراضهم وتنوع مواقفهم.

ومن الوصل بغير الواو قول الله عن نوح: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۖ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، وقوله سبحانه: ﴿مِمَّا حَطَبَتْنَاهُمْ أُغْرُقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ جاء الوصل في الأول بـ"ثم" وفي الثاني بـ"الفاء"، وسبق بيان وجه البلاغة فيهما.

ومواضع الوصل في السورة كثيرة، والمقصود هنا الإشارة إلى أن الوصل والفصل من مظاهر التعالق بين ألفاظ النص وتراكيبه، مما يحكم الترابط النصي في الخطاب.

الخاتمة

تناول البحث بلاغة الخطاب الدعوي في سورة نوح ﷺ، من خلال خطابين: أحدهما: خطاب نوح ﷺ لقومه، وهو خطاب مباشر صريح، كما سردته السورة. والثاني: خطاب القصة للنبي محمد ﷺ وقومه، وهو خطاب تعريضي غير مباشر، مقصود من سرد القصة.

وأجاب البحث عن سؤاله: ما الخصائص البلاغية لنظم الخطاب الدعوي من خلال سورة نوح؟ منتهياً إلى أن من أبرز الخصائص البلاغية في الخطاب الدعوي التي ظهرت في سورة نوح هي: الفصاحة والإبانة، وحسن الابتداء بالنداء، والتأكيد، والتقابل، والاستفهام الحجاجي، والإيجاز، والترابط النصي الذي أسهم فيها جانبان مهمان: التلاؤم الصوتي بين الألفاظ وبين التراكيب، والتناسب المعنوي. وتحقق التناسب من خلال مجموعة من الأساليب كبراعة الاستهلال، ومراعاة النظرير، والطباق والمقابلة، ورد العجز على الصدر، وحسن الانتقال، والوصل والفصل.

ولا يزال الخطاب الدعوي في القرآن الكريم والسنة النبوية بحاجة إلى مزيد من الدراسات البلاغية لاستكشاف خصائصه الأسلوبية التي أسهمت في قوة تأثيره. وأوصي الباحثين في البلاغة العربية بدراسة الخطابات الدعوية التي أنتجها الدعاة والوعاظ والمصلحون قديماً وحديثاً سواء أكانت مؤثرة أم غير مؤثرة؛ لتقومها ونقدتها إسهاماً منهم في الرقي بلغة الخطاب الدعوي.

كما أوصي الدعاة إلى الله ﷻ أن يعنوا بالارتقاء في لغة خطابهم وأساليبه البلاغية؛ فإن الداعية إذا كان يسعى إلى استمالة المخاطبين وإقناعهم والتأثير فيهم فيتطلب منه النصح لأن يستخدم كل ما يمكنه من أدوات تمدد بذلك التأثير، ومن أهم هذه الأدوات: البلاغة، فیتعلمها ويتدرب على تطبيقها. أسأل الله ﷻ أن ینفع بما نقول ونكتب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمین.

المراجع

- ١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
- ٢- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، لقيس إسماعيل القيسي، نشر بيت الحكمة بجامعة بغداد.
- ٣- الإعجاز البلاغي، لمحمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٤- الأفعال في القرآن الكريم، لعبد الحميد السيد، دار البيان العربي، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ٥- أنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم المدني، تحقيق: شاعر هادي شكر، مطبعة النعمان بالنجف، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ.
- ٦- الإيضاح، للخطيب القزويني، مطبوع مع شروح التلخيص = شروح التلخيص.
- ٧- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ٨- البرهان في تناسب سور القرآن، لابن الزبير الثقفي، تحقيق: سعيد الفلاح، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
- ٩- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- ١٠- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦هـ.
- ١١- البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.

- ١٢- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: عبد الستار فراج وآخرين، إصدار وزارة الإعلام والمجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، من ١٣٨٥-١٤٢٢هـ.
- ١٣- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، تحقيق: أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ.
- ١٤- التبيان في البيان، لشرف الدين الطيبي، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.
- ١٥- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- ١٦- التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة عشرة، ١٤٢٣هـ.
- ١٧- تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، لطفه محمد فارس، دار الفتح، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.
- ١٨- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ١٩- تفسير الفخر الرازي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- ٢٠- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: سامي السلامة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ٢١- تفسير المنار "تفسير القرآن الحكيم"، لمحمد رشيد رضا، دار المنار، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٦٦هـ.
- ٢٢- تناسق الدرر في تناسب السور، للسيوطي، تحقيق: عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ.
- ٢٣- تنزيل القرآن مع كتاب "الناسخ والمنسوخ"، كلاهما للزهري، تحقيق: حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ.

- ٢٤- تنزيل القرآن وعدد آياته، لابن زنجلة، تحقيق: غانم الحمد، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، جدة، العدد الثاني، ذو الحجة ١٤٢٧هـ.
- ٢٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، تحقيق: أ.د. عبدالرحمن بن معلا اللويحي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٢٦- جامع البيان في تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق: أ.د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ٢٧- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق: عبدالله التركي وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- ٢٨- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، لعبدالله صولة، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.
- ٢٩- خصائص التراكيب، لمحمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤١٦هـ.
- ٣٠- الخصائص، لابن جني، تحقيق: محمد النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، مصورة عن نشرة دار الكتب المصرية.
- ٣١- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، تحقيق: أ.د. أحمد الخراط، دار القلم، دمشق.
- ٣٢- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، لمحمد عبد الخالق عزيمة، دار الحديث، القاهرة.
- ٣٣- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.
- ٣٤- دلالات التراكيب، لمحمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

- ٣٥- الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي، للحاتمي، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ.
- ٣٦- روح المعاني، للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة مصورة عن طبعة إدارة الطباعة المنيرية، ١٤٠٥هـ.
- ٣٧- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج بن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- ٣٨- سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.
- ٣٩- سنن أبي داود، تحقيق عزت الدعاس وعادل السيد، دار الحديث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.
- ٤٠- شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة لأولى، ١٤١١هـ.
- ٤١- شرح صحيح مسلم، للنووي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- ٤٢- شروح التلخيص، دار السرور، بيروت.
- ٤٣- صحيح البخاري، للإمام البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكبتها، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.
- ٤٤- صحيح سنن أبي داود، للألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ٤٥- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج، عناية: نظر الفريابي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- ٤٦- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي، مراجعة وضبط: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

- ٤٧- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي، ضمن شروح التلخيص = شروح التلخيص.
- ٤٨- علم المعاني، لبيسوي فيود، مكتبة وهبة، القاهرة.
- ٤٩- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ.
- ٥٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، عناية: نظر الفارياي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- ٥١- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤٠٠هـ.
- ٥٢- كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٦هـ.
- ٥٣- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، تحقيق: عادل عبدالموجود وآخرين، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ٥٤- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- ٥٥- المثل السائر، لضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ٥٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تحقيق: عبدالسلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ٥٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، إشراف: د. عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦-١٤٢١هـ.

- ٥٨- معالم التنزيل، للبعغوي، تحقيق: محمد النمر وآخرين، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٩هـ.
- ٥٩- معاني القرآن، لأبي زكريا الفراء، تحقيق: محمد النجار وأحمد نجاتي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.
- ٦٠- معجم المصطلحات البلاغية، د. أحمد مطلوب، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٣هـ.
- ٦١- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، لابن هشام، تحقيق: مازن المبارك وحمد الله، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ٦٢- مفتاح العلوم، للسكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
- ٦٣- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- ٦٤- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين مستو وآخرين، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- ٦٥- مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، د. حامد صالح الربيعي، نشر معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ.
- ٦٦- مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجليل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٦٧- المكّي والمدني في القرآن الكريم، أ.د. محمد بن عبدالرحمن الشايع، د.ن، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ٦٨- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجني- تحقيق: محمد الحبيب ابن خوجعة- دار الكتب الشرقية.

- ٦٩- مواهب الفتاح، لابن يعقوب المغربي، ضمن شروح التلخيص - شروح التلخيص.
- ٧٠- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، تصحيح: علي الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٧١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٤٠٤هـ.
- ٧٢- النكت في إعجاز القرآن، للرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.
- ٧٣- الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي بن أبي طالب، تحقيق: مجموعة من الباحثين، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
- ٧٤- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

البحث رقم (٢)

آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
في القرآن الكريم
دراسة وصفية تحليلية

إعداد

د. محمود بن عبد الهادي دسوقي علي العزاوي

قسم الحسبة والرقابة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة

إِن الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ،
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،
﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١)، ﴿يَأْتِيهَا
النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا
اللَّهَ الَّذِي نَسَاءَ لُونِيبِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢)، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا
اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٣) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٤)، ﴿أَمَّا بَعْدُ﴾ (٥).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له منزلة رفيعة، فهو أصل مهم من
أصول الدين، وله مكانة عظيمة، وآثار متعددة، ومنافع كثيرة في حياة الأمم
أفرادًا وجماعات، "فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القُطْبُ
الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى
بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٠-٧١.

(٤) رواه النسائي في سننه، كتاب النكاح، ما يُسْتَحَبُّ مِنَ الْكَلَامِ عِنْدَ النِّكَاحِ، رقم الحديث (٣٢٧٨)، ورواه
ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب خُطْبَةِ النِّكَاحِ، رقم الحديث (١٨٩٢)، وصححه الحاكم في
المستدرک، رقم الحديث (٢٧٤٤)، وابن حبان في صحيحه، رقم الحديث (٦٥٦٨) والألباني في مشكاة
المصابيح، برقم (٥٨٦٠).

الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد^(١).

وقد جاء القرآن الكريم فبين عظيم مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلو شأنه ومنزلته، وذكر بعظيم فضله، وشجع ورغب في سلوك طريقه، وبين صفات من يسلكه، وبين آثار العمل به، وحذر من تركه والانشغال عنه، وبين خطر التهاون فيه، والتغافل والإعراض عنه.

والمأمل في القرآن يجد أن الله اصطفى هذه الأمة وجعلها خير أمة أخرجت للناس بسبب أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، وجعل من أهم صفات المؤمنين أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وجعل ربنا سبحانه وتعالى الدرجات العلى للقائمين بهذه الشعيرة العظيمة؛ فرتب الجزاء العظيم، ورغب في الثواب الجزيل، وأعد المنازل العالية، وجعل القيام بهذه الشعيرة حفظاً للأمة من الآثام والشورور وصوناً لها من العواقب الوخيمة، وتحقيقاً لمصالح البشرية.

وبين القرآن الكريم العبء الثقيل الذي أنيط بالأمة الإسلامية لتكون لها الصدارة لسائر الأمم، لتخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشرك إلى التوحيد.

ولا يزال الخير باقياً في الأمة الإسلامية ما بقي فيها الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، فبالتمسك به نالت الأمة السيادة والريادة والقيادة بين سائر الأمم، وعلا شأنها، وارتفع قدرها، ووجدت هيبتها عند عدوها.

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (٢/٣٠٦)، دار المعرفة، بيروت.

والآمرين بالمعروف والناهون عن المنكر صفوة المجتمع اجتباهم الله وهداهم، غرباء في وسط مجتمعاتهم، "فَأَهْلُ الْإِسْلَامِ فِي النَّاسِ غُرَبَاءُ، وَالْمُؤْمِنُونَ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ غُرَبَاءُ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْمُؤْمِنِينَ غُرَبَاءُ. وَأَهْلُ السُّنَّةِ الَّذِينَ يُمَيِّزُونَهَا مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ فَهُمْ غُرَبَاءُ، وَالِدَّاعُونَ إِلَيْهَا الصَّابِرُونَ عَلَى أَدَى الْمُخَالَفِينَ هُمْ أَشَدُّ هَوْلًا غُرَبَةً، وَلَكِنَّ هَوْلًا هُمْ أَهْلُ اللَّهِ حَقًّا، فَلَا غُرَبَةَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا غُرَبَتُهُمْ بَيْنَ الْأَكْثَرِينَ" (١).

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فوائد منها: "الأولى: إِقَامَةُ حُجَّةِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (٢). الثانية: خُرُوجِ الْأَمْرِ مِنَ عَهْدَةِ التَّكْلِيفِ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي صَالِحِي الْقَوْمِ الَّذِينَ اعْتَدَى بَعْضُهُمْ فِي السَّبْتِ: ﴿قَالُوا مَعذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ وَعَلَهُمْ يَنْقُونَ﴾ (٣)، الآية، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَوْلَ عَنَّهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ (٤)، قَدْ لَعَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُخْرِجْ مِنَ الْعَهْدَةِ لَكَانَ مَلُومًا. الثالثة: رِجَاءِ النَّفْعِ لِلْمَأْمُورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا مَعذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ وَعَلَهُمْ يَنْقُونَ﴾ (٥) (٦).

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، (٣/

١٨٦)، تحقيق: محمد المعصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣/١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

(٢) سورة النساء، جزء الآية: ١٦٥.

(٣) سورة الأعراف، جزء الآية: ١٦٤.

(٤) سورة الذاريات، الآية: ٥٤.

(٥) سورة الأعراف، جزء الآية: ١٦٤.

(٦) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الحكيم الشنقيطي، (١/٤٦٥)،

الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

ولما كان لهذه الشعيرة هذه المكانة والعناية الظاهرة في كتاب الله وتلك المنزلة العظيمة استخرت الله في جمع النصوص المتعلقة بآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصفات وآداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وموضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومراتب ودرجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال نصوص القرآن الكريم، وآثار وثمرات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث تتبعت النصوص القرآنية التي تحدثت عن ذلك، وذلك لأن القرآن هو الأصل الأول من أصول ديننا الحنيف، ولأهمية ذلك، والحاجة داعية إليه، وبعد أن تأملت وبحثت فلم أجد فيما أعلم مثل هذه الدراسة.

وكان سبب اختيار هذا الموضوع:

- أنني لم أقف على دراسة تناولت هذا الموضوع وغطت جوانبه من جميع النواحي، وإن وجد من تكلم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قديماً وحديثاً.
- أهمية الدراسة لهذه الشعيرة المهمة التي قال فيها النووي رحمه الله: " وَاَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْبَابَ أَغْنَى بَابَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ قَدْ ضَيِّعَ أَكْثَرُهُ مِنْ أَرْمَانٍ مُتَطَاوِلَةٍ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْأَرْمَانِ إِلَّا رُسُومٌ قَلِيلَةٌ جِدًّا، وَهُوَ بَابٌ عَظِيمٌ بِهِ قِوَامُ الْأَمْرِ وَمَلَكَه، وَإِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ عَمَّ الْعِقَابُ الصَّالِحَ وَالطَّالِحَ، وَإِذَا لَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِ الظَّالِمِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِعِقَابِهِ، ﴿ فَلَیَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْأَجْرَةِ وَالسَّاعِي فِي تَحْصِيلِ

(١) سورة النور، جزء الآية: ٦٣.

رِضَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْتَنِي بِهَذَا الْبَابِ فَإِنَّ نَفْعَهُ عَظِيمٌ لَا سِيَّمَا وَقَدْ ذَهَبَ مَعْظَمُهُ وَيَخْلَصُ نَيْتُهُ وَلَا يَهَابُ مَنْ يُنْكِرُ عَلَيْهِ لِارْتِفَاعِ مَرْتَبَتِهِ..... وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَجْرَ عَلَى قَدْرِ النَّصَبِ وَلَا يُتَارَكُهُ أَيْضًا لِصِدْقَتِهِ وَمَوَدَّتِهِ وَمُدَاهَنَتِهِ وَطَلَبِ الْوَجَاهَةِ عِنْدَهُ وَدَوَامِ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْهِ فَإِنَّ صِدْقَتَهُ وَمَوَدَّتَهُ تُوجِبُ لَهُ حُرْمَةً وَحَقًّا، وَمَنْ حَقَّهُ أَنْ يَنْصَحَهُ وَيَهْدِيَهُ إِلَى مَصَالِحِ آخِرَتِهِ وَيُنْقِذَهُ مِنْ مَضَارِّهَا، وَصَدِيقُ الْإِنْسَانِ وَمُحِبُّهُ هُوَ مَنْ سَعَى فِي عِمَارَةِ آخِرَتِهِ وَإِنْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى نَقْصٍ فِي دُنْيَاهُ، وَعَدُوُّهُ مَنْ يَسْعَى فِي ذَهَابِ أَوْ نَقْصِ آخِرَتِهِ وَإِنْ حَصَلَ بِسَبَبِ ذَلِكَ صُورَةٌ نَفَعٍ فِي دُنْيَاهُ وَإِنَّمَا كَانَ إِئْتِسَانُ عَدُوًّا لَنَا هَذَا، وَكَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ أَوْلِيَاءُ لِلْمُؤْمِنِينَ لِيَسْعِيَهُمْ فِي مَصَالِحِ آخِرَتِهِمْ وَهَدَايَتِهِمْ"^(١).

أهداف الدراسة

- جمع النصوص القرآنية التي تأمر الأمة الإسلامية بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- جمع النصوص القرآنية التي تبين فضائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترغب فيه.
- جمع النصوص القرآنية التي تحذر الأمة من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- التعرف على شروط وصفات القائم بالأمر بالمعروف الناهي عن المنكر في القرآن الكريم وصفاته.

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، (٢/٢٤)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢/ ١٣٩٢ هـ.

- التعرف على موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم المتعلقة بالعقيدة والشريعة والأخلاق.
- بيان مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم وإبراز ثمراته وآثاره.

تساؤلات الدراسة

- ما النصوص القرآنية التي تأمر الأمة الإسلامية بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟
- ما النصوص القرآنية التي تبين فضائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترغب فيه؟
- ما النصوص القرآنية التي تحذر الأمة من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟
- ما شروط وصفات القائم بالأمر بالمعروف الناهي عن المنكر في القرآن الكريم وصفاته؟
- ما موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم المتعلقة بالعقيدة والشريعة والأخلاق؟
- ما مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم وثمراته وآثاره؟

منهج الدراسة

أما منهجي في الدراسة فقد استخدمت المنهج الاستقرائي: والاستقراء هو "تتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها

جميعاً"^(١)، وهو ما يقوم على حصر جميع الجزئيات للمسألة التي هي موضوع البحث، والتتبع لما يعرض لها^(٢)، " ويعتمد على جمع المادة العلمية واستقراء النصوص وتصنيفها للوصول إلى قواعد وأحكام عامة"^(٣).

والمنهج التحليلي: "ويقوم على أساس عرض الآراء وتحليلها، وتوضيح غامضها، وينبغي أن يقترن التحليل بالتعليل"^(٤) فاعتمدت في هذه الدراسة على منهج الاستقراء والتحليل حيث تتبعت النصوص القرآنية المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحصرها واستنتجت منها ما له صلة بموضوع الدراسة.

الدراسات السابقة

لم أقف على دراسة تحدثت عن موضوع الدراسة، ومن الدراسات التي تناولت جزء من الدراسة:

الدراسة الأولى: نصوص الدعوة في القرآن الكريم دراسة تأصيلية، د. حمد بن ناصر العمار، حيث تناول في الفصل الثاني من الدراسة: آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشروحها والدروس الدعوية المستنبطة منها. وتختلف دراستي عن دراسة د. حمد في أن الأولى جمع فيها أربع عشرة

(١) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال بالمنظرة، عبد الرحمن الميدان، ص ١٨٨، دار القلم، دمشق، ط٣/١٤٢٥هـ.

(٢) انظر: البحث العلمي، حقيقته، ومصادره، ومادته، وكتابته، وطابعته، ومناقشته، د. عبد العزيز بن عبدالرحمن الربيع، (١٧٩/١)، الرياض، ط٤، ١٤٢٧هـ.

(٣) كيف تكذب بخنا ناجحاً، د. صباح عبد الله بافضل، ص ٣١، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط ١/١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(٤) المرجع السابق، ص ٣١ باختصار.

آية حيث تقييد بما ذكر لفظ معروف أو منكر، ولم يخرج عن ذلك، أما هذه الدراسة فقد تقيدت بما هو أوسع من ذلك، حيث ذكرت في هذه الدراسة أربعاً وعشرين آية، فكل نص يفهم منه أن فيه أمراً بالقيام بالأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، أو يرغب فيه أو يحذر من تركه ذكرته، وقسمت ذلك إلى: النصوص التي تأمر الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصوص التي ترغب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصوص التي تحذر من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأيضاً ذكرت في هذه الدراسة ولم يذكر في غيرها: شروط القوائم بالمعروف الناهي عن المنكر وصفاته في القرآن الكريم، وموضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم، ومراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم، وثمرات وآثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم.

الدراسة الثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء القرآن الكريم^(١). هذه الدراسة تناولت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية، في قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الكويت، استعانت الباحثة وبشكل واضح بسنة المصطفى ﷺ في كثير من الدراسة مع العلم بأن دراستها " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء القرآن الكريم"، وأسهمت في ذكر نتائج ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية، للباحثة: مريم الدولية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الكويت.

أخذ حيزاً كبيراً في الرسالة، واكتفت بذكر العقوبات الإلهية من غضب ولعنٍ وطرده من رحمة الله لمن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك لم تجمع كل الآيات المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن.

وأيضاً ذكرت في هذه الدراسة ولم يذكر في غيرها، كل الآيات المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن، ومراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وموضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه الإضافات الجديدة التي تضيفها هذه الدراسة عن سابقتها.

تقسيمات الدراسة: قسمت هذه الدراسة إلى: مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة فقد اشتملت على: أهمية الدراسة، وأسباب اختيارها، وأهدافها، والتساؤلات التي تثيرها، ومنهج الدراسة، والدراسات السابقة، وتقسيماتها.

التمهيد فقد اشتمل على:

أولاً: التعريف بأهم مفردات عنوان الدراسة.

ثانياً: تاريخ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم.

المبحث الأول: النصوص القرآنية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: النصوص القرآنية التي تأمر الأمة الإسلامية بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الثاني: النصوص القرآنية التي تبين فضائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترغب فيهما.

المطلب الثالث: النصوص القرآنية التي تحذر الأمة من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الثاني: شروط القائم بالأمر بالمعروف الناهي عن المنكر وصفاته في القرآن الكريم.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: شروط القائم بالأمر بالمعروف الناهي عن المنكر في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: صفات القائم بالأمر بالمعروف الناهي عن المنكر في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم المتعلقة بالعقيدة.

المطلب الثاني: موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم المتعلقة بالشريعة.

المطلب الثالث: موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم المتعلقة بالأخلاق.

المبحث الرابع: مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: البيان والنصح والإرشاد.

المطلب الثاني: الغلظة والشدة والتهديد والتغيير باليد.

المطلب الثالث: إنكار القلب بضوابطه.

المبحث الخامس: ثمرات وآثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في

القرآن الكريم.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: ثمرات وآثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الدنيوية في

القرآن الكريم.

المطلب الثاني: ثمرات وآثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الأخروية في

القرآن الكريم.

الخاتمة فقد جاءت مشتملة على أهم النتائج والتوصيات.

تمهيد

أولاً: التعريف بأهم مفردات عنوان الدراسة

• تعريف الأمر في اللغة والاصطلاح:

الأمر في اللغة: الأَمْرُ: نَفِيضُ النَّهْيِ، أَمْرُهُ بِهِ وَأَمْرُهُ الْأَخِيرَةُ عَنْ كُرْحٍ وَأَمْرُهُ إِيَّاهِ عَلَى حَذْفِ الْحَرْفِ يَأْمُرُهُ أَمْرًا وَإِمَارًا فَائْتَمَرَ أَي: قَبِلَ أَمْرَهُ وَقَوْلُهُ^(١).
قال ابن منظور: "الْعَرَبُ تَقُولُ: أَمَرْتُكَ أَنْ تَفْعَلَ وَلِتَفْعَلَ وَيَأْنِ تَفْعَلَ، فَمَنْ قَالَ: أَمَرْتُكَ أَنْ تَفْعَلَ فَالْبَاءُ لِلإِلصَاقِ، وَالْمَعْنَى: وَقَعَ الْأَمْرُ بِهَذَا الْفِعْلِ، وَمَنْ قَالَ أَمَرْتُكَ أَنْ تَفْعَلَ فَعَلَى حَذْفِ الْبَاءِ، وَمَنْ قَالَ أَمَرْتُكَ لِتَفْعَلَ فَقَدْ أَخْبَرْنَا بِالْعَلَّةِ الَّتِي لَهَا وَقَعَ الْأَمْرُ"^(٢).

وقال مرتضى الزبيدي: "وَأُتِمَّتْ الْأَمْرُ، أَي امْتَثَلَهُ، قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ: وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتُرُ. وَفِي الْأَسَاسِ: وَأُتِمَّتْ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ: امْتَثَلْتُ"^(٣).

الأمر في الاصطلاح: " قول القائل لمن دونه: افعل"^(٤)، وهو قول

يتضمن طلب الفعل من المكلف على وجه الاستعلاء.

(١) المحكم والمحيط الأعظم أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، (١٠ / ٢٩٧). تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

(٢) لسان العرب محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (٢٧/٤)، دار صادر، بيروت، ط٣/١٤١٤ هـ.

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي، (١٠ / ٦٨)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

(٤) التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، (١/٣٧)، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١/١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

• تعريف النهي في اللغة والاصطلاح:

النهي في اللغة: خلاف الأمر، ونَهَيْتُهُ عن كذا فانتَهَى عنه وتناهى، أي كَفَّ. وتناهوا عن المنكر، أي نهى بعضهم بعضاً^(١)، "وتناهى عنها نهياً، فانتَهَى وتناهى. أنشد سيبويه لزيد بن زيد العذري: إذا ما انتَهَى عِلْمِي تَنَاهَيْتُ عِنْدَهُ ... أَطَالَ فَأَمَلَى أَوْ تَنَاهَى فَأَقْصَرَ"^(٢). وتناهوا عن الشيء: نَهَى بعضهم بَعْضاً"^(٣).

النهي في الاصطلاح: النهي: ضد الأمر، وهو قول القائل لمن دونه: لا تفعل"^(٤)، وهو قول يتضمن طلب الكف من المكلف على وجه الاستعلاء.

• تعريف المعروف في اللغة والاصطلاح:

المعروف في اللغة: "ضدُّ المنكَّر. والعُرْفُ: ضدُّ التُّكْر. يُقَالُ: أَوْلَاهُ عُرْفًا أَي مَعْرُوفًا. والمعْرُوفُ والعَارِفَةُ: خِلاَفُ التُّكْر. والعُرْفُ والمعْرُوفُ: الجُود، وقِيلَ: هُوَ اسْمٌ مَا تَبَدَّلَهُ وَتُسَدِّيهِ... قَالَ الرَّجَّاجُ: "المَعْرُوفُ مَا يُسْتَحْسَنُ مِنَ الْأَفْعَالِ"^(٥).... والعُرْفُ والعَارِفَةُ والمعْرُوفُ وَاحِدٌ: ضِدُّ

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، (٦/٢٥١٧)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤/١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

(٢) الكتاب، سيبويه (٣/١٨٥) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣/١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم (٤/٣٨٤).

(٤) التعريفات، ص ٢٤٨.

(٥) معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، (٤/١٩٧)، دار عالم الكتب - بيروت، ط ١/١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

التُّكْر، وَهُوَ كُلُّ مَا تَعْرِفُهُ النَّفْسُ مِنَ الْخَيْرِ وَتَبْسَأُ بِهِ وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ" (١). وقيل:
"النَّصْفَةُ وَحُسْنُ الصُّحْبَةِ مَعَ الْأَهْلِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ" (٢). والمعروف "اسم
لكل فعل يعرف حسنه بالعقل أو الشرع وهو خلاف المنكر" (٣).

والمعروف في الاصطلاح: كل ما يحسن في الشرع (٤). وقيل: "اسم
جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل
ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات وهو من الصفات
العالية أي أمر معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه" (٥).

وقيل هو: "اسم جامع لكل ما عرف حسنه، من العقائد الحسنة،
والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم
أنفسهم" (٦). وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه (٧).

وأصل المعروف: كل ما كان معروفاً فعله، جميلاً مستحسناً، غير
مستقبح في أهل الإيمان بالله، وإنما سميت طاعة الله معروفاً: لأنه مما يعرفه
أهل الإيمان ولا يستنكرون فعله" (٨).

(١) لسان العرب (٩ / ٢٣٩).

(٢) لسان العرب (٩ / ٢٤٠).

(٣) المعجم الوسيط (٢ / ٥٩٥).

(٤) التعريفات، ص ٢٢١.

(٥) لسان العرب (٩ / ٢٤٠).

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، ص ٣٤٤، تحقيق:
أ.د. عبدالرحمن بن معلا اللويحي، مؤسسة الرسالة، ط ١/ ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

(٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٣٠٥.

(٨) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري،
(١٠٥/٧)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١/ ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

والمراد بالأمر بالمعروف: "الإرشاد إلى المرائد المنجية. وقيل: الأمر بالمعروف: أمرٌ بما يوافق الكتاب والسنة. وقيل الأمر بالمعروف: إشارة إلى ما يرضي الله تعالى من أفعال العبد وأقواله"^(١).

• تعريف المنكر في اللغة والاصطلاح:

المنكر في اللغة: "ضِدُّ الْمَعْرُوفِ، وَكُلُّ مَا قَبَحَهُ الشَّرْعُ وَحَرَمَهُ وَكَرِهَهُ، فَهُوَ مُنْكَرٌ، وَنَكْرَهُ يَنْكُرُهُ نَكْرًا، فَهُوَ مُنْكَورٌ، وَاسْتَنْكَرَهُ فَهُوَ مُسْتَنْكَرٌ، وَالْجُمُوعُ مَنَائِكِرٌ"^(٢). والمنكر "كل ما تحكم العقول الصحيحة بقبحه أو يقبحه الشرع أو يجرمه أو يكرهه"^(٣).

وعرف المنكر في الاصطلاح بأنه: "كلُّ فعلٍ تَحَكَّمُ العقولُ الصحيحةُ بِقُبْحِهِ، أَوْ تَتَوَقَّفُ فِي اسْتِبَاحِهِ العقولُ فتحكمُ الشريعةُ بِقُبْحِهِ"^(٤).

وقيل: "كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة"^(٥).

وقيل: "كل ما عرف قبحه في العقول والنفوس"^(٦).

وأصل المنكر: ما أنكره الله، ورأوه قبيحًا فعله، ولذلك سميت معصية الله منكرًا لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها، ويستعظمون زكوبها^(٧).

(١) التعريفات، ص ٣٦-٣٧.

(٢) لسان العرب (٥/٢٣٣).

(٣) المعجم الوسيط (٢/٩٥٢).

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس (١٤/٢٩٠).

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٣٤٤.

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٣٠٥.

(٧) جامع البيان في تأويل القرآن (٧/١٠٥).

والمراد بالنهي عن المنكر: نهي عما تميل إليه النفس والشهوة، وقيل المنكر: الزجر عما لا يلائم في الشريعة^(١).
 فيدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: كل ما أوجبت الشريعة عمله أو حبت للناس فعله من صلاة وصيام وحج وتوحيد وغير ذلك، والنهي عن المنكر يدخل فيه: النهي عن كل ما خالف الشريعة من أفعال وعقائد، فيدخل القول بالتثليث والقول بصلب المسيح وقتله، ويدخل فيه النهي عن الترهيب، وعن شرب الخمر، وعن أكل لحم الخنزير، وغير ذلك^(٢).

• **ومما تجدر الإشارة إليه بعد هذا العرض ما يلي:**

- الأصل في الحكم على الفعل بأنه معروف أو منكر ورود ذلك في الشريعة الإسلامية لا ما استحسنته العقول أو استقبلته.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون مقصوراً على ما أمر ونهى عنه الشارع، أما ما استحسنته الناس أو استقبلته ولم يأمر به الشارع أو ينهى عنه فلا يدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- المراد بالأمر بالمعروف في الدراسة أعم من أن يكون للوجوب، وهو ما طلبه الشارع من المكلف على وجه الحتم والإلزام، بل يدخل فيه المستحب، والنهي عن المنكر يدخل فيه المكروه.

(١) التعريفات، ص ٣٦-٣٧.

(٢) التشريع الجنائي الإسلامي مقارنة بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، (١/٤٩٧) الناشر: دار الكاتب العربي، بيروت.

ثانياً: تاريخ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم

المتأمل في كتاب ربنا سبحانه وتعالى يجد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد أوجبه الله على الأمم السابقة لأمة نبينا محمد ﷺ، فبدأ مع وجود الخليقة، حيث أنزل الله تعالى الكتب وبعث الرسل مبشرين ومنذرين لأقوامهم، وأوجب عليهم ومن تبعهم مهمة القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله سبحانه وتعالى، منها:

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

فقد أخبر سبحانه أن الأمم السابقة "كانوا يقتلون رُسل الله الذين كانوا يُرسلون إليهم بالنهي عما يأتون من معاصي الله، وركوب ما كانوا يركبونه من الأمور التي قد تقدم الله إليهم في كتبهم بالزجر عنها، نحو زكريا وابنه يحيى، وما أشبههما من أنبياء الله"^(٢).

قال القرطبي رحمه الله: "ذَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ كَانَ وَاجِبًا فِي الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَهُوَ فَائِدَةُ الرِّسَالَةِ وَخِلَافَةُ النَّبُوَّةِ"^(٣).

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨٤/٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، (٤٧/٤)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢/١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

قَالَ قَتَادَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ (١)، "هؤلاء أهل الكتاب، كان أتباع الأنبياء ينهونهم ويذكرونهم بالله، فيقتلونهم" (٢).

وقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن أبي عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: "رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر". ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَسِّرْهُمْ يَوْمَ يُعَذِّبُ أَلِيمٌ﴾ (٣) إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ تَنْصِيحٍ﴾ (٤) الآية. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً، من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل، فأمرؤا من قتلهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عز وجل" (٥).

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الخنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، (٢/٦٢١)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط٣/١٤١٩هـ.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

(٤) سورة آل عمران، جزء الآية: ٢٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، (٢ / ٦٢١)، وفي سند ابن أبي حاتم: أبو عبيد الوصائي، وهو لم يدرك محمد بن حمير كما ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، وقد تويع أبو عبيد، تابعه عبد الوهاب بن نعدة، فرواه البزار من طريق عبد الوهاب بن نعدة عن محمد بن حمير به. ثم قال البزار: لا نعلم له عن أبي عبيدة غير هذه الطريق، ولم نسمع أحداً سمي أباً الحسن هذا الذي روى عنه محمد بن حمير. وقال الحافظ ابن حجر: "فيه أبو الحسن مولى بني أسد وهو مجهول". انظر حاشية تفسير ابن كثير (٢/٢٧).

• وقوله سبحانه وتعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٦٥) ﴿١﴾.

فقد بين سبحانه أنه أرسل الرسل ليدلوهم على كل خير وينهوهم عن كل شر، "يُبَشِّرُونَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَاتَّبَعَ رِضْوَانَهُ بِالْخَيْرَاتِ، وَيُنذِرُونَ مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ بِالْعِقَابِ وَالْعَذَابِ". وَقَوْلُهُ: "لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" أي: أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ بِالْبِشَارَةِ وَالنَّذَارَةِ، وَبَيَّنَّ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ؛ لِئَلَّا يَبْقَى لِمُعْتَذِرٍ عُدْرٌ" (٢). "رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا بِالْأَجْرِ الْعَظِيمِ، وَمُنذِرِينَ مَنْ كَفَرَ وَأَجْرَمَ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ بِأَنْ يَدْعُوا أَنَّهُمْ مَا كَفَرُوا وَأَجْرَمُوا إِلَّا لِحُجَّتِهِمْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ يَهْدِيهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ" (٣).

وَالْمُتَبَادِرُ مِنَ الْآيَةِ: "أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ إِزْسَالِ الرُّسُلِ قَطْعَ حُجَّةِ النَّاسِ وَاعْتِدَارِهِمْ بِالْجَهْلِ عِنْدَمَا يُحَاسِبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ وَيَقْضِي بَعْدَئِهِمْ، وَمَقْفُومُهُ وَمَقْفُومُ سَائِرِ الْآيَاتِ أَنَّهُ لَوْلَا إِزْسَالُ الرُّسُلِ لَكَانَ لِلنَّاسِ أَنْ يَحْتَجُّوا فِي الْآخِرَةِ عَلَى عَذَابِهَا وَعَلَى عَذَابِ الدُّنْيَا الَّذِي كَانَ أَصَابَهُمْ بِظُلْمِهِمْ" (٤).

• وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي (٤٧٥/٢)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢/١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، (٦٠/٦)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م.

(٤) تفسير المنار (٥٩/٦).

وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾^(١).

فقد أتى الله سبحانه وتعالى على طائفة من أهل الكتاب لقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قَالَ اللهُ فِيهِمْ: "يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَيُّ يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا إِذْعَانِيًّا وَهُوَ مَا يُثْمِرُ الْحُسْنِيَّةَ لِلَّهِ وَالِاسْتِعْدَادَ لِذَلِكَ الْيَوْمِ لَا إِيمَانًا جَنْسِيًّا لَا حَظَّ لِصَاحِبِهِ مِنْهُ إِلَّا الْعُرُورُ وَالِدَّعْوَى كَمَا هُوَ شَأْنُ الْأَكْثَرِينَ مِنْ أُنْبَاءِ جَنْسِهِمْ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ صَوْتٌ فِي جُمْهُورِ أُمَّتِهِمْ لِعَلْبَةِ الْفُسْقِ وَالْفُسَادِ عَلَيْهَا كَمَا هُوَ مُدَوَّنٌ فِي التَّارِيخِ"^(٢). وفي الآية " دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ أَخَذَهُ بِإِذْعَانٍ، وَعَمِلَ فِيهِ بِإِخْلَاصٍ فَأَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، فَهُوَ مِنَ الصَّالِحِينَ "^(٣).

قال السعدي رحمه الله: " فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ثم وصفهم بالهمم العالية وأنهم يسارعون في الخيرات أي: يبادرون إليها فينتهزون الفرصة فيها، ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ومعرفتهم بفوائده وحسن عوائده، فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة من الصالحين الذين يدخلهم الله في

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٣-١١٤.

(٢) تفسير المنار (٤ / ٦١).

(٣) تفسير المنار (٤ / ٥٩).

رحمته، ويتغمدهم بغفرانه وينيلهم من فضله وإحسانه، وأنهم مهما فعلوا من خير قليلاً كان أو كثيراً فلن يكفروه أي: لن يجرموه ويفوتوا أجره، بل يشبههم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى" (١).

• وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّخِطَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٣) (٢).

أي: "هَلَّا كَانَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ تَعَاطِي ذَلِكَ. وَالرَّبَّانِيُّونَ وَهُمْ: الْعُلَمَاءُ الْعَمَّالُ أَرْبَابُ الْوَلَايَاتِ عَلَيْهِمْ، وَالْأَحْبَارُ: وَهُمْ الْعُلَمَاءُ فَقَطْ" (٣). "هَلَّا يَنْهَى هَؤُلَاءِ الْمَسَارِعِينَ فِيمَا ذَكَرَ أَيْمَتُهُمْ فِي التَّرْبِيَةِ وَالسِّيَاسَةِ وَعُلَمَاءُ الشَّرْعِ وَالْفِتْوَى فِيهِمْ عَنْ قَوْلِ الْإِثْمِ كَالْكَذِبِ، وَأَكَلَ السَّخِطِ كَالرَّشْوَةِ! لَبِئْسَ مَا كَانَ يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ مِنَ الرِّضَا بِهَذِهِ الْأَوْزَارِ، وَتَرَكَ فَرِيضَةَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ" (٤).

"وَالْإِثْمُ: الْكَذِبُ أَوْ الشِّرْكَ أَوْ الْحَرَامُ، ... وَالرَّبَّانِيُّونَ عُلَمَاءُ النَّصَارَى، وَالْأَحْبَارُ: عُلَمَاءُ الْيَهُودِ وَقِيلَ: الْكُلُّ مِنَ الْيَهُودِ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهِمْ ثُمَّ وَبَّخَ عُلَمَاءَهُمْ فِي تَرْكِهِمْ لِنَهْيِهِمْ فَقَالَ: لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَهَذَا فِيهِ زِيَادَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لِأَنَّ الْعَمَلَ لَا يَبْلُغُ دَرَجَةَ الصَّنْعِ حَتَّى يَتَدَرَّبَ فِيهِ صَاحِبُهُ، ... فَوَبَّخَ سُبْحَانَهُ الْخَاصَّةَ، وَهُمْ الْعُلَمَاءُ التَّارِكُونَ

(١) تيسير الكريم الرحمن (١ / ١٤٤).

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٣.

(٣) تفسير ابن كثير (٣ / ١٤٤).

(٤) تفسير المنار (٦ / ٣٧٣).

لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِمَا هُوَ أَغْلَظُ وَأَشَدُّ مِنْ تَوْيِخِ فَاعِلِ الْمَعَاصِي، فَلْيُفْتَحِ الْعُلَمَاءُ لِهَذِهِ الْآيَةِ مَسَامِعَهُمْ وَيُفْرِحُوا لَهَا عَنْ قُلُوبِهِمْ، فَإِنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِمَا فِيهِ الْبَيَانُ الشَّافِي لَهُمْ بِأَنَّ كَفَهُمْ عَنِ الْمَعَاصِي مَعَ تَرْكِ إِنْكَارِهِمْ عَلَى أَهْلِهَا لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مَنْ جُوعٍ، بَلْ هُمْ أَشَدُّ حَالًا وَأَعْظَمُ وَبَالًا مِنَ الْعَصَاةِ، فَرَحِمَ اللَّهُ عَالِمًا قَامَ بِمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ فَرِيضَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَهُوَ أَعْظَمُ مَا افْتَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَوْجَبَ مَا أَوْجَبَ عَلَيْهِ النَّهُوضُ بِهِ"^(١).

وقال السعدي رحمه الله: "هلا ينهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس، الذين من الله عليهم بالعلم والحكمة عن المعاصي التي تصدر منهم، ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم، فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعي، ويرغبوهم في الخير ويرهبوهم من الشر"^(٢).

• وقوله تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿يَبْنَئِ أَقْرَبَ الصَّكْلَةِ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣).

"يُرِيدُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصَّبْرَ عَلَى الْأَذَى فِيهِمَا، مِنَ الْأُمُورِ الْوَاجِبَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا، أَوْ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُعْزَمُ عَلَيْهَا لِوُجُوبِهَا"^(٤).
فقد "حَكَى سُبْحَانَهُ عَنِ لُقْمَانَ أَنَّهُ أَمَرَ ابْنَهُ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَالْأَمْرِ

(١) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، (٢ / ٦٤)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط١ / ١٤١٤هـ.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٢٣٧.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٧.

(٤) معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، (٦ / ٢٨٩)، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط١ / ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمُصِيبَةِ. وَوَجْهُ تَخْصِيسِ هَذِهِ الطَّاعَاتِ: أَنَّهَا أُمَّهَاتُ الْعِبَادَاتِ، وَعِمَادُ الْحَيْرِ كُلِّهِ. وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: إِنَّ ذَلِكَ إِلَى الطَّاعَاتِ الْمَذْكُورَةِ، وَخَبْرُ إِنَّ: قَوْلُهُ: مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ أَي: بِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ عَزِيمَةً، وَأَوْجَبَهُ عَلَى عِبَادِهِ. وَقِيلَ الْمَعْنَى: مِنْ حَقِّ الْأُمُورِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا^(١).

ومما سبق من الآيات يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدأ مع وجود الخليقة على وجه الأرض، يقول الرازي رحمه الله: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله هذه الصفات الثلاثة كانت حاصلة في سائر الأمم"^(٢). ويقول أبو الحسن الثعلبي رحمه الله: "فإنه ما من أمة إلا وقد أمرت بالمعروف كاتباع أنبيائهم وشرائعهم، ونهت عن المنكر كنهيهم عن الإلحاد وتكذيب أنبيائهم"^(٣).

وشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باقية في الأمة المحمدية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويكفي أمة محمد أن من أوصاف النبي ﷺ في الكتب السابقة أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِذُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٤). "هذا من

(١) فتح القدير (٤ / ٢٧٥).

(٢) مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، (٣٢٥/٨ باختصار)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣ / ١٤٢٠ هـ.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الأمددي (٢١٥/١)، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق - لبنان.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧

وصف النبي ﷺ في التوراة^(١). "وهل دلت الآية إلا على أنه أمرهم بالمعروف الذي تعرفه العقول، وتقر بحسنه الفطر، فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم. ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول بحيث إذا عرض أمره ونهيه على العقل السليم قبله أعظم قبول، وشهد بحسنه"^(٢). وسيأتي معنا إن شاء الله في الصفحات القادمة وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الأمة الإسلامية وتفضيل الله لها بقيامها بهذه الشعيرة، وأنه باق فيها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبي الغرناطي، (٣٠٩/١)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط ١٤١٦ هـ.
(٢) تفسير القرآن الكريم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، (٢٨٨/١)، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ١٤١٠ هـ.

المبحث الأول

النصوص القرآنية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم

المتأمل في كتاب الله يجد كثيراً من الآيات التي تحث الأمة الإسلامية أن يأمروا بالمعروف إذا ظهر تركه، وأن ينهوا عن المنكر إذا ظهر فعله، وقد سلك القرآن في بيان هذه الشعيرة العظيمة طرقاً متعددة، فتارة نجد أن الله عز وجل يأمر بالقيام بهذه الشعيرة المهمة، وتارة يرغب بالفعل، وتارة يبين فضل القائم بهذه الشعيرة، وتارة يحذر من ترك هذه الشعيرة، وهذا ما سنوضحه في المطالب الآتية، ويشتمل هذا المبحث على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: النصوص القرآنية التي تأمر الأمة الإسلامية بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الثاني: النصوص القرآنية التي تبين فضائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترغب فيهما.

المطلب الثالث: النصوص القرآنية التي تحذر الأمة من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الأول

النصوص القرآنية التي تأمر الأمة الإسلامية بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وردت نصوص قرآنية كثيرة في كتاب الله يأمر فيها ربنا الأمة الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقوم بواجباتها، وبما يتطلب منها تجاه ذلك، ومن هذه النصوص ما يلي:

١- قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤).^(١)

ففيها الدلالة الواضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٢). ويؤيد ذلك كثرة الآيات والأحاديث التي تدل على ذلك، ف"تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه"^(٣). ف"يجب على جميع المسلمين أن يكونوا دعاءً إلى الخير الأعظم الذي هداهم الله إليه، ويأمرؤا بالمعروف وينهوا عن المنكر، كل على قدر حاله واستطاعته كما كان المسلمون في الصدر الأول، وأنه مع ذلك يجب أن يتألف للدعوة جماعات تُعد لها عدتها"^(٤).

فأوجب الله عز وجل على أفراد هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل على حسب استطاعته، حيث تنصدي فرقة من هذه الأمة لهذا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤٦١/١).

(٣) تفسير القرآن العظيم، (٩١/٢).

(٤) تفسير المنار، (٢٦٢/٩).

الشأن، فكل من دعا الناس إلى خير بين الشارع وخيرته ونهي عن منكر بين الشارع وقبحه، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة فإنه أعذر إلى ربه وفعل ما أوجبه ربه عليه، لسان حاله يقول: ﴿مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَوْنَ﴾^(١)، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾^(٢)، اللهم إني قد بلغت ما أوجبت على، اللهم فاشهد. فلا بد من وجود طائفة من الأمة تدعو إلى الخير، وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر، طائفة تأمر وتنهى لتحقيق العبودية للخالق سبحانه وتعالى وتطبيق منهج الله في أرضه.

٢- قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ،

فَنَبِّدُوهُ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرُوا بِهِم مِّنْ أَقْلِيلًا فَيَسَّ مَا يَشْتُرُونَ﴾^(٣).

ففي هذه الآية تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلك أهل الكتاب في ترك تبليغ دين الله للناس فيصيبهم ما أصابهم، ويُسلِّك بهم مسلكهم، وهذه الآية تدل على أن الله أوجب على من آتاه الله العلم أن يبينه للناس غاية البيان ويوضحه غاية الوضوح، وهو مسؤول أمام الله عن ذلك، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً حتى ولو تعرض للاذى، فمن علم شيئاً فليعلمه، والحذر الحذر من كتمان العلم فإن كتماننا هلكة، " لا يحل لعالم أن يسكت على علمه، ولا للجاهل أن يسكت على جهله"^(٤).

(١) سورة الأعراف، جزء الآية ١٦٤.

(٢) سورة طه، جزء الآية: ٨٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٣٠٤/٤) باختصار.

"فَالَّذِي يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ قَدْ أُوْدِعَ أَمَانَةً وَأُحِذَ عَلَيْهِ الْعَهْدُ بِالتَّعَامُلِ وَالْعُرْفِ بِأَنْ يُؤَدِّيَ هَذِهِ الْأَمَانَةَ، وَيُعَيِّدَ النَّاسَ وَيُرْشِدَهُمْ بِهَذَا الْعِلْمِ، وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ الْعَهْدَ الْعَامَّ عَلَى النَّاسِ بِهَذَا التَّعَامُلِ الْمُتَعَارَفِ بَيْنَهُمْ شَرْعًا وَعُرْفًا، فَيَجِبُ عَلَى الْعَالِمِ أَنْ يُؤَدِّيَ أَمَانَةَ الْعِلْمِ إِلَى النَّاسِ، كَمَا يَجِبُ عَلَى مَنْ أُوْدِعَ الْمَالَ أَنْ يَرُدَّهُ إِلَى صَاحِبِهِ، وَيَتَوَقَّفَ آدَاءَ أَمَانَةِ الْعِلْمِ عَلَى تَعْرِفِ الطَّرِيقِ الَّتِي تُوصِلُ إِلَى ذَلِكَ، فَيَجِبُ أَنْ تُعْرَفَ هَذِهِ الطَّرِيقُ لِأَجْلِ السَّيْرِ فِيهَا، وَإِعْرَاضُ الْعُلَمَاءِ عَنِ مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ الَّتِي تَتَأَدَّى بِهَا هَذِهِ الْأَمَانَةَ بِالْفِعْلِ هُوَ الْبِتْعَادُ عَنِ الْوَاجِبِ الَّذِي أُمِرُوا بِهِ، وَإِخْفَاءُ الْحَقِّ بِإِخْفَاءِ وَسَائِلِهِ هُوَ عَيْنُ الْإِضَاعَةِ لِلْحَقِّ، فَإِذَا رَأَيْنَا الْجَهْلَ بِالْحَقِّ وَالْخَيْرِ فَاشْيَاءَ بَيْنَ النَّاسِ وَاسْتَبَدَلَتْ بِهِ الشُّرُورَ وَالْبَدْعَ، وَرَأَيْنَا أَنَّ الْعُلَمَاءَ لَمْ يُعَلِّمُوهُمْ مَا يَجِبُ فِي ذَلِكَ فَيُمْكِنُنَا أَنْ نَحْرِمَ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ لَا يُؤَدُّونَ الْأَمَانَةَ، وَهِيَ مَا اسْتُحْفِظُوا عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَلَا عُذْرَ لَهُمْ فِي تَرْكِ اسْتِبَانَةِ الطَّرِيقِ الْمُوصِلِ إِلَى ذَلِكَ بِسَهُولَةٍ وَقُرْبٍ، فَهُمْ حَوْنَةٌ النَّاسِ وَلَيْسُوا بِالْأَمَنَاءِ، يَجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَعْرِفُوا الطَّرِيقَ الَّتِي تُؤَدِّيُ إِلَى إِصَالِ الْعِلْمِ إِلَى النَّاسِ وَقَبُولِهِ، وَهَذِهِ الطَّرِيقُ تَخْتَلِفُ بِإِخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ كَمَا تَخْتَلِفُ الطَّرِيقُ الَّتِي تُؤَدَّى بِهَا أَمَانَةُ الْمَالِ، فَفِي هَذَا الْعَصْرِ تُؤَدَّى الْأَمْوَالُ إِلَى أَصْحَابِهَا بِطَرِيقٍ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً فِي الْعُصُورِ السَّابِقَةِ، مِنْهَا التَّحْوِيلُ عَلَى مَصْلَحَةِ الْبَرِيدِ، وَمِنْهَا الْمَصَارِفُ وَمِنْهَا غَيْرُ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ تُوْجِدُ طَرِيقَ لِنَشْرِ الْعِلْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَسْهَلُ مِنَ الطَّرِيقِ السَّابِقَةِ، فَمَنْ أَبَى سُلُوكَهَا لَا يُعْذَرُ بَعْدَمَ تَأْدِيَتِهِ لِأَمَانَةِ الْعِلْمِ النَّافِعِ" (١).

(١) تفسير المنار، (١٣٨/٥) باختصار.

فيجب على العلماء والدعاة أن ينهوا عن المنكر في كل ما يدور في مجتمعاتهم من كفریات أو شركیات أو بدعیات، فإذا رأوا ما يوهن الدين أو ينقصه قاموا فبلغوا ونصحوا وبينوا حكم الله في تلك الأمور والمسائل، لا يجاملون صديقاً ولا قريباً، ولا يخافون في الله لومة لائم، غايتهم أن يؤدوا وبينوا ما أوجبه الله عليهم.

٣- قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۗ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ ۖ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْإِحْسَانَ وَتَوَفَّقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴿١﴾

نزلت هذه الآيات في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد. وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: في جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية، ثم جاء هؤلاء يعتذرون إلى النبي ﷺ ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى عدك إلا الإحسان والتوفيق، أي: المداراة والمصانعة، لا اعتقاداً منا بصحة تلك الحكومة، فأمر الله نبيه أن يحذرهم مما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر، وأن ينصحهم فيما بينه

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠-٦٣.

وبينهم بكلام بليغ رادع لهم^(١)، ومن المعلوم أن الأمر للرسول ﷺ أمر لأُمَّته إذا لم يرد تخصيص له^(٢)، فالله أمر نبيه ليعظ هؤلاء المتجرئين على حكم الله وحكم رسوله المتأولين المتلونين؛ لتتعلم الأمة القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا رأت ما يغضب الرب أو من يصنع مثل صنيع هؤلاء فعليهم أن يعظوا وينصحوها، ولا يقفوا مستمعين متفرجين، ولا منصتين، بل عليهم أن يقوموا بما أوجبه الله عليهم إذ أخذ سبحانه الميثاق على العلماء أن يبينوا للناس الحق والصواب، فليس بعد الحق إلا الضلال.

٤ - قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

يأمر الله نبيه بأن يبلغ ما أنزل إليه من ربه مما يفصل مساوئ الكفار، وأن يدعوهم إلى الإسلام، غير مراقب في التبليغ أحدًا، ولا يخاف أن يناله مكروه، وأن يظهر التبليغ والبيان، ولا يلتفت إلى تكذيب المكذبين، ولا سخرية الساعرين، ولا استهزاء المستهزئين، ولا تثبيط المثبطين، ولا تقنيط المقنطين، "بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك، فإن كتمت شيئًا منه فما بلغت رسالته؛ وهذا تأديب للنبي ﷺ، وتأديب لحملة العلم من أُمَّته ألا يكتموا شيئًا من أمر شريعته، وقد علم الله تعالى من أمر نبيه أنه لا يكتم شيئًا من وحيه"^(٤)، والأمر للنبي ﷺ أمر لأُمَّته ما لم يرد التخصيص، وقد

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٢/٣٤٦-٣٤٧).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، (٤/٣٢)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٧٥٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٤٢).

قام النبي ﷺ بهذه المهمة فأداها على أكمل وجه فبلغ ﷺ " البلاغ التام، وقام به أتم القيام، وثبت في الشدائد وهو مطلوب، وصبر على البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب، وقد لقي بمكة من قريش ما يشيب النواصي، ويهدّد الصياصي. وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلي، ويثبت ثبات المستولي، ثم انتصب لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته، وأحدقوا بجنباته، وصار بإثانته في الأعداء محذورًا، وبالرعب منه منصورًا، حتى أصبح سراج الدين وهاجًا، ودخل الناس في دين الله أفواجًا" (١)، ومما يدل على ذلك حين " سئل رسول الله ﷺ: أَيُّ آيَةٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْزَلْتَ أَشَدُّ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: كُنْتُ بِمِئَى أَيَّامٍ مُؤَسِّمٍ، وَاجْتَمَعَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ وَأَفْنَاءُ النَّاسِ فِي الْمَوْسِمِ، فَنَزَلَ عَلَيَّ جِبْرِيلُ فَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (٢) الْآيَةَ - قَالَ: - فَقُمْتُ عِنْدَ الْعَقَبَةِ ؛ فَقُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ يَنْصُرُنِي عَلَى أَنْ أَبْلِغَ رِسَالَاتِ رَبِّي وَلَكُمْ الْجَنَّةُ؟ أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ تُفْلِحُوا وَتَنْجَحُوا وَلَكُمْ الْجَنَّةُ، قَالَ ﷺ: " فَمَا بَقِيَ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ وَلَا أُمَّةٌ وَلَا صَبِيٌّ إِلَّا يَزُمُونَ عَلَيَّ بِالتُّرَابِ وَالْحِجَارَةِ ، وَيَقُولُونَ: كَذَّابٌ صَابِيٌّ. فَعَرَضَ عَلَيَّ عَارِضٌ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتَ رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَدْعُوَ عَلَيْهِمْ ، كَمَا دَعَا نُوحٌ عَلَى قَوْمِهِ بِالْهَلَاكِ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، وَأَنْصُرْنِي عَلَيْهِمْ أَنْ يُجِيبُونِي إِلَى طَاعَتِكَ، فَجَاءَ الْعَبَّاسُ عَمَّهُ ، فَأَنْقَذَهُ مِنْهُمْ ، وَطَرَدَهُمْ

(١) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، (٤/ ١٩٢)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤١٨هـ.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

عَنْهُ" (١). وقد شهدت له أمته ﷺ يوم بلاغ حجة الوداع، بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته كما ثبت في صحيح مسلم "وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟". قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «اللَّهُمَّ اشْهَدِ اللَّهُمَّ اشْهَدِ». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ (٢).

٥- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ (٣).

"قَدْ يَتَوَهَّمُ الْجَاهِلُ مِنْ ظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَدَمَ وُجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَكِنَّ نَفْسَ الْآيَةِ فِيهَا الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ فِيمَا إِذَا بَلَغَ جَهْدُهُ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ الْمَأْمُورُ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، لِأَنَّ مَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ لَمْ يَهْتَدِ، فَيَدْخُلُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ فِي الْمُرَادِ بِالِاهْتِدَاءِ فِي الْآيَةِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ جِدًّا الْعُدُولُ عَنْهُ لِمُنْصِيفٍ، فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَارِكَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ غَيْرٌ مُهْتَدٍ، فَالْحَقُّ وَجُوبُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبَعْدَ آدَاءِ الْوَاجِبِ لَا يَضُرُّ الْآمِرَ ضَلَالُ مَنْ ضَلَّ" (٤). "وَمِنْ أَصُولِ الْهِدَايَةِ: الدَّعْوَةُ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا لَا تَكُونُونَ مُهْتَدِينَ إِلَّا إِذَا بَلَغْتُمْ دَعْوَةَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَعَلِمْتُمْ الْجَاهِلِينَ مَا أَعْطَاكُمْ اللَّهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالِدِّينَ، وَأَمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَلَا

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، رقم الحديث (٣٠٠٩).

(٢) تفسير المنار (٦/٣٨٧).

(٣) سورة المائدة، ١٠٥.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (١/٤٥٩-٤٦٠ باختصار).

تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَالْعِلْمَ كَمَا كَتَمَهُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَلَعَنَهُمُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ
أَنْبِيَائِهِمْ وَلِسَانِ نَبِيِّكُمْ" (١).

وقد وضع الصديق معنى هذه الآية: حيث قام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَحَمِدَ اللهُ
وَأَتَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا
عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (٢) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ وَإِنَّكُمْ
تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ النَّاسَ
إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلَمْ يُعَيِّرُوهُ يُوشِكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْمَهُمْ بِعِقَابِهِ" (٣).

وَعَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْحُشْنِيَّ فَقُلْتُ: "مَا تَصْنَعُ
فِي هَذِهِ الْآيَةِ؟ قَالَ: آيَةُ آيَةٍ؟ قُلْتُ: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ
أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (٤) قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا
خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: بَلِ انْتَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ
الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوَى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْتَرَةً، وَإِعْجَابَ
كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعْ عَنكَ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ
أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى الْجُمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا
يَعْمَلُونَ كَعَمَلِكُمْ" قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَزَادَ غَيْرُ عُنْتَبَةَ قِيلَ: "يَا رَسُولَ

(١) تفسير المنار، (١٧٦/٧).

(٢) سورة المائدة، جزء الآية ١٠٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، (٢١٢/٣).

(٤) سورة المائدة، جزء الآية ١٠٥.

الله أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِّنَّا أَوْ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : لَا بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ" (١).
 وَرَوَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ:
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (٢) الْآيَةَ قَالَ:
 "كَانُوا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَكَانَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ بَعْضُ مَا يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ
 حَتَّى قَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِّنْ جُلَسَاءِ عَبْدِ اللَّهِ: أَلَا
 أَقَوْمٌ فَأَمْرُهُمَا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمَا عَنِ الْمُنْكَرِ فَقَالَ آخَرُ إِلَى جَنْبِهِ: عَلَيْكَ
 بِنَفْسِكَ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) الْآيَةَ. قَالَ: فَسَمِعَهَا ابْنُ مَسْعُودٍ
 فَقَالَ: مَهْ لَمْ يَجِئْ تَأْوِيلُ هَذِهِ بَعْدُ، إِنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ حَيْثُ أَنْزَلَ وَمِنْهُ آيٌ قَدْ
 مَضَى تَأْوِيلُهُ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ وَمِنْهُ آيٌ وَقَعَ تَأْوِيلُهُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ
 ﷺ، وَمِنْهُ آيٌ وَقَعَ تَأْوِيلُهُ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِيَسِيرٍ، وَمِنْهُ آيٌ يَقَعُ تَأْوِيلُهُ يَوْمَ
 الْحِسَابِ مَا ذُكِرَ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَمَا دَامَتْ قُلُوبُكُمْ وَاحِدَةً
 وَأَهْوَاؤُكُمْ وَاحِدَةً وَلَمْ تُلْبَسُوا شَيْعًا وَلَمْ يَذُقْ بَعْضُكُمْ بِأَسَ بَعْضٍ فَائْتَمَرُوا
 وَأَنْهَوْا، وَإِذَا اخْتَلَفَتِ الْقُلُوبُ وَالْأَهْوَاءُ وَالْبَسْتُمْ شَيْعًا وَذَاقَ بَعْضُكُمْ بِأَسَ
 بَعْضٍ فَائْتَمَرْ نَفْسَكَ وَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ" (٣).

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب وَمِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ، رقم الحديث (٣٠٥٨) وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وقال الحاكم في المستدرک: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي، رقم الحديث (٧٩١٢)، وصححه ابن حبان في صحيحه، برقم (٣٨٥).
 وقال شعيب الأرنؤوط معلقا على الحديث: عتبة بن أبي حكيم مختلف فيه، ووصفه الحافظ في "التقريب"
 بقوله: صدوق يخطئ كثيرا، وعمرو بن جارية، وأبو أمية الشعباني - واسمه يُجَمِّدُ، وقيل: عبد الله بن أحامر -
 ذكرهما المؤلف في النقات، وروى عنهما أكثر من واحد. حاشية صحيح ابن حبان (١١٠/٢).

(٢) سورة المائدة، جزء الآية ١٠٥.

(٣) تفسير المنار (٧ / ١٧٧ - ١٧٨).

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَرْفَةَ، حَدَّثَنَا شَبَابَةُ بْنُ سَوَّارٍ، حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ صُبَيْحٍ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عِقَالٍ، قَالَ: " قِيلَ لِابْنِ عُمَرَ: لَوْ جَلَسْتَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ فَلَمْ تَأْمُرْ وَلَمْ تَنْهَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ^(١) فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي وَلَا لِأَصْحَابِي لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ. فَكُنَّا نَحْنُ الشُّهُودُ وَأَنْتُمْ الْعَائِبُ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لِأَقْوَامٍ يَجِئُونَ مِنْ بَعْدِنَا إِنْ قَالُوا لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمْ " ^(٢).
 وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ وَأَبُو عَاصِمٍ قَالَا: حَدَّثَنَا عَوْفٌ عَنْ سَوَّارِ بْنِ مُنْبِهٍ قَالَ: " كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ جَلِيدٌ فِي الْعَيْنِ شَدِيدُ اللَّسَانِ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ نَفَرْنَا سِتَّةَ كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاسْرَعَ فِيهِ ، وَكُلُّهُمْ مُجْتَهِدٌ لَا يَأْلُو ، وَكُلُّهُمْ بَغِيضٌ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ ذَنَاءَةً إِلَّا الْحَيْرَ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَشْهَدُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالشِّرْكِ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: وَأَيُّ ذَنَاءَةٍ تُرِيدُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَشْهَدَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالشِّرْكِ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي لَسْتُ إِتَاكَ أَسْأَلُ إِنَّمَا أَسْأَلُ الشَّيْخَ، فَأَعَادَ عَلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ الْحَدِيثَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَعَلَّكَ تَرَى لَا أَبَا لَكَ أَتَى سَامُرَكَ أَنْ تَذْهَبَ فَتَقْتُلَهُمْ! عِظُهُمْ وَأَنْهَهُمْ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ^(٣).

(١) سورة المائدة، جزء الآية ١٠٥.

(٢) تفسير الطبري (١١ / ١٣٩).

(٣) تفسير الطبري (١١ / ١٤٠-١٤١).

٦ - قال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٣) ﴿١﴾.

فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يأمر "بِالْعُرْفِ وَهُوَ مَا تَعَارَفَهُ النَّاسُ مِنْ الْحَيْرِ وَقَسْرُوهُ بِالْمَعْرُوفِ" (٢)، يأمر "بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو برّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابله بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه" (٣). ومن المعلوم كما قرر أهل الأصول أن الأمر للرسول ﷺ أمر لأمرته إذا لم يرد تخصيص له (٤).

٧ - قال تعالى: ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩٤) ﴿٥﴾.

يأمر الله رسوله بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصدع به وهو مواجهة المشركين به، يقول الله له: افعل ما تؤمر، وبلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ولا تحفهم؛ فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم (٦). والأمر للرسول ﷺ أمر لأمرته إذا لم

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٢) تفسير المنار (٤٤٥/٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٣١٣.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، (٣٢/١٤)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٧٥٥.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٩٤.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم (٥٥١/٤).

يرد تخصيص له^(١). لقد مكث ﷺ يدعو الناس سرّاً إلى عبادة الله ثلاث سنين، ثم بدأت مرحلة الجهر بالدعوة في السنة الرابعة من البعثة بعد أن أمره الله بأن يجهر بما يكلف بتبليغه للناس، قال ابن إسحاق عند حديثه عن مرحلة الجهر بالدعوة الإسلامية: " ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به، ثم إن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن ييادى الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغني - من بعثته، ثم قال الله تعالى له:

﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٤) (٢) (٣).

إنها التضحية في أعلى صورها أن يواجه المرء جميع الناس بالحق ولا يخاف في الله لومة لائم مهما ترتب على ذلك، فالله حفيظ لمن والاه واتبع هداه وامتلأ أمره وحافظ على هذا العهد الذي أخذه الله على من آتاه الله العلم، من حيث البيان والتبيان والتبليغ.

٨- قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّرُونَ ﴾ (٤٤) (٤).

يأمر الله رسوله بأن يبين ويوضح للناس ما جاء في القرآن من أوامر ونواهي وما يترتب عليهما من ثواب وعقاب، والأمر للرسول أمر للأمة كما

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، (٣٢/١٤)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٧٥٥.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٤.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، (٢٧٤/١).

(٤) سورة النحل، جزء الآية: ٤٤.

قرر ذلك أهل الأصول، فتتعلم الأمة إذا رأت أوامر الله تترك ونواهيه ترتكب انتفضت من سباتها وقامت فنصحت وأرشدت وبلغت وبينت لتعذر إلى ربها، وتقوم بما أوجهه الله عليها. وبين ربنا سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن لحكمتين: "إِحْدَاهُمَا: أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّوَاهِي، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَقَدْ بَيَّنَّ هَذِهِ الْحِكْمَةَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَيْضًا^(١)، وَالْحِكْمَةُ الثَّانِيَةُ: هِيَ التَّفَكُّرُ فِي آيَاتِهِ وَالِاتِّعَاطُ بِهَا؛ كَمَا قَالَ هُنَا: وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ، وَقَدْ بَيَّنَّ هَذِهِ الْحِكْمَةَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَيْضًا"^(٢)(٣).

٩ - قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾^(٤).

بين الشنقيطي رحمه الله أن هذه الآية من الآيات التي يستدل بها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٥)، فيقول سبحانه لنبيه محمد ﷺ: "وقل يا محمد للناس: هذا الذي جئتمكم به من ربكم هو الحق الذي لا

(١) كقوله تعالى: " وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا يُبَيِّنَ لِمَنْ أَلِذِيَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ". سورة النحل، جزء الآية: ٦٤، وقوله " إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ " سورة النساء، جزء الآية: ١٠٥.

(٢) كقوله سبحانه " كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ " سورة ص، الآية: ٢٩، وقوله: " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا " سورة النساء، الآية: ٨٢، وقوله: " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا " سورة محمد، الآية: ٢٤، إلى غير ذلك من الآيات.

(٣) أضواء البيان (٢/٣٨٠).

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٥) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/٤٦١).

مرية فيه ولا شك" (١)، لقد "أمر الله جلَّ وَعَلَا نَبِيَّهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: الْحَقُّ الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، الْمُتَضَمِّنُ لِدِينِ الْإِسْلَامِ كَائِنٌ مَبْدُؤُهُ مِنْ رَبِّكُمْ جَلَّ وَعَلَا، فَلَيْسَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ، وَلَا مِنْ افْتِرَاءِ الْكُهَنَةِ، وَلَا مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوْلِيَيْنِ، وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ. بَلْ هُوَ مِنْ خَالِقِكُمْ جَلَّ وَعَلَا، الَّذِي تَلَزَمْتُمْ طَاعَتَهُ وَتَوْحِيدَهُ، وَلَا يَأْتِي مِنْ لَدُنْهِ إِلَّا الْحَقُّ الشَّامِلُ لِلصِّدْقِ فِي الْأَخْبَارِ، وَالْعَدْلُ فِي الْأَحْكَامِ، فَلَا حَقَّ إِلَّا مِنْهُ جَلَّ وَعَلَا" (٢)،

١٠ - قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ مَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَأُحِبَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٣).

أمر سبحانه نبيه ﷺ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى الدِّينِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الرُّسُلُ فِي عُصُورِهِمْ، قَبْلَ الْإِخْتِلَافِ فِيهِ الَّذِي ابْتَدَعَ مِنْ بُعْدِهِمْ، وَأَنْ يَسْتَقِيمَ عَلَيْهِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، وَأَنْ يُحَاطَبَ أَهْلَ الْكِتَابِ بِمَا يَنْبَغُ بِهِ مِنَ الْإِخْتِلَافِ، وَمِنْ إِثَارَتِهِ بِحَجَجِ الْجِدَالِ (٤)، فَادَعِ النَّاسَ كَافَةً إِلَى إِقَامَةِ الدِّينِ لِمَقَاوِمَةِ الْبَاطِلِ وَدَحْرِهِ، وَهَتِكَ وَسَاوَسِهِ وَاسْتَقِيمَ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَالصِّدْعَ بِأَوَامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ. فَيَأْمُرُ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنْ يَدْعُوَ لِلدِّينِ الْقَوِيمِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِ كِتَابَهُ وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ، فَادَعِ إِلَيْهِ أُمَّتَكَ وَحِضْمَهُ عَلَيْهِ، وَجَاهِدْ عَلَيْهِ مَنْ لَمْ

(١) تفسير القرآن العظيم (١٥٤/٥).

(٢) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢٦٦/٣) باختصار.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٥.

(٤) تفسير المنار، (١٣٧/١٢).

يقبله، وَاسْتَقَمَّ استقامة موافقة لأمر الله، لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالاً لأوامر الله واجتناباً لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك^(١).

١١ - ﴿وَاتَّبِعُوا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ تَعَايَرْتُمْ فَسَرِّضُوا لَهُ أُخْرَى﴾^(٢).

يأمر الله سبحانه وتعالى " كل واحد من الزوجين ومن غيرهما الآخر بالالتزام بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة، فإن الغفلة عن الالتزام بالمعروف يحصل فيها من الشر والضرر ما لا يعلمه إلا الله، وفي الالتزام تعاون على البر والتقوى، ومما يناسب هذا المقام، أن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصاً إذا ولد لهما ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق، الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر منه البغض شيء كثير. فكل منهما يؤمر بالمعروف والمعاشرة الحسنة، وعدم المشاققة والمخاصمة، وينصح على ذلك"^(٣).

ومن خلال النصوص السابقة نجد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد أوجبه الله على الأمة الإسلامية، وقد وردت النصوص القرآنية المتواترة في كتاب الله يأمر فيها ربنا سبحانه وتعالى الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقوم بواجبها على حسب طاقتها وقدر استطاعتها.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٧٥٥.

(٢) سورة الطلاق، جزء الآية: ٦.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٧٥٥.

المطلب الثاني

النصوص القرآنية التي تبين فضائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترغب فيهما

وردت نصوص قرآنية كثيرة يرغب فيها ربنا سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية أن يأمروا بالمعروف وأن ينهوا عن المنكر، وبين فضل من اتصف بهذه الصفة، فشوق النفوس لتتحلى بهذه الصفة، فالثمن المغفرة والرحمة، والنجاة من النار، والفوز بجنة عرضها السماوات والأرض، ومن هذه النصوص:

١ - قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١١٠) ﴿١﴾.

" يمدح تعالى هذه الأمة، ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك، وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس" (٢). فتفضيل الله الأمة المحمدية " بهذه الأسباب التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس نصحاء، ومحبة للخير، ودعوة، وتعليمًا، وإرشادًا، وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، وجمعًا بين تكميل الخلق، والسعي في منافعهم، بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله، والقيام بحقوق الإيمان" (٣).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ١٤٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٩٧٢.

٢ - قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١).

بين سبحانه أنه لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتحدثون فيه؛ إلا من أمر عباد الله بـ"الإحسان والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرب بالنهي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضاً لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر" (٢)، وقد جاءت أحاديث كثيرة ترغب في هذه الأفعال الثلاثة، مثل قول النبي ﷺ: "كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَأَهْ؛ إِلَّا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيٌ عَنِ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرُ اللَّهِ" (٣).

٣ - قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٤).

فالنبي ﷺ من صفاته أنه لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشر، وهذه صفة محمد ﷺ "يأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة

(١) سورة النساء، الآية: ١١٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٢٠٢.

(٣) رواه الترمذي في سننه، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم الحديث (٢٤١٢)، ووضحه الحاكم في المستدرک، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، رقم الحديث (٣٨٩٢). وقال حسين سليم أسد في تخریجة مسند أبي يعلى: إسناده حسن، رقم الحديث (٧١٣٢).

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك. فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله ﷺ ما دعا إليه وأمر به، ونهى عنه، وأحله وحرمه^(١). فبعد أن بين سبحانه صفة النبي ﷺ بأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ختم ربنا الآية ببيان أن المؤمنين هم الذين اتبعوا النور الذي أنزل معه، فاتبعوا طريقته، واستنوا بسنته، واقتفوا أثره، وأنهم أهل الفلاح والنجاح والفوز العظيم ترغيباً لهم في التمسك بمهديه وطريقته التي منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورضي الله عن ابن مسعود حين قال: " إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " فأوعها سمعك فإنه خير ما يأمر به أو شر ينهى عنه. ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ﴾^(٢)^(٣)، فإذا جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء^(٤).

٤ - قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٣٠٥.

(٢) سورة الأعراف، جزء الآية: ١٥٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، (١/٢٠٠).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، (١/٢٠٠).

سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ
عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴿١﴾

بين سبحانه أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعل سبحانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً أساسياً بين المؤمنين والمنافقين. وذكر الله صفات المؤمنين المحمودة بأنهم يتناصرون ويتعاضدون ويتناصرحون ذكورهم وإناثهم في المحبة والموالاتة والانتماء والنصرة، فهم يأمرون بكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، وينهون عن كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة. ثم بين ربنا سبحانه أنه سيدخل من اتصف بهذه الصفات في رحمته، ويشملهم بإحسانه، فيدخلهم جنة جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار العذبة، المروية للساتين الأنيقة التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى، قد زخرت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفاً في غاية الصفاء والحسن، يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، فهذه المساكن الأنيقة التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتنزع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح، إنها جنات عدن، إقامة لا يظنون عنها ولا

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١-٧٢.

يتحولون منها. ومع ما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمَّها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسموات أكبر من نعيم الجنات. ومع ذلك حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فمسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده كرمه إنه جواد كريم^(١).

٥- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآث لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٣﴾ التَّائِبُونَ الْعَمِدُونَ الْحَمْدُونَ أَلْسِنَتُهُمُ الرُّكُومُ أَلْسِنَتُهُمُ السَّجْدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾^(٢).

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة: التائبون من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات، كف عن الذنب وشعور بالندم على ما مضى، وتوجه إلى الله فيما بقي وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك. فهي طهارة وركاة وتوجه وصلاح الحامدون في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٣٤٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١١-١١٢.

النهار. الْعَابِدُونَ القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، السَّائِحُونَ وهم الصائمون المؤدون صلاتهم المحافظون عليها، السَّائِحُونَ في طلب العلم، السائحون بقلوبهم في معرفة الله ومحبته، والإجابة إليه على الدوام، المسافرون في القربات، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك. وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علمًا وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ هؤلاء بشرهم جنة عرضها السماوات والأرض فالسعادة كل السعادة لمن اتصف بهذه الصفات^(١).

٦- قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنهَوْتَ عَنِ الْفَسَادِ فِي

الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أٰمَنَّا مِنْهُمُ وَاتَّبَعَ الَّذِيكَ ظَلَمُوا مَا أَتَرُوا فِيهِ وَكَانُوا

مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾^(٢).

يبين سبحانه وتعالى أنه قد وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، لكنهم لم يكونوا كثيرًا، وهم الذين أنجاهم الله عند فحاة نَقَمه، ومع هذه النصائح المتتابعة من هذه الفرقة المؤمنة استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فاجأهم العذاب، ولهذا أمر

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، (٢١٩/٤)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٣٥٣.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٦.

تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر^(١). وفي هذا حث لهذه الأمة، أن يكون فيهم بقايا مصلحون إذا فسد الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرونهم من العمى، وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها يكون إمامًا في الدين إذا جعل عمله خالصًا لرب العالمين، فحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان، ولكنهم قليلون جدًا، وأهم ما في الأمر أنهم قاموا بواجبهم فنجوا باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم، ويكون حجة الله أجزاها على أيديهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة^(٢).

٧- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَنِ الْأُمُورِ﴾^(٣).

وصف الله عباده المؤمنين أنهم بعد "انْتَصَارِهِمْ وَتَمَكِينِهِمْ فِي الْأَرْضِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ الَّتِي تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ الَّتِي تَقُومُ بِهَا الْمَصَالِحُ الْمَعَاشِيَّةَ الْعَامَّةَ، وَيَزُولُ بُؤْسُ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْغَارِمِينَ بِمَشَارِكَتِهِمْ لِلْأَعْيَانِ فِي أَمْوَالِهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ الْمُعْنِي لَهُمْ، لَا بِمُجَرَّدِ أَرْحَانِهِمْ وَتَفَضُّلِهِمْ، وَتَعِينِ عَلَى السِّيَاحَةِ بِكِفَايَةِ أَبْنَاءِ السَّبِيلِ، وَيُكَلِّفُونَ حِفْظَ الْفُضَيْلَةِ وَمَنْعَ الرِّذَائِلِ بِإِقَامَةِ فَرِيضَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ"^(٤)، إنها صفة الأمة الخيرة أمة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، (٤/٣٦٠).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٣٩١.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤١.

(٤) تفسير المنار، (١٠/٥٩) باختصار.

الإسلام لا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه فتدعو الناس إلى الخير والصالح، ولا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره فتقاوم الشر والفساد، هؤلاء هم من وعدهم الله بالنصر والتمكين في الدنيا والفوز والنجاح في الآخرة. ففي هذه الآيات ترغيب وحث من الله بأن يتحلى كل فرد من أفراد الأمة المحمدية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمقابل والضمن مدفوع مسبقاً، وياله من ثمن، وفي أي مقابل، مقابل دنيا فائنة زائلة، في مقابل جنة عالية لا تسمع فيها لاغية، عرضها كعرض السماوات والأرض، فهل من مشمر لهذه الجنة، إنها السلعة الغالية والمكانة الرفيعة، إنها الجنة، فمن أرادها فليشمر لها وليدفع مهرها، ومن المهر أن يتحلى الفرد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الثالث

النصوص التي تحذر الأمة من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وردت نصوص قرآنية كثيرة، يحذر فيها ربنا من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يتمعر ولا يغضب إذا انتهكت حرمات الله، إذا انتشرت المنكرات والفواحش، إذا فعلت المعاصي وكثرت الموبقات، حتى ولو كان الانشغال بطاعة من الطاعات، أو بعبادة من العبادات التي يتقرب فيها العبد إلى رب الأرض والسموات، وقد رُتب على هذا ما لا يحمد عقباه، طرد ولعن ودمار وهلاك، خسف ومسح ونزول العقاب؛ والسبب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن هذه النصوص ما يلي:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أُنزِلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾^(١).

ففي هذه الآيات والتي تليها من هذه الدراسة تهديد ووعيد لكل من اتصف بهذه الصفات من البشرية فكف عن البيان والنصح والإرشاد لأي سبب من الأسباب، منعه ذلك جاه يحصله، أو مال يأخذه، أو عرض آخر من أعراض الدنيا الزائلة، أو خوف ممن يناصحه.

هذه الآية حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله، فلم يبينه ولم يوضحه للناس فلم يبلغ ولم ينصح، وهي وإن كانت نازلة في أهل

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩-١٦٠.

الكتاب وما كنتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، حتى أفسدوا الدين وانحرفوا بالناس عن صراطه المستقيم، لكن حكمها عام لكل من كتم الدالات على الحق المظهرات له، وكتم العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم، من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم، بأن يبينوا للناس ما منّ الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتمونه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين، كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته، وتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فحوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق، وإصلاح أديانهم، وقرهم من رحمة الله، فحوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزل الله، مصادق لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يطمسها فهذا عليه هذا الوعيد الشديد، إلا من رجعوا عما هم عليه من الذنوب، ندمًا وإقلاغًا، وعزمًا على عدم المعاودة وأصلحوا ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن، ولا يكفي ذلك في الكاتم إلا إذا تحلى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيبين ما كتّمه، ويبيد ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه لأن توبة الله غير محجوب عنها، وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه ولم ينب إليه، ولم يتب عن قريب فأولئك لما صار كفرهم وصفًا ثابتًا، صارت اللعنة عليهم وصفًا ثابتًا لا تزول، لأن الحكم يدور مع علته، وجودًا وعدمًا. فهذا

الصف جزاؤه اللعنة والعذاب الدائم الشديد المستمر، وهؤلاء لا يمهلون، لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتدرون^(١).

والآية " حكمها عامٌ وإن كان سببها خاصًا، فكلُّ من يَكْتُم آياتِ الله وَهُدَايَتَهُ عَنِ النَّاسِ فَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِهَذِهِ اللَّعْنَةِ"^(٢). لقد " أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَعَنَ الْأُمَّةَ كُلَّهَا لِتَرْكِهِمُ التَّنَاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ . نَعَمْ ؛ إِنَّ هَذَا فَرَضٌ كِفَايَةٌ إِذَا قَامَ بِهِ الْبَعْضُ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ، وَلَكِنْ لَا يَكْفِي فِي كُلِّ قُطْرٍ وَاحِدٍ كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَقِّهَاءِ؛ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَقُومَ بِهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِيَكُونَ لَهُمْ قُوَّةٌ وَلِيُنْهَيْهِمْ وَأَمْرِهِمْ تَأْتِيرٌ"^(٣).

٢- قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ - مِمَّا قَلِيلًا أَوْلِيَّتِكُمْ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٧٤) ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ (١٧٥) ﴿^(٤).

إنها حملة عنيفة وتهديد ووعيد رهيب ينتظر هذا الصنف الذي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنه الإعراض والغضب والعذاب والاحتقار، والجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحدًا. وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله من العلم الذي أخذ الله الميثاق على أهله أن يبينوه للناس ولا يكتموا، فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوي، ونبذ أمر الله، وهذا الثمن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٧٧.

(٢) تفسير المنار (٤١/٢-٤٢).

(٣) تفسير المنار (٤٢/٢).

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٤-١٧٥.

إنما حصل لهم بأقبح المكاسب، وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم، بأن سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، ولا يظهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يركبهم الله لأنهم لم يفعلوا أسباب التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه، فهؤلاء نبذوا كتاب الله، وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها، وأنى لهم الجلد عليها؟^(١). " وقد تضمنت هذه الآيات الوعيد للكافرين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق، ولا بالمغفرة، وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة، ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة إليها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه، وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه، فهو في غاية البعد عن الحق، والمنازعة والمخاصمة"^(٢).

٣ - قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ

الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾^(٣).

نهى الله " هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحججة عليهم"^(١). فالأمر

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٨٢. باختصار وتصرف يسير.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٥.

بالمعروف والنهي عن المنكر يمنع من الفرقة ويحفظ وحدة الأمة، ف " الأُمَّة إِذَا اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ هَذَا الْمَقْصِدِ الْعَالِي الشَّرِيفِ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ مُسَيِّطِرَةً عَلَىٰ الْأُمَّمِ كُلِّهَا وَمُرْتَبَةً لَهَا وَمُهَدَّبَةً لِنُفُوسِهَا فَلَا شَكَّ أَنَّ جَمِيعَ الْأَهْوَاءِ الشَّخْصِيَّةِ تَتَلَاشَىٰ مِنْ بَيْنِهِمْ، فَإِذَا عَرَضَ الْحَسَدُ وَالْبَغْيُ لِأَحَدٍ مِنْ أَفْرَادِهِمْ تَذَكَّرُوا وَظَيَّفَتْهُمْ الْعَالِيَّةُ الشَّرِيفَةُ الَّتِي لَا تَبْتِمُّ إِلَّا بِالتَّعَاوُنِ وَالاِجْتِمَاعِ، فَأَزَالَتِ الذِّكْرَىٰ مَا عَرَضَ، وَشَقَّتِ النُّفُوسَ قَبْلَ تَمَكُّنِ الْمَرَضِ. وَدَعْوَةُ الْمُسْلِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَىٰ الْخَيْرِ وَتَأْمُرُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، بَيَانٍ طَرِيقِ الْخَيْرِ وَتَطْبِيقِ ذَلِكَ عَلَىٰ أَحْوَالِ النَّاسِ. أَمَا كَوْنُ هَذِهِ الْمُرْتَبَةِ حِفَاطًا لِلْوَحْدَةِ وَسِيَاجًا دُونَ الْفُرْقَةِ فَهُوَ ظَاهِرٌ، فَإِنَّ أَفْرَادَ الْأُمَّةِ إِذَا قَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِنَصِيحَةِ الْآخَرِ - دَعْوَةً وَأَمْرًا وَنَهْيًا - امْتَنَعَ فُشُوهُ الشَّرِّ وَالْمُنْكَرِ فِيهِمْ، وَاسْتَقَرَّ أَمْرُ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ بَيْنَهُمْ. فَكَيْفَ يَجِدُ الْفُرْقَةَ مَنْقَدًا إِلَيْهِمْ؟ أَمْ كَيْفَ يَسْتَقِرُّ الْخِلَافُ فِي الدِّينِ بَيْنَهُمْ؟ وَنَاهِيكَ إِذَا قَامَ - كُلُّ عَلَىٰ طَرِيقِهِ الْمُسْتَقِيمِ - الْعُلَمَاءُ الْحُكَمَاءُ فِي مَسَاجِدِهِمْ وَمَعَابِدِهِمْ، وَجَمِيعَ الْأَفْرَادِ فِي مَنَازِلِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ وَمَعَاهِدِهِمْ^(٢).

٤- قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ

(١) تفسير القرآن العظيم، (٩١/٢).

(٢) تفسير المنار (٢٤-٢٣/١) باختصار.

اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ

وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسَقُونَ ﴿٨١﴾ (١)

بين فريق من أهل العلم أن "الَّذِينَ لُعِنُوا عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ، وَالَّذِينَ لُعِنُوا عَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْمَائِدَةِ، وَعَلَيْهِ فَلَعْنُ الْأَوَّلِينَ مَسْخُهُمْ قِرَدَةً، وَلَعْنُ الْآخِرِينَ مَسْخُهُمْ خَنَازِيرَ، فَأَهْلُ أَيْلَةَ لَمَّا اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ قَالَ دَاوُدُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : «اللَّهُمَّ أَلْبِسْهُمْ اللَّعْنَ مِثْلَ الرِّدَاءِ، وَمِثْلَ الْمِنْطَقَةِ عَلَى الْحَقْوَيْنِ» ، فَمَسْخُهُمُ اللَّهُ قِرَدَةً، وَأَصْحَابُ الْمَائِدَةِ لَمَّا كَفَرُوا، قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ عَذِّبْ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ مَا أَكَلَ مِنَ الْمَائِدَةِ عَذَابًا لَمْ تُعَذِّبْهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَالْعَنَّهُمْ كَمَا لَعَنْتَ أَصْحَابَ السَّبْتِ، فَأَصْبَحُوا خَنَازِيرَ». وَهَذَا مَعْنَى لَعْنِهِمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ" (٢).

فأخبر سبحانه وتعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل بسبب أنهم "كانوا لا ينهي بعضهم بعضاً عن منكرٍ ما من المنكرات، مهما اشتد فُبْحَهَا وَعَظُمَ ضَرَرُهَا، وَإِنَّمَا النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ حِفَاطُ الدِّينِ وَسِيَاحُ الْأَدَابِ وَالْفَضَائِلِ، فَإِذَا تُرِكَ بَحْرًا الْفُسَاقُ عَلَى إِظْهَارِ فَسَقِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، وَمَتَى صَارَ الدَّهْمَاءُ يَرُونَ الْمُنْكَرَاتِ بِأَعْيُنِهِمْ، وَيَسْمَعُونَهَا بِأَذَانِهِمْ، تَزُولُ وَخَشَتْهَا وَفُبْحَهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ يَتَحَرَّأُ الْكَثِيرُونَ أَوْ الْأَكْثَرُونَ عَلَى افْتِرَافِهَا. فَأَلِخْبَارُ بِهَذَا الشَّانِ مِنْ شُؤْنِهِمْ إِحْبَارٌ بِفُسُوقِ الْمُنْكَرَاتِ فِيهِمْ،

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٩-٨١.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (١/٤١٩-٤٢٠) باختصار.

وَأَنْتِشَارِ مَفَاسِدِهَا بَيْنَهُمْ؛ لِأَنَّ وُجُودَ الْعِلَّةِ يَفْتَضِي وُجُودَ الْمَعْلُولِ، وَلَوْلَا اسْتِمْرَارُ وُفُوعِ الْمُنْكَرَاتِ لَمَا صَحَّ أَنْ يَكُونَ تَرْكُ التَّنَاهِي شَأْنًا مِنْ شُئُونِ الْقَوْمِ ، وَدَأْبًا مِنْ دُعُوهِمْ" (١).

٥- قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا

أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢)

فَالْحَقُّ وَجُوبُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبَعْدَ آدَاءِ الْوَاجِبِ لَا يَضُرُّ الْأَمْرَ ضَلَالٌ مَنْ ضَلَّ، وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ النَّاسَ إِنْ لَمْ يَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَلَمْ يَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ عَمَّهْمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ (٣)، فَ"الْفِتْنَةُ الَّتِي تَعُمُّ الظَّالِمَ وَغَيْرَهُ هِيَ أَنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُعَيِّرُوهُ عَمَّهْمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ، صَلَاحُهُمْ وَطَاحِلُهُمْ، وَبِهِ فَسَّرَهَا جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ شَاهِدَةٌ لِذَلِكَ" (٤)، ف"أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب" (٥)، فإذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر نجوا من هذه الفتنة وذاك العذاب المرتقب، وقد استدال الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذه الآية وغيرها (٦). وفي الآية تحذير من الله لمن يجترئ فينتهك حدوده ويجاهر بمعصيته، وكذلك كل من يرى المنكر والظلم فلم يغير ولم يحرك ساكنًا ولم ينه

(١) أضواء البيان (٤/٤٠٦).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

(٣) انظر: أضواء البيان (١/٤٦٠).

(٤) أضواء البيان (١/٤٦٢).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٧/٣٩١).

(٦) انظر: أضواء البيان (١/٤٦١).

عن ذاك المنكر ولم يتمعر وجهه غضبًا لنتهاك حرمان الله فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره" (١).

٦- قال تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكٰفِرَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدًا فِيهَا هِيَ حٰسِبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (٢).

هَذَا بَيَانٌ عَامٌّ لِحَالِ جَمِيعِ الْمُنَافِقِينَ ذَكَرْنَاهُمْ وَإِنَائِهِمْ، مَقْرُونٌ بِالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ عَلَى مَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ مَعَ إِخْوَانِهِمُ الْكُفَّارِ عَلَى فِسَادِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ، يَتَلَوُّهُ ضَرْبُ الْمَثَلِ لَهُمْ بِحَالِ أَمْثَالِهِمْ فِي الْأَمْرِ قَبْلَهُمْ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ؛ الْمُنْكَرُ الشَّرْعِيُّ: مَا يُنْكَرُهُ الشَّرْعُ وَيَسْتَقْبِحُهُ، وَالْمُنْكَرُ الْعَقْلِيُّ وَالْفِطْرِيُّ: مَا تَسْتَنَكِرُهُ الْعُقُولُ الرَّاجِحَةُ وَالْفِطْرُ السَّلِيمَةُ، لِمُنَافَاتِهِ لِلْفَضَائِلِ وَالْمَنَافِعِ الْفُرْدِيَّةِ وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ، وَالشَّرْعُ: هُوَ الْقِسْطَاسُ الْمُسْتَقِيمُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ، وَالْمَعْرُوفُ: مَا يُقَابِلُ الْمُنْكَرَ مُقَابَلَةَ التَّضَادِّ، وَمِنَ الْمُنْكَرِ الَّذِي يَأْمُرُ بِهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا الْكَذِبُ وَالْحَيَانَةُ وَإِخْلَافُ الْوَعْدِ وَالْفُجُورُ وَالْعَدْرُ بِنَقْضِ الْعُهُودِ، وَمِنَ الْمَعْرُوفِ الَّذِي يَنْهَوْنَ عَنْهُ الْجِهَادُ، وَبَدَلُ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِلْقِتَالِ وَغَيْرِ الْقِتَالِ. وَيَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ الْبَدْلِ، وَيَمْتَنِعُونَ مِنْهُ بِالْفِعْلِ، وَاقْتَصَرَ مِنْ مُنْكَرَاتِهِمُ الْفِعْلِيَّةِ عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّهُ شَرُّهَا وَأَضْرُّهَا، وَأَقْوَاهَا دَلَالَةٌ عَلَى التَّبَاقِ، كَمَا أَنَّ الْإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَقْوَى الْآيَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ (٣). فبين الله

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٣١٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٧ - ٦٨.

(٣) أضواء البيان، (١٠/ ٤٥٩ - ٤٦٠) باختصار وتصرف يسير.

أهم صفات المنافقين التي أهمها: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف تحذيراً لعباده وتخويماً لهم من اتصافهم بهذه الصفات، ثم بين سبحانه عقوبتهم نسيان الله لهم وسيصلون ناراً تنظى، خالدين فيها أبداً، مع طرد الله لهم من رحمته، إنه وعيد رهيب شديد، ترتجف له القلوب، وتتشعر منه الأبدان، وتدمع منه العيون، وتخاف القلوب الحية أن تتصف بهذه الصفات حتى لا يصيبها ما أصاب هؤلاء أو تدخل في زمرتهم، أو تحشر معهم.

ففي هذه الآيات السابقة تحذير من الله لمن ينتهك حدوده ويجاهر بمعصيته، وكذلك كل من يرى المنكر والظلم فلم يغير على حسب طاقته واستطاعته، ولم ينه عن ذلك المنكر ولم يتمر وجهه غضباً إذا انتهكت حرمة الله، إذا انتشرت المنكرات والفواحش، إذا فعلت المعاصي وكثرت الموبقات، فإن العقوبة شديدة، متوعد من يتصف بذلك بسخط الله ومقته، طرد ولعن ودمار وهلاك، خسف ومسح ونزول العقاب، والعذاب الأليم الشديد المهين الدائم في الآخرة.

ومن خلال ما سبق يتضح أن كتاب الله بين أهمية شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسلك في بيانها أساليب متعددة، فتارة يأمر المؤمنين بالقيام بها على أكمل وجه كل على حسب طاقته وقدر استطاعته، وتارة يرغب في فعلها ببيان ما يترتب على الفعل من الأجر العظيم والثواب الجزيل، وتارة يخوف من ترك تلك الشعيرة ويتوعد من يتخاذل بالعذاب الأليم واللعن والطررد من رحمة الله.

المبحث الثاني

شروط القائم بالأمر بالمعروف الناهي عن المنكر وصفاته

في القرآن الكريم

المتأمل في كتاب الله عز وجل يجد شروطاً للقائم بالأمر بالمعروف الناهي عن المنكر، ومن المهم أن نبينها حتى يكون الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر على بينة من أمره ونهيهِ. وقد بين القرآن الكريم أنه لا بد من صفات يتحلى بها الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر ليؤتى أمره ونهيهِ ثمرته المرجوة منه، ويمكن بيان ذلك من خلال مطلبين:

المطلب الأول: شروط القائم بالأمر بالمعروف الناهي عن المنكر في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: صفات القائم بالأمر بالمعروف الناهي عن المنكر في القرآن الكريم.

المطلب الأول

شروط القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم

للقائم بالأمر بالمعروف شروط يتحتم أن تتحقق فيه، ويمكن بيان أهم تلك الشروط من خلال استقراء نصوص القرآن الكريم فيما يلي:

١- الإسلام

دل كتاب الله تعالى على أنه لا تجوز ولاية الكافر على مسلم، قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١). والقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المعين من قبل ولي الأمر نوع ولاية، ولا ولاية للكافر على المسلم كما جاء في الآية السابقة.

ولما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعيرة من شعائر الإسلام وولاية شرعية اشترط في القائم بها أن يكون مسلمًا؛ لأن القائم بهذه الشعيرة يؤدي واجبًا فرضه الله عليه، ممثلًا بفعله ما أمرته الشريعة الإسلامية بوجوب القيام به. ومن المعلوم أن الولاية الشرعية لا تكون إلا لمسلم، "فلا يخفى وجه اشتراطه لأن هذا نصرة للدين، فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعدو له" (٢).

٢- موافقة الشرع

فمن شروط قبول عمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما نص على ذلك القرآن الكريم:

(١) سورة النساء، الآية: ١٤١.

(٢) إحياء علوم الدين (٢ / ٣١٢).

موافقة العمل للشريعة، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠) ﴿١﴾. والعمل الصالح هو الموافق للشرع. قال ابن كثير رحمه الله: "﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾، أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾، مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرْعِ اللَّهِ {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} وَهُوَ الَّذِي يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ وَخَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَا نَزَمْنَا الْعَمَلَ الْمُتَقَبَّلَ. لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ، صَوَابًا عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ" (٢).

وأن يكون موافقا لهدي النبي ﷺ، لقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٦١) ﴿٣﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَنْ نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٧) ﴿٤﴾.

وقد حذر القرآن الكريم من مخالفة أمر النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٣) ﴿٥﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١١٥) ﴿٦﴾.

وهذا أقرب الطرق الموصلة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى

(١) سورة الكهف، جزء الآية: ١١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، (٥ / ٢٠٥).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٥) سورة النور، جزء الآية: ٦٣.

(٦) سورة النساء، الآية: ١١٥.

رضوان الله سبحانه وتعالى، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي بالصرط المستقيم، وهو أقرب الطرق إلى حصول المقصود " (١).

فيشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون أمره ونهيه في كل أحواله موافقاً للشريعة، مهتديداً بهديها، مستنئاً بسنتها، متبعاً لطريقة السلف الصالح رحمهم الله.

٣- العلم بما يأمر به من المعروف وينهى عنه من المنكر.

فقد دلت نصوص القرآن على أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عالماً بما يأمر وبما ينهى، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٨) ﴿ (٢). وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٣١) ﴿ (٣). وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ (٣٢) ﴿ (٤). وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴾ (١١٣) ﴿ (٥). " أي لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذباً وافتراء على الله وتقولاً عليه " (٦).

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية، ص ١٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

(٥) سورة النحل، الآية: ١١٦-١١٧.

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٤٥١.

فيشترط في الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون "عَارِفًا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ لِيَعْلَمَ مَا يَأْمُرُ بِهِ، وَيَنْهَى عَنْهُ فَإِنَّ الْحَسَنَ مَا حَسَّنَهُ الشَّرْعُ، وَالْقُبْحَ مَا قَبَّحَهُ الشَّرْعُ.... وَلَا مَدْخَلَ لِلْعُقُولِ فِي مَعْرِفَةِ الْمَعْرُوفِ، وَالْمُنْكَرِ إِلَّا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرُبَّ جَاهِلٍ يَسْتَحْسِنُ بِعَقْلِهِ مَا قَبَّحَهُ الشَّرْعُ، وَيَتْرِكُ الْمَحْذُورَ، وَهُوَ غَيْرُ مُلِمٍّ بِالْعِلْمِ بِهِ، وَهَذَا الْمَعْنَى كَانَ طَلَبُ الْعِلْمِ فَرَضًا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ" (١).

فمن أهم الشروط التي يجب أن تتوفر في الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون "عَالِمًا بِالْمَأْمُورَاتِ وَالْمَنْهَيَّاتِ شَرْعًا" (٢)، "فَلَا بُدَّ مِنَ الْعِلْمِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا، وَلَا بُدَّ مِنَ الْعِلْمِ بِحَالِ الْمَأْمُورِ وَالْمَنْهَيِّ" (٣).

ويرجع سبب اشتراط العلماء هذا الشرط: أنه "إنما يدرك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالعلم؛ لأن العلم يرشد إلى موقع بذل المعروف، والفرق بينه وبين المنكر، وترتيبه في وضعه مواضعه" (٤)، "والإنسان لا يجوز له الإنكار إلا بعد المعرفة؛ فأول درجات الإنكار: معرفتك أن هذا مخالف لأمر الله" (٥). وكذلك "الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعُو به وإليه، بل لا بُدَّ في كَمَالِ الدعوة من البُلُوغِ فِي الْعِلْمِ إِلَى حَدِّ يَصِلُ إِلَيْهِ السَّعْيُ" (٦). فيحرم على الجاهل القيام

(١) معالم القرية في طلب الحسنة، ص ٨.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١ / ١٩١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨ / ١٣٦).

(٤) الكنز الأكبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١ / ٣٣٣).

(٥) الدرر السننية في الأحوبة النجدية (٨ / ٥١).

(٦) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١ / ١٥٤).

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يحل له القيام بما جهل حقيقته من المنكرات أو طريق الإنكار فيها^(١).

ومما أحب أن أشير إليه أنه " إِمَّا يَأْمُرُ وَيَنْهَى مَنْ كَانَ عَالِمًا بِمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ وَذَلِكَ يَتَّخِذُ بِاخْتِلَافِ الشَّيْءِ فَإِنْ كَانَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْمُحَرَّمَاتِ الْمَشْهُورَةِ كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَنَحْوِهَا فَكُلُّ الْمُسْلِمِينَ عُلَمَاءٍ بِهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ دَقَائِقِ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِجْتِهَادِ لَمْ يَكُنْ لِلْعَوَامِّ مَدْخُلٌ فِيهِ وَلَا هُمْ إِنْكَارُهُ بَلْ ذَلِكَ لِلْعُلَمَاءِ"^(٢).
 فيكون الأمر بالمعروف والنهائي عن المنكر "عنده من العلم ما يستطيع أن يعرف المنكر فينهي عنه، ويعرف المعروف فيأمر به، حسب الموازين الشرعية، وبهذا يكون احتسابه عن علم ومعرفة لا عن جهل وتخبُّط، ... ويدخل في حدِّ العلم المطلوب"^(٣). كما قرر غير واحد من أهل العلم، فلا بد من علم المحتسب بـ"مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها ليقصر على حد الشرع فيه"^(٤).

٤ - القدرة والاستطاعة

من رحمة الله بعباده أنه لم يكلفهم فوق طاقتهم، بل رفع الحرج والمشقة عليهم، قرر ذلك ربنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٥)،

(١) انظر: تحفة الناظر وغنية الذآكر، ص ٧.

(٢) شرح النووي على مسلم (٢/٢٣).

(٣) أصول الدعوة (١ / ١٨٣).

(٤) إحياء علوم الدين (٢ / ٣٣٣).

(٥) سورة الحج، الآية : ٧٨.

وقد أمر ربنا عباده بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(١)، فدللت الآية: "على أن كل واجب عجز عنه العبد أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه"^(٢).

وإن كان قد تقرر ذلك فإنه يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القدرة والاستطاعة، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٣). "أَي: لَا يُكَلِّفُ أَحَدًا فَوْقَ طَاقَتِهِ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ"^(٤). ورحم الله السعدي حين علق على الآية بقوله: "وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحملهم من المشاق، والآصار، والأغلال، ما حمله على من قبلهم، ولم يحملهم فوق طاقتهم"^(٥).

فالقدرة والاستطاعة شرط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل على حسب استطاعته وقدر طاقته، وقد بين الجصاص رحمه الله: "أَنَّ إِنْكَارَ الْمُنْكَرِ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ عَلَى حَسَبِ الْإِمْكَانِ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ تَغْيِيرَهُ بِيَدِهِ فَعَلَيْهِ تَغْيِيرُهُ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ إِذَا لَمْ يُمَكِّنْهُ ذَلِكَ فَلَيْسَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ إِنْكَارِهِ بِقَلْبِهِ"^(٦). وقال الخلال رحمه الله "بَابُ الرَّجُلِ يَرَى الْمُنْكَرَ الْعَلِيظَ فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَنْهِيَ عَنْهُ، وَيَرَى مُنْكَرًا صَغِيرًا يَقْدِرُ أَنْ يَنْهِيَ عَنْهُ، كَيْفَ الْعَمَلُ فِيهِمَا؟ أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْأَشْعَثِ، قَالَ: سُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ

(١) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٨٦٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، (١ / ٧٣٧).

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٩٦١.

(٦) أحكام القرآن للحصاص، (٢ / ٣٨).

عَنْ رَجُلٍ، لَهُ جَارٌ يَعْمَلُ بِالْمُنْكَرِ، لَا يَقْوَى عَلَى أَنْ يُنْكَرَ عَلَيْهِ، وَضَعِيفٌ يَعْمَلُ بِالْمُنْكَرِ أَيْضًا، يَقْوَى عَلَى هَذَا الضَّعِيفِ أَيْنُكِرُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، يُنْكَرُ عَلَى هَذَا الَّذِي يَقْوَى أَنْ يُنْكَرَ عَلَيْهِ»^(١).

٥- التدرج في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

دلت نصوص القرآن على ضرورة التدرج في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يبدأ بالأهم فيقدم ويؤخر المهم إذا احتيج لذلك، وهذا من الفقه الذي يجب أن يتحلى به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد بين القرآن الكريم منهج الرسل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك بأنهم بدأوا قومهم بالتدرج فقدموا العقيدة على غيرها، فكل واحد منهم قدم دعوته بالدعوة إلى العقيدة، فقال لقومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ ابْعُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلٰوةَ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٤).

وظل النبي ﷺ عشر سنين يدعو قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ورضي الله عن أم المؤمنين عائشة حين بينت أن القرآن راعى التدرج في دعوة البشر، فقالت ﷺ: " إِنْ مَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفْصَلِ، فِيهَا

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، للخلال، ص ٣٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥. وسورة هود، الآية: ٥٠، ٦١، ٨٤. وسورة المؤمنون، الآية:

٢٣، ٣٣.

(٣) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَتِ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّنا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾ (٤٦) ﴿١﴾ وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ " (٢).

وقال ابن عباسٍ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَزِدَادُوا إِيْمَانًا وَعِلْمًا﴾ (٣) قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ نَبِيَّهُ ﷺ بِشَهَادَةٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَلَمَّا صَدَّقَ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ زَادَهُمُ الصَّلَاةَ، فَلَمَّا صَدَّقُوا بِهَا زَادَهُمُ الزَّكَاةَ، فَلَمَّا صَدَّقُوا بِهَا زَادَهُمُ الصِّيَامَ، فَلَمَّا صَدَّقُوا بِهِ زَادَهُمُ الْحُجَّجَ، فَلَمَّا صَدَّقُوا بِهِ زَادَهُمُ الْجِهَادَ، ثُمَّ أَكْمَلَ لَهُمْ دِينَهُمْ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٤) (٥).

وبين شيخ الإسلام رحمه الله وفصل في المسألة بقوله: " فَالْعَالِمُ فِي الْبَيَانِ وَالْبَلَاغِ كَذَلِكَ؛ قَدْ يُؤَخَّرُ الْبَيَانُ وَالْبَلَاغُ لِأَشْيَاءَ إِلَى وَقْتِ التَّمَكُّنِ كَمَا أَخَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنْزَالَ آيَاتٍ وَبَيَانَ أَحْكَامٍ إِلَى وَقْتِ تَمَكُّنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَسْلِيمًا إِلَى بَيَانِهَا" (٦).

(١) سورة القمر، الآية: ٤٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، رقم الحديث (٤٩٩٣).

(٣) سورة الفتح، الآية: ٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٥) الإبانة الكبرى لابن بطة، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل الناشر: دار الراجعية للنشر

والتوزيع، الرياض، (٢/٦٢٨).

(٦) انظر المسألة بأكملها في: مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٥٧/٦١-٦٠).

٦- التأكيد من وجود المنكر ووقوعه وعدم الأخذ بالظن

فالتأكد من وجود المنكر ووقوعه وعدم الأخذ بالظن شرط من شروط إنكار الناهي عن المنكر، وهذا منهج قرآني أمرنا ربنا به ورغبنا في سلوكه، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنِيءٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾^(١). فأمر سبحانه وتعالى بالتثبت "وَالْمُرَادُ مِنَ التَّبَيُّنِ التَّعَرُّفُ وَالتَّفَحُّصُ، وَمِنَ التَّثَبُّتِ: الْأَنَاءُ وَعَدَمُ الْعَجَلَةِ، وَالتَّبَصُّرُ فِي الْأَمْرِ الْوَاقِعِ، وَالخَبَرَ الْوَارِدِ حَتَّىٰ يَتَّضِحَ وَيُظَهَرَ، كَرَاهَةَ أَنْ تُصِيبُوا، أَوْ لِقَالِ تَصِيبُوا لِأَنَّ الْخَطَأَ مِمَّنْ لَمْ يَتَّبِعِ الْأَمْرَ وَلَمْ يَتَّبِعْتُمْ فِيهِ هُوَ الْعَالِبُ وَهُوَ جَهَالَةٌ، لِأَنَّهُ لَمْ يَصْدِرْ عَنِ عِلْمٍ"^(٢). "وفي الآية دليل على فساد قول مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ عُذُولٌ حَتَّىٰ تَثْبُتَ الْجُرْحَةُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَمَرَ بِالتَّثَبُّتِ قَبْلَ الْقُبُولِ، وَلَا مَعْنَى لِّلتَّثَبُّتِ بَعْدَ إِنْفَاذِ الْحُكْمِ، فَإِنِ حَكَمَ الْحَاكِمُ قَبْلَ التَّثَبُّتِ فَقَدْ أَصَابَ الْمَحْكُومَ عَلَيْهِ بِجَهَالَةٍ"^(٣). فالله "مَا أَمَرَ بِالتَّبَيُّنِ إِلَّا عِنْدَ مَجِيءِ الْفَاسِقِ، لَا مَجِيءِ الْمُسْلِمِ، بَلْ بِشَرْطِ الْفِسْقِ"^(٤). قال القاضي أبو محمد: "فالجهول الحال يخشى أن يكون فاسقاً والاحتياط لازم"^(٥).

ورحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب حين نصح أتباعه بالتثبت والتحقيق وعدم العجلة، حيث قال: "فالواجب عليهم إذا ذكر لهم عن

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(٢) فتح القدير للشوكاني (٥ / ٧١) باختصار.

(٣) تفسير القرطبي (١٦ / ٣١٣).

(٤) البحر المحيط في التفسير (٩ / ٥١٣).

(٥) تفسير ابن عطية (٥ / ١٤٧).

أحد منكر: عدم العجلة؛ فإذا تحققوه، أتوا صاحبه ونصحوه، فإن تاب ورجع، وإلا أنكر عليه وتكلم فيه. فعلى كل حال، نبهوهم على مسألتين: الأولى: عدم العجلة، ولا يتكلمون إلا مع التحقيق، فإن التزوير كثير، الثانية: أن النبي ﷺ كان يعرف منافقين بأعيانهم، ويقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله، فإذا ظهر منهم وتحقق ما يوجب جهادهم جاهدهم^(١).
 فيجب التأكد من وقوع المنكر ووجوده ولا يأخذ بالظن بل يجب الثبوت، فالأصل البراءة من اقرار المنكر إلا إذا ثبت ضدها.

٧- سد الذرائع وتقدير المصالح والمفاسد المترتبة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فمن شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سد الذرائع وتقدير المصالح والمفاسد المترتبة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أحوال قررها العلماء، حيث اشترطوا تقدير المصلحة والمفسدة في الأمر والنهي. ومن تأمل أحكام الشريعة الإسلامية وجد أن الإسلام حرص على مراعاة تحقيق المصالح ودرء المفاسد وتعطيلها والابتعاد عنها وإلا تقليلها، وذلك بالتشريع المناسب لحال الخلق قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٢). فالله خفف عن الخلق وسهل ما أمر به وما نهى عنه، ومن رحمته بعباده أنه مع حصول المشقة في بعض الشرائع أباح لهم ما تقتضيه حاجتهم، كالميتة والدم ونحوهما للمضطر، وذلك لرحمته التامة

(١) الدرر السننية في الأحوبة النجدية (٨ / ٥٢).

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٨.

وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة، وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فناسب ذلك أن يخفف الله عنه، ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته^(١).

ومن تأمل كتاب الله وجد أنه بين "إِذَا اجْتَمَعَتْ مَصَالِحٌ وَمَفَاسِدٌ فَإِنَّ أَمْرًا تَحْصِيلُ الْمَصَالِحِ وَدَرْءُ الْمَفَاسِدِ فَعَلْنَا ذَلِكَ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمَا لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(٢)، وَإِنْ تَعَدَّرَ الدَّرْءُ وَالتَّحْصِيلُ فَإِنَّ كَانَتْ الْمَفْسَدَةُ أَعْظَمَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ دَرَأْنَا الْمَفْسَدَةَ وَلَا نُبَالِي بِفَوَاتِ الْمَصْلَحَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(٣)، حَرَّمَهُمَا لِأَنَّ مَفْسَدَتَهُمَا أَكْبَرُ مِنْ مَنْفَعَتِهِمَا. أَمَّا مَنْفَعَةُ الْخَمْرِ فَبِالتَّجَارَةِ وَحَوْهَا، وَأَمَّا مَنْفَعَةُ الْمَيْسِرِ فِيمَا يَأْخُذُهُ الْقَامِرُ مِنَ الْمُقْمُورِ. وَأَمَّا مَفْسَدَةُ الْخَمْرِ فَبِإِزَالَتِهَا الْعُقُولَ، وَمَا تُحْدِثُهُ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ، وَالصَّدِّ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ. وَأَمَّا مَفْسَدَةُ الْقَمَارِ فَبِإِقْبَاعِ الْعَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ، وَالصَّدِّ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، وَهَذِهِ مَفَاسِدٌ عَظِيمَةٌ لَا نِسْبَةَ إِلَى الْمَنَافِعِ الْمَذْكُورَةِ إِلَيْهَا. وَإِنْ كَانَتْ الْمَصْلَحَةُ أَعْظَمَ مِنَ الْمَفْسَدَةِ حَصَلْنَا الْمَصْلَحَةَ مَعَ التَّرَامِ الْمَفْسَدَةِ، وَإِنْ اسْتَوَتْ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ فَقَدْ يُتَخَيَّرُ بَيْنَهُمَا وَقَدْ يُتَوَقَّفُ فِيهِمَا، وَقَدْ يَقَعُ الإِخْتِلَافُ فِي تَفَاوُتِ الْمَفَاسِدِ. فَنَبْدَأُ بِأَمْثَلِ الأَفْعَالِ الْمُشْتَمَلَةِ

(١) انظر: تفسير السعدي، ص ١٧٥.

(٢) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢١٩.

عَلَى الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ مِنْ رُجْحَانِ مَصَالِحِهِمَا عَلَى مَفَاسِدِهِمَا وَهَذِهِ الْمَصَالِحُ أَقْسَامٌ: أَحَدُهُمَا مَا يُبَاحُ. وَالثَّانِي: مَا يَجِبُ لِعَظْمِ مَصْلَحَتِهِ، وَالثَّلَاثُ مَا يُسْتَحَبُّ لِرِيزَادَةِ مَصْلَحَتِهِ عَلَى مَصْلَحَةِ الْمُبَاحِ، وَالرَّابِعُ مُخْتَلَفٌ فِيهِ" (١).

والمتأمل في كتاب الله سبحانه وتعالى يجد أن المحق قد يكف عن الحق إذا أدى إلى ضرر يقع على الدين. فالله عز وجل حرم سب أوثان المشركين مع بطلانها حتى لا تكون دافعاً للبعض منهم إلى سب الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٧٨) (٢).

فلما كان سب الآلهة من أسباب نفرة المشركين والازدياد في الكفر والشرك جاء القرآن لينهى عن القдом على مثل هذا الفعل، وفي هذا دليل على سد الذرائع وتقدير المصالح والمفاسد في إنكار المنكر، ورحم الله القرطبي حين قرر ذلك في قوله: "فنهى سبحانه المؤمنين أن يسبوا أوثانهم، لِأَنَّهُ عَلِمَ إِذَا سَبَّوْهَا نَفَرَ الْكُفَّارُ وَازْدَادُوا كُفْرًا... قَالَ الْعُلَمَاءُ: حُكْمُهَا بَاقٍ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَمَتَى كَانِ الْكَافِرُ فِي مَنَعَةٍ وَخِيفَ أَنْ يَسْبَ الْإِسْلَامَ أَوْ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا يَجِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَسْبَ صُلْبَانَهُمْ وَلَا دِينَهُمْ وَلَا كَنَائِسَهُمْ، وَلَا يَتَعَرَّضُ إِلَى مَا يُؤَدِّي إِلَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْبَعْثِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ. وَعَبَّرَ عَنِ الْأَصْنَامِ وَهِيَ لَا تَعْقِلُ بِالَّذِينَ عَلَى مُعْتَقِدِ الْكُفْرَةِ فِيهَا. الثَّلَاثَةُ- فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا ضَرْبٌ مِنَ الْمُوَادَعَةِ، وَدَلِيلٌ

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١ / ٩٨).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

عَلَىٰ وَجُوبِ الْحُكْمِ بَسَدِ الذَّرَائِعِ، وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْمُحِقَّ قَدْ يَكْفُفُ عَن حَقِّ لَهُ إِذَا أَدَّىٰ إِلَىٰ ضَرَرٍ يَكُونُ فِي الدِّينِ" (١).

وقد بين ابن القيم رحمه الله أن الله شرع "إِيحَابَ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ لِيَحْصُلَ بِإِنْكَارِهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ مَا يُجِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَإِذَا كَانَ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ يَسْتَلْزِمُ مَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ وَأَبْعَضُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّهُ لَا يَسْوَعُ إِنْكَارُهُ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ يُبْغِضُهُ وَيَمْقُتُ أَهْلَهُ، ... فَإِنْكَارُ الْمُنْكَرِ أَرْبَعُ دَرَجَاتٍ؛ الْأُولَى: أَنْ يَزُولَ وَيُخْلَفُهُ ضِدُّهُ، الثَّانِيَةُ: أَنْ يَقِلَّ وَإِنْ لَمْ يَزُلْ بِجُمْلَتِهِ، الثَّالِثَةُ: أَنْ يَخْلَفَهُ مَا هُوَ مِثْلُهُ، الرَّابِعَةُ: أَنْ يَخْلَفَهُ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ؛ فَالذَّرَجَتَانِ الْأُولَيَانِ مَشْرُوعَتَانِ، وَالثَّالِثَةُ مَوْضِعُ اجْتِهَادٍ، وَالرَّابِعَةُ مُحَرَّمَةٌ" (٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "لِيَكُنْ أَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ غَيْرَ مُنْكَرٍ. وَإِذَا كَانَ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْوَأْجِبَاتِ وَالْمُسْتَحْبَاتِ فَالْوَأْجِبَاتُ وَالْمُسْتَحْبَاتُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الْمَصْلَحَةُ فِيهَا رَاجِحَةً عَلَى الْمَفْسَدَةِ؛ إِذْ هَذَا بُعِثَ الرُّسُلُ وَنَزَلَتْ الْكُتُبُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ؛ بَلْ كُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ صَالِحٌ. وَقَدْ أَتَى اللَّهُ عَلَى الصَّلَاحِ وَالْمُصْلِحِينَ وَالذِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَدَمَّ الْمُفْسِدِينَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فَحَيْثُ كَانَتْ مَفْسَدَةُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ أَعْظَمَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ لَمْ تَكُنْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَرَكَّ وَاجِبٌ وَقُعِلَ مُحَرَّمٌ" (٣). وقال أيضاً: "إِذَا تَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ وَالْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ أَوْ تَرَاحَمَتْ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ تَرْجِيحُ الرَّاجِحِ مِنْهَا فِيمَا إِذَا

(١) تفسير القرطبي (٦١/٧).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١٢/٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨ / ١٢٦).

ازْدَحَمَتِ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ وَتَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ. فَإِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَإِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا لِتَحْصِيلِ مَصْلَحَةٍ وَدَفْعِ مَفْسَدَةٍ فَيُنْظَرُ فِي الْمُعَارِضِ لَهُ فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَفُوتُ مِنَ الْمَصَالِحِ أَوْ يَحْصُلُ مِنَ الْمَفَاسِدِ أَكْثَرَ لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِهِ؛ بَلْ يَكُونُ مُحَرَّمًا إِذَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ؛ لَكِنَّ اعْتِبَارَ مَقَادِيرِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ هُوَ بِمِيزَانِ الشَّرِيعَةِ فَمَتَى قَدَرَ الْإِنْسَانُ عَلَى اتِّبَاعِ التُّصَوِّصِ لَمْ يَعْدِلْ عَنْهَا وَإِلَّا اجْتَهَدَ بِرَأْيِهِ لِمَعْرِفَةِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ"^(١). فمن شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سد الذرائع وتقدير المصالح والمفاسد المترتبة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

تلك هي أهم الشروط التي ينبغي أن تتوافر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) مجموع الفتاوى (٢٨ / ١٢٩).

المطلب الثاني

صفات القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفات ينبغي أن يتحلى بها، جاء ذكرها في القرآن الكريم، ومن تلك الصفات ما يلي:

١ - إخلاص نية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بين ربنا سبحانه وتعالى في كتابه أن شرط قبول الأعمال الصالحة الإخلاص، ويدخل فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو من أهم الأعمال الصالحة التي يتقرب بها العبد إلى مولاه.

وقد وردت نصوص القرآن الكثيرة التي توجب إخلاص الأعمال لله وترغب في ذلك، ومن تلك النصوص قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (١). أي: "قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه" (٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤). قَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ: هُوَ أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ. قَالُوا: يَا أَبَا عَلِيٍّ، مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا، وَمَنْ يَكُنْ

(١) سورة البينة، الآية: ٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٩٣٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٤) سورة الملك، الآية: ٢.

صَوَابًا. لَمْ يُقْبَلْ. وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا: لَمْ يُقْبَلْ. حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ. ثُمَّ قَرَأَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ زَيْحُوا لِقَاءِ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١) ﴿١﴾.

وقد أمر الله نبيه بالإخلاص في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) ﴿٢﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٣) ﴿٣١﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٤) ﴿٤٤﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٥) ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴿٥﴾.

وأخبر سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عن حرص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قيامهم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على إرادة وجه الله وحده ونيل مرضاته وثوابه، حيث قال تعالى حاكياً على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام قولهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦) ﴿٦١﴾.

وقد بين سبحانه وتعالى أنه كلما كمل إخلاص العبد لربه في عمله فقصده به وجه الله وما عنده من الأجر والمثوبة كلما كمل الأجر وعظمت

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢.

(٣) سورة ص، الآية: ٨٦.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٥٧.

(٥) سورة الزمر، الآية: ١٢.

(٦) سورة الشعراء، الآية: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

المثوبة، قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١). فكمال "الأجر" وتماحه بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢)، فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص فيكون من المخلصين، وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا لأن النية حصلت واقترن بها ما يمكن من العمل"^(٣).

٢ - امتثال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما يأمر به وينهى عنه.

فقد دلت نصوص القرآن الكريم على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يلزمه أن يكون قدوة وأسوة حسنة لما يدعو الناس له وينهى الناس عنه. ولذا ضرب القرآن الكريم مثلاً يحتذي به في هذا الباب حين ذكر قول شعيب عليه السلام لقومه حين أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ فِكْرًا مِنْكُمْ إِنِّي لَأَمْلَأُ مِنْكُمْ أَنفُسًا مَّا أَهْتَمُّ بِهِ وَلَا لَكُمْ مِنْهُ نَصِيرَةٌ إِنِّي أَهْلٌ بِمِثْلِ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

وقد ذم الله في كتابه الذي يفعل خلاف ما يأمر به وينهى عنه، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٥) كبر مقتاً عند الله أن

(١) سورة النساء، الآية: ١١٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٢٠٢.

(٤) سورة هود، الآية: ٨٨.

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ^(١). وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ^(٢).

وقد حذر ابن القيم رحمه الله من هذا الصنف الذي يقول ولا يفعل وبين خطره، حيث قال رحمه الله: "عُلِمَاءُ السُّوءِ جَلَسُوا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ يَدْعُونَ إِلَيْهَا النَّاسَ بِأَقْوَالِهِمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى النَّارِ بِأَفْعَالِهِمْ، فَكَلِمَا قَالَتْ أَقْوَالُهُمُ لِلنَّاسِ هَلَمُوا قَالَتْ أَفْعَالُهُمْ لَا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ، فَلَوْ كَانَ مَا دَعَا إِلَيْهِ حَقًّا كَانُوا أَوْلَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُ، فَهَمُ فِي الصُّورَةِ أَدْلَاءُ وَفِي الْحَقِيقَةِ قَطَاعُ الطَّرِيقِ" ^(٣).

٣- الرفق واللين عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المتأمل في القرآن الكريم يجد أنه جاءت نصوص تبين أنه يتحتم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون في أغلب أحيانه رفيقاً في أمره ونهيه ما أمكن إلى ذلك سبيلاً.

وقد بين ربنا سبحانه وتعالى أن طبيعة البشر تنفر من أهل الغلظة والفظاظة، فقال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ ^(٤).

وقد أمر الله نبيه موسى وهارون عليهما السلام بلين القول وملاطفة

(١) سورة الصف، الآية: ٣-٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٣) الفوائد لابن القيم، ص ٦١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

الكلام لفرعون، فقال لهما سبحانه وتعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ (١)، مع أنه الذي قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ ۝٤٤﴾ فَأَوْفَيْتِلِي يَهْمَنُنَّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٣٨﴾ (٢)، وقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٤﴾ (٣). وقال: ﴿ذُرِّيَّةَ أَقْتَلٍ مُّوسَىٰ وَلَيْدُعَ رَبِّهٖ ۝٤٤﴾ إِذْ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۝٣٦﴾ (٤). وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ ۝٢١﴾ (٥). ورحم الله المأمون حين وعظه عالم فأغلظ عليه في القول وعنفه، فقال يا رجل: ارفق، فلقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا ۝٦٧﴾ (٦).

ورحم الله القاضي عياض حين بين فقه الرفق في النهي عن المنكر بقوله: " وَيَرْفَقُ فِي التَّعْيِيرِ جُهْدَهُ بِالْجَاهِلِ وَبِذِي الْعِزَّةِ الظَّالِمِ الْمَخُوفِ شَرُّهُ إِذْ ذَلِكَ أَدْعَى إِلَى قَبُولِ قَوْلِهِ، كَمَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ مُتَوَلِّيَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْفَضْلِ لِهَذَا الْمَعْنَى، وَيُعْلِظُ عَلَى الْمُتَمَادِي فِي غَيْبِهِ وَالْمُسْرِفِ فِي بَطَالَتِهِ إِذَا أَمِنَ أَنْ يُؤَوَّرَ إِغْلَاطُهُ مُنْكَرًا أَشَدَّ مِمَّا غَيْرُهُ لِكَوْنِ جَانِبِهِ مَحْمِيًّا عَنِ سَطْوَةِ الظَّالِمِ، فَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنْ تَغْيِيرُهُ بِيَدِهِ يُسَبِّبُ مُنْكَرًا أَشَدَّ مِنْهُ مِنْ

(١) سورة طه، الآية: ٤٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٥٢.

(٤) سورة غافر، الآية: ٢٦.

(٥) سورة النازعات، الآية: ٤٤.

(٦) سورة طه، الآية: ٤٤.

(٧) انظر: إحياء علوم الدين (٢/٣٦٢).

قَتْلِهِ أَوْ قَتْلِ غَيْرِهِ بِسَبَبِ كَفِّ يَدِهِ وَافْتَصَرَ عَلَى الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ وَالْوَعْظِ
وَالتَّخْوِيفِ، فَإِنْ خَافَ أَنْ يُسَبِّبَ قَوْلُهُ مِثْلَ ذَلِكَ غَيْرَ بِقَلْبِهِ وَكَانَ فِي سَعَةِ،
وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِالْحَدِيثِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنْ وَجَدَ مَنْ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى
ذَلِكَ اسْتَعَانَ مَا لَمْ يُؤَدِّ ذَلِكَ إِلَى إِظْهَارِ سِلَاحٍ وَحَرْبٍ، وَلِيُرْفَعَ ذَلِكَ إِلَى مَنْ
لَهُ الْأَمْرُ إِنْ كَانَ الْمُنْكَرُ مِنْ غَيْرِهِ أَوْ يَفْتَصِرَ عَلَى تَغْيِيرِهِ بِقَلْبِهِ هَذَا هُوَ فَفْهُ
الْمَسْأَلَةُ وَصَوَابُ الْعَمَلِ فِيهَا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُحَقِّقِينَ خِلَافًا لِمَنْ رَأَى
الْإِنْكَارَ بِالتَّصْرِيحِ بِكُلِّ حَالٍ وَإِنْ قُتِلَ وَنِيلَ مِنْهُ كُلُّ أَدَى" (١).

فعلى الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر أن يكون في أغلب أحيانه رقيقاً
في أمره ونهيهِ وليحذر أن يكون الأمر والنهي بخشونة وغلظة " والسر أن
النفوس جبلت على الميل إلى حب الكرامة، وشبت في الغالب على الأنفة
والرعونة، ونشأت على التقيد بالإلف والعادة، فمن أراد صرفها عن غيرها إلى
رشدّها، وحاول الخروج بها عن مألوفها وعاداتها، ولم يمزج مرارة الحق بحلاوة
التلطف، ولم يسهل صعوبة التكليف بطلاوة الرفق واللين؛ كان إلى الانقطاع
أقرب منه إلى الوصول، ودعوته أجدر بالرفض من القبول، وكان كمن رام أن
يطهر ثوباً من الدنس فأوقد فيه ناراً فأحرقته، ألا ترى قوله تعالى: ﴿فَقَوْلًا
لَهُ قَوْلًا لِيُنْأَى﴾ (٢) فإنه يفيد أن لين القول محل رجاء التذکر والاعتاظ، والمعد
للنفوس للخوف والانزجار" (٣).

(١) شرح النووي على مسلم (٢ / ٢٥).

(٢) سورة طه، الآية: ٤٤.

(٣) هداية المرشدين، ص ١٩٩ باختصار يسير.

ورحم الله من قال: " فإن خشنت كلامك في النصيحة فذلك إغراء وتنفير، وقد قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا﴾^(١). ولن يقبل المرء الأمر والنهي إلا إذا انفتح القلب ليعي القول، ولن يجد مفتاحًا أحسن وأقرب من لطف في الأمر والنهي، وأدب في الوعظ، ورفق في الحديث.

وليعلم الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر بشدة وغلظة وفظاظة أنه لباب الخير قد أغلق؟ وللأذى قد أوقع، وللأجر قد فوت، وللشيطان على إخوانه قد أعان. أما الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر برفق فكم من قلوب مغلقة قد فتحت؟ وكم من حقوق مضيعة قد حفظت؟ وكم من الأجر قد حصل؟ وكم من إرغام للشيطان قد حقق؟ وكم من نقائص قد استكملت؟ وكم من أخوة قد روعيت؟^(٢).

٤- الصبر على الأذى عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

جاءت نصوص القرآن تبين أن الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر يلحقه الأذى مما يحتم عليه التحلي بالصبر، وقد أمر الله نبيه ﷺ حين أرسله وأمره بإنذار قومه بالصبر والمصابرة فقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيَنُ ۝١ قُرْآنٌ ذِكْرٌ ۝٢ وَرَبِّكَ فَكْبُرُ ۝٣ وَيَأْتِيكَ فَطَهْرٌ ۝٤ وَالرُّجْرُ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَسْتَكْبُرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾^(٣). وقال له سبحانه وتعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَيْقِلٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٣٧﴾^(٤). وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ

(١) سورة طه، آية: ٤٤.

(٢) انظر: ضوابط وآداب التناصح بين العالم والمتعلم، د محمود بن عبدالمهدي دسوقي، ص ٦٠-٦٢.

(٣) سورة المدثر، الآية: ١-٧.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤١﴾ ﴿١﴾. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ﴿١﴾. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ ﴿٥﴾ ﴿٣﴾. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ﴾ ﴿٦﴾ ﴿٤﴾. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ بَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَمَهْلُ بُهْلِكُمْ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٥﴾.

لقد "أمر" تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعيًا لهم إلى الله وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين سادات الخلق أولي العزائم والهمم العالية الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارهم. فامتثل ﷺ لأمر ربه فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة وقاموا جميعاً بصدده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعادة والمخاربة، وهو ﷺ لم يزل صادقاً بأمر الله مقيماً على جهاد أعداء الله صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكن الله له في الأرض وأظهر دينه على سائر الأديان وأمته على الأمم، فضلى الله عليه وسلم تسليماً" ﴿٦﴾.

وقد وصى لقمان الحكيم ولده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى من جراء أمره ونهيته، فقال له: ﴿يَبْنَئِي أَقْرَبَ الصَّكَاوَةِ

(١) سورة هود ، الآية: ٤٩ .

(٢) سورة طه ، الآية: ١٣٠ .

(٣) سورة المعارج ، الآية: ٥٠ .

(٤) سورة الروم ، الآية: ٦٠ .

(٥) سورة الأحقاف ، الآية: ٣٥ .

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٧٨٤ .

وَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴿١﴾ .
 فقد "عَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ مِنَ
 النَّاسِ أَدَىٰ، فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ" (٢) . وهذا " يَفْتَضِي حِضًّا عَلَىٰ تَعْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ
 نَالَكَ ضَرَّرَ، فَهُوَ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْمُعَيَّرَ يُؤَدَىٰ أَحْيَانًا" (٣) .

وبين ربنا سبحانه أن الأنبياء والمؤمنين كلهم أودوا من قبل أقوامهم
 بسبب قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ
 كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنْهَمُ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ
 جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَمْرُسَلِينَ﴾ (٤) . وقال عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا
 الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُؤَاتٍ الْبِئْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَرُلُؤًا حَتَّىٰ يَقُولَ
 الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٥) . وفي الآيتين
 السابقتين تسلية للآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، وبيان لمآلات القيام
 بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتهيئة النفوس لذلك، واستعداد ذلك
 في سبيل الله.

وبين سبحانه جزاء الصابرين ترغيباً لهم في التحلي بالصبر فقال سبحانه
 وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٦) . وقال سبحانه وتعالى:
 ﴿وَجَزَاءُ مَا صَبَرُوا جَنَّةٌ وَحَرِيرٌ﴾ (٧) . وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا

(١) سورة لقمان، الآية: ١٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٣٣٨) .

(٣) الجامع الأحكام (١٤ / ٦٨) .

(٤) سورة الأنعام ، الآية: ٣٤ .

(٥) سورة البقرة ، الآية: ٢١٤ .

(٦) سورة الزمر ، الآية: ١٠ .

(٧) سورة الإنسان ، الآية: ١٢ .

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَسُبُّوتَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرًا الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ (١). وقال سبحانه وتعالى:

﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَجِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ (٢). وقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٣).

تلك كانت أهم الصفات التي ينبغي أن يتصف ويتحلى بها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥٨-٥٩.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٥-٧٦.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨٠.

المبحث الثالث

موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم

موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعددة متنوعة، فمنها: ما يتعلق بالأمور العقدية، ومنها: ما يتعلق بالشريعة والأحكام، ومنها: ما يتعلق بالسلوك والأخلاق، ويمكن بيان ذلك في المطالب التالية:

المطلب الأول: موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم المتعلقة بالعقيدة.

المطلب الثاني: موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم المتعلقة بالشريعة.

المطلب الثالث: موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم المتعلقة بالأخلاق.

المطلب الأول

موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم المتعلقة بالعتيقة.

من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم ما يتعلق بالعتيقة، ويشمل ذلك الإيمان بربوبية الله سبحانه وتعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، مع الإيمان بجميع ما يتعلق بالمسائل الاعتقادية.

وقد جاءت نصوص القرآن الكريم تدعو الناس إلى الإيمان بربوبية الله وحده لا شريك له فلا خالق، ولا مالك، ولا رازق، ولا مدبر إلا الله سبحانه وتعالى، فيدخل في ذلك الاعتقاد الجازم الذي لا يخالطه شك، والإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه ورازقه، وأنه عز وجل المحيي المميت، النافع الضار، المجيب لمن دعاه، الذي بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، له الأمر كله وله الحكم، ولا شريك له في ملكه سبحانه وتعالى.

والآيات التي وردت في تقرير ما سبق كثيرة متواترة، منها قوله تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا لَنُنْفِقُونَ ﴾ (٣١) . وقوله تعالى: ﴿ أَمْ أَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ حَذَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ مَعَهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴾ (٦٠) أَمْ أَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا

(١) سورة يونس، الآية: ٣١.

أَيُّ لَهٗ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ
وَيَجْعَلُ لَكُمْ خَلْفَاءَ الْأَرْضِ أَيُّ لَهٗ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ
فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَيُّ لَهٗ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾ أَمَّنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثَمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَيُّ لَهٗ مَعَ اللَّهِ قُلْ
هَآئِنَا بُرْهَنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾. وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَافٌ تُؤَفِّكُونَ ﴾ (٢).
وقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ (٣). وقوله
تعالى: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِيدْ كَيْدًا فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ
يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤).

وجاءت نصوص القرآن الكريم تدعو الناس إلى إفراد الله وحده
بالعبادة، فهو المستحق لذلك وحده، وعبادة غيره باطلة، قال تعالى:
﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ، هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ
الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (٥). وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ
اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (٦).

(١) سورة النمل، الآية: ٦٠-٦٤.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣.

(٣) سورة الملك، الآية: ٢١.

(٤) سورة يونس، الآية: ١٠٧.

(٥) سورة الحج، الآية: ٦٢.

(٦) سورة النحل، الآية: ٣٦.

ويدخل في العبادة سائر أنواع العبادة مثل: الحب، قال تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ (١٣٥)

(١)، والخوف، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧٥) (٢)، والركوع والسجود وجميع أعمال الخير، قال تعالى:

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَتَعَلَّقُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣)، والذبح، قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ (٤).

والنذر، قال تعالى: ﴿ يُؤْتُونَ بِالْأَنْذَارِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ (٧) (٥). والرجاء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٦٨) (٦). والدعاء: قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسَ سَتَجِدُنِي إِلَىٰ وَلِيٍّ مُّؤْمِنًا يُبِيحُ لَهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٨١) (٧). وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِّ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٦٠) (٨).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٧.

(٤) سورة الكوثر، الآية: ٢.

(٥) سورة الإنسان، الآية: ٧.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٨) سورة غافر، الآية: ٦٠.

وجاءت نصوص القرآن تبين بأن الله واحد في أسمائه وصفاته، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَدِلُهُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ٢٢﴾ ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٢٣﴾ ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٤﴾^(١). وأنه سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُّوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٨﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿إِلَهُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ٨﴾^(٣). فنثبت لله سبحانه وتعالى ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكيف ولا تمثيل، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١﴾^(٤).

ومن الأمور التي قررها القرآن الكريم وهي من موضوعات العقيدة: أن الغاية من خلق العباد توحيد الله وإفراده بالعبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥١﴾^(٥). وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣١﴾^(٦). وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٢-٢٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٣) سورة طه، الآية: ٨.

(٤) سورة الشورى، جزء الآية: ١١.

(٥) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٦) سورة التوبة، الآية: ٣١.

كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ ^(١). وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٣﴾ ^(٢).
وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ^(٣)﴾.

وأن من لوازم توحيد الربوبية توحيد الألوهية، كما قال تعالى: ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي السَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِينِئَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بَأْمَرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ^(٤)﴾.

وأن التوحيد يوافق الفطر السوية التي فطر الله الخلق عليها كما أخبر تعالى في قوله: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَنِينُ وَلَنْ يُكْرَهَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ^(٥)﴾.

وأن الشرك محبط لجميع الأعمال، فلا يقبل عمل لمشرك، فقبول الأعمال مرتبط بالتوحيد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ^(٦)﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ^(٧)﴾. وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ

(١) سورة ص، الآية: ٢٧.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥-١١٦.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٥) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٨٨.

(٧) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ (١). وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٨﴾ (٢).

بيان العقائد الباطلة المنحرفة عن الطريق المستقيم ودحضها ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۗ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِيَّ إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبهه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا نباح الظن وما قتلوه يقيناً﴾ ﴿١٥٧﴾ بل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ (٤). وقوله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يُضَعِّفُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يُوَفَّكَوْا ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمُ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣١﴾ (٥).

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٢-٧٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٧-١٥٨.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٣٠-٣١.

وأنه لا يكفي المعرفة الذهنية للإيمان، بل لابد مع المعرفة الذهنية الإيمان الجازم الذي لا يقبل الشك، مع التصديق والإقرار والعمل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ (١)، وبين القرآن كم من قوم حصل لهم المعرفة بحقائق الإيمان لكنهم لم يؤمنوا فكان عاقبتهم خسراً، قال تعالى: ﴿وَجَاهَدُوا فِيهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢﴾﴾.

ولا يكفي مجرد النطق باللسان وإن أعلن الشخص أنه من أكمل الناس إيماناً، بل لابد من متطلبات للنطق والإقرار، ولقد أخبر القرآن عن طوائف متعددة ومتنوعة أقروا بأفواهم لكن لم يستقر الإيمان في قلوبهم ولم تقتد الجوارح فكان الضلال المبين، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ومن موضوعات العقيدة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وهي من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الإيمان بالملائكة وأنهم خلق من خلق الله، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨-١٢.

شِدَادًا لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ (١). وأهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم ويخافون منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (٣). وهم مكلفون بأعمال ومهمات كثيرة، فجبريل عليه السلام موكل بالوحي، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزَّلُنَا رَبِّيَ الْعَلَمِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ (٤). وملك الموت موكل بقبض الأرواح، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوبُ لَكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِنِّي رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ (٥). ولله أعوان، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿١١﴾﴾ (٦). ومنهم الموكل بحفظ بني آدم، قال تعالى: ﴿لَهُ، مَعْقِبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَاوَالٍ ﴿١١﴾﴾ (٧). ومنهم الموكل بكتابة ما يصدر عن بني آدم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ (٨).

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ٥٠.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ١٩٢-١٩٣.

(٥) سورة السجدة، الآية: ١١.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

(٧) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٨) سورة ق، الآية: ١٧-١٨.

ومنهم حملة العرش، قال تعالى: ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ۗ ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۗ ﴾ (٢). وأنهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۗ ﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَكَ رِيبُكُم بِاللَّيْنِ وَالْأُنثَىٰ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۗ ﴾ (٤).

ومن موضوعات العقيدة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الإيمان بالكتب، بما علمنا الله من أسمائها كالقرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۗ ﴾ (٥). وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۗ ﴾ (٦). والتوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۗ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ أَسْتَكْبِرْتُمْ فَغَارِبُوا لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾ (٧).

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

(٢) سورة غافر، الآية: ٧.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ١٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٠.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

(٦) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

وَقَرِيبًا نَقُتْلُونَ ﴿٨٧﴾ (١). والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ (٢). والزيور الذي أوتيته داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٣﴾. وصفح إبراهيم وموسى، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿٤﴾، مع الإيمان بما لم نعلمه من الكتب المنزلة فنؤمن به إجمالاً.

وأنه يجب تدبر آيات القرآن، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَنِ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ (٥). وتعظيمه، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْرَةَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٣﴾ (٦). وتنفيذ أحكامه، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٠﴾ (٧). وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

(٢) سورة الصف، الآية: ٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

(٤) سورة الأعلى، الآية: ١٨-١٩.

(٥) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٦) سورة الحج، الآية: ٣٢.

(٧) سورة النساء، الآية: ٦٥.

مُيَسِّرًا ﴿٣٦﴾ (١). واتباع النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ﴿٧﴾ (٢). والتحذير من مخالفة أمره، قال تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْثُونَ مِنْكُمْ لَوْ أَدَّاءٌ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٦٣﴾ (٣).

ومن موضوعات العقيدة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الإيمان بالرسول وأن ذلك واجب من واجبات الدين وركن عظيم من أركان الإيمان، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿٤﴾. واعتقاد ما أخبر الله به عنهم في كتابه إجمالاً والمذكورون منهم في القرآن من الأنبياء والرسل خمسة وعشرون، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَنَ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿ وَرَكَرَبْنَا وَيْحَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿ وَأِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٨٦﴾. وهود،

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الحشر، جزء الآية: ٧.

(٣) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٨٣-٨٦.

وصالح، وذو الكفل، وإدريس، وشعيب، ويونس، ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وتفصيلاً من ذكر أسمائهم وأخبارهم وفضائلهم وخصائصهم. والإيمان بما لم يذكره الله من أسماء رسله وأنبيائه، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (١٦٤) . وأنهم أفضل الخلق ولا يبلغ أحد منزلتهم وليسوا على درجة واحدة بل فضل الله بعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مَن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (٢) . ومن يكفر بواحد من الرسل فقد كفر بجميعهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (١٥١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُِّمٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١٥٢) . وأن الله بعث في كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له والكفر بما يعبد من دون الله كما مر معنا من آيات تدل على ذلك.

ومن موضوعات العقيدة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الإيمان باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّحَابِيُّ وَالصَّابِغِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥ .

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٠-١٥٢ .

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٢﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ ﴿٣١﴾ (٢). ويدخل فيه: الإيمان بالساعة وأنها آتية لا شك فيها، قال تعالى: ﴿ إِذِ السَّاعَةُ لَآتِيَةٌ لَّرَبِّبِ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ ﴾ ﴿٤٦﴾ (٤). وعلامات الساعة الصغرى والكبرى، قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا أَنِنَا مُنظِرُونَ ﴾ ﴿١٥٨﴾ (٥). والموت، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْتِخَبُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٨﴾ (٦). والقبر وما يكون فيه من نعيم أو عذاب، قال تعالى: ﴿ مِمَّا خَطَبْتُمْ فِيهَا فَاذْخُلُوا نَارًا فَالْمُجِدُّوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾ ﴿١٥﴾ (٧). وقال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ ﴿٤٦﴾ (٨). والبعث، قال تعالى: ﴿ وَصَرَّبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ

(١) سورة البقرة ، الآية: ٦٢ .

(٢) سورة النساء ، الآية: ٣٩ .

(٣) سورة غافر، الآية: ٥٩ .

(٤) سورة القمر، الآية: ٤٦ .

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨ .

(٦) سورة الجمعة، الآية: ٨ .

(٧) سورة نوح ، الآية: ٢٥ .

(٨) سورة غافر، الآية: ٤٦ .

﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴿١﴾. والنفخ في الصور، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَعْنَهُمْ جَمْعًا ﴿١١﴾﴾ ﴿٢﴾. والحشر، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبَكَاَوْصُمًا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتَ زِينَتُهُمْ سَعِيرًا ﴿١٧﴾﴾ ﴿٣﴾. والوقوف بين يدي الله، قال تعالى: ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿٤﴾. وأخذ الكتاب باليمين أو الشمال، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ سَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ ﴿٥﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ بَلِّغْني لِزَوَاتِ كِتَابِي﴾ ﴿٦﴾. والجنة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْرِيهِ إِلَّا لِأَنشَأَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَقَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ ﴿٧﴾. والنار، قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ ﴿٨﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ ﴿٩﴾.

(١) سورة يس، الآية: ٧٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٩٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.

(٤) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

(٥) سورة الإنشقاق، الآية: ٧-٨.

(٦) سورة الحاقة، الآية: ٢٥.

(٧) سورة غافر، الآية: ٤٠.

(٨) سورة الشورى، جزء الآية: ٧.

(٩) سورة السجدة، الآية: ١٣.

ومن موضوعات العقيدة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ ۗ ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ۗ ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ قَدْرًا ۗ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۗ ﴾ (٣).

ويدخل فيه الإيمان بإحاطة علم الله بكل شيء، فعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، علم بالموجودات والمعدومات، والممكنات والمستحيلات، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ ﴾ (٤). وكتابة الله تعالى لكل شيء مما هو كائن إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۗ ﴾ (٥). ومشيبته سبحانه وتعالى، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، قال تعالى: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۗ ﴾ (٦) وما نشأه وإن شاء الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۗ ﴾ (٧). وأنه سبحانه وتعالى خالق الأشياء وموجدها، فهو الخالق لكل عامل وعمله، وكل متحرك وحركته، وكل ساكن وسكونه، وله القدره الكاملة على ذلك، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ خَلِقُ

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الأحزاب، جزء الآية: ٣٨.

(٣) سورة الطلاق، جزء الآية: ٣.

(٤) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٥) سورة النبأ، الآية: ٢٩.

(٦) سورة التكويز، الآية: ٢٨-٢٩.

كُلِّ شَيْءٌ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾^(١). وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ تَوْفِيقًا﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(٣).
تلك هي أهم موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم التي تتعلق بالعقيدة.

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٢.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٢.

المطلب الثاني

موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم المتعلقة بالشريعة

من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم ما يتعلق بالشريعة وتشمل أركان الإسلام الخمسة عدا الركن الأول وهو الشهادتان، والمعاملات، والأحوال الشخصية، والحدود، والحكم والسياسة، ونظام الجهاد والحسبة وما إلى ذلك. فيدخل جميع الأحكام الشرعية التي جاء بها الإسلام ، سواء كان ذلك على مستوى الفرد أو الأسرة، أو المجتمع، مما بينته كتب الفقه والأحكام.

فمن موضوعات الشريعة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: العبادات من الصلاة والزكاة والصوم والحج.

فالصلاة أمر الله بأدائها في أوقاتها، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ١٣٣ ﴾ ^(١). وبالمحافظة عليها، قال تعالى: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ٣١ ﴾ ^(٢). وبالحشوع فيها، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ ﴾ ^(٣). وحذر من الاستهانة

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣١.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١-٢.

فيها وتضعيها، قال تعالى: ﴿ خَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا أَصْلَوهَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً ۝٥٩ ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ﴾ (٢).

وفرض الله تأدية الزكاة لأصناف عدة، قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣ ﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَىةَ فَلَوْ لَهُمْ فِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠ ﴾ (٤). وحذر من عدم تأدية الزكاة، وبين عاقبة من يفعل ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُنَّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٥ ﴾ (٥).

وأوجب صوم رمضان، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ ﴾ (٦). وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۝٧ ﴾ (٧).

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الماعون، الآية: ٤-٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٣٤-٣٥.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

وأوجب حج بيت الله الحرام، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (١٧).^(١) وبين بعض أحكامه، قال تعالى: ﴿وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ، فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعًا إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقُوتَ وَاتَّقُوا رَبَّ أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ (١٧).^(٢)

ومن موضوعات الشريعة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: المعاملات، وهي المبادلات بين جهتين أو طرفين والمعاوضات المالية.

وقد بين القرآن أن الكون بما فيه ملك لله ومع ذلك سخره للإنسان، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٣).^(٣) وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ (١٣).^(٤) ومع ذلك أثبت للإنسان حق تملكه لماله وبين أن للغير حقاً عنده، فقال

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦-١٩٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٢٠.

(٤) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾^(١). وأمره بالكسب الطيب المشروع، قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَنَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٣٨﴾ ﴾^(٢). وحرّم عليه الكسب المحرم الغير مشروع، كأكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾^(٣). والربا، قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا اللَّهَ وَذَرَوْا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾^(٤). وتطفيّف الموازين، قال تعالى: ﴿ وَبِئْسَ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ ﴾^(٥). والالتجّار في المسكرات: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾^(٦). وغير ذلك من المعاملات المحرمة.

وقد أمر الإسلام أن تقوم المعاملات على أسس ومبادئ فيها المحافظة على الحقوق وعدم النزاع والشقاق، فأمر بكتابة الدين، قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ

(١) سورة المآرج، الآية: ٢٤-٢٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٧٨.

(٥) سورة المطففين، الآية: ١-٢.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٩٠-٩١.

وَلَيَحْتَقِ اللَّهُ رِيْبَهُ، وَلَا يَبْحَسُ مِنْهُ شَيْئًا ﴿١﴾. والصبر على المعسر الذي لا يوجد عنده ما يجعله يفى بالحقوق التي عليه، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُوْعُسْرَةً فَظَهْرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾. وأمر بالعدل مع الجميع، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ نَعَرْتُمْ أَوْ عَرِضْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٧٥﴾ ﴾. (٣). وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾. (٤). وغير ذلك من الأسس والمبادئ التي تحافظ على الحقوق والواجبات ومآلات الأمور.

ومن موضوعات الشريعة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الحدود، فبين القرآن أن العقوبة على قدر الجريمة، قال تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ (٥). وبين أنواع الجرائم وحكمها وعقوباتها؛ كالقذف قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَالْجِدُّوهُنَّ مَثَلٌ مِثْلُ الدُّنُورِ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(١) سورة البقرة، جزء الآية: ٢٨٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٨٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٥) سورة الشورى، جزء الآية: ٤٠.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴿١﴾. والزنا، قال تعالى:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾. والسرقه، قال تعالى:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴿٣﴾. والحراية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴿٤﴾. والقصاص، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَائْتِباعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴿٥﴾. والديات، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ

(١) سورة النور، الآية: ٤-٥.

(٢) سورة النور، الآية: ٢-٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٨-٣٩.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣٣-٣٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٧٨-١٧٩.

لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَذِيكُمُ الْمُسْلِمَةُ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعُضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٣﴾ ﴿١﴾. والبغي، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِئَءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴿٢﴾.

ومن موضوعات الشريعة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الحكم والسياسة، فأمر الله عز وجل بتطبيق شرعه والحكم والتحاكم إليه، قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿٣﴾.

(١) سورة النساء، الآية: ٩٢-٩٣.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٩-١٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٨-٥٠.

وحرم العمل ببعض الشريعة دون بعض، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْسُمُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ قَرِيبًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَطَاهُرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهِيَ مُحْرَمَةٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْمُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَسْرَتُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخْفَىٰ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (١). وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَآفَّةً وَلَا تَسْبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ (٣).

وبين سبحانه أنه أتم الشريعة وأكملها وبينها ووضحها، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿٥٠﴾﴾ (٥). وأوجب سبحانه وتعالى تحاكم المسلمين إلى شرعه في كل صغيرة وكبيرة والسمع والطاعة والتسليم المطلق لله ولرسوله، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٥-٨٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٠-١٥١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٤) سورة النحل، جزء الآية: ٨٩.

(٥) سورة المائدة، جزء الآية: ٣.

لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكُمْ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٥﴾ (١). وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢).

وأمر سبحانه وتعالى الحاكم: بالعدل بين رعيته، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (٣). قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٤). والشورى، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٥). والمساواة بين الجميع فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٦).

وأمر بالسمع والطاعة لولي الأمر ما دام لم يأمر بمعصية، قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ (٧).

(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٢.

(٣) سورة النساء، جزء الآية: ٥٨.

(٤) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

(٦) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٧) سورة النساء، الآية: ٥٩.

ووضح علاقة المسلمين بغيرهم حال السلم، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَا يَخْرُجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (١).
 وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨). وحال الحرب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩). وقال تعالى: ﴿وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ (١٠). وقال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِي نِيَّةٌ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُخْرَجَ فِي الْآرِضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٧) لَوْلَا كَتَبْنَا مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٥). وقال تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٦). وقال تعالى: "وَأِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ (٧).
 تلك هي أهم موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم والتي تتعلق بالشرعية.

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٩.

(٤) سورة التحريم، الآية: ٩.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٦٧-٦٩.

(٦) سورة الأنعام، جزء الآية: ١٥٢.

(٧) سورة النحل، جزء الآية: ١٢٦.

المطلب الثالث

موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم المتعلقة بالأخلاق

من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم ما يتعلق بالأخلاق ويشمل ذلك: التحلي بالسلوك السوي والصفات الحسنة والأخلاق الكريمة الذي جاء الإسلام فحث على التحلي بها والتخلي عن أضدادها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن القرآن الكريم جله يعود إلى ذم الأخلاق المذمومة القبيحة ومدح الصفات المحمودة، لذا لو أردنا سرد الأخلاق بالتفصيل لطال بنا المقام، والمقام لا يسمح بذلك، وهذا يدفعني إلى الاقتصار على ذكر نماذج فقط.

فمن موضوعات الأخلاق التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: التحلي عن الأخلاق السيئة والذميمة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّوْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴿١﴾. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَائِهِمْ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١-١٥٢.

أَنْفُسِكُمْ وَلَا تَنْابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِثْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَجْتِنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ (١). وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَنْجَدُوا الْكُفْرِينَ أُولَئِكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْبُدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَنَا مِثْلًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَمَّاسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَاءً آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٤٤﴾ (٤).

ومن موضوعات الأخلاق التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي من موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: التحلي بالأخلاق الفاضلة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا وِجْهًا وَلَا وِسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّانِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥١﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّانِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾ (٥). وقال

(١) سورة الحجرات، الآية: ١١-١٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٤-١٤٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٤٣-٤٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ٣٧.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٥١-١٥٢.

تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي السَّهَاءِ وَالصَّرَاءِ وَالْكَظِيمِ الْعَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٥). وقال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٦) وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٨﴾. وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرٍ ﴾ (٩). وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١٠). وقال تعالى: ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤-١٣٥.

(٤) سورة البقرة، جزء الآية: ٢٣٧.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩-٢٠١.

(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٧) سورة الممتحنة، الآية: ٦.

وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴿١﴾. وقال تعالى:
 ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا
 أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٣٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ
 الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا ﴿٣٤﴾ رَبُّكُمْ أَغْلَبُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا
 صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٣٥﴾ وَءَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
 وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ ﴿٢﴾. والآيات في هذا الباب كثيرة.

تلك هي أهم موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن
 الكريم التي تتعلق بالأخلاق.

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣-٢٦.

المبحث الرابع

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم

من خلال التأمل في القرآن الكريم واستقراء آياته وتدبرها نجد أن الأمر بالمعروف وتغيير المنكر إنما يكون بأحد أمور، يمكن بيانها في المطالب الآتية:

المطلب الأول: البيان والنصح والإرشاد.

المطلب الثاني: الغلظة والشدة والتهديد والتغيير باليد.

المطلب الثالث: إنكار القلب بضوابطه.

المطلب الأول

البيان والنصح والإرشاد

من مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر البيان والإرشاد والنصح والوعظ، وقد نص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ مَا لَتَىٰ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١).

وقد سلك الأنبياء هذه المرتبة في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وقد ذكر لنا القرآن الكريم سلوك الأنبياء هذا المنهج، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِن دُؤُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتِ يَبْعُدُ آبَاؤُنَا فَأَنُوتَنَا بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (٢).

وقول إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَاذَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ۖ

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٠-١٢.

فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَا أُنَبِّئُكَ إِلَّا فَتْرَةً ۗ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَنْ
لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي
هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ يَنْفَوِّرُ إِنِّي بِرَبِّيٍّ ءَمِنٌ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي
فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ
قَالَ أَتُحِبُّونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ
رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ
إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ
مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴿١﴾.

وقد أمر الله نبيه أن يسلك هذا المنهج في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ
الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعِظُهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا
بَلِيغًا﴾ ﴿١٣﴾. والآيات في هذا المعنى كثيرة متواترة متعددة.

فقد سلك الأنبياء مع أقوامهم في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر
البيان والإرشاد والنصح والوعظ، ويرافق ذلك الحكمة والموعظة الحسنة،
وهي خطوة من خطوات الإصلاح والدعوة. "ويختلف الأسلوب من شخص
لآخر، ومن وقت إلى وقت، ولا بد في كل الحالات من عامل مشترك،
ألا وهو التعريف بالرفق واللين واللطف، ولا سيما إذا كانت حال الواقع في
المنكر مجهولة" (٣).

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٠-١٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٠-١٢.

(٣) درجات تغيير المنكر، د. عبدالعزيز المسعود، ص ٢٦.

والتأمل في القرآن الكريم يجد تنوع أساليب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في البيان والوعظ والإرشاد والنصح

فمنها: بيان ما أعده الله للآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر من الأجر العظيم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ (١).

ومنها: تخويف العصاة والمذنبين والمقصرين التاركين للمعروف المقترفين للمنكر بالعذاب الشديد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكٰفِرَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حٰسِبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا آتٰنَكُمْ الرَّسُولَ فٰخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ (٣).

ومنها: تذكير التاركين للمعروف المقترفين للمنكر بالأمر التي حل عليها غضب الله وسخطه بسبب معصيتها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١-٧٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٧-٦٨.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.

كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا
كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ (١)

ومنها: بيان ما يصيب الفرد والمجتمع بسبب تركهم للمعروف واقترافهم
للمنكر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ
الْبَحْرِ إِذْ يَعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا
يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٣٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ
تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إلی رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ ﴿١٣٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْمَعًا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَیِّنٍ
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٣٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِذْ
تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ
الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٧﴾ (٢)

ومنها: بيان بعض العقوبات الخاصة المترتبة على فعل بعض الذنوب،
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا
عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ (٣)

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٨-٧٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣-١٦٧.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

المطلب الثاني

الغلظة والشدة والتهديد والتغيير باليد

من مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد البيان والإرشاد والنصح والوعظ: التعنيف والغلظة والشدة على تارك المعروف وفاعل المنكر، ولومه إذا لم تحقق المرتبة الأولى ثمرتها المرجوة منها، ومن أمثلة ذلك قول إبراهيم عليه السلام لقومه عبدة الأوثان بعد أن نصحهم، كما ذكر لنا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۗ ﴾ (١١) ﴿ أَفِي لَكُمْ وَرِيمًا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٧) ﴿ (١)، وقول موسى عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٥) ﴿ (٢)، وقوله: ﴿ قَالَ يَهْدُرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۗ أَأَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۗ ﴾ (١٣) ﴿ قَالَ يَبْنَومٌ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (١٤) ﴿ (٣). وقول الله سبحانه وتعالى لنبيه محمداً ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٧٣) ﴿ (٤). ولا يكون ذلك بالسب والفحش، بل يخاطبه بما لا

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٦-٦٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.

(٣) سورة طه، الآية: ٩٢-٩٤.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٧٣، وسورة التحريم، الآية: ٩.

يعد من جملة الفحش، كما نص على ذلك الغزالي رحمه الله في قوله: "يعدل إليه عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بِالْوَعْظِ وَالنُّصْحِ ولسنا نعني بالسب والفحش بما فيه نسبة إلى الزنا ومقدماته ولا الكذب، بل أن يخاطبه بما فيه مما لا يعد من جملة الفحش، كقوله يا فاسق يا أحمق يا جاهل ألا تخاف الله وَهَذِهِ الرُّبِّيَّةُ أَدْبَانِ أَحَدُهُمَا أَنْ لَا يُقَدِّمَ عَلَيْهَا إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَالْعَجْزِ عَنِ اللُّطْفِ. وَالثَّانِي أَنْ لَا يَنْطِقَ إِلَّا بِالصِّدْقِ وَلَا يَسْتَرْسِلَ فِيهِ فَيَطْلُقَ لِسَانَهُ الطَّوِيلَ بِمَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ بَلْ يَقْتَصِرُ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ، فَإِنْ عَلِمَ أَنْ خَطَابَهُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الرَّاجِرَةِ لَيْسَتْ تَرْجُوهُ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَطْلُقَهُ بَلْ يَقْتَصِرُ عَلَى إِظْهَارِ الْغَضَبِ وَالاسْتِحْقَارِ لَهُ وَالْإِزْدِرَاءِ بِمَحَلِّهِ لِأَجْلِ مَعْصِيَتِهِ، وَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَوْ تَكَلَّمَ ضَرْبَ وَلَوْ أَكْفَهَرُ وَأَظْهَرَ الْكِرَاهَةَ بِوَجْهِهِ لَمْ يَضْرِبْ لِرُؤْمِهِ وَلَمْ يَكْفِهِ الْإِنْكَارَ بِالْقَلْبِ بَلْ يَلْزِمُهُ أَنْ يَقُطِبَ وَجْهَهُ وَيُظْهِرَ الْإِنْكَارَ لَهُ" (١). وكذلك " يجب أن يكون قصده بتغليظ الكلام وتخشيئه رجوع العاصي عن تلك المعصية لا الانتصار لنفسه" (٢).

ثم تأتي الدرجة التي تليها إن لم يجد النصح ولا الغلظة والشدة إلى لجوء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى: التهديد والتخويف بالله سبحانه وتعالى من إنزال عقوبات الدنيا والآخرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٣٣﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ الْمَهَادُ ﴿١٣٤﴾﴾ (٣).

(١) إحياء علوم الدين (٢ / ٣٣٠-٣٣١).

(٢) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين، ابن النحاس، ص ٥٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٦-١٩٧.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَّأَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١١٥) ﴿١﴾. وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) ﴿٢﴾.

ومما يهدد به في إنزال العقوبات الدنيوية تطبيق الحدود، ومن أمثلة ذلك

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ

الْأَرْضِ ۚ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣٣) ﴿٣﴾. ومما ينبغي الإشارة إليه " أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه كقوله لأنهن دارك أو لأضربن ولدك أو لأسبين زوجتك وما يجري مجراه، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام، وإن قاله من غير عزم فهو كذب" (٤).

ويدخل في هذه المرتبة بعد الغلظة والشدة، والتهديد إن لم يرتدع وينته: إنزال العقوبة إن كان ممن يحول له إنزالها، كما فعل إبراهيم عليه السلام حين كسر الأصنام بعد أن بين ونصح ووعظ وأرشد وهدد وخوف، وقد عبر عن ذلك القرآن الكريم في قول الله عز وجل ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ (٥٧) ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٨﴾. وقد سلك إبراهيم عليه السلام قبل سلوك تلك الدرجة البيان ثم التهديد ثم إنزال

(١) سورة النساء، الآية: ١١٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

(٤) إحياء علوم الدين (٢ / ٣٣٢).

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٥٧-٥٨.

العقوبة، اتضح ذلك من تدبر قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَمَجَدَّنَا ءِآبَاءَنَا مَا لَهَا عِذَابٌ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَكَاءَ آبَائِكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا اجْعَلْنَا مِثْلَهُ لَمَّا جَاءَنَا مَنَاقِبُكَ إِنَّا كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ آلِ سَمَوَاتٍ وَالأَرْضِ الَّتِي فَطَرَ هُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَنَالَهُ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِبِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلا كَيْدًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴿١﴾.

ومن ذلك أيضا ما فعله موسى عليه السلام حين حرق العجل الذي صنعه السامري ليعبد من دون الله، قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانظُرْ إِلَى إِلِهِكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ﴿١٧﴾ ﴿٢﴾.

وكما فعل النبي ﷺ حين فتح مكة بعد البيان والنصح والتهديد قام فكسر الأصنام وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿٣﴾. فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُونَ وَثَلَاثُ مِائَةٍ نُصِبَ فَجَعَلَ يَطْعُمُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ، وَيَقُولُ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٤﴾.

ومما يجدر التنبيه إليه أنه لا بد من ضوابط في التعامل مع مراتب الأمر

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥١-٥٨.

(٢) سورة طه، الآية: ٩٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨١، والحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب أَيْنَ رَكَزَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّايَةَ يَوْمَ الْفَتْحِ؟، رقم الحديث (٤٢٨٧).

بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصة للمتطوع أن لا يقدم مرتبة على مرتبة، ولا درجة على درجة، فيبدأ بالبيان برفق ولا يسلك الطريق الآخر إلا إذا لم يتحقق المطلوب، ومثل ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ (٣٤) ، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَتِ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (١) .

ورحم الله ابن القيم حين قال: "جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمتسجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا ياباه يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرغبة والمعاند الجاحد يُجادل بالتي هي أحسن فهذا هو الصحيح في معنى هذه الآية لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام والمجادلة بالتي هي أحسن" (٣).

وقال السفاريني رحمه الله: "واحد من التزول عن أعلى المراتب حيث قدرت على أن تُعير المنكر بيدك إلى أوسطها وهو الإنكار باللسان إلا مع العجز عن ذلك، ثم إنه لا يسوغ لك العدول عن التغيير للمُنكر باللسان

(١) سورة النساء، جزء الآية: ٣٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١ / ١٥٣).

وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَى الْإِنْكَارِ بِالْقَلْبِ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ تَغْيِيرَ الْمُنْكَرِ لَا بِيَدِكَ
 وَلَا بِلِسَانِكَ فَاعْدِلْ إِلَى الْإِنْكَارِ بِقَلْبِكَ وَهُوَ أضعفُ الْإِيمَانِ، فَلِذَا حَدَّرَ مِنْ
 النَّقْصَانِ"^(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وليس لأحد أن يزيل المنكر بما
 هو أنكر منه: مثل أن يقوم واحد من الناس يريد أن يقطع يد السارق،
 ويجلد الشارب، ويقيم الحدود؛ لأنه لو فعل ذلك لأفضى إلى الهرج والفساد؛
 لأن كل واحد يضرب غيره ويدعي أنه استحق ذلك؛ فهذا مما ينبغي أن
 يقتصر فيه على ولي الأمر"^(٢).

فلا بد في استخدام القوة والغلظة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
 من وجود القدرة، وعدم ترتب مفسدة أعظم، فإذا ترتبت مفسدة أعظم، أو
 لم يقدر على ذلك سقط عنه ذلك.

(١) لواعم الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدررة المضية في عقد الفرقة المرضية، شمس الدين، أبو العون
 محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، (٢ / ٤٢٨)، مؤسسة الخافقين ومكتبتها بدمشق، ط ٢ / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

(٢) المستدرک علی مجموع فتاویٰ شیخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني،
 جمعه ورتبه وطبعه علی نفقته: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، ط ١ / ١٤١٨ هـ.

المطلب الثالث

إنكار القلب بضوابطه

فإن لم يستطع الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمرتبين السابقتين خاصة الأمر والناهي المتطوع أنكر ذلك بقلبه، ولا يرضى بقلبه فعل المنكر من فاعله وترك المعروف من تاركه، دلت على ذلك نصوص القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَأَنقُضْ اللَّهُ مَا أَسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾^(٣). فلزم مع الإنكار بالقلب عدم القدرة على القيام بالمرتبين السابقين، وعدم مخالطة تارك المعروف وفاعل المنكر، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكُتُبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يُخَوِّضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ أَنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾^(٤).

قال الشيخ السعدي رحمه الله: " يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم لأنكم رضيتهم بكفرهم

(١) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٢) سورة البقرة، جزء الآية: ٢٨٦.

(٣) سورة الطلاق، جزء الآية: ٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨١.

واستهزأهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن من حضر مجلساً يعصى الله به، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة، أو القيام مع عدمها. (١).

وقال القرطبي رحمه الله: " قَدْ لَّ يَهْدَا عَلَى وُجُوبِ اجْتِنَابِ أَصْحَابِ الْمَعَاصِي إِذَا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُنْكَرٌ، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَجْتَنِبْهُمْ فَقَدْ رَضِيَ فِعْلَهُمْ، وَالرِّضَا بِالْكَفْرِ كُفْرٌ، ... فَكُلُّ مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ مَعْصِيَةٍ وَلَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِمْ يَكُونُ مَعَهُمْ فِي الْوِزْرِ سَوَاءً، وَيَنْبَغِي أَنْ يُنْكَرَ عَلَيْهِمْ إِذَا تَكَلَّمُوا بِالْمَعْصِيَةِ وَعَمِلُوا بِهَا، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى التَّنْكِيرِ عَلَيْهِمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ عَنْهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَخَذَ قَوْمًا يَشْرَبُونَ الْخُمْرَ، فَقِيلَ لَهُ عَنْ أَحَدِ الْحَاضِرِينَ: إِنَّهُ صَائِمٌ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ الْأَدَبَ وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ "إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ" أَيِ إِنَّ الرِّضَا بِالْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ، وَهَذَا يُؤَاخِذُ الْفَاعِلُ وَالرَّاضِيَ بِعُقُوبَةِ الْمَعَاصِي حَتَّى يَهْلِكُوا بِأَجْمَعِهِمْ. وَهَذِهِ الْمُمَاتِلَةُ لَيْسَتْ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ، وَلَكِنَّهُ الْإِزَامُ شِبْهُ بِحُكْمِ الظَّاهِرِ مِنَ الْمُقَارَنَةِ، كَمَا قَالَ: فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي وَإِذَا نَبَتْ تَجُنَّبُ أَصْحَابِ الْمَعَاصِي كَمَا بَيَّنَّا فَتَجُنَّبُ أَهْلَ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ أَوْلَى " (٢).

تلك هي أهم مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٢١٠.

(٢) تفسير القرطبي (٥ / ٤١٨).

المبحث الخامس

ثمرات وآثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم

يترتب على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانتشاره في المجتمع الإسلامي ثمرات وآثار دنيوية وأخروية يمكن بيانها من خلال نصوص القرآن الكريم في مطلبين:

المطلب الأول: ثمرات وآثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الدنيوية في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: ثمرات وآثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الأخروية في القرآن الكريم.

المطلب الأول

ثمرات وآثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الدنيوية في القرآن الكريم

بين القرآن الكريم الآثار والثمرات الدنيوية للقيام بالأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، منها ما يلي:

التمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٤١). وقال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٨). (١)

حفظ الدين وإقامة الشريعة وتحقيق التوحيد والسعي لتكون كلمة

الله هي العليا، قال تعالى: ﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ

كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ﴾ (٣١). وقال تعالى:

﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١١٣). (٢)

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠-٤١.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٥-٥٦.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْنِي عَنْكَ كَثْرَتُ ثَمَرِكَ وَلَا ذُرِّيَّتُكَ إِنَّا لَهُ خَائِفُونَ﴾ (٢).
 اللَّهُ كَثِيرٌ وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مِنْ نِصْرَتِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ (٣).

فتح البركات ونزول الخيرات، قال تعالى: ﴿وَأَلْوِ اسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهِنَّ مَاءً عَذْقًا﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٥).
 وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (٦).

وقاية المجتمع من الدمار والهلاك ونزول النقم والعقوبات والنجاة من العذاب، قال تعالى: ﴿وَإِذ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا مَا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ﴾ (٧). فلما نسوا ما ذكروا به أجبنا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ (٨).
 وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجِبْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٩).
 وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِیُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ (١٠).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الجن، الآية: ١٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٦٤-١٦٥.

(٧) سورة هود، الآية: ١١٦-١١٧.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝١٦﴾ (١). وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنزِلُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنزِجُ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٧﴾ (٢). "وهكذا سنة الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر" (٣).

الفلاح الدنيوي وحصول الخيرية، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١١٠﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿ وَلَنْتُكُنَّ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ (٥).

الاتصاف بصفة من صفات الأنبياء وأهل الإيمان، قال تعالى:

﴿التَّائِبِينَ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ جَاءُواكَ مِنَ الْبُحَيْرِ الْأَعْيُنِ وَالْمَعْرُوفِينَ وَالْمُنْكَرِينَ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١١٣﴾ (٦). وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١ / ٣٠٧).

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٦) سورة التوبة، الآية: ١١٢.

وَأَغْلَلَ اللَّيْلَ كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَّعُوا نُورَ الَّذِي
 أَنْزَلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ^(١). وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
 بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ^(٢).
 تلك هي أهم الآثار والثمرات الدنيوية للقيام بالأمر بالمعروف والنهي
 عن المنكر.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

المطلب الثاني

ثمرات وآثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الأخروية في القرآن الكريم

بين القرآن الكريم الآثار والثمرات الأخروية للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منها ما يلي:

لهم الأجر العظيم الذي أعده الله لهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١). "فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ" يعني في الآخرة إذا فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله أجراً عظيماً لا حد له لأن الله سماه عظيماً وإذا كان كذلك فلا يعلم قدره إلا الله (٢).

الفوز بالجنة والنجاة من النار، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١) وَأَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عِدْنٍ وَّرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴿ (٣). فقد ذكر الله تعالى ما أعده من الثواب الجزيل لمن اتصف

بالصفات السابقة والتي منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث وعدهم بجنات تجري من تحتها الأنهار، "جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من

(١) سورة النساء، الآية ١١٤.

(٢) تفسير الخازن، (١ / ٤٢٧).

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧١-٧٢.

كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة، المروية للبساتين الأنيقة، التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى. خَالِدِينَ فِيهَا لا يبعون عنها حِوْلاً، وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ قد زخرت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوّه المتمدنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفاً في غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها. فهذه المساكن الأنيقة، التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتنزع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح، لأنها في جنات عدن، أي: إقامة لا يظنون عنها، ولا يتحولون منها. وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ يَجْلَهُ على أهل الجنة أَكْبَرُ مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمّها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسموات، أكبر من نعيم الجنات. ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فנסأل الله أن يجعلنا معهم بجوده" (١).

تكفير السيئات ورفع الدرجات، قال تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ٥﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٣٤٤.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٥.

مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَلَّزِمْنَا هَا جَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٦٥﴾ (١). وقال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ الثَّوَابِ ﴿١٦٥﴾ (٢). " فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات" (٣).

تلك هي أهم الآثار والثمرات الأخروية للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٥.

(٣) تفسير السعدي، ص ٧٩١.

الخاتمة

لعل من المتأكد ختم هذا البحث بإيراد النتائج التي تم التوصل إليها من خلال البحث، ثم أتبعها بذكر جملة من التوصيات، أما النتائج فأذكرها على النحو التالي:

- ١- جاء القرآن الكريم فبين عظيم مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكر بعظيم فضله، وشجع ورغب في سلوك طريقه.
- ٢- أوجب الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الأمم السابقة لأمة نبينا محمد ﷺ، وهو باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.
- ٣- جاءت نصوص القرآن يأمر فيها ربنا الأمة المحمدية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقوم بواجباتها وبما يتطلب منها تجاه ذلك، وقد ذكرت من النصوص التي تدل على ذلك إحدى عشرة آية من كتاب الله.
- ٤- وردت نصوص قرآنية يرغب فيها ربنا سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية أن يأمروا بالمعروف وأن ينهوا عن المنكر، وبين فضل من اتصف بهذه الصفة، فحفظ النفوس لتتحلى بهذه الصفة، فالثمن المغفرة والرحمة، النجاة من النار والفوز بجنة عرضها السماوات والأرض، وقد ذكرت من النصوص التي تدل على ذلك في سبع آيات من كتاب الله.

- ٥- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رُتّب عليه ما لا يحمّد عقباه، من طرد ولعن ودمار وهلاك، وخسف، ومسّخ، ونزول العقاب، لتحذر الأمة من خطر ذلك، وقد ذكرت من النصوص التي تدل على ذلك في ست آيات من كتاب الله.
- ٦- دلت نصوص القرآن الكريم أنه لا بد من صفات يتحلّى بها الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر ليؤتى أمره ونهيه ثمرة المرجوة منه.
- ٧- دلت نصوص القرآن على أن يكون الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر عالماً بما يأمر وبما ينهى.
- ٨- شروط قبول عمل الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر كما نص على ذلك القرآن الكريم موافقة العمل للشريعة.
- ٩- بين ربنا سبحانه وتعالى في كتابه شرط قبول الأعمال الصالحة الإخلاص، ويدخل فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ١٠- دلت نصوص القرآن على ضرورة التدرج في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يبدأ بالأهم فيقدم ويؤخر المهم إذا احتيج لذلك.
- ١١- دلت نصوص القرآن الكريم على أن الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر يلزمه أن يكون قدوة وأسوة حسنة لما يدعو الناس إليه وينهى الناس عنه.

- ١٢- جاءت نصوص القرآن تبين أنه يتحتم على الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر أن يكون رفيقاً في أمره ونهيه ما أمكن إلى ذلك سبيلاً.
- ١٣- جاءت نصوص القرآن تبين أن الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر يلحقه الأذى مما يُحتم عليه التحلي بالصبر.
- ١٤- موضوعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم متنوعة، منها ما يتعلق بالعقيدة، ومنها ما يتعلق بالشريعة، ومنها ما يتعلق بالأخلاق.
- ١٥- من مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: البيان والإرشاد والنصح والوعظ وقد نص على ذلك القرآن الكريم.
- ١٦- من مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد البيان والإرشاد والنصح والوعظ: التعنيف والغلظة والشدة وإنزال العقوبة بضوابطها.
- ١٧- دلت نصوص القرآن على أنه إن لم يستطع الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمرتبين السابقتين خاصة الأمر والناهي المتطوع أنكر ذلك بقلبه ولا يرضى بقلبه فعل المنكر من فاعله وترك المعروف من تاركة.
- ١٨- بين القرآن الكريم الآثار والثمرات الدنيوية للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من التمكين والنصر ونزول الخيرات، والفلاح الدنيوي وحصول الخيرية.

١٩- بين القرآن الكريم الآثار والثمرات الأخروية للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من تكفير السيئات ورفع الدرجات، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

التوصيات

أما التوصيات التي أرى من الأهمية بمكان الأخذ بها فأجملها فيما يلي:

- ١- أوصي الباحثين بالعناية بكتاب الله، فهو أصل الأصول التي يستقى منها العلوم الشرعية.
- ٢- أوصي الباحثين بالكتابة في أحاديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الصحيحين.
- ٣- أوصي الباحثين بالكتابة في أحاديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السنن الأربعة.
- ٤- أوصي الباحثين بالكتابة في أحاديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المسانيد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عنه الغافلون، وعلى آله وصحبه أجمعين وأسأل الله أن يرفع به الكاتب والقارئ، وأن يجعل هذا الكلام شاهدًا لنا لا علينا، وأن ينفعنا به يوم يقوم الأشهاد، وأن يرزقنا الفردوس الأعلى، ومرافقة النبي ﷺ في الجنة، والمسلمين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الإبانة الكبرى لابن بطة، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل الناشر: دار الراجية للنشر والتوزيع، الرياض.
- الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق - لبنان.
- إحياء علوم الدين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط/ ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- التسهيل لعلوم التنزيل أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبي الغرناطي، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط ١/ ١٤١٦ هـ.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط ١/ ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط ٣/ ١٤١٩ هـ.

- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري
الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع،
ط ٢/ ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- تفسير القرآن الكريم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم
الحوزية، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ
إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ١/ ١٤١٠ هـ.
- تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين
بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر:
١٩٩٠ م.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار
الفكر المعاصر، دمشق، ط ٢/ ١٤١٨ هـ.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله
السعدي، تحقيق: أ. د. عبد الرحمن بن معلا اللويحقي، مؤسسة الرسالة،
ط ١/ ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي،
أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١/ ١٤٢٠ هـ
- ٢٠٠٠ م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري
الخرزجي القرطبي، تحقيق: سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية.
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخرزجي
شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية،
القاهرة، ط ٢/ ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤ / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- فتح القدير محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط ١ / ١٤١٤ هـ.
- كيف تكتب بحثاً ناجحاً، د. صباح عبد الله بافضل، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط ١ / ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- لسان العرب محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، دار صادر، بيروت، ط ٣ / ١٤١٤ هـ.
- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، مؤسسة الخافقين ومكنتها بدمشق، ط ٢ / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ / ١٤١٨ هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣ / ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني، جمعه ورتبه وطبعه على نفقته: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، ط ١ / ١٤١٨ هـ.

- معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤/١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣/١٤٢٠ هـ.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢/١٣٩٢ هـ.

البحث رقم (٣)

المسؤولية الدعوية تجاه المريض النفسي

إعداد

أ. د. الجوهرة بنت صالح الطريفي

الأستاذ في قسم الدعوة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فإن من أبرز مهام الدعوة تحقيق مقاصد الشريعة في القيام بمصالح الناس في دينهم ودنياهم معاً، ومن هذه المقاصد حفظ الضروريات الخمس وهي (الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال)^(١)، التي إن لم تحفظ لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، وفاتت النجاة في الآخرة.

وفي زماننا هذا ازدادت الإصابة بالأمراض النفسية، حيث تشير الإحصائيات الصادرة من منظمة الصحة العالمية إلى تزايد هائل في انتشار الأمراض النفسية^(٢).

وقد أخرجت وزارة الصحة في المملكة العربية السعودية دراسة مسحية عن نسبة الأمراض النفسية حيث أكد مدير عام الصحة النفسية والاجتماعية بوزارة الصحة الدكتور عبدالحميد الحبيب أن نتائج الدراسة أثبتت ارتفاع نسبة الأمراض النفسية في المجتمع مُرجعاً ذلك لزيادة الضغوط النفسية. وبين أن زوار المستشفيات والعيادات النفسية خلال هذا العام يتراوح بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ألف على أبعد تقدير يشكل الشباب منهم ٦٠٪^(٣).

(١) انظر: الموافقات للشاطبي، ج ١ ص ٣.

(٢) انظر: العالم يعيش عصر الأمراض النفسية، د/ لطفى عبدالعزيز الشربيني، موقع المستشار ٢٠٠٥؛ ويكيبيديا، انتشار الأمراض النفسية.

(٣) جريدة عكاظ الإلكترونية، ٢٣/١١/٢٠١١م، العدد ٣٨١٢.

والمرض النفسي يشكل عبئاً على المريض وأسرته والمجتمع، وهذا كله يتعارض مع المقاصد التي أمر الشرع المطهر بحفظها.

ولأهمية تقديم المساعدة للمرضى النفسيين وأسرتهم، أصدرت منظمة الصحة العالمية في تقارير اقتراح خطوات تهدف إلى تخفيف أعباء المرضى النفسيين، ومساعدتهم وأسرتهم في تحمل المعاناة الناجمة عن المرض^(١).

ولا شك أن الدعاة المسلمين هم أولى الناس في المساعدة بتحمل هذه الأعباء، لأنهم إنما يبتغون بأعمالهم وجه الله تعالى ونيل مرضاته، وتحقيق مصالح الشريعة.

ولذا اخترت أن أبحث في هذا الموضوع الذي أسميته (المسؤولية الدعوية تجاه المريض النفسي) وأضيف إلى ما سبق من أسباب اختيار الموضوع:

- كثرة من يعانون من الأمراض النفسية، مما يسبب لهم الحيرة والاضطراب فهم بحاجة ماسة إلى من يعينهم في تحطّي المرحلة التي يمرون بها .
- الحاجة إلى دراسات تلبّي حاجة المريض النفسي في كيفية تعامله مع المرض.
- إن من الأمراض النفسية، ما يسبب اضطراباً للمريض في عقيدته، وعبادته، فيحتاج إلى التفقيه، والتفهم، ولا شك أن تخليّ الدعاة العارفين عن هذه المهمة لغيرهم قد يجعلهم يقعون فريسة لجهلهم أو لمن يكون سبباً في ضلالهم.
- الحاجة إلى معرفة الأساليب التي يمكن استخدامها مع المريض النفسي، من خلال التعرف على أقوال الأطباء والأخصائيين النفسيين، مع ربطها بالأصول الشرعية.

(١) انظر: العالم يعيش عصر الأمراض النفسية، د/ لطفى عبدالعزيز الشربيني، موقع المستشار ٢٠٠٥م.

أهداف البحث:

١. التعرف على المرض النفسي وأهم الأنواع التي يعاني منها المرضى.
٢. التعرف على العلاقة بين صحة النفس وصحة الجسم .
٣. التعرف على دوافع دعوة المريض النفسي .
٤. التعرف على أساليب دعوة المريض النفسي.
٥. التعرف على العوامل المؤثرة في استجابة المريض النفسي .

منهج البحث:

سوف استخدم في بحثي المنهجين الاستقرائي والاستنباطي (١) وذلك باستنباط الأحكام من الأدلة الشرعية النقلية، فيما يتعلق بكيفية التعامل مع المريض النفسي، مع ربط ذلك بالواقع من خلال الاستقراء، بجمع نتائج الدراسات العلمية الطبية للوصول إلى نتيجة تجمع بين رأيي الشرع والطب في أفضل أساليب التعامل مع المريض النفسي .
وسوف أسير في البحث حسب التقسيم التالي:

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

المبحث الأول: المرض النفسي، تعريفه، أنواعه، العلاقة بين الأمراض النفسية وصحة الجسم.

المبحث الثاني: دوافع دعوة المريض النفسي.

المبحث الثالث: أساليب دعوة المريض النفسي.

المبحث الرابع: العوامل المؤثرة في استجابة المريض النفسي.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

(١) انظر: قواعد أساسية في البحث العلمي. د. سعيد إسماعيل صيني.

ص ٧٠ - ٧٣ - ٥٤٢ - ٥٤٣.

المبحث الأول

المرض النفسي تعريفه – أنواعه

العلاقة بين الصحة النفسية والجسدية

تعريف المرض النفسي:

لقد تعددت التعاريف في المقصود بالمرض النفسي ومنها:
 (حالة نفسية تصيب تفكير الإنسان، أو مشاعره أو حكمه على الأشياء، أو سلوكه، أو تصرفاته إلى حد تستدعي التدخل لرعاية هذا الإنسان ومعالجته في سبيل مصلحته الخاصة، أو مصلحة الآخرين من حوله)^(١).
 والمرض النفسي يُتَوَقَّعُ عادةً عندما يَختل واحد من ثلاثة جوانب في حياة الإنسان النفسية وتصبح غير طبيعية أو غير صحية، وهذه الجوانب هي:

١- التفكير.

٢- المشاعر.

٣- السلوك^(٢).

ومن التعاريف: (هي انحراف في سلوك الإنسان وتصرفاته، يؤدي به إلى الضعف والقلق والصراع النفسي، ويصبح عاجزاً عن ممارسة حياته بصورة سوية)^(٣).

(١) مدخل إلى الطب النفسي، طبيب دوت كوم.

(٢) انظر: المرجع السابق.

(٣) الاضطرابات النفسية بين نظريات الطب النفسي وحقائق القرآن الكريم، د. أحمد محمد شعبان، ٢٦ أبريل

٢٠١٢م، موقع النفسي.

أنواع الأمراض النفسية:

هناك العديد من الاضطرابات النفسية، كاضطرابات القلق وهو اضطراب يؤثر على السلوك السوي للفرد، ومنه اضطراب القلق العام، واضطراب القلق الاجتماعي، واضطراب الهلع، وفوبيا الأماكن المضيئة المفتوحة، واضطراب الوسواس القهري، واضطراب ضغط ما بعد الصدمة واضطرابات الاكتئاب، حيث يمكن أن تضرب عمليات نفسية وجدانية (العاطفة، الحالة المزاجية) وتعرف اضطرابات المزاج التي تنطوي على حزن شديد مستمر غير معتاد، أو سوداوية، أو يأس باسم الاكتئاب الشديد، أو الاكتئاب الإكلينيكي^(١).

أبرز الأمراض النفسية التي تكثر المعاناة منها:

أبرز الأمراض النفسية التي تكثر المعاناة منها بحسب الدكتور طارق الحبيب: الوسواس القهري، واضطراب نوبات الذعر الذي هو نوع من أنواع القلق^(٢).

أما د/ أحمد شعبان فقد ذكر أن أبرز أنواع الاضطرابات النفسية التي تكثر الشكوى منها: القلق، الاكتئاب، الوسواس القهري، وتوهم المرض والخوف (الرهاب) والأرق^(٣).

(١) انظر: أنواع الاضطرابات النفسية، ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(٢) انظر: لقاء مع أ.د. طارق الحبيب، منتديات الإسلام اليوم ١٩/١٠/٢٠٠٦م.

(٣) انظر: الاضطرابات النفسية بين نظريات الطب النفسي وحقائق القرآن الكريم، د/ أحمد محمد شعبان، موقع

النفسى ٢٦ أبريل ٢٠١٢م.

التعريف بأشهر الأمراض النفسية أو بالأكثر انتشاراً :

الاكتئاب النفسي:

الاكتئاب النفسي هو أحد أكثر الاضطرابات النفسية شيوعاً، وهو يصنف ضمن الاضطرابات الوجدانية التي تتسم بخلل في المزاج، وأهم ما يميز الاكتئاب هو الانخفاض التدريجي، أو الحاد أو المتسارع أحياناً في المزاج، والذي يظهر على شكل شعور بالحزن، والضيق، والكآبة التي قد لا يوجد لها ما يبررها، ونتيجة لهذه الحالة الانفعالية المؤلمة، فإن التفكير والسلوك يصطبغان أيضاً بالنظرة البائسة، اليائسة، الحزينة للمكتئب مما يؤثر على عمله وأسرته وعلاقاته الاجتماعية^(١).

أعراض الاكتئاب:

- ١- مزاج مكتئب وحزين.
- ٢- نقص واضح في الرغبة أو المتعة في كل الأشياء التي كانت تثير الرغبة أو المتعة.
- ٣- ضعف في الشهية للطعام، أو زيادة في الشهية للطعام.
- ٤- أرق أو ميل للنوم.
- ٥- شعور بالتوتر وعدم القدرة على الاسترخاء أو شعور بالبطء والتثاقل الجسدي.
- ٦- الخمول وفقدان الطاقة.
- ٧- الإحساس بالدونية، والشعور بالنقص.

(١) انظر: الاكتئاب النفسي، أ. د. عبدالله السبيعي، موقع النفسي ١٦ أبريل ٢٠٠٩م.

- ٨- عدم القدرة على التفكير، أو التركيز أو اتخاذ القرار.
- ٩- أفكار متكررة في الموت (لا يشمل ذلك الخوف من الموت بل أفكار انتحارية متكررة).
- ١٠- خلل في القدرة على أداء الوظائف الاجتماعية أو المهنية أو غيرها من الوظائف الأخرى^(١).

الوسواس القهري:

تعريفه:

عرفه أ.د. طارق الحبيب بأنه: (علة مرضية تصيب بعض الناس، كما تصيبهم أئمة أمراض أخرى، وهي أفكار أو أفعال، أو خواطر، أو نزعات متكررة ذات طابع بغيض، يرفضها الفرد عادة، ويسعى في مقاومتها، كما يدرك أنها خطأ ولا معنى لها، لكن هناك ما يدفعه إليها دفعا، ويفشل في أغلب الأحيان في مقاومتها)^(٢).

وعرفها د/ أحمد عيد بأنها: (أفكار قهرية متكررة تطرأ على ذهن الإنسان وتسبب له الشعور بالضيق والقلق، والكرب النفسي، مما يدفعه في أحيان كثيرة إلى تكرار القيام بأفعال معينة لتخفيف هذه المشاعر)^(٣).

وقد شبه الدكتور أحمد عيد الاستجابة للفعل بالخطب، والفكرة الوسواسية بالنار، فكلما كان الفرد يقوم بالفعل أو الاستجابة القهرية للفكرة

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) الوسواس القهري مرض نفسي أم أحاديث شيطانية، أ.د. طارق الحبيب، ص ١٩ - ٢٠.

(٣) الوسواس القهري القفل والمفتاح، د/ أحمد عيد، منتدى أ. د. طارق الحبيب، مركز مطمئنة الطي.

الوسواسية كأنه يضع الخطب على النار، وبالتالي يزيد ويقوي الفكرة الوسواسية^(١).

وقد تحدث هذه الوسواس دون سابق لها، كما تحدث نتيجة اضطراب عضوي، كبعض إصابات الرأس، أو بسبب نفسي كالاكتئاب مثلاً، وكما يعترى هذا النوع من الوسواس الإنسان في عبادته، فإنه قد يعتريه في شؤون حياته الدنيوية^(٢).

وعن أكثر أنواع الوسواس انتشاراً لدى المسلمين وجد أنها الوسواس الدنيوية ففي دراسة مقارنة لمرضى الوسواس القهري من خلال متابعة مائة وأربعين مريضاً بالوسواس القهري، وجد أنه يغلب على المرضى المصريين والعرب الوسواس الدنيوية حيث بلغت نسبتهم ٥٧٪ في مصر.

وأجريت دراسة في السعودية عام ١٩٩١م على ٣٢ مصاباً بالوسواس القهري وجد أن محتوى معظم الأفكار التسلطية أو الأفعال القهرية كان دينياً^(٣).

اضطراب توهم المرض:

هو عبارة عن انشغال الفرد المبالغ فيه بالأمراض، مع الخوف والاعتقاد بالإصابة بالأمراض وذلك بناء على تفسيره الخاطئ للتغيرات، أو الأعراض الجسمية البسيطة أو العادية^(٤).

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) انظر: الوسواس القهري، مرض نفسي أما أحاديث شيطانية، ص ١٩ - ٢٠.

(٣) انظر: تعريف الوسواس القهري وخصائصه، د. محمد فريد، موقع النفسي ٢٢ فبراير ٢٠٠٧م.

(٤) انظر: اضطراب توهم المرض، د. أحمد عيد، منتدى أ. د. طارق الحبيب، مركز مطمئنة الطبي ٨/٢/٢٠١١م.

- ويلخص بعض الباحثين أعراض هذا المرض في ثلاث مجموعات هي:
- ١- الانشغال الشديد بكل ما هو جسمي.
 - ٢- الاعتقاد بالإصابة بمرض جسمي على الرغم من الطمأنة والفحوصات الطبية.
 - ٣- مخاوف الإصابة بالمرض.
- وغالباً ما يرافق اضطراب توهم المرض اضطرابات نفسية أخرى مثل الاكتئاب، والوسواس القهري والقلق^(١).

اضطرابات نوبات الذعر (الهلع):

- نوبة الهلع هي نوبة من خوف شديد وإحساس بعدم الارتياح ومعه أربعة أعراض من الأعراض الآتية:
- ضربات قلب سريعة - تعرق - اهتزاز باليد ورعشة - إحساس بالاختناق وقصر في التنفس - الإحساس بقبضة الصدر - الشعور بالغثيان وتقلب المعدة - الشعور بالدوخة - التنبيل - السخونة - الشعور بالقرب من الموت - وفقدان التحكم في المشاعر - والشعور بالغربة عن النفس وعن الآخرين وما يحدث.
- وتصل هذه الأعراض قمتها في خلال ١٠ دقائق^(٢).

الأرق :

الأرق: هو عبارة عن استعصاء النوم أو تقطعه أو انخفاض جودته، مما

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) انظر: اضطراب الهلع ونوبات الهلع، د. أحمد البحري، موقع استشارات نفسية ٦ أبريل ٢٠١١ م

يعود سلباً على صحة المريض النفسية، والجسدية، ويمكن أن يعرف بأنه الشكوى من عدم الحصول على نوم مريح خلال الليل، وهو ما يؤثر على نشاط المصاب خلال النهار.

أسباب الأرق:

١. الاضطرابات النفسية وهو أكثر أسباب الأرق شيوعاً، وقد أظهرت الدراسات أن ٤٠٪ من المصابين بالأرق لديهم اضطرابات نفسية كالاكتئاب والقلق.
٢. الأسباب العضوية كأمراض الجسم العضوية^(١).

(١) انظر: الأرق، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، ٣١ يناير ٢٠١٢م.

العلاقة بين الصحة النفسية والجسدية

(أثر الضغوط النفسية على صحة الإنسان)

تُعرّف الصحة بأنها حالة من التعافي الجسدي والنفسي والاجتماعي نتيجة للتفاعل والتكامل من هذه العناصر الثلاثة، وأن الصحة ليست هي مجرد غياب المرض.

١- العوامل النفسية قد تكون مسببة للمرض العضوي، وإثماً تزيد من شدته إذا كان له سبب عضوي واضح وهذه تسمى (الأمراض النفسية الجسدية)، ومنها: قرحة المعدة - الربو - الصداع النصفي - روماتزم المفاصل وبعض الأمراض الجلدية.

٢- الأمراض العضوية قد تكون مسببة للمرض النفسي مثل: اضطراب الغدد الصماء، فإن زيادة نشاط الغدة الدرقية يسبب حالات القلق، ونقص إفرازها يسبب حالات من الاكتئاب.

٣- الأعراض الجسدية قد تكون جزءاً من الاضطراب النفسي، كما هو الحال في اضطراب القلق حيث يشكو المريض من ضيق النفس، والخفقان ورعشة اليدين.

٤- الأعراض النفسية قد تكون جزءاً من المرض العضوي، فإن مريض السكر أو الضغط يشكو من أعراض القلق أو الاكتئاب أو اليأس والإحباط^(١).

(١) انظر: العلاقة بين الصحة النفسية والجسدية، د. لطفي حجازي، منتدى أ. د. طارق الحبيب الإلكتروني

وقد أكد العلماء أن العديد من الاضطرابات النفسية تؤثر على الجسد، فالأمراض النفسية والضغط الاجتماعي المزمنة تؤثر على مناعة الجسد ومقاومته للأمراض، وأن الضغط النفسية قد تسهم في نشوء أمراض عضوية، كالسكر والسرطان، وأمراض القلب، والجلطات، وغيرها من أمراض الغدد الصماء والاضطرابات الهرمونية، والشيخوخة والهرم، فالجهاز العصبي يقوم بالتحكم في بعض وظائف الأعضاء في الجسم، كضربات القلب، وضغط الدم، وعمليات الهضم، وجهاز المناعة والغدد الصم ويتصل معها اتصالاً مباشراً، وعندما يحدث أي خلل في عمل الجهاز العصبي بسبب الانفعالات النفسية سيؤدي إلى خلل في الأجهزة الأخرى مسبباً الأمراض العضوية^(١).

(١) انظر: الهم والهرم من منظور القرآن الكريم والسنة النبوية، أ. عبدالرحيم الريفي، موقع النفسي ١١ نوفمبر ٢٠١١؛ وينظر أساليب تعديل التفكير أ. د. رامزطه، موقع د. رامز طه.

المبحث الثاني

دوافع دعوة المريض النفسي

لا شك أن لكل عمل دافعاً يدفع صاحبه لعمله، ودعوة المريض النفسي عمل حسن له دوافعه وأذكر منها:

١- إن الدعاة هم حملة رسالة الإسلام الذي هو ميراث النبوة، والله سبحانه وتعالى أخبر رسوله ﷺ أنه إنما أرسله رحمة للعالمين بقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(١).

والنبي ﷺ أخبر عن أسمائه ﷺ فذكر منها نبي الرحمة، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "كان رسول الله ﷺ يُسَمَّى لنا نفسه أسماء فقال: (أنا محمد ونبي الرحمة)"^(٢).

وقد ذكر الإمام النووي - رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث أن المقصود بنبي الرحمة أنه جاء بالتراحم واستدل بقول الله تعالى: ﴿ رَحْمَةً بَيْنَهُمْ ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿ تَدْرَكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴾^{(٤)(٥)}.

والرحمة تقتضي إيصال ما ينفع العباد في دنياهم وآخرتهم.

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ حديث (٢٣٥٥) ج ٢ ص ١٨٢٩.

(٣) سورة الفتح، جزء من آية: ٢٩.

(٤) سورة البلد، جزء من آية: ١٧.

(٥) انظر: شرح النووي، ج ٨ ص ١١٦.

٢- إن مسؤولية الدعاة لا تقتصر على الإرشاد الديني فقط، بل تقدم كل أشكال العون والمساعدة، وهذا الأمر حث الإسلام عليه ورغب فيه بقوله ﷺ: "... والله في عَوْن العبد ما كان العبدُ في عون أخيه"^(١). قال النووي: (وفيه: فضل قضاء حوائج المسلمين، ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو بنصيحة، وغير ذلك)^(٢).

٣- إن في ذلك تفرجاً لكربات المرضى وهذا عمل فاضل قال فيه النبي ﷺ: "... ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة"^(٣).

قال النووي - رحمه الله - : (في هذا فضل إعانة المسلم، وتفريج الكرب عنه، وستر زلاته، ويدخل في كشف الكربة وتفريجها من أزالتها بماله، أو جاهه، أو مساعدته، والظاهر أنه يدخل فيه من أزالتها بإشارته ورأيه ودلالته)^(٤).

٤- حاجة المريض النفسي إلى الإرشاد الديني فيما يخص عقيدته وعباداته، بل تعامله مع مرضه، إذ أن معاناة المرضى النفسيين كبيرة،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر حديث (٢٦٩٩) ج ٣ ص ٢٠٧٤.

(٢) شرح النووي، ج ٩ ص ٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، ج ٣ ص ٩٨، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم حديث (٢٥٨٠) ج ٣ ص ١٩٩٦.

(٤) شرح النووي، ج ٨ ص ٣٨٠.

- يعرفها الأطباء النفسيون، وعلماء الشريعة، من خلال ما يرددهم من أسئلة واستفسارات تدل على حجم معاناتهم.
- ٥- حاجة المريض النفسي الماسة إلى الدعم والمؤازرة، فكثير من المرضى النفسيين يعانون في صمت وخجل وخوف من إظهار معاناتهم، لأنهم يخشون من ردة فعل من حولهم تجاه مشاعرهم وأحاسيسهم.
- ٦- إن المرض يؤثر على حياة المريض، وعلى من حوله أسرته بل مجتمعه، فالمساعدة له في تجاوز هذه المحنة، مساعدة لمن حوله.

المبحث الثالث

أساليب دعوة المريض النفسي

تتعدد الأساليب التي يمكن استخدامها مع المريض النفسي والتي تفيده وتساعد على تجاوز محنته، ويمكن في هذا الجانب الاستفادة من الأساليب العلاجية التي يستخدمها الأطباء النفسيون والأخصائيون النفسيون، فيما يسمى بالعلاج المعرفي السلوكي، خاصة أن التعرف على هذه الأساليب العلاجية أصبح متاحاً من خلال بعض المواقع الإلكترونية المتخصصة، والتي يشارك فيها أطباء استشاريون متخصصون في الطب النفسي، وكذلك استشاريون في علم النفس، كما توجد دورات خاصة بالعلاج المعرفي السلوكي يمكن للدعاة الاستفادة منها^(١).

وسأذكر بعض الأساليب التي يمكن استخدامها مع المريض النفسي:

١ - أسلوب التطمين والدعم:

وهذا من العلاجات الطبية حيث يُسمَّى العلاج التدعيمي إذ يقوم على شد أزر المريض ودعمه والتركيز على ما يمكنه القيام به^(٢). وقد ذكر أ. د. طارق الحبيب أن من أنواع العلاج التي تقدم للمريض النفسي العلاج المساند الذي فيه يقوم المعالج بطمأنة المريض وتوجيهه وإرشاده^(٣).

(١) انظر: معرفي أول موقع باللغة العربية مختص بالعلاج المعرفي السلوكي، إذ أن رسالة الموقع تدريب ومساعدة المعالج النفسي المعرفي في ممارسة العلاج المعرفي السلوكي، وزيادة الوعي بمدى فائدة العلاج المعرفي السلوكي بين المختصين وكذلك لدى العامة. وكذلك موقع أكاديمية علم النفس.

(٢) انظر: الاكتئاب النفسي، أ. د. عبدالله السبيعي، موقع النفسي ١٦ أبريل ٢٠٠٩م.

(٣) انظر: حوار مع أ. د. طارق الحبيب حول العلاج النفسي، شبكة عابرون الثقافية ١٩/١١/٢٠٠٧م.

ومما يدخل الطمأنينة في نفس المريض، إخباره أن ما أصيب به هو من جملة ما يكفر الله به عن خطاياها، فإذا صبر واحتسب أثيب على ذلك، بل إن ابن حجر في فتح الباري ذكر أن الأحاديث الصحيحة صريحة في ثبوت الأجر بمجرد حصول المصيبة، وأما الصبر والرضا فقدر زائد يمكن أن يثاب عليهما زيادة على ثواب المصيبة^(١).

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه البخاري - رحمه الله - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: "ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها"^(٢).

والهم والحزن والغم من أمراض الباطن كما ذكر ابن حجر، أي - أمراض النفس - وربط بينها بقوله: (وقيل في هذه الأشياء الثلاثة وهي الهم والغم والحزن، إن الهم ينشأ عن الفكر فيما يتوقع حصوله مما يتأذى به، والغم كرب يحدث للقلب بسبب ما حصل، والحزن يحدث لفقد ما يشق على المرء فقده وقيل: الهم والغم بمعنى واحد)^(٣).

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - : (أولاً يجب أن تعلم أن الهموم والغموم التي تصيب المرء هي من جملة ما يكفر عنه بها ويخفف عنه من ذنوبه، فإذا صبر واحتسب أثيب على ذلك)^(٤).

(١) انظر: فتح الباري، ج ١٠ ص ١١٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المرضى والطب، باب ما جاء في كفارة المرض، ج ٧ ص ٢.

(٣) فتح الباري، ج ١٠ ص ١١٠.

(٤) العلاج من الوسواس في ضوء الكتاب والسنة، الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ص ٢٥.

وهذا الأسلوب مما يعالج به العلماء من ابتلى بالوسواس، إذ يحاولون طمأنة الموسوس، وإزالة قلقه من الوسواس، لأن الخوف منها يزيد من ورودها على النفس.

وقد ذكر الإمام النووي - رحمه الله - في كتابه الأذكار مقولة لأحد العلماء في علاج الوسوسة، حيث قال: (وقال السيد الجليل أحمد بن أبي الخوراني: شكوت إلي أبي سليمان الداراني الوسواس فقال: إذا أردت أن ينقطع عنك، فأني وقت أحسست به فافرح، فإنك إذا فرحت به انقطع عنك، لأنه ليس شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن، وإن اغتممت به زادك. قلت: وهذا مما يؤيد ما قاله بعض الأئمة: إن الوسواس إنما يتلى به من كمل إيمانه، فإن اللص لا يقصد بيتاً خراباً)^(١).

فهذا النص يذكر العلاج الذي استعمله أبو سليمان الداراني - رحمه الله - وهو الأمر بالفرح، كما أن عبارة الإمام النووي الأخيرة تدخل الطمأنينة على قلب الموسوس وتعلمه أنه على خير، وأنه إنما أصابه الوسواس لكمال إيمانه لا لغضب الله عليه أو نقص إيمانه.

فإذا كان الأطباء اليوم يعدُّون القلق أصلاً للوسواس فليس أنفع من إدخال الطمأنينة والفرح إلى قلب الموسوس لعلاجه، ويمكن للموسوس أن يفعل هذا بنفسه^(٢).

وذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله - في زاد المعاد فصل في هديه ﷺ بتطبيب نفوس المرضى وتقوية قلوبهم.

(١) الأذكار للنووي، ص ١٠٩.

(٢) ينظر: منهج الفقهاء في التعامل مع الوسواس القهري، أ. رفيف الصباغ، ١٠.

وقال - رحمه الله - (وتفريح نفس المريض، وتطبيب قلبه، وإدخال ما يسرُّه له تأثير عجيب في شفاء علته وخفتها، فإن الأرواح والقوى تقوى بذلك)^(١). وكذلك زرع التفاؤل في نفس المريض إذ أن ذلك له أثر كبير على صحة المريض إذ يعزز قدرة المريض على مقاومة المرض، فقد أثبتت الدراسات العلمية الطبية أثر التفاؤل والنظرة الإيجابية في الحياة على الصحة، إذ أنها تعزز نظام المناعة في الجسم، حيث كشف بحث مشترك بين جامعتي (كنتاكي) و(لويز فيل) أن الشعور المتفائل بخصوص المستقبل قد يؤدي لشعور أفضل في الواقع وأن التفاؤل مفيد للصحة إذ من شأنه تعزيز قدرة الجسم على محاربة العدوى^(٢).

ومما يزرع التفاؤل في نفس المريض تذكيره بحديث النبي ﷺ: "لكل داء دواء" فإن المريض إذا استشعر أن لدائه دواء يزيله، تعلق قلبه بروح الرجاء، وبردت عنده حرارة اليأس^(٣).

٢ - إرشاد المريض إلى التداوي:

إن الأمراض النفسية مثلها مثل الأمراض العضوية تحتاج إلى العلاج، ونوعية العلاج يحددها الطبيب الماهر الحاذق.

يقول سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله - في سؤال حول كيفية علاج المريض النفسي: (المشروع أن يعالج بالطب النبوي، والعلاج

(١) زاد المعاد، ج ٤ ص ١١٦.

(٢) انظر: التفاؤل يعزز المناعة والصحة، مفكرة الإسلام، ٢٩ مارس ٢٠١٠م.

(٣) انظر: زاد المعاد، ج ٤ ص ١٧.

الذي يعرفه خواص الأطباء مما لا يخالف الشرع المطهر لقول النبي ﷺ: "ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء" (١).

وقوله ﷺ: "لكل داء دواء فإذا أُصيب دواء الداء برأ بإذن الله" (٢).

وقوله ﷺ: "عباد الله تداووا ولا تداووا بجرام" (٣).

ومن الدواء الشرعي القراءة عليه من أهل العلم والإيمان لعل الله ينفعه بذلك.

ومن الأسباب النافعة لهذا وأمثاله كعرضه على الأطباء المختصين من

أهل الإيمان والتقوى لعلهم يعرفون سبب مرضه وعلاجه (٤).

قال النووي في شرح حديث: "لكل داء دواء فإذا أُصيب دواء الداء

برأ بإذن الله": (وفي هذا الحديث إشارة إلى استحباب الدواء، وهو مذهب

أصحابنا وجمهور السلف وعامة الخلف) (٥).

وفي فتوى مشاهمة لأعضاء اللجنة الدائمة للإفتاء حول علاج المرض

النفسي جاء ما نصه: (ثقي بالله تعالى وحسبني الظن به، وفوضي أمرك إليه،

ولا تياسي من رحمته وفضله وإحسانه فإنه سبحانه ما أنزل داء إلا أنزل له

شفاء، وعليك الأخذ بالأسباب فاستمري في مراجعة الأطباء المتخصصين

في معرفة الأمراض وعلاجها...) (٦).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، ج ٧ ص ١٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب لكل داء دواء، حديث رقم (٢٢٠٤)، ج ٢ ص ١٧٢٩.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ وإنما عند أبي داود في كتاب الطب باب في الأدوية المكروهة، ونصه قال رسول الله ﷺ:

"إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء، فتداووا ولا تداووا بجرام" حديث (٣٨٧٤) ج ٤ ص ٢٠٧،

والحديث ضعفه المنذري. انظر عون المعبود على سنن أبي داود، ص ١٦٥٢.

(٤) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، ج ٩ ص ٤١٠.

(٥) شرح النووي، ج ٧ ص ٤٥٢.

(٦) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتوى رقم (٣٨٢٨) ج ١ ص ٢٩٦.

ويقول أ. د. طارق الحبيب عن أكثر الطرق العلاجية شيوعاً للأمراض النفسية: (الأدوية النفسية - الجلسات النفسية - العلاج النفسي غير الدوائي) - العلاج المساند، وفيه يقوم المعالج بطمأنة المريض وتوجيهه وإرشاده، العلاج السلوكي، العلاج المعرفي، وفيه يقوم الطبيب بتقييم وتصحيح أساليب التفكير الخاطئة لدى المريض، العلاج بالرحفة المحدثة كهربياً، الجراحة النفسية. ويقتصر استخدامها على بعض الحالات النفسية الشديدة^(١).

وقد أوصى العديد من الأطباء بضرورة زيارة المريض للطبيب النفسي المتمكن ليصف له ما يحتاجه من العلاجات السابقة الذكر^(٢).

يقول د/ فائق الزغاري استشاري الطب النفسي: (بعض الناس يتأخر في مراجعة العيادات النفسية حتى يستفحل الأمر، والمرض النفسي يتدرج من الاضطراب البسيط الذي يمكن علاجه بالإرشاد النفسي والطمأنة إلى الفصام العقلي شديد الاضطراب الذي يُتحكم به دوائياً، فأمرض القلق والاكتئاب والوساوس والمخاوف والهستيريا واضطرابات النوم، واضطرابات الأطفال وغيرها من الأمراض النفسية قابلة للشفاء، وإن هناك نسبة قليلة من الأمراض النفسية التي لا تشفى، ولكن يتحكم بها من قبل الأدوية، ولو نظرنا إلى الأمراض غير النفسية فإن الأمر لا يختلف كثيراً، فهناك العديد

(١) حوار مع أ.د. طارق الحبيب حول العلاج النفسي، شبكة عابرون الثقافية ١٩/١١/٢٠٠٧م.

(٢) انظر: نماذج لعلاج بعض حالات الوسواس القهري، أ. د. محمد شريف سالم، طبيب نفساني دوت كوم؛ تعريف الوسواس القهري وخصائصه، د. محمد فريد موقع النفسي ٢٢ فبراير ٢٠٠٧؛ اضطراب توهم المرض، د/ أحمد عيد، منتدى أ. د. طارق الحبيب، مركز مطمئنة الطبي ٨/٢/٢٠١١م.

منها يستمر طوال العمر، مثل السكري والضغط وأمراض القلب، ويحتاج المريض المصاب بها إلى تناول علاجه مدى الحياة.

لقد أثبتت التجارب العلمية بأن سبب الأمراض النفسية هو اختلال في مستوى النواقل العصبية في الدماغ، وذلك نتيجة عدة عوامل، منها تأثير الوراثة والبيئة والتربية وعوامل عديدة أخرى....

والتجارب العلمية مدعومة بالخبرات العملية والمشاهدة اليومية أثبتت نفع الأدوية النفسية في علاج الأمراض النفسية ... (١).

ويقول أ. د. وائل أبو هندي عن تأثير العلاج الدوائي النفسي على المرضى: (الأبحاث العلمية المستمدة من التجارب على الأدوية تؤكد أن استعمال الأدوية التي تزيد من تركيز السير وتونين (ناقل عصبي) في المخ يؤثر تأثيراً إيجابياً في تحسين حالة المريض) (٢).

ويقول أ. د. رامن طه: (ولأن المرض النفسي عملة ذات وجهين، أحدهما نفسي معنوي أخلاقي، والآخر بيولوجي جسماني، فإن العلاج يجب أن يكون متكاملًا يعالج آلام النفس بالكلمة والمناقشة وتعديل التكفير والسلوك، ويعالج الجسم الذي اختلت وظائفه بالدواء مما يؤكد أهمية الدمج بين العلاج بالعقاقير والأدوية، والعلاج النفسي والديني في علاج تكاملي شامل) (٣).

(١) مفاهيم خاطئة للمرض والعلاج النفسي، أ. د. فائق الزغاري، طبيب نفساني دوت كوم.

(٢) أسباب الوسوسة القهريّة، أ. د. وائل أبو هندي، موقع مجانين ١٦/٢/٢٠١٠م.

(٣) انظر: العلاج النفسي الذاتي بالقرآن، أ. د. رامن طه.

وقد أشار أ. د. عبدالله السبيعي إلى إرشاد المريض للطبيب النفسي في مقال له عن الاكتئاب النفسي حيث قال موصياً من لديه مريض نفسي: (ابحث له عن طبيب نفسي كفؤ، وسارع بالعلاج فإن الاكتئاب من أكثر الاضطرابات النفسية استجابة للعلاج والله الحمد)^(١).

وعن الأدوية النفسية يقول أ. د. وائل أبو هندي:

أولاً: الآثار الجانبية البسيطة للأدوية النفسية، لا تعادل بأي شكل من الأشكال تلك الفائدة المرجوة، وكل الأدوية غير النفسية لها آثار جانبية، وأي دواء ليس له آثار جانبية ليس له آثار علاجية.

ثانياً: الأدوية النفسية لا تؤدي إلى الإدمان إذا استخدمت تحت

إشراف طبي مباشر^(٢).

ولا تعارض بين الطب النفسي واستخدام الرقية الشرعية، حيث ذكر معالي الشيخ الدكتور عبدالله المطلق أهمية العلاج بالقرآن الكريم بقراءته وتدبره، وذكر أنه لا تعارض بين الطب النفسي والقرآن، فإن الذهاب إلى عيادات الطب النفسي يُعدُّ من الأخذ بالأسباب الذي يأمر به القرآن الكريم واستدل بالأحاديث التي فيها الحث على التداوي وسبق ذكرها^(٣).

(١) الاكتئاب النفسي، أ. د. عبدالله السبيعي، موقع النفسي ١٦ إبريل ٢٠٠٩م.

(٢) انظر: لماذا ينظر الناس نظرة سلبية للطب النفسي، أ. د. وائل أبو هندي، طبيب نفساني دوت كوم.

(٣) انظر: المريض النفسي بين الأطباء والرقى، الشيخ عبدالله بن محمد المطلق، موقع طريق الإسلام، ٧ رمضان

٣ - مساعدة المريض على التحكم والسيطرة على تفكيره:

تؤكد نظريات التعلم، وعلم النفس السلوكي أن المرض النفسي هو سلوك خاطئ متعلم^(١).

لقد اهتم عدد من المعالجين النفسيين بدور العوامل الفكرية والذهنية في التسبب في الاضطرابات النفسية.

ويفترض عالم النفس "ألبرت أليس" مؤسس مدرسة العلاج العقلاني، أن التفكير هو المحرك الأول والمسبب للانفعال، ويؤكد أنصار مدرسة العلاج العقلاني أن الاضطراب النفسي الذي يعاني منه فرد ما هو نتيجة سوء تفسيره وتأويله للأمور، وذلك بناء على الأفكار والمعتقدات غير المنطقية والسلبية الهدامة التي يتبناها^(٢).

وعن تأثير التفكير على جسد الإنسان يقول أ. د. رامز طه: (ولقد ثبت بالعديد من الأدلة التجريبية والإكلينيكية أن العوامل الفكرية التي تشمل التفكير والتخيل والتصور والاستنتاج والتوقع، تتصل وتؤثر فوراً على مراكز الانفعال بالدمغ، التي تفرز بالتالي عدداً من الهرمونات والمواد الناقلة العصبية المسببة للتوتر والتغيرات الفسيولوجية المصاحبة له.

ومن هرمونات التوتر المعروفة هرمون الأدرينالين الذي يؤدي إفرازه إلى توتر العضلات، وخفقان القلب وارتفاع ضغط الدم، وزيادة معدل التنفس،

(١) انظر: أسلوب تعديل السلوك وتعلم عادات جديدة، أ. د. رامز طه، استشاري الطب النفسي.

(٢) انظر: أسلوب تعديل التفكير، أ. د. رامز طه، وانظر العلاج المعرفي السلوكي: تعريفه - أهدافه - قواعده،

د. إبتسام عبدالله الزعبي، موقع أطفال الخليج.

واتساع حدقة العين، ونقل كميات كبيرة من السكر من الكبد إلى الدم حتى تتوفر الطاقة والوقود للمعركة التي استعداد لها الجسد بأمر من مراكز الانفعال تحت تأثير العوامل الفكرية المخيفة والمهددة، ويصاحب هذه التغيرات أيضاً تعطل عمليات الهضم واضطراب إفراز العصارات المعدية والمعوية^(١).

وإذا كان الأمر كذلك فقد بين علماء النفس وأطبائها أن أي أسلوب للعلاج النفسي مهما اختلفت المدرسة التابعة لها لا يمكن أن يؤدي إلى نتائج فعالة وإيجابية إلا من خلال تعديل أفكار الفرد ومعتقداته، وتوقعاته، وكذلك تصوراتهِ عن نفسه وعن الآخرين^(٢).

ولقد أدرك العلماء المسلمون ما يلعبه التفكير في توجيه سلوك الإنسان وفي سعادته وفي شقائه، وقد اتصفت أراؤهم في هذا الموضوع بالفهم المتمكن لطبيعة النفس البشرية، والعوامل التي تتأثر بها وتؤثر فيها، وقد سبقوا بذلك العلماء المحدثين ومن تكلم عن ذلك الإمام ابن القيم - رحمه الله - حيث قال: (والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد الخطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد، ما لم يمنع مانع)^(٣).

وقال أيضاً: (واعلم أن ورود الخاطر لا يضر، وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته، فالخاطر كالمار على الطريق، فإن لم تستدعه وتتركه مرّاً وانصرف

(١) انظر: الخلوّة العلاجية والتأمل، أ. د. رامي طه.

(٢) انظر: أسلوب تعديل التفكير، أ. د. رامي طه.

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن قيم الجوزية، ص ١٣٤.

عنك، وإن استدعيتَه سحرك بحديثه وخذعه، وغروره، وهو أخف شيء على النفس الفارغة العاطلة، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة^(١).

وقد أشار الغزالي إلى أن بلوغ الأخلاق الجميلة يتطلب أولاً تغيير أفكار الفرد عن نفسه، ثم القيام بالممارسة العملية للأخلاق المراد اكتسابها حتى تصبح عادة^(٢).

وتكون الفكرة مرضية بسبب أسلوب وطريقة التفكير مثل:

- التطرف في الأحكام: حيث يرى الفرد الأشياء إما سوداء أو بيضاء، وهو يكره ويجب دون توسط أو اعتدال.
- التصلب ومواجهة المواقف المختلفة بطريقة تفكير واحدة.
- المبالغة: كالمبالغة في تفسير المواقف مما يؤدي إلى إثارة انفعالات القلق أو الخوف.
- كذلك المبالغة في نقد الآخرين سلباً أو إيجاباً، مما يؤدي إلى اضطراب العلاقة بهم.
- التعميم: وهو أسلوب من التفكير يؤدي إلى تعميم الخبرات الجزئية تعميماً سلبياً، مما يؤدي بالتالي إلى العديد من الأنماط المرضية خاصة الاكتئاب والفصام.
- الحساسية للنقد وتضخيم المواقف والأحداث. ويؤكد أغلب الباحثين

(١) المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، ج ٣ ص ٥٨.

أن استمرار التفكير والتخيل بطريقة خاطئة يتحول إلى عادة مرضية يفقد معها الفرد إدراكه الموضوعي للواقع وتقييمه الصحيح للذات، وإلى اعتياد المبالغات الانفعالية^(١).

ويمكن السيطرة على التفكير من خلال الأساليب التالية:

أ - ضبط التفكير:

وذلك من خلال ضبط الأحاديث الداخلية، وما يقوله الفرد لنفسه، ففي تجارب علمية وُجد أن التفكير يقتن بكلام باطن غير مسموع، وبوجود حركات دقيقة في عضلات النطق - الحنجرة واللسان والشفيتين - وقد أمكن تسجيلها بأجهزة دقيقة وحساسه^(٢).

وهذا يُصدّق ما أشار إليه الإمام ابن القيم - رحمه الله - في أن الخاطر الفكري يقتن بكلام، وشبهه بالمار على الطريق إذا توقف عند المرء وحده فإنه يسحره بحديثه ويؤثر فيه، وإن تركه مرّ وانصرف عنه.

لذا كان لابد من ضبط التفكير في الأشياء السيئة والضارة والتي تؤدي إلى التوتر والصراع النفسي، واستمرار اجترار الأفكار الهدامة وغير المنطقية، والخبرات غير السارة، وذكريات المواقف السيئة، وجعلها كالاسطوانة المشروخة التي تكرر نغمة واحدة تؤدي إلى إثارة مراكز الانفعال بصورة متواصلة، وتراكم مشاعر الضيق، والقلق، والاكتئاب، بحيث يجد الفرد نفسه في نهاية اليوم، أو حتى بعد فترة وجيزة من الوقت مكتئباً، قلقاً، حزيناً،

(١) انظر: العلاج بتأمل ذكر الله، أ. د. رامز طه.

(٢) انظر: أسلوب تعديل التفكير، أ. د. رامز طه.

أفكاره ومعتقداته عن نفسه وعن الآخرين هي السبب فيما يعانیه^(١).
 والإنسان قادر بالفعل على ضبط أفكاره وتعديلها وتعديل سلوكه هذا
 ما أثبتته العديد من مدارس العلاج النفسي الحديثة^(٢).
 ويكون ذلك من خلال ضبط الأحاديث الداخلية، وما يقوله الفرد
 لنفسه باستمرار يؤدي إلى ضبط الانفعال ويستطيع الفرد بالتعلم وبالمران
 المستمر أن يتحكم في مسرحه الذهني، وأن يسمح للأفكار البناءة المنطقية
 غير المتشككة والمتفائلة بالتواجد عليه، وأن يطرد الأفكار السوداء
 والتصرفات المتشائمة^(٣).

ب - وقف التفكير:

وأسلوب وقف التفكير أسلوب نبوي، جاء التوجيه النبوي فيه إذا
 تعرض الإنسان لأفكار هدامة. دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم
 عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول
 من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول من خلق ربك، فإذا بلغه فليستعذ
 بالله ولينته)^(٤).

ففي الحديث كان الشيطان مصدر الفكرة المرضية، حيث اقترن بكلام
 باطن غير مسموع أثر على المريض، فجاء التوجيه النبوي بقوله:

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) انظر: العلاج النفسي الذاتي، أ. د. رامز طه.

(٣) انظر: أساليب تعديل التفكير، أ. د. رامز طه.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ج ٤ ص ٩٢؛ ومسلم في كتاب الإيمان،

باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، حديث (٢١٤، ١٣٤)، ج ١ ص ١٢٠.

(لينته) حيث أمر بوقف التفكير بالفكرة المرضية غير الصحيحة. وجاءت الدراسات العلمية الحديثة بأهمية هذا الأسلوب يقول أ. د. رامز: (لقد أيدت دراسات حديثة وتجارب علماء معاصرين إمكانية تعديل أفكار ومفاهيم الفرد وسلوكه، والتحكم في عمليات التفكير أثناء حدوثها بالإيقاف، أو طرد الأفكار غير المرغوبة، مع غرس أفكار أو عبارات تحل محل الأفكار الانهزامية أو المرضية غير المرغوبة)^(١).

ج - استبدال الفكرة المرضية بما يضادها:

ويكون ذلك كما ذكرنا بضبط الأحاديث الدخيلية، فيستبدل الأفكار الضارة بما يضادها من الأفكار المتفائلة والحسنة. والإنسان المسلم بحمد الله سيجد أي فكرة ضارة لها ضدها الحسن في الشرع - وكله حسن - ومعلوم أنه كلما كانت العبارات التي يرددها الفرد ذات معان سامية، ومصداقية دينية راسخة، كلما استطاع التحكم في نشاطه الذهني، وكلما كان أقدر على التخلص من الأفكار السلبية والانهزامية^(٢).
ومن الأمثلة على ذلك:

استبدال الفكرة غير الصحيحة عن الله - سبحانه وتعالى - بتجديد الإيمان:

أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله؟ فمن وجد

(١) العلاج بتأمل ذكر الله، أ. د. رامز طه.

(٢) انظر: العلاج بتأمل ذكر الله، أ. د. رامز طه.

من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله^(١).

فقوله ﷺ: (فليقل آمنت بالله) هو رد على الفكرة المرضية بما يضادها.
قال النووي - رحمه الله - : (وأما قوله ﷺ "فمن وجد ذلك فليقل:
آمنت بالله" وفي الرواية الأخرى: "فليستعد بالله ولينته"، فمعناه الإعراض
عن هذا الخاطر الباطل، والالتجاء إلى الله تعالى في إذهابه ...
وليعلم أن هذا الخاطر من وسوسة الشيطان، وهو إنما يسعى بالفساد
والإغواء فليعرض ٤ - الإصغاء إلى وسوسته، وليبادر إلى قطعها بالاشتغال
بغيرها)^(٢).

وقال ابن حجر - رحمه الله - : (وإنما أمر بالاستعاذة والاشتغال بأمر
آخر، ولم يأمر بالتأمل والاحتجاج، لأن العلم باستغناء الله جل وعلا عن
الموجد، أمر ضروري لا يقبل المناظرة، ولأن الاسترسال في الفكر في ذلك لا
يزيد المرء إلا حيرة، ومن هذا حاله فلا علاج له إلا الملجأ إلى الله تعالى
والاعتصام به)^(٣).

استبدال الغضب بما يضاده من الحلم وكظم الغيظ:

مثل أن يكرر الغاضب قول النبي ﷺ: (ليس الشديد بالصرعة قالوا:
فالشديد أئمٌ هو؟ يا رسول الله قال: الذي يملك نفسه عند الغضب)^(٤).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها (٢١٢ - ١٣٤) ج ١ ص ١١٩.

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم، ج ١ ص ٤٣٤.

(٣) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ج ٦ ص ٣٩٢.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، حديث (١٠٨) -
٢٦٠٩ (٢٦٠٩) ج ٣ ص ٢٠١٤ واللفظ له، وأخرجه البخاري في كتاب الآداب، باب قول النبي ﷺ: "إنما الكرم
قلب المؤمن" ج ٧ ص ١١٥.

فالشخص الذي يغضب سريعاً إزاء تصرفات الآخرين، إذا ارتكب الآخرون حماقات، أو تصرفات قد تثيره، يستبدل الغضب بما يضاده، بذكر وترديد الحديث الشريف فالقوي الذي يملك نفسه عند الغضب، فهذا هو الفاضل الممدوح الذي قل من يقدر على التخلق بخلقه، وليس القوي الذي لا يصرعه الرجال كما يعتقد البعض^(١).

وتكرار الإنسان الغاضب هذا الحديث وغيره مما يحث على عدم الغضب ودفع الإساءة بالإحسان من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لها تأثير إيجابي على الفرد، خاصة إذا أدرك الشخص التأثير السلبي للغضب، حيث تؤكد تأثير الغضب سلبياً على كافة العمليات الذهنية وفي القدرة على التفكير المنطقي^(٢).

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤).

وهذا التردد لا بد أن يوافقه تطبيق ليتم غرسه كسلوك متعلم، كما ذكر الغزالي أن بلوغ الأخلاق والعادات الجميلة لا بد فيه أولاً من تغيير الأفكار، ثم القيام بالممارسة العملية للأخلاق المراد اكتسابها حتى تصبح عادة^(٥)، وهذا يكون بالمران وقوة الإرادة.

(١) انظر: شرح النووي، ج ٨ ص ٤١٠.

(٢) انظر: تدريبات على الصحة النفسية، أ. د. رامي طه.

(٣) سورة فصلت، آية: ٣٤.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٣٤.

(٥) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي ج ٣ ص ٥٨.

استبدال سوء الظن بالناس بإحسان الظن بهم:

قد يمر الإنسان بمواقف تثير قلقه وغضبه بشكل مبالغ فيه، من خلال رؤيته للموقف أو تحليله الشخصي لما يحدث، وقد يكون هذا التحليل خاطئاً نتيجة الأفكار غير المنطقية، أو المخاوف والتوقعات المتشائمة التي قد تشعره بالنقص، أو التهديد، واستمرار اجترار هذه الأفكار يؤدي إلى إثارة مراكز الانفعال، وتراكم مشاعر الضيق والقلق والاكتئاب.

ويكون علاج ذلك باستخدام الضد النافع الذي يقابل هذا الضد الضار، وهو حسن الظن بالناس، فليس أريح للإنسان، ولا أسعد لقلبه من حسن الظن. فبه يسلم من أذى الخواطر المقلقة التي تؤذيه وتكدر باله، وتتعب نفسه.

فيقوم بترديد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحذر من سوء الظن، وتأمّر بضده كقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(١).

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: (يقول تعالى ناهياً عبادة المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليتنجب كثير منه احتياطاً وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: "ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

لها في الخير محملاً" (١).

وقوله ﷺ: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ... وكونوا عباد الله أخواناً" (٢).

استبدال الانتقام والحقد بالتسامح والعفو :

عندما يتعرض الإنسان للأذى من الناس فرما يكون تفكيره هو الانتقام منهم، مع امتلاء قلبه بالضغينة والبغض، ولو فعل ذلك فسيكون هو ذاته أول المتضررين، لأنه سيصبح قلقاً حزيناً غاضباً. ويمكنه استخدام الضد النافع وهو التسامح فهو علاج نفسي سريع المفعول، فقد ثبت علمياً أن من أهم صفات الشخصية المضطربة والتي تعاني من القلق المزمن، هو أنها لا تعرف التسامح، ولم تجرب لذة العفو ونسيان الإساءة (٣).

والقرآن الكريم والسنة المطهرة تزخران بالترغيب بالعفو والتسامح فالله

سبحانه وتعالى يقول: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٥).

فرغب سبحانه وتعالى بالعفو وبين أن أجر الذي يعفو ويسامح عند

الله تعالى (٦).

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ج ٤ ص ٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير ج ٧ ص ٤٨٨؛ ومسلم في كتاب البر والصلة والأداب، باب تحريم الظن والتحسس حديث رقم (٢٨ - ٢٥٦٣) ج ٣ ص ١٩٨٥.

(٣) انظر: التسامح علاج نفسي سريع المفعول، أ. د. رامز طه.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٥) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ١٢٠.

والنبي ﷺ يقول: "وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً" (١).
 أما كيف يزداد الإنسان بعفوه وتسامحه عزاً، يقول الإمام النووي -
 رحمه الله - (قوله ﷺ): "وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً فيه وجهان:
 أحدهما: أنه على ظاهره، وأن من عُرف بالعفو والصفح ساد وعظم
 في القلوب وزاد عزه وإكرامه.

والثاني: أن المراد أجره في الآخرة وعزه هناك" (٢).

استبدال النظر إلى من هو أعلى بالنظر إلى من هو أسفل والتشبع بالرضا:

- قد يصاب البعض بالتوتر وقلق الصراع الدامي لتحقيق الرغبات
 والطموحات، فيجهد نفسه بالتفكير فيما يطمح بتحقيقه، أو يفكر فيما
 ينقصه مما أعطاه الله لغيره أكثر من تفكيره فيما أعطاه الله.

والضد النافع الذي يجب استخدامه هو التشبع بالرضا، فإن ذلك مما
 يشعر بالطمأنينة والسلام، وذلك بأن يركز الإنسان تفكيره وحياله في
 استعراض وتأمل النعم التي أنعم الله بها عليه، من حواس وملكات ونعم
 وقدرات لا تقدر بمال، ولا يمكن تعويضها بكنوز الدنيا.

وقد كان هذا الأسلوب أسلوباً نبوياً حيث أرشد إليه النبي صلى الله
 عليه وسلم بقوله: "انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم،
 فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله" (٣).

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع حديث رقم (٦٩ - ٢٥٨٨)
 ج ٣ ص ٢٠٠١.

(٢) شرح النووي، ج ٨ ص ٣٨٦.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرفاق، باب ٥٣ حديث رقم (٨ - ٢٩٦٣) ج ٣ ص ٢٢٧٥ واللفظ له، وأخرجه
 البخاري في كتاب الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه ولا ينظر إلى من هو فوقه، ج ٧ ص ١٨٧.

وجاء في شرح النووي - رحمه الله - لهذا الحديث: (هذا حديث جامع لأنواع من الخير، لأن الإنسان إذا رأى من فُضِّلَ عليه في الدنيا طلبت نفسه مثل ذلك، واستصغر ما عنده من نعم الله تعالى، وحرص على الازدياد ليلحق بذلك أو يقاربه، هذا هو الموجود في غالب الناس، وأما إذا نظر في أمور الدنيا إلى من هو دونه فيها، ظهرت له نعمة الله تعالى عليه فشكرها، وتواضع وفعل الخير^(١)).

أما الإمام ابن حجر - رحمه الله - فاعتبر أن الرضا هو دواء الداء فقال: (في هذا الحديث دواء الداء، لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يأمن أن يؤثر ذلك فيه حسداً، ودواؤه أن ينظر إلى من هو أسفل منه ليكون ذلك داعياً إلى الشكر)^(٢).

وقد ذكر أ. د. رامز طه استشاري الطب النفسي، فعالية هذا الأسلوب في تحقيق الأمن والطمأنينة لمن كانوا يشعرون بالقلق فقال: (ولقد حقق هذا الأسلوب البسيط - حتى عند استخدامه بمفرده - زوال التوتر والقلق والشعور بالسلام والرضا والطمأنينة لعشرات ممن كانوا يعانون من قلق الصراع الدامي، لتحقيق الرغبات والطموحات ... بل استطاع عدد من المرضى الذين كانوا يعانون من الأرق والكوابيس المرعبة المخيفة، أن يستمتعوا بنوم هادئ عميق عند ممارسة هذا الأسلوب قبل النوم مباشرة، وبالطبع يكتمل الشعور بالرضا إذا اقترن أيضاً بالدعاء والذكر وطلب العون والمدد من القوي المعين سبحانه وتعالى)^(٣).

(١) شرح النووي، ج ٩ ص ٣٣٤.

(٢) فتح الباري، ج ١١ ص ٣٣٠.

(٣) أسلوب التشبع بالرضا، أ. د. رامز طه.

٤ - توجيه المريض إلى قراءة القرآن الكريم وتدبره والاستشفاء به:

فإن هذا من أعظم الأسباب التي ينتفع بها المريض فإله سبحانه وتعالى يقول: (وينزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) (١).

قال ابن القيم - رحمه الله - في بيان معنى هذه الآية: (من هنا لبيان الجنس لا للتبويض، فإن القرآن كله شفاء .. فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط، أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أجمع في إزالة الداء من القرآن) (٢).

وقال الشوكاني - رحمه الله - في تفسيرها: (واختلف أهل العلم في معنى كونه شفاء على القولين: الأول أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها، وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه. القول الثاني أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحو ذلك، ولا مانع من حمل الشفاء على المعنيين) (٣).

وقد جاء في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حي من أحياء العرب فلم يقرؤهم، فبينما هم كذلك إذا لدغ سيد أولئك، فقالوا هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعلاً، فجعلوا لهم قطعاً من الشاء، فجعل يقرأ بأمر القرآن ويجمع بزاقه ويتفل فبراً، فأتوا بالشاء فقالوا لا

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٢.

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم ص ٨.

(٣) فتح القدير، للشوكاني، ج ٣ ص ٢٥٣.

نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ فسألوه فضحك وقال وما أدراك أنها رقيةٌ خذوها واضربوا لي بسهم^(١).

قال النووي - رحمه الله - : (قوله ﷺ: "وما أدراك أنها رقية؟" فيه التصريح بأنها رقية، فيستحب أن يقرأ بها على اللديغ والمريض وسائر أصحاب الأسقام والعاهات)^(٢).

وقد جاءت الأدلة الصريحة الصحيحة بالأذن بالرقية، وقد بوب الإمام مسلم باباً في كتاب السلام سماه (باب استحباب رقية المريض)، وفي باب آخر سماه (باب رقية المريض بالمعوذات والنفث)^(٣).

أورد فيها الأحاديث التي فيها ترخيص النبي ﷺ بالرقية، وفعله لها في رقية المرضى وقد قال ﷺ لما سأله عوف بن مالك الأشجعي عن رقى الجاهلية التي كانوا يستخدموها فقال ﷺ "اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك"^(٤).

وقد استخدم بعض الأطباء النفسيين العلاج بالقرآن الكريم حيث يقول أ. د. رامز طه: (بدأت في إجراء سلسلة من الدراسات العملية

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب الرقى بفاتحة الكتاب ج ٧ ص ٢٣؛ وأخرجه مسلم في كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، حديث (٦٥ - ٢٢٠١) ج ٢ ص ١٧٢٧ واللفظ للبخاري.

(٢) شرح النووي، ج ٧ ص ٤٤٥.

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب السلام، ج ٢ ص ١٧٢١ - ١٧٢٣.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، حديث (٦٤ - ٢٢٠٠) ج ٢ ص ١٧٢٧.

للاستفادة من القرآن الكريم في علاج عدة أمراض ومشكلات نفسية مختلفة، مثل القلق والخوف، والوسواس القهري وخلافه، وكانت النتائج ٨٠٪ من الحالات تفوق نتائج العلاج بأساليب ومدارس غربية^(١).

وفي تجربة أخرى أجراها الطبيب النفسي الباكستاني أ. د. محمد شريف على العلاج بالقرآن والذكر والصلاة، حيث عالج ٦٤ مريضاً بالاكتئاب علاجاً طبيياً، وقسمهم إلى مجموعتين:

٣٢ مريضاً أعطاهم العلاج الطبي فقط.

و٣٢ مريضاً أعطاهم العلاج الطبي وطلب منهم القيام بالليل - في شهر رمضان - من الساعة ٢ - ٤ صباحاً لصلاة التهجد، وذكر الله، وقراءة القرآن، والدعاء، والاستغفار، وبعد أربعة أسابيع وجد أن ٧٨٪ من المجموعة الثانية و١٥٪ من المجموعة الأولى قد تخلصوا من الاكتئاب^(٢).

٥ - إرشاد المريض إلى الإكثار من ذكر الله تعالى والإلحاح بالدعاء:

إن من أعظم أسباب اطمئنان النفس ذكرها لله عز وجل، فالله تعالى

يقول: ﴿أَلَا يَذَكِّرُ اللَّهُ تَطْمِينِ الْقُلُوبِ﴾^(٣).

فإذا قلق القلب واضطرب، فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله^(٤).

(١) العلاج النفسي الذاتي بالقرآن، أ. د. رامزطه.

(٢) حاجة الإنسان إلى الإيمان، وليد أحمد حسان عباس، منتديات د. نبيل سفيان للإرشاد النفسي ٢٨ يونيو

٢٠١٠م.

(٣) سورة الرعد، آية: ٢٨.

(٤) انظر: التفسير القيم لابن القيم، ص ٣٢٤.

وقال ابن القيم - رحمه الله - عن الذكر: (به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم المصيبات ... يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً)^(١).

وقد جاء الترغيب بكثرة الذكر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فالله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾^(٢)، ويقول: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(٣).

فرتب على ذكره أعظم جزاء وهو ذكره تعالى لعبده^(٤). وما أحوج العبد المريض الضعيف إلى ذكر ربه في ضرائه، وذكر الله أفضله ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذي يثمر معرفة الله ومحبته وكثرة ثوابه^(٥).

والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل^(٦).

وفي التداوي بالقرآن والدعاء يقول ابن القيم - رحمه الله - : (إن علاج الأرواح بالدعوات والتوجه إلى الله يفعل ما لا يفعله علاج الأطباء)^(٧).

(١) مدارج السالكين، لابن القيم، ج ٢ ص ٣٥٦.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٤١.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي، ج ١ ص ١٧٤.

(٥) انظر: المرجع السابق، ج ١ ص ١٧٤.

(٦) انظر: الجواب الكافي لابن حجر، ص ٩.

(٧) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، ج ٤ ص ٥٥.

وقد جاءت الأحاديث من السنة في بيان دعاء الكرب فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : (أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم) (١).

وعن أبي داود عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "دعواتُ المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكليني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت" (٢).

وقد كان للإمام ابن القيم - رحمه الله - لطائف ينبغي التنبيه إليها عند الذكر والدعاء حيث قال: (ولكن ها هنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويُرقى بها، هي في نفسها، وإن كانت نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل وقوة همة الفاعل وتأثيره) (٣).

وقد شبه الدعاء بالسلاح، والداعي بالرامي أو الضارب، فلا بد من اجتماع القوة في كليهما فيقول - رحمه الله - : (والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به، والساعد ساعداً قوياً، والمنايع مفقود، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير، فإن كان في نفسه غير

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب، ج ٧ ص ١٥٤، وأخرجه مسلم في كتاب

الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب دعاء الكرب، حديث (٨٣ - ٢٧٣٠)، ج ٣ ص ٢٠٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، حديث رقم (٥٠٩٠) ج ٥ ص ٣٢٥، والحديث

حسن الألباني. انظر: (صحيح سنن أبي داود، ج ٣ ص ٩٥٩).

(٣) الجواب الكافي، ص ٨.

صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة لم يحصل الأثر^(١).

وهذا العلاج الرباني استفاد منه بعض الأطباء النفسيين المسلمين في علاج مرضاهم، إذ وجدوا أن ذكر الله يزيل المخاوف، والأفكار والتصورات السلبية والوساوس، ويطردها من الذهن في الحال، ويعيق تأثيرها على مراكز الانفعال، يقول أ. د. رامز طه: (ولقد جربت مع عدد من المرضى، ومن الأشخاص العاديين الذين يعانون من مشاكل شخصية واضطرابات في التوافق، درجة أعمق من التردد والتكرار للإذكار المختلفة... ولقد كانت النتائج مباشرة وحققت درجة أسرع وأطول أثراً في خفض معدلات التوتر والإحباط، وإزالة الانفعالات السلبية)^(٢).

٦ - توجيه المريض بأن الإيمان بالله جل وعلا وتوحيده وعمل الطاعات فيه شفاء للأمراض النفسية:

فإن الإعراض عن الله تعالى، وعن ذكره وعبادته، فيه الشقاء وضنك المعيشة. كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾^(٣).

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في معنى هذه الآية: ("ومن أعرض عن ذكرني" أي خالف أمري وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه

(١) المرجع السابق، ص ١٤.

(٢) ذكر الله طارد للمخاوف أ.د.رامز طه

(٣) سورة طه، آية: ١٢٤.

وأخذ من غيره هداة" فإن له معيشة ضنكا" في الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدرة، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة^(١).

ويقول د/ محمد شعبان في أسباب الاضطرابات النفسية، وأنها بسبب البعد عن الله عز وجل كما جاء ذلك في القرآن الكريم في آيات عديدة^(٢)، وذكر من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِئتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾^(٣).

حيث كان الإيمان والطاعات نوراً يهتدي به المؤمن، والكفر والمعاصي ظلمات تؤدي إلى ضياع صاحبها، تلتبس عليه الطرق، وتظلم عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء^(٤).

وقد قال د/ أحمد شعبان بعد ذكره الحقيقة التي ذكرها القرآن الكريم، وهي أن الإيمان يجلب الطمأنينة: (ومن أراد الاطلاع على شواهد هذه

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ٣ ص ١٦٤.

(٢) انظر: الاضطرابات النفسية بين نظريات الطب النفسي وحقائق القرآن الكريم، د. أحمد محمد شعبان، موقع

النفسي ٢٦ إبريل ٢٠١٢ م.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٢٢.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٢٢.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لابن سعد، ج ٢ ص ٤٦٨.

الحقيقة فليقرأ بتمعن تاريخ المجتمع الإسلامي الأول الذي عاشه النبي ﷺ وصحابته الكرام - رضوان الله عليهم أجمعين - فقد سطرت لنا كتب الأحاديث النبوية والسيرة والتاريخ، أن هذه الثلة من الناس قد وصلت في عيشها إلى ذروة الاطمئنان النفسي، رغم كل الأخطار التي كانت تحدق بها، والظروف الصعبة التي كانت تمر عليها من جوع وفقر وشدة، ولم يسطر لنا التاريخ في مراحلها الطويلة أن جماعة من الناس استطاعت من فرط الاطمئنان النفسي أن تنام بين صفى القتال، رغم قلة عددها وعدتها، وكثرة عدوها وشدته، سوى هذه الثلة التي ملأت قلوبها إيماناً بالله وحباً له، واعتماداً عليه^(١).

وقد أكدت دراسة علمية أن الإيمان بالله عز وجل والمحافظة على الصلاة وأداء الزكاة والصدقات وصوم رمضان والعمرة والحج وقراءة القرآن الكريم، علاج فعال لكل الأمراض النفسية التي قد تصيب الإنسان، وقد أجرت الدراسة الباحثة شاهيناز مليباري بعنوان (الوقاية والعلاج من الأمراض النفسية في ضوء السنة النبوية) حيث حصلت بها الباحثة على درجة الماجستير من جامعة أم القرى^(٢).

وفي دراسة علمية مماثلة أجراها الباحث صالح بن إبراهيم الصنيع بعنوان (العلاقة بين مستوى التدين والقلق العام) على عينة من طلاب

(١) الاضطرابات النفسية بين نظريات الطب النفسي وحقائق القرآن الكريم، د. أحمد محمد شعبان، موقع

النفسى ٢٦ أبريل ٢٠١٢م.

(٢) انظر: القرآن الكريم علاج فعال للأمراض النفسية، موقع النفسى ٣ مارس ٢٠٠٩م.

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، حيث تبين من خلال نتائج الدراسة أن هناك علاقة عكسية بين التدين والقلق، لذا خرج بتوصيات مفادها زيادة نصيب المواد الشرعية في الجامعة لما لها من أثر إيجابي على رفع مستوى التدين وعلى خفض مستوى القلق لدى الطلاب، ويتم ذلك بالحث على أداء العبادات الواجب منها والنافلة، والإكثار منها واتباع هدي النبي ﷺ في جميع أمور الدنيا والآخرة^(١).

كيفية التعامل مع مرضى الوسواس القهري:

ونظراً لشدة معاناة مرضى الوسواس القهري الديني فسأفردنا بالحديث:

أعراض الوسواس القهري:

١. وجود وساوس في هيئة أفكار أو اندفاعات، أو مخاوف.
٢. أفعال قهرية في هيئة طقوس حركية مستمرة أو دورية، وعادة ما تسبب الأفكار القهرية قلقاً ومعاناة شديدة، ويقوم المريض بالأفعال القهرية للتخفيف من آلام الأفكار.
٣. تيقن المريض بتفاهة هذه الوسواس ولا معقوليتها، ومعرفته الأكيدة أنها لا تستحق منه هذا الاهتمام.
٤. محاولة المريض مقاومة هذه الوسواس، ولكن مع طول مدة المرض قد تضعف هذه المقاومة.
٥. إحساس المريض بسيطرة هذه الوسواس وقوتها القهرية عليه، مما يترتب عليه شلله الاجتماعي، وآلام نفسية وعقلية شديدة^(٢).

(١) انظر: العلاقة بين مستوى التدين والقلق العام، د. صالح بن إبراهيم الصنيع، موقع الألوكة ١٦/٥/٢٠٠٧م.

(٢) انظر: تعريف الوسواس القهري وخصائصه، د. محمد محمد فريد، موقع النفسي ٢٢ فبراير ٢٠٠٧.

والوساوس قد تحدث في عبادات الشخص، كما تحدث أو تعتري الشخص في شؤون حياته الدنيوية^(١).

مثاله في العبادات: كتكرار المصلي لتكبيرة الإحرام أو قراءة الفاتحة، أو تكرار غسل عضو من الأعضاء أثناء الوضوء، أو تكرار الوضوء كاملاً، وعلى ذلك سائر العبادات كالشك في الطلاق. أو في الصوم إلى غير ذلك. أما مثاله في غير العبادات: فمثل تكرار التأكد من غلق محابس الغاز، أو غلق الأبواب مرات عديدة، أو تكرار غسل اليدين مرات كثيرة، بعد لمس جسم مثل مقابض الأبواب، حتى مع عدم وجود حاجة لغسل اليدين، ولكن هناك ما يدفعه لذلك الفعل بسبب الأفكار التي تهيمن على عقله^(٢). وفي دراسات علمية تبين أن الوسواس الدينية تمثل غالبية الوسواس لدى العرب والمسلمين^(٣).

الأسلوب الدعوي في التعامل مع مريض الوسواس القهري:

يختلف الموسوس عن الضال أو المنحرف فكرياً، في أن الموسوس يحترق ويتألم من شدة المعاناة، ويشتكى حاله إلى العلماء، كما أنه ربما يخفيها أحياناً خجلاً منها، أو كي لا يكفره الآخرون، نظراً لعدم إدراكهم لحقيقة معاناته، أما المنحرف فكرياً فإنه ينافح ويناضل من أجل إثبات فكرته للآخرين، وهي لا تقلقه، بل تتوافق مع أفكاره وميوله^(٤).

(١) انظر: العلاج من الوسواس في ضوء الكتاب والسنة، الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ص ٦.

(٢) انظر: الوسواس القهري مرض نفسي أما أحاديث شيطانية، أ. د. طارق الحبيب، ٢١ - ٢٤.

(٣) انظر: تعريف الوسواس القهري وخصائصه، د. محمد فريد، ٢٢ فبراير ٢٠٠٧م.

(٤) انظر: الوسواس القهري مرض نفسي أما أحاديث شيطانية، أ. د. طارق الحبيب ص ٢١ - ٢٤، وانظر

لذا صرح العلماء - رحمهم الله - في الطريقة المثلى في التعامل معه، لعلمهم بحقيقة معاناته يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - : (يبشر المبتلى بالوسواس من وجه أنه إنما ابتلي به لقوة إيمانه، ويريد الشيطان أن يضعف هذه القوة)^(١).

أما الإمام النووي - رحمه الله - فقال في شرح أحاديث الوسوسة: (أما معاني الأحاديث وفقهاها فقولہ ﷺ : "ذلك صريح الإيمان ومحض الإيمان" معناه: استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً، وانتفت عنه الريبة والشكوك ...

وقيل معناه: أن الشيطان إنما يوسوس لمن أيس في إغوائه، فينكد عليه بالوسوسة لعجزه عن إغوائه)^(٢).

أما الإمام ابن القيم - رحمه الله - فبين كيد الشيطان للإنسان في إضلاله، وإفساد دينه حيث قال: (ومن كيده العجيب: أنه يشام النفس حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها، قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟

فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام، أخذ في تشبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به، وثقله عليه، وهون عليه تركه، حتى يتركه جملة، أو يقصد فيه ويتهاون به.

المسؤولية الدينية لمريض الوسواس القهري، أ. د. محمد المهدي، موقع مجازين.

(١) العلاج من الوسواس في ضوء الكتاب والسنة، الشيخ ابن عثيمين، ص ١٧.

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم، ج ١ ص ٤٣٣.

وإذا رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده المأمور ويوهمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة، فيقصر بالأول، ويتجاوز بالثاني. كما قال بعض السلف: ما أمر الله سبحانه بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر.

وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين:
 وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل منهم جداً الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.
 فقوم قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحدّ بالوسواس^(١).

وقد ذكر أ. د. طارق الحبيب أنه يجب عدم لوم الموسوس على وسواسه، فإن ذلك لا يد له به، بل إن لومه يزيد من قلقه، الذي هو العامل وراء ظهور الوسواس. والوسواس تزيد القلق، وهكذا فيظل الموسوس يطوف في دائرة مغلقة من القلق والوسواس حتى تنهكه الهوموم^(٢).

(١) إغاثة اللفهان في مصائد الشيطان، ابن القيم، ج ١ ص ١٨٤.

(٢) انظر: الوسواس القهري مرض نفسي أم أحاديث شيطانية، أ. د. طارق الحبيب، ص ٢٩.

أسباب الوسواس القهري:

من أسباب الإصابة بالوسواس القهري:

١ - أسباب مرضية:

حيث ذكر الأطباء أن التجارب العلمية أثبتت بأنها بسبب اختلال في مستوى الناقلات العصبية في الدماغ^(١).

٢ - الجهل بالشرع هو من أسباب تأثر المريض بالوسواس. والجهل المسبب للوسواس الدينية ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: جهل بالفروع والأحكام الشرعية الجزئية.

بمعنى أن الجهل يكون في مسألة شرعية بعينها أو أكثر، وليس في

القواعد الشرعية الكلية التي ينتظم تحتها عدد كبير من المسائل.

مثاله: ظن الموسوس أن المضمضة في الفم تفسد الصائم، فيظل يجفف فمه

بعد المضمضة بطريقة وسواسية واضحة، خوفاً من إبطال صومه، ولا يدري أن

الأثر المتبقي بعد إخراج الماء من الفم لا يفسد الصوم، وهذا النوع غالباً ما تزول

وسوسته بمجرد معرفة حكم المسألة، فتراه يقلع فوراً عن أفعاله الوسواسية.

القسم الثاني: جهل بالأصول والقواعد الشرعية الكلية، التي تضم

تحتها عدداً كبيراً من المسائل الجزئية.

مثاله: قاعدة (اليقين لا يزول بالشك)^(٢) إذا جهلها الإنسان أو جهل

(١) انظر: مفاهيم خاطئة للمرض والعلاج النفسي، أ.د. فائق الزغاري، طبيب نفسي دوت كوم، وانظر

أسباب الوسوسة القهرية، أ.د. وائل أبو هندي ١٦/١٢/٢٠١٠م، موقع مجانين، وانظر أسباب الأمراض النفسية ويكيبيديا.

(٢) انظر: القواعد الفقهية وما تفرع عنها، للشيخ صالح السدلان، ص ٩٧.

معناها والتبست عنده بمعنى الاحتياط والورع، تراه يجهد نفسه بترك كل ما ورد إليه الشك - بدليل أو بغير دليل - ويبتل أعماله دون موجب، وهو يظن أن ما يفعله من الاحتياط وترك ما يريب، فتراه يتوضأ لأي إحساس بخروج شيء منه، ولا يعلم أن وضوءه الذي تيقن وجوده لا يزول بمجرد الشك، وإنما لا بد من وجود ناقض يقيناً.

وهذا النوع إذا نهته على حكم مسألة يوسوس فيها تركها بصعوبة بالغة، لأن تركها يعارض الأصل المعرفي المختل عنده، وتراه ينتقل إلى فكرة وسواسية أخرى تتناسب مع ذلك الأصل المختل عنده، وعبثاً قصره عن وسواسه إن لم تصحح المفهوم الكلي المختل عنده^(١).

أساليب السيطرة على الوسواس القهري:

١ - وقف التفكير بالفكرة الوسواسية:

وهذا سبقت الإشارة إليه حيث تم الاستشهاد بحديث النبي ﷺ في الصحيحين: "يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول من خلق ربك، فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته"^(٢).

وفي الحديث الآخر قال رسول الله ﷺ: "لا يزال الناس يتساءلون حتى يُقال: هذا، خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله"^(٣).

(١) انظر: منهج الفقهاء في التعامل مع الوسواس القهري (٤)، أ. رفيف الصباغ، موقع مجازين.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، حديث (٢١٢ - ١٣٤) ج ١ ص ١١٩.

حيث جاء الإرشاد النبوي بوقف التفكير (فلينته)، حيث أن وقف التفكير بالفكرة الوسواسية وعدم الاستجابة لها من العوامل المهمة لشفاء مريض الوسواس القهري، من وجهة نظر النظرية النفسية^(١).

والنبي ﷺ ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى فطبه ﷺ يعد حقيقة ليس للتجربة والقياس، وإنما ثابت بالوحي، وقد تحدث عن ذلك الإمام ابن القيم في نسبة طبه ﷺ إلى طب الأطباء فإن طب النبي ﷺ متيقن قطعي إلهي صادر من الوحي ومشكاة النبوة^(٢).

٢ - دفع الفكرة الوسواسية بما يضادها:

لقد ورد في الأحاديث السابقة أن علاج الوسواس يكون بأمرين:

- الانتهاء ووقف التفكير.

- دفع الفكرة بما يضادها.

كما ورد في حديث: (فليستعذ بالله ولينته).

وما يضاد الفكرة هو قوله فليقل (آمنت بالله) ويفهم من الأحاديث التي وردت في الوسوسة أنه يجب دفع الفكرة الوسواسية، فمن جاءته أفكار في العقيدة، وأنه كافر كرر عبارة آمنت بالله أو قرأ سورة الإخلاص وتفكر بما فيها من معاني التوحيد.

ومن جاءته فكرة وسواسية في عباداته كالطهارة أو الصلاة، كرر ما يضاد الفكرة فإذا كانت الفكرة ما تطهرت يقول بلى تطهرت وهكذا...^(٣).

(١) انظر: الوسواس القهري "القفل والمفتاح" د. أحمد عيد منندى، أ. د. طارق الحبيب، مركز مطمئنة الطبي.

(٢) انظر: زاد المعاد، ج ٤ ص ١١.

(٣) انظر: منهج الفقهاء في التعامل مع الوسواس القهري أ. رفيف الصباغ (١١) موقع مجانين.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إلى ذلك حيث قال: (إن النبي ﷺ أمر العبد أن يقول: آمنت بالله، وفي رواية ورسوله، فهذا من باب دفع الضد الضار بال ضد النافع؛ فإن قوله آمنت بالله"، يدفع عن قلبه الوسواس الفاسد .. فأمر النبي ﷺ العبد أن يقول: "آمنت بالله" أو "آمنت بالله ورسوله" فإن هذا القول إيمان، وذكر الله يدفع به ما يضاد من الوسوسة القاذحة في العلوم الضرورية الفطرية، ويشبهه هذا الوسواس الذي يعرض لكثير من الناس في العبادات حتى يشككه هل كبراً أو لم يكبر؟ وهل قرأ الفاتحة أم لا؟ وهل نوى العبادة أم لم ينوها؟ وهل غسل عضوة في الطهارة أو لم يغسله فيشككه في علومه الحسية الضرورية ..

وهذا الوسواس يزول بالاستعاذة وانتهاء العبد، وأن يقول إذا قال: لم تغسل وجهك؟ بلى قد غسلت وجهي، وإذا خطر له أنه لم ينو، ولم يكبر، يقول بقلبه بلى قد نويت وكبرت، فيثبت على الحق، ويدفع ما يعارضه من الوسواس، فيُرى الشيطان قوته وثباته على الحق، فيندفع عنه، وإلا فمتى رآه قابلاً للشكوك والشبهات، مستجيباً إلى الوسواس والخطرات، أورد عليه من ذلك ما يعجز عن دفعه، وصار قلبه مورداً لما توحيه شياطين الإنس والجن من زحرف القول، وانتقل من ذلك إلى غيره، إلى أن يسوقه الشيطان إلى الهلكة^(١).

٣ - إرشاد المريض بالوسواس القهري (الديني) إلى أقوال العلماء المعتمدة فيما يعانيه:

ولأن المريض بالوسواس القهري الديني إنما أدى به إلى الوسواس حرصه

(١) درة تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج ٣ ص ٣١٦ - ٣١٧.

الشديد للوصول للأكمل والأفضل، بسبب حبه للخير وإتقان العبادة^(١). فإن مما يفيد إزالة ما عنده من لبس أو جهل بذكر أقوال العلماء الربانيين، ليزول بذلك إشكاله فكلما كان الإرشاد دينياً كلما كان أبلغ في التأثير عليه^(٢).

وقد ثبت أهمية وفاعلية تصحيح الأفكار وتعديلها - العلاج المعرفي السلوكي - في علاج الوسواس القهري، وأثر ذلك في إحداث تغييرات في المخ تماثل التغييرات الكيميائية التي تحدثها الأدوية^(٣).

وقد كانت هذه القضية محل اهتمام علماء المسلمين على مر العصور، بل قبل ذلك التوجيه النبوي في علاجها، والذي استنبط منه الفقهاء أحكامهم الفقهية الخاصة بمرض الوسواس القهري. وسوف أذكر بعض النماذج على ذلك:

- منه ما جاء في بدائع الصنائع: (ومن أيقن بالطهارة وشك في الحدث فهو على الطهارة، ومن أيقن بالحدث وشك في الطهارة فهو على الحدث، لأن اليقين لا يبطل، لشك ... وإن كان يعرض له ذلك كثيراً لم يلتفت إليه، لأن ذلك وسوسة، والسبيل في الوسوسة قطعها، لأنه لو اشتغل بذلك لأدى إلى ألا يتفرغ لأداء الصلاة، وهذا لا يجوز .. وإن كان الشيطان يريه ذلك كثيراً - أي البلل - ولم يعلم أنه بول أو ماء مضى على صلاته،

(١) انظر: العلاج من الوسواس في ضوء الكتاب والسنة، الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -، ص ١٦.

(٢) انظر: العلاج بتأمل ذكر الله، أ. د. رامي طه.

(٣) انظر: منهج الفقهاء في التعامل مع الوسواس القهري (١)، أ. رفيع الصباغ، موقع مجانين، وأسلوب تعديل

التفكير، أ. د. رامي طه.

ولا يلتفت إلى ذلك، لأنه من باب الوسوسة فيجب قطعها، وقال النبي ﷺ: "إن الشيطان يأتي أحدكم فينفخ من أليتيه، فيقول: أحدثت أحدثت، فلا ينصرفن حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً" (١) (٢).

- وجاء في المغني: (ويستحب أن ينضح على فرجه وسراويله، ليزيل الوسواس عنه، قال حنبل: سألت أحمد، قلت أتوضأ وأستبرئ، وأجد في نفسي أني قد أحدثت بعد. قال: إذا توضأت فاستبرئ، وخذ كفاً من ماء فرشاه على فرجك، ولا تلتف إليه، فإنه يذهب إن شاء الله، وقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: "جاءني جبريل، فقال: يا محمد إذا توضأت فانتضح" (٣) (٤).

(١) بحث عن هذا الحديث بهذا اللفظ في الكتب التسعة فلم أجده، ولكن وجدته بالفاظ أخرى قريبة عند البخاري في كتاب الوضوء، باب لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، ج ١ ص ٤٣، وعند مسلم حديث (٣٦١) ج ١٠ ص ٢٧٦؛ وعند أبي داود برقم (١٧٦)، وعند الترمذي برقم (٧٤) وعند الإمام أحمد، ج ٢ ص ٣٣٠، وعند النسائي برقم (١١٥) وابن ماجه برقم (٥١٣).

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الإمام علاء الدين الكاساني، ج ١ ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الطهارة، باب ما جاء في النضح بعد الوضوء، حديث رقم (٥٠) ج ١ ص ٧١؛ وابن ماجه في كتاب الطهارة، باب ما جاء في النضح بعد الوضوء، حديث رقم (٤٦١) ج ١ ص ١٥٧؛ والحديث ضعفه الألباني (انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة، حديث رقم (١٣١٢) ج ٣ ص ٤٧٧. وقال بعد حكمه على هذا الحديث أن هناك رواية للحديث عن زيد بن حارثة قال: قال رسول الله ﷺ: (علمني جبرائيل الوضوء، وأمرني أن أنضح تحت ثوبي لما يخرج من البول بعد الوضوء)، وإسناد هذه الرواية (حسن). (انظر: المرجع السابق، ج ٣ ص ٤٧٨)، وهذه الرواية عند أحمد، ج ١ ص ١٦١؛ وابن ماجه (٤٦٢).

(٤) المغني، لابن قدامة المقدسي، ج ١ ص ٢١٣.

- و جاء في الفواكه الدواني: (باب في الغسل: وفي كلام الفاكهاني والشيخ داود أنه لا بد من تحقق إيعاب جميع الجسد ولا يكفيه غلبة الظن، لأن الذمة عامرة لا تبرأ إلا بيقين ما لم يكن مستنكحاً^(١).. وأقول: الذي يظهر من كلامهم في الصلاة والوضوء وفي مواضع متعددة من وجوب بناء المستنكح على الأكثر عند الشك، أي في الركعات أو الغسلات)^(٢).

وكذلك الفقهاء المعاصرون اهتموا ببيان هذا الأمر، نظراً لكثرة الاستفتاءات في هذا الشأن. وقد جُمعت بعض فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - في علاج الوسواس في كتيب باسم "العلاج من الوسواس في ضوء الكتاب والسنة"^(٣).

وكذلك توجد فتاوى لكبار العلماء في هذا الشأن ولأهمية هذا الموضوع والحاجة الماسة إلى علاجه ألفت رسالة دكتوراه باسم "أحكام المريض النفسي في الفقه الإسلامي"^(٤).

(١) (المستنكح): المغلوب (انظر: القاموس المحيط، مادة نكح، ص ٣١٤).

(٢) الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، للشيخ أحمد بن غنيم النفراوي الأزهرى المالكي، ج ١ ص ٢٣٤.

(٣) الكتيب من إعداد عبدالكريم بن صالح المقرن، طبع دار القاسم للنشر.

(٤) هذه الرسالة من إعداد: د. خلود بنت عبدالرحمن المهيزع - كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

المبحث الرابع

العوامل المؤثرة في استجابة المريض النفسي

رغم أهمية ما ذكر من أساليب يخاطب بها المريض النفسي، فإنه لا بد أن يصاحب ذلك عوامل مساعدة تجعل المريض يتقبل من الداعية ومن هذه العوامل:

١ - حسن المعاملة وإظهار الاهتمام به، وقد ذكر الإمام ابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد (فصل في هديه ﷺ في علاج المرضى بتطبيب نفوسهم وتقوية قلوبهم)، ذكر فيه: (وقد تقدم في هديه ﷺ أنه كان يسأل المريض عن شكواه، وكيف يجده، ويسأله عما يشتهي، ويضع يده على جبهته، وربما وضعها بين ثديه، ويدعو له، ويصف له ما ينفعه في علته، وربما توضعاً وصباً على المريض من وضوئه، وربما كان يقول للمريض: (لا بأس طهور إن شاء الله) ^(١)، وهذا من كمال اللطف، وحسن العلاج والتدبير) ^(٢).

ومن اللطائف الجميلة فيما ذكر ابن القيم - رحمه الله - من هديه ﷺ من لمس المريض ووضع يده على جبهته أو بين ثديه، ما ذكره د/ محمد إبراهيم حجازي عن فوائد اللمس للمريض، حيث ذكر أنه يزيد إنتاج هرمون الأندروفين في الجسم، وهذا الهرمون يسمونه بهرمون النمو، وتحسين

(١) أخرجه البخاري في كتاب المرضى، باب عيادة الأعراب ج ٧ ص ٦.

(٢) زاد المعاد لابن القيم، ج ٤ ص ١١٧.

الحالة المزاجية ومقاومة الاكتئاب، ويرى الخبراء أن له فوائد صحية كثيرة من بينها التعجيل بشفاء المرضى^(١).

وهذا نوع من العلاج التدميمي الذي يستخدمه الأطباء النفسيون من خلال إقامة علاقة ود مع المريض، تسمح للمريض بالإفشاء عن متاعبه والآمه، والتحدث عن بعض مشاكله وأحزانه دون خوف، وهذا سر النجاح الذي يلاقيه بعض الأطباء والمعالجين^(٢)، وأسلوب التدميم هذا يستخدم في أغلب مدارس العلاج النفسي، لأن مجرد الاهتمام الذي يديه المعالج بالاستماع للمريض والاهتمام به وبمشكلاته هو نوع من القبول والتدميم^(٣).

٢ - مساعدة المريض فيما يريد القيام به من التزامات، ولكن لا يقوم بها نيابة عنه لكي لا يؤثر ذلك سلباً في شعوره تجاه نفسه^(٤).

٣ - تجنب لوم المريض أو إشعاره بأنك مسؤول عن حالته، وتجنب إتهامه بضعف الإيمان، أو نقص اليقين^(٥).

٤ - أن يكون لدى الداعية إلمام كامل بكيفية التعامل الصحيح لإرشاد المريض النفسي، والتعلم يكون من خلال دورات في الإرشاد النفسي والتي يعلن عنها من خلال الإنترنت، وكذلك وجود كم هائل من الكتب والمقالات الطبية والنفسية والشرعية التي تزيد من حصيلة الداعية العلمية وقدرته العملية التطبيقية .

(١) تحسين الحالة المزاجية ورفع الروح المعنوية للمريض، د. محمد إبراهيم حجازي، موقع البرلس ٢٤/٨/٢٠١٠م.

(٢) انظر: فن ومهارات العلاج النفسي، أ. د. رامي طه.

(٣) انظر: أسلوب التدميم والمكافأة، أ. د. رامي طه.

(٤) انظر: الاكتئاب النفسي، أ. د. عبدالله السبيعي، موقع النفسي، ١٦ إبريل ٢٠٠٩م.

(٥) انظر: المرجع السابق.

٥ - إن تعديل أفكار وسلوك المريض النفسي، وتبني أنماط وعادات صحية وإيجابية راسخة ومستمرة، لن يحدث إلا من خلال التحول من الثقافة الوعظية، وعلوم الكلام إلى التدريب والتطبيق العملي لعلوم سلوكية إسلامية عصرية تطبيقية جديدة^(١).

٦ - مساعدة المريض في علاج نفسه، فإن ذلك يورث ثقة في نفس المريض، ويعينه في الاعتماد على ذاته. وقد أصبحت العديد من مدارس العلاج النفسي الحديثة تعترف بأن الإنسان قادر على توجيه سلوكه من خلال المعرفة الواعية، والتدريب المنظم على تعديل أفكاره وسلوكه طبقاً لقواعد العلاج النفسي الحديثة^(٢).

(١) انظر: تطبيقات عملية لمنهج الرسول ﷺ في تعديل السلوك وتغيير العادات، أ. د. رازم طه.

(٢) انظر: فن ومهارات العلاج النفسي الذاتي، أ. د. رازم طه.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
 نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الدعاة الربانيين إلى الله تعالى يضطلعون بمسؤوليات عظيمة في توجيه الناس وإرشادهم إلى دين الله عز وجل، ينتجهون بذلك نهج رسول الهدى والرحمة ﷺ الذي لم يكن من هديه الدعوة إلى دين الله فقط، دون أن تكون هذه الدعوة مصحوبة بالإحسان إلى الناس وتقديم المساعدة والعون لهم، ومن ذلك اهتمامه ﷺ بالمريض في زيارتهم، وتطبيب خواطرهم وإرشادهم إلى كل ما يساعدهم في تجاوز المحنة التي يمرون بها. وقد كان هذا البحث (المسؤولية الدعوية تجاه المريض النفسي) جهد مقل في جمع مادة علمية حول المريض النفسي، ووصف معاناته وتقديم الأساليب العلاجية التي تعينه في هذا الوقت العصيب الذي يمر به، وهو رسالة موجهة إلى المهتمين بالدعوة، في لفت النظر إلى معاناة المرضى النفسيين، والسبل العلاجية التي يمكن استخدامها من خلال الجمع بين رؤية علماء الشريعة وأطباء النفس، وقد خرجت من هذا البحث بعدد من النتائج منها:

- ١- أن نسب من يعانون من الأمراض النفسية غير قليلة، حسب الدراسات المسحية التي قامت بها منظمة الصحة العالمية، ووزارة الصحة بالمملكة العربية السعودية.
- ٢- أن أكثر الأمراض النفسية انتشاراً الاكتئاب والأرق والوسواس القهري، وتوهم المرض، واضطراب نوبات الدعر.

- ٣- أن هناك علاقة تأثير متبادلة بين صحة النفس، وصحة الجسم.
- ٤- أن للاهتمام بدعوة المريض النفسي دوافع مهمة تجدر العناية بدعوة المريض من أجلها.
- ٥- أن للتعامل مع المريض النفسي أساليب يمكن الاستفادة منها في الدعوة، وهي خلاصة دراسات وأبحاث شرعية وطبية نفسية منها:
- أسلوب التطمين والدعم.
 - إرشاد المريض إلى التداوي.
 - مساعدة المريض على التحكم والسيطرة على تفكيره.
 - توجيه المريض إلى قراءة القرآن الكريم وتدبره والاستشفاء به.
 - إرشاد المريض إلى الذكر والدعاء.
 - إرشاده إلى الإيمان بالله تعالى وأداء العبادات، وأن فيها شفاء من الأمراض النفسية.
 - أن هناك أساليب مستمدة من السنة النبوية في علاج الوسواس القهري.
 - إرشاد مريض الوسواس القهري إلى ما يهمه من أمور عقيدته وعباداته، من خلال اطلاعه على أقوال وفتاوى علماء الأمة المعتمدين.
- ٦- أن الاهتمام بالمريض وحسن معاملته من العوامل المؤثرة في استجابته.
- ٧- أن لمساعدة المريض فيما يود القيام به، دون أن يكون ذلك نيابة، عنه أثراً في استجابة المريض وازدياد ثقته بنفسه.
- ٨- أن المريض النفسي يجب أن لا يلام على تصرفاته، ويجب عدم اتهامه بضعف الإيمان.

٩- أن تعديل أفكار وسلوك المريض النفسي، لن يحدث إلا من خلال التحول من الثقافة الوعظية وعلوم الكلام، إلى التدريب والتطبيق العملي لعلوم سلوكية إسلامية عصرية تطبيقية جديدة.

وهذه بعض التوصيات التي خرجت بها:

- أن الاهتمام بالمريض النفسي ودعمه، هو واجب دعوي يجدر بالدعاة الاهتمام والعناية به نظراً لعظم المصيبة التي قد يقعون بها والتي قد تؤدي إلى الكفر أو الانتحار.
 - العناية ببحث كل ما يستجد من وسائل وأساليب علاجية ينتفع بها الدعاة والمرضى النفسيين، مع ربط هذه الدراسات بالشرع.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

المراجع والمصادر

- ١- أحكام المريض النفسي في الفقه الإسلامي. د/ خلود بنت عبدالرحمن المهيزع.
- ٢- إحياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون ذكر الطبعة وتاريخ الطبع.
- ٣- إغاثة اللفهان في مصائد الشيطان. لابن قيم الجوزية تحقيق محمد عفيفي - المكتب الإسلامي - ١٤٠٩هـ.
- ٤- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع. علاء الدين الكاساني طبع دار الكتب العلمية - بيروت - الثانية - ٢٠٠٣م.
- ٥- تفسير القرآن العظيم. عماد الدين إسماعيل بن كثير - طبع مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة - ١٤١٣هـ.
- ٦- التفسير القيم لابن القيم. جمع محمد أويس الندوي وتحقيق محمد حامد الفقي - طبع دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - بدون تاريخ.
- ٧- تيسير الكريم الرحمن تفسير كلام المنان - عبدالرحمن بن سعدي، تحقيق محمد النجار - طبع مطابع الدجوي - القاهرة - بدون تاريخ.
- ٨- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي. ابن قيم الجوزية - طبع مكتبة الرياض - ١٣٩٢هـ.
- ٩- درء تعارض العقل والنقل شيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق: د/ محمد رشاد سالم - طبع جامعة الإمام - الطبعة الثانية ١٤١١هـ.
- ١٠- الأذكار للنووي. للنووي تحقيق عبدالقادر الأرنؤوط طبع مكتبة الملاح دمشق ١٣٩١هـ.
- ١١- زاد المعاد في هدي خير العباد. ابن قيم الجوزية. تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط. طبع مؤسسة الرسالة - الطبعة ٢٧ - ١٤١٤هـ.

- ١٢- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة. محمد ناصر الدين الألباني، طبع مكتبة المعارف - الرياض - الأولى ١٤٠٨هـ.
- ١٣- سنن أبي داود. أبو داود سليمان بن الأشعث طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية ١٤١٣هـ.
- ١٤- سنن ابن ماجه. أبي عبدالله محمد بن يزيد - طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية ١٤١٣هـ.
- ١٥- سنن الترمذي. محمد بن عيسى بن سورة - طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية ١٤١٣هـ.
- ١٦- سنن النسائي. أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب - طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية ١٤١٣هـ.
- ١٧- شرح النووي لصحيح مسلم. النووي. تحقيق: عصام الصباطي - حازم محمد - عماد عامر - طبع دار أبي حيان - الأولى ١٤١٥هـ.
- ١٨- صحيح البخاري. أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري - طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية ١٤١٣هـ.
- ١٩- صحيح مسلم. مسلم بن الحجاج - تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي - طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية ١٤١٣هـ.
- ٢٠- العلاج من الوسواس في ضوء الكتاب والسنة. محمد بن صالح العثيمين - إعداد عبدالكريم بن صالح المقرن - طبع دار القاسم - الأولى ١٤١٨هـ.
- ٢١- عون المعبود على سنن أبي داود. محمد أشرف بن العظيم أبادي - طبع بيت الأفكار الدولية - بدون ذكر رقم الطبعة والتاريخ.
- ٢٢- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء. جمع وترتيب أحمد بن عبدالرزاق الدويش طبع مكتبة المؤيد - الخامسة ١٤٢٤هـ.
- ٢٣- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ابن حجر العسقلاني - طبع دار الريان للتراث - القاهرة - الثانية ١٤٠٩هـ.

- ٢٤- فتح القدير. محمد بن علي الشوكاني - طبع دار الفكر - بيروت ١٤٠٣هـ.
- ٢٥- الفواكه الدواني على رسالة أبي يزيد القيرواني. الشيخ أحمد الشيخ النفراوي - تحقيق عبدالوارث محمد علي - طبع دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى ١٤١٨هـ.
- ٢٦- القاموس المحيط. الفيروز آبادي - طبع مؤسسة الرسالة - بيروت - الثانية ١٤٠٧هـ.
- ٢٧- القواعد الفقهية وما تفرع عنها. الشيخ صالح السدلان - دار بلنسية - الرياض - الأولى ١٤١٧هـ.
- ٢٨- قواعد أساسية في البحث العلمي. د. سعيد إسماعيل حسني - طبع مؤسسة الرسالة - الأولى ١٤١٥هـ.
- ٢٩- مجموع فتاوى ومقالات متنوعة. سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - جمع د/ محمد بن سعد الشويعر - طبع دار المؤيد - الأولى ١٤٢١هـ.
- ٣٠- مدارج السالكين. الإمام ابن قيم الجوزية - تحقيق محمد المعتصم البغدادي - طبع دار الكتاب العربي - الثانية ١٤١٤هـ.
- ٣١- المسند. الإمام أحمد بن حنبل طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية ١٤١٣هـ.
- ٣٢- المغني. الإمام ابن قدامة المقدسي - تحقيق د/ عبدالله التركي. د/ عبدالفتاح الخلو - طبع دار هجر - الأولى ١٤١٠هـ.
- ٣٣- الموافقات في أصول الشريعة. لأبي إسحاق الشاطبي - طبع دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ.
- ٣٤- الوسواس القهري مرض نفسي أم أحاديث شيطانية. أ. د. طارق الحبيب - الأولى ١٤٢٤هـ.

المواقع الإلكترونية

- ١- صحيفة الرياض الإلكترونية. www.alriyadh.com.
- ٢- صحيفة عكاظ الإلكترونية. www.okaz.com.
- ٣- ويكيبيديا الموسوعة الحرة. ar.wikipedia.org.
- ٤- موقع المستشار. www.almostshar.com.
- ٥- موقع طبيب نفساني. tabibnafsany.com.
- ٦- موقع النفسي. www.alnafsy.com.
- ٧- منتديات الإسلام اليوم. Muntada.islamtoday.net.
- ٨- منتدى أ.د طارق الحبيب. www.prof - alhabeeb.com.
- ٩- موقع استشارات نفسية. www.islamweb.net.
- ١٠- موقع أ.د رامز طه. www.rameztaha.net.
- ١١- موقع معرفي. العلاج المعرفي السلوكي. www.cbtarabia.com.
- ١٢- موقع أكاديمية علم النفس. www.acofps.com.
- ١٣- شبكة عابرون الثقافية. www.abroon.net.
- ١٤- مجازين - الشبكة العربية للصحة النفسية الاجتماعية. www.maganin.com.
- ١٥- موقع مفكرة الإسلام. www.islammemo.cc.
- ١٦- موقع طريق الإسلام. ar.islamway.com.
- ١٧- موقع أطفال الخليج. www.gulfkids.com.
- ١٨- موقع الألوكة. www.alukah.net.
- ١٩- موقع البرلس. albrolos.com.
- ٢٠- منتديات د/ نبيل سفيان للإرشاد النفسي. www.dr - nbeel.com.

البحث رقم (٤)

تعزيز ثقافة وقف الوقت

إعداد

د. خالد بن هدوب المهيدب

الأستاذ المشارك في قسم الدراسات الإسلامية

جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونَنَّ إِلَّا وَآنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَنَجَدٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ءَاتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ءَ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ (٣) (٤).

أما بعد

فالوقف يعد أحد أهم الموارد الاقتصادية التي تضخ لسد احتياجات الأمة في كافة الميادين والخدمات التي تحتاجها ، وفي أوج حضارة الأمة الإسلامية كان الوقف هو المظلة التي تغطي جل احتياجات الدولة في كافة المجالات، وتسابق الواقفون لبذل جزء من أصول أموالهم وتخبيسها ؛ ليصرف ريعها على أعمال البر والإحسان المتنوعة (كالبيمارستانات) (٥) والمدارس

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء الآية ١.

(٣) سورة الأحزاب الآيات ٧٠-٧١.

(٤) خطبة الحاجة، كما سماها العلماء وقد أثبت الشيخ/ محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله- صحة بعض طرقها. انظر:

خطبة الحاجة- محمد ناصر الدين الألباني- ص(٣-١٤) المكتب الإسلامي - بيروت ط٣-١٣٩٧هـ.

(٥) البيمارستانان: لفظة فارسية استعملها العرب، ومعناها مجتمع المرضى، لأن "بيما" معناه: المرض. "وستان"

هو الموضوع (مقصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل -محمد الأمين المحيبي -تحقيق د. عثمان الصيني-

١/٣٢٠ - ط١-١٤١٥هـ- مكتبة التوبة -الرياض).

والأريطة^(١) والمكتبات وحلق العلم ، وبذل العلماء وأهل الجود والإحسان رجالاً ونساءً جل أوقاتهم للتعليم ونشر الدعوة وبذل الخير والمعروف للغير وهو ما يندرج تحت ما يسمى حديثاً بـ "وقف الوقت".

فهذا المصطلح كان للأمانة العامة للأوقاف بالكويت قصب السبق في تطهيره من خلال تبني مشروع "وقف الوقت"^(٢) الذي يهدف لاستقطاب المتطوعين وحثهم على الانخراط في مجال العمل الخيري لأجل دعم مسيرة التنمية الاجتماعية وتوسيع آفاقها في بناء المشاريع الإنتاجية.

وبالتالي فإن بذل جزء من الوقت واستقطاعه ؛ للإسهام في الأعمال التطوعية متعددة النفع يعد من "وقف الوقت" المندوب، فالحاجة قائمة لأن يفيد كل منا مجتمعه وأمته بما تيسر من وقت يقتطعه من يومه أو أسبوعه أو شهره ؛ ليسهم من خلال مهنته أو حرفته أو منصبه أو مكانته الاجتماعية أو الدعوية لتقدم نفع ومصلحة للمحتاجين عن طريق المؤسسات والجمعيات الخيرية والدعوية والطبية والمهنية، والحاجة مازالت قائمة لتوسيع مفهوم "وقف الوقت" لدى كافة شرائح المجتمع والشباب على وجه الخصوص.

ويأتي هذه البحث إسهاماً في تسليط الضوء على مفهوم ثقافة "وقف الوقت" وفق رؤية دعوية معاصرة.

(١) الرباط: اسم المكان الذي يلزمه الجند لحراسة ثغور البلاد الإسلامية من الأعداء، فهو مصطلح يطلق على نوع من الثكنات العسكرية التي يربط فيها المجاهدون.

(٢) انظر: موقع الأمانة العامة للأوقاف بالكويت.

التعريف بأبرز مصطلحات الدراسة:

الثقافة في اللغة:

جاء مصطلح (الثقافة) في اللغة العربية على معان عدة منها: الحدق والفتنة، وسرعة أخذ العلم وفهمه، والتهذيب، وتقويم المعوج من الأشياء، ومنها ثقفت الشيء أثقفه ثقافة وثقوفة إذا حدقته ومنه أخذت الثقافة بالسيف، وثقفت الرجل إذا ظفرت به . وفي التنزيل: ﴿فَمَا تَثَقَّفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن حَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ (٥٧) ، الأنفال: ٥٧ .^(١)

الثقافة في الاصطلاح:

نظراً لحداثة مصطلح "الثقافة" فقد تباينت التعريفات حوله ولعل أجمعها ما أقره المجمع اللغوي الذي عرف الثقافة بأنها: "جملة العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحدق به"^(٢) .

كما أن علماء الغرب أيضاً لهم رؤية حول مصطلح "الثقافة" فكل يعرفه من الزاوية التي يراها ولعل أقرب التعريفات ما ذكره إدوارد تايلور (١٨٣٢-١٩١٧) " بأنها " ذلك الكل المعقد الذي ينطوي على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف والعادات وغير ذلك من القدرات التي حصل عليها الفرد بوصفه عضواً في مجتمع "^(٣) .

(١) انظر: جبهة اللغة ، تحقيق : رمزي منير بعلبكي ٤٢٩/١ الطبعة : الأولى.

(٢) دراسات في الثقافة الإسلامية ، د. رجب سعيد شهوان وآخرون ، ص ٨ ، مكتبة الفلاح - الكويت ط ٢ ، عام ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

(٣) علم الاجتماع ومدارسه ، د. مصطفى الخشاب ، ص ١٨٩ ، ط ١٣٨٧ هـ ، دار الكاتب العربي بمصر .

الوقف :

الوقف لغة: أصل الوقف: الحبس والمنع، والوقف مصدر وقف، والجمع أوقاف يقال: وقفت الدار وقفًا حبستها في سبيل الله^(١). فالوقف: تحبيس في الابتداء وتسبيل للمنفعة على الدوام.

الوقف في الاصطلاح الشرعي : "تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة"^(٢)، وهذا التعريف مأخوذ من قول النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه (احبس أصلها وسبل ثمرتها)^(٣). "ويقصد بذلك حبس العين عن تملكها لأحد من العباد والتصدق بالمنفعة على الفقراء أو على وجه من وجوه البر"^(٤).

تعريف الوقت : يُعرف الوقت بأنه: المقدار من الدهر^(٥) وبالتالي فإن الوقت وفق هذا التعريف يعنى المقدار المقتطع من الزمن قصيراً كان أم طويلاً.

ولكون الوقت يعد من المنافع التي لها أثر مادي ؛ فعلى هذا يمكن أن يعرف **وقف الوقت:** بأنه بذل المرء جزءاً من وقته لعمل تطوعي يؤديه في مجال من مجالات البر والإحسان.

(١) التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ص ٣٢٨ ، . المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، للعلامة أحمد المقرئ الفيومي، مادة وقف ٦٦٩/٢، ط ١٣٢٤ هـ. وزارة المعارف المصرية.

(٢) المنع في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل الشيباني، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، ٣٠٧/٢ بدون تاريخ طبع، نشر المؤسسة السعيدية ، الرياض ، السعودية.

(٣) صحيح ابن حبان ٢٦٢/١١ .

(٤) الوقف في الشريعة والقانون ، زهدي يكن، ص ٧ دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

(٥) القاموس المحيط ، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ١ / ٢٠٨ ، دار النشر : مؤسسة الرسالة، بيروت.

أهمية الموضوع :

تكمن أهمية موضوع الدراسة في أن الوقف في الشريعة الإسلامية بمفهومه الواسع يندرج ضمنه جملة من المنافع التي يسوغ وقفها ومنها "الوقت" الذي يعد في أصله ذا قيمة معنوية تنقلب إلى قيمة مادية تعود بالنفع والفائدة على الجهة التي يوقف الوقت لها ، ولكون المؤسسات والجمعيات الخيرية عامة والدعوية على وجه الخصوص تعاني من نقص شديد في الكوادر والطاقات البشرية المؤهلة نتيجة لعدم قدرتها على استقطابهم وتوظيفهم لضعف الموارد المالية ، فقد رأيت مناسبة تسليط الضوء على موضوع (تعزيز ثقافة وقف الوقت "دراسة دعوية مقارنة") سعياً في الافادة منه وتوظيفه لخدمة العمل التطوعي بشكل عام والدعوي على وجه الخصوص مع الوقوف على جهود الغرب وبذلهم وتوظيفهم لهذا المبدأ في مجال التنصير .

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تأصيل مفهوم "وقف الوقت" ونشر ثقافته والوقوف على التجارب المميزة لدى الغرب في هذا الباب وتوظيفها دعويّاً "فالحكمة ضالة المؤمن".

مشكلة البحث :

تكمن مشكلة البحث في غياب التأصيل الشرعي لمفهوم "وقف الوقت" وحاجة المؤسسات الدعوية لطاقات بشرية تسد ما تعانيه من نقص في كوادرها لتتمكن من قيامها برسالتها الدعوية.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والتقصي عن الدراسات التي لها علاقة بموضوع الدراسة لم أقف على دراسة علمية أو بحث تناول موضوع الدراسة الذي يعد من المواضيع التي تتسم بالجددة والابتكار.

سوى مقالات صحفية تناولت مصطلح "وقف الوقت" بشكل عام^(١).

تساؤلات الدراسة:

على ضوء المشكلة البحثية المذكورة سابقاً يمكن تحديد التساؤلات التي تسعى الدراسة إلى الإجابة عنها وفق الآتي:

ماهي مشروعية وقف الوقت؟

ما حكم وقف الوقت؟

ما تطبيقاتوقف الوقت في التاريخ الإسلامي؟

تطبيقات وقف الوقت لدى الغرب؟

ماهي تطبيقات وقف الوقت في المؤسسات الدعوية؟

تقسيمات الدراسة:

المقدمة: وتحتوي على: التمهيد، وأهداف الدراسة، ومصطلحات

الدراسة، وإجراءات الدراسة، وتقسيماتها.

المبحث الأول: مشروعية وحكم وقف الوقت.

المطلب الأول: مشروعية وقف الوقت في القرآن الكريم

(١) منها مقال للباحث بعنوان "وقف الوقت: نشر بصحيفة الرياض، العدد ١٥٥٠٢، الصادر يوم الجمعة ٢٧

ذي الحجة ١٤٣١ هـ - ٣ ديسمبر ٢٠١٠م.

المطلب الثاني : مشروعية وقف الوقت في السنة النبوية

المطلب الثالث : حكم وقف الوقت

المبحث الثاني : تطبيقات وقف الوقت :

المطلب الأول : تطبيقاتتوقف الوقت في التاريخ الإسلامي

المطلب الثاني : تطبيقاتتوقف الوقت لدى الغرب

المطلب الثالث : تطبيقات وقف الوقت في المؤسسات الدعوية

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

سائلاً الله - تبارك وتعالى - العون والتوفيق...

المبحث الأول

مشروعية وحكم وقف الوقت

المطلب الأول

مشروعية وقف الوقت في القرآن الكريم

تواترت النصوص في كتاب الله تعالى في الحث على بذل الخير للغير وقد كان الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه أول من سخروا أوقاتهم وجهودهم وما يملكون لأجل إيصال دعوة الحق للحلق ونفع العباد طلباً لمرضاة الله - عز وجل - فنوح عليه السلام أول أولي العزم من الرسل قال لقومه كما جاء في كتاب الله الكريم: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٧٣) ^(١). ويقول - سبحانه وتعالى - عنه أيضاً ﴿ وَيَقَوْمٍ لَا سَأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ (٢) وفي حق نبي الله هود - عليه السلام - يقول تعالى: ﴿ وَيَقَوْمٍ لَا سَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٥١) ^(٣). وتكرر قول الله تعالى: ﴿ وَمَا سَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٨) ^(٤) على السنة الأنبياء (هود، وصالح، ولوط، وشعيب، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

(١) سورة يونس ، آية: (٧٢).

(٢) سورة هود، آية: (٢٩).

(٣) سورة هود، آية: (٥١).

(٤) سورة الشعراء، آية: (١٠٩).

وجاء على لسان مؤمن آل ياسين حث قومه على الاستجابة لقبول الدعوة بقوله: ﴿ أَتَسِعُوا مِنْ لَأَيْسَتُلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (١١) ﴿١﴾.

وفي حق نبينا محمد ﷺ يرشده الله عز وجل لأن يقول للمشركين ما أسألکم على هذا البلاغ ، وهذا النصح أجراً تعطوني إياه من عرض الحياة الدنيا ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٨٦) ﴿٢﴾.

قال ابن كثير - رحمه الله - : أي على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى (٣).

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - : وتعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك بغير أجرة لم يتنازع العلماء في أنه عمل صالح فضلاً عن أن يكون جائزاً بل هو من فروض الكفاية فإن تعليم العلم الذي بينه فرض على الكفاية (٤).

وفي قول الله تعالى : ﴿ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾.

قال شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - : وأما قوله تعالى ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ (٥) فوالله الذي لا إله إلا هو إن فعل الخير

(١) سورة يس، آية: (٢١).

(٢) سورة ص، آية: (٨٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن عمر بن كثير ٣/٢٢٣-٢٢٤ ، دار الفكر - بيروت - ١٤٠١.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، أحمد عبد الحلیم بن تيمية الحزاني ، ٣٠ / ٢٠٥ ، مكتبة ابن تيمية،

ط ٢ ، جمع : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم.

(٥) سورة الحج، آية: (٧٧).

اتباع ما شرع الله وإبطال من غير حدود الله والإنكار على من ابتدع في دين الله هذا هو فعل الخير المعلق به الفلاح (١).

وفي هذا دلالة على إفساح المجال للتسابق في أبواب البر والإحسان ومنها بذل "وقف الوقت" في مرضاة الله عز وجل وخدمة دينه وتقديم الخير للغير.

(١) مؤلفات محمد بن عبد الوهاب ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب ١/٨٥، الناشر : جامعة الإمام محمد بن سعود - الرياض ، تحقيق : عبد العزيز زيد الرومي ، د. محمد بلتاجي ، د. سيد حجاب.

المطلب الثاني

مشروعية وقف الوقت في السنة النبوية

حفلت سنة المصطفى ﷺ بنصوص عديدة ترغب في بذل الوقت

والجهد للغير لنيل رضى الله تبارك وتعالى ومن ذلك :

- ما رواه الإمام مسلم عن سالم عن ابيه أن رسول الله ﷺ قال : « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة »^(١).

- وعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: « كلُّ معروفٍ صدقةٌ »^(٢).

- وما رواه أيضاً عن أبي هريرة ؓ ، عن النبي ﷺ قوله : « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »^(٣).

يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - : فالإنسان إذا كان في حاجة أخيه وأعان أحاه في قضاء دينه، في الشفاعة له في حاجة، في علاجه، في إعطائه الدواء، في نقله بالسيارة إلى الطبيب، في غير هذا من الحاجات، فإن الله - جل وعلا - وعده أن يكون في حاجته، وأن يقضي

(١) رواه مسلم في باب المؤاخاة ح ٢٥٨٠ ، جزء ٤ / ١٩٩٦ ، المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ ، الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، - الطبعة تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) رواه البخاري في باب كلُّ معروفٍ صدقةٌ ح ٥٦٧٥ ، ٥ / ٢٢٤١ ، الجامع الصحيح المختصر ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي ، دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧ ، ط ٣ ، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا .

(٣) رواه مسلم ، في باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٤ / ٢٠٧٤ ، ح ٢٦٩٩ .

حاجته؛ كما قضى حاجة أخيه، ووعد بالعون - سبحانه وتعالى - . فالمؤمنون إخوة يتعاونون في حاجاتهم المباحة، وحاجاتهم الشرعية، وكل إنسان له أجر في عون أخيه، في حاجته الدنيوية والدينية جميعاً. أما المعصية فلا يعينه عليها ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(١)، ولكن يعينه في المباح ؛ كالعلاج ونحو ذلك، وفي المشروع؛ كإعانتته على صلاة الجماعة، إعانتته على الحج، إعانتته على الجهاد، إعانتته على بر والديه، على صلة أرحامه، إلى غير هذا من وجوه الخير، هو مأجور على هذه الإعانة^(٢).

وبهذا يتبين أن استقطاع جزء من الوقت لبذل خير أو معروف للخلق أو دلالة عليه يندرج ضمن "وقف الوقت" .

(١) سورة المائدة آية (٢).

<http://www.binbaz.org.sa/mat/11375>

(٢) موقع سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

المطلب الثالث

حكم وقف الوقت

يعد الوقف ذا قيمة معنوية ومادية معتبرة في حق باذله ، وبالتالي فإنه يعد من المنافع التي يجوز وقفها وقد قرر مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد في دورته التاسعة عشرة في إمارة الشارقة (دولة الإمارات العربية المتحدة) في الفترة ما بين ٢٦ - ٣٠ نيسان (أبريل) ٢٠٠٩ بعد اطلاعه على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص وقف الأسهم والصكوك والحقوق المعنوية والمنافع، عدة قرارات.

ومن هذه القرارات أن الوقف يعد من أوسع أبواب الفقه التي تقوم على الاجتهاد، وهو تصرف معقول المعنى مرتبط بمقاصد الشرع، مبتغاه تحقيق مصالح الوقف للمواقف والموقوف عليهم.

وقد بين المجمع أن النصوص الشرعية الواردة في الوقف مطلقة يندرج فيها المؤبد والمؤقت، والمفرز والمشاع، والأعيان والمنافع والنقود، والعقار والمنقول، لأنه من قبيل التبرع وهو موسع ومرغوب فيه.

يقول أ.د. محمد بن عبدالغفار الشريف^(١) : اختلف العلماء في وقف المنفعة، وهي ما يتحصل من الأعيان من فائدة، أو من الأشخاص من عمل أو جهد فالجمهور على المنع، وأجاز المالكية ذلك، لأنه لا يشترط عندهم تأييد الوقف انطلاقاً من قوله ﷺ : (إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا

(١) أستاذ الفقه والأصول بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت.

من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له^(١) ،
والخلاف في وقف المنفعة ، وقد ابتكرت الأمانة العامة للأوقاف مشروع
وقف الوقت، لأن الحديث الشريف نص على العلم، وهو يعتمد على
الوقت وبذل الجهد، سواءً في التعليم أو التأليف وكذلك ذكر الولد الصالح،
وهو يحتاج إلى وقت وجهد في تربيته، وتعليمه، ورعايته وفكرة وقف الوقت
هو تخصيص جزء من وقتك للتطوع في خدمة المجتمع^(٢).

وبالتالي فإن الشريعة الإسلامية برحابتها تقر مشروعية "وقف
الوقت" وتحفز على المسارعة في بذل الخير للغير وتقديم المعروف كما قال
سبحانه : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْحَيْرَاتِ ﴾^(٣).

(١) رواه مسلم كتاب الوصية- باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٢٥٥/٣ ح ١٦٣١.

(٢) انظر موقع أ.د محمد بن عبدالغفار الشريف :

<http://www.dralshef.net/Print.aspx?SectionID=4&RefID=506>

(٣) جزء من آية (١٤٨) سورة البقرة.

المبحث الثاني

تطبيقات وقف الوقت

المطلب الأول

تطبيقات وقف الوقت في التاريخ الإسلامي

يزخر كتاب الله الكريم وسنة رسول الله ﷺ بشواهد تبرز لنا تأصيل مبدأ وقف الوقت وبذله طلباً للأجر والمثوبة من الله تعالى ، فبني الله موسى عليه السلام طبق مبدأ بذل الخير للخير لابنتي الرجل الصالح اللتين منعهما الحياء من مخالطة الرجال فتطوع لخدمتهما كما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا نَسْفِي حَتَّىٰ يَصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ (١).

وسيرة النبي ﷺ تشتمل على شواهد تبرز مدى حرصه - عليه الصلاة والسلام - على تربية أصحابه رضوان الله عليهم على بذل أوقاتهم وأرواحهم؛ لأجل نشر الرسالة وتعليم العباد ومن ذلك ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا : أن ابعث معنا رجلاً يعلمونا القرآن والسنة ، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم القراء فيهم خالي حرام يقرؤون القرآن ، ويتدارسون بالليل يتعلمون ، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به

(١) سورة القصص، آية: (٢٣ - ٢٤).

الطعام لأهل الصفة والفقراء، فبعثهم النبي ﷺ إليهم فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان فقالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا قال: وأتى رجل حراماً خال أنس من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه فقال حرام: فزت ورب الكعبة فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: إن إخوانكم قد قتلوا وإنهم قالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا^(١).

وباستقراء سيرة سلفنا الصالح - رضوان الله تعالى عليهم - نقف على أنهم قضوا جل حياتهم خدمة للدين تعلماً وتعليماً وبذلاً للخير والمعروف للعباد .

يقول الحافظ السخاوي - رحمه الله -^(٢) في معرض وصفه لأهل الصفة^(٣) - ومحلها المسجد النبوي - : "قوم أخلاهم الحق سبحانه وتعالى عن الركون لشيء من العروض وعصمهم من الافتتان بما عن المفروض، رفضوا الدنيا فلا يرجعون إلى ضرع ولا إلى زرع، ولا لسائر ما يثير الغل والحقد والحسد وسوء الطبع؛ بحيث كانوا هم الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع

(١) رواه مسلم في باب ثبوت الجنة للشهيد ح ٦٧٧، ٣ / ١٥١١ .

(٢) هو الشيخ العلامة الرحالة الحافظ محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن بكر بن عثمان بن محمد الملقب بشمس الدين أبو الخير وأبو عبدالله، ابن الزين - أو الجلال - أبي الفضل وأبي محمد، السخاوي الأصل نسبة إلى (سخا) بمصر القاهري مولدًا الشافعي، مذهبًا ولد في ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة بالقاهرة له مصنفات عديدة توفي سنة خمسة وتسعين وثمانمائة. انظر: رجحان الكفة في بيان نبذة من أخبار أهل الصفة للسخاوي، تحقيق أبي عبيدة مشهور آل سليمان وأبي حذيفة الشقيرات، ص ٣٤-٦٧ .

(٣) أمثال أبي هريرة وعبد الله بن مسعود وحذيفة ابن اليمان وغيرهم. انظر: تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدنية الشريفة والقرى الشريف ١ / ٢٧٩، محمد بن أحمد بن محمد ابن الضياء المكي الحنفي تحقيق: علاء إبراهيم، أبن نصر، ط ٢ دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م .

عن ذكر الله، وقفوا أنفسهم المطمئنة لسماع العلم وضبط السنة^(١).
فالعلماء والدعاة هم أهل السبق في ميدان "وقف الوقت" ومن النماذج
على سبيل المثال:

فمن العلماء المتقدمين الذين أوقفوا أوقاتهم على طلب العلم والتعليم
شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - الذي استفرغ عمره كله ليلاً ونهاراً ،
صيفاً وشتاءً ، حلاً وترحالاً في طلب العلم فكان يدور على المشايخ حتى
دار على أكثر من مئة عالم ، وجادل مع أرباب المقالات، وزار أهل
التخصصات، كل ذلك وهو يلم ويحوى ما عندهم ويجمع ما لديهم، فتراه
مكرراً لما يحفظ، أو متأملاً، أو كاتباً، أو مناقشاً، أو مناظراً، أو مجادلاً أو
مفيداً، أو مدرساً، أو مؤلفاً، أو مراسلاً، فكانت حياته علماً وعملاً، فابن
تيمية ليس له أسرة يقوم عليها، ولا أبناء يشتغل بتربيتهم، ولا تجارة يهتم
بها، ولا وظيفة يقوم عليها، ولا منصب يزاوله، إنما شأنه وقضيته الكبرى هذا
العلم وتعلمه، وتعليمه، والعمل به^(٢).

"وكان الإمام أبو عبد الرحمن السلمي التابعي الجليل يقول لما يروى
هذا الحديث عن عثمان : هذا الذي أقعدني مقعدي هذا، يشير إلى كونه
جالساً في المجلس الجامع بالكوفة يعلم القرآن ويقرئه مع جلاله قدره وكثرة
علمه، وحاجة الناس إلى علمه ، وبقي يقرئ الناس بجامع الكوفة أكثر من
أربعين سنة وعليه قرأ الحسن والحسين -رضي الله عنهما-^(٣).

(١) انظر: رجحان الكفة في بيان نبذة من أخبار أهل الصفة، العلامة الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي -
تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان وأبي حذيفة أحمد الشقران، ص ٨٨-٨٩، ط ١ -
١٤١٥هـ/١٩٩٥ - دار السلف للنشر والتوزيع-الرياض.

(٢) انظر : علي ساحل ابن تيمية، د، عاض بن عبدالله القرني ص ٦٨، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، دار العبيكان.

(٣) النشر في القراءات العشر ، الحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري ٣/١ ، دار
النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ، تحقيق : علي محمد الضباع.

"وجاء في ترجمة أبي الحسن الداراني القطان المتوفى سنة (٤٠٢) هـ إمام جامع دمشق الشرقية أنه كان يقرء بشرقي الرواق الأوسط ، ولا يأخذ على الإمامة رزقاً ولا يقبل ممن يقرأ عليه براً ويققات من غلة أرض له بداريا، ويحمل ما يكفيه من الحنطة ويخرج بنفسه إلى الطاحون فيطحنه ثم يعجنه ويخبزه^(١).

كما كان للنساء في تاريخنا إسهام بارز في باب "وقف الوقت" من خلال تنوع الإسهام في مجالات عدة أهمها : تعليم القرآن الكريم :

فقد كانت أم الحسن صفية بنت الحارث من أهل اليمن وكان يسار يعلم القرآن في أول المسجد وكانت صفية تعلم القرآن في آخر المسجد^(٢) . كما أن ولاية القضاء نالت نصيباً في هذا الباب فقد كان شريحة عريضة من القضاة الذين رشحوالتقلد هذه الولاية لا يتقاضون أي مقابل على قيامهم وتصدرهم لهذا العمل الجليل مبتغين بذلك وجه الله سبحانه وتعالى أمثال "مسروق"^(٣) و"سحنون"^(٤) وعثمان بن طلحة بن عمر بن عبيدالله بن معمر التيمي^(٥) و"القاسم بن معن بن عبد الرحمن"^(١) والقاضي نجم الدين الجهني الشافعي المعروف بابن البارزي^(٢).

(١) انظر : معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ٣٦٦/١ - ٣٦٧، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٤ ، ط١ ، تحقيق : بشار عواد معروف ، شعيب الأرنؤوط ، صالح مهدي عباس.

(٢) أخبار القضاة ، محمد بن خلف بن حيان ٥/٢ ، دار النشر : عالم الكتب - بيروت.

(٣) المصنف ، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ٢٩٧/٨ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٣ ، ط٢ ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي.

(٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، لأبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي ١ / ٣٤٧ ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ، ط١ ، تحقيق : محمد سالم هاشم.

(٥) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي ٨ / ٣١٤ ، دار النشر : دار صادر - بيروت - ١٣٥٨ ، ط١.

فهؤلاء وغيرهم من سلف الأمة تسابقوا إلى "وقف أوقاتهم" لبذل الخير والمعروف والإحسان للغير في مجالات حيوية متنوعة تحتاجها الأمة ، فحازوا بعملهم وبذلهم خيري الدنيا والآخرة.

(١) تذكرة الحفاظ ، لأبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي ١ / ٢٣٩ ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط ١ .
(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي ٧ / ٣٦٢ ، الناشر : وزارة الثقافة والإرشاد القومي - مصر.

المبحث الثاني

تطبيقات لاوقف الوقت لدى الغرب

يمارس الأفراد والمؤسسات في العالم الغربي فكرة "وقف الوقت" من خلال ما يعرف بالعمل التطوعي حيث يبادر الفرد من تلقاء نفسه باقتطاع جزء من وقته (يوميًا أو خلال الإجازات الأسبوعية أو الرسمية أو على فترات متقطعة) لتقديم خدمات تطوعية أو مهنية تفيد المجتمع من خلال مؤسسات المجتمع المدني.

كما يمكن أن تمارس الشركات والمؤسسات والقطاعات والمستشفيات الأهلية في مجال "وقف الوقت" من خلال إفساح المجال أمام منسوبيها باقتطاع جزء من أوقاتهم لتقديم الخدمات التخصصية للمنشأة لصالح المؤسسات الخيرية والمحتاجين من أفراد المجتمع.

وقد تجلّى الاهتمام بالعمل التطوعي القائم على "وقف الوقت" من خلال الاحتفال السنوي للعمل التطوعي الذي اعتمد من قبل الأمم المتحدة حيث يحتفل متطوعو العالم بيومهم العالمي ليكون اليوم الذي يكرم فيه العالم رموز العمل التطوعي، ودعم دور المتطوعين في التنمية الشاملة للمجتمعات، وفي تحقيق الأهداف الإنمائية للألفية الثالثة.

ويهدف هذا اليوم إلى تحفيز المشاركة المجتمعية، وإلى إيجاد سياسات تشجع الأعمال التطوعية وتسهم في توسيع الأنشطة التطوعية، وإلى الاعتراف بأهمية دور العمل التطوعي في تنمية المجتمعات اجتماعيًا واقتصاديًا.

في هذا اليوم تُطرح وتُبدشّن المبادرات والمساهمات المؤسساتية الحكومية والأهلية والدولية والفردية الاقتصادية والاجتماعية، على كافة المستويات المحلية والعالمية، ويعمل الجميع منظمات وأفراداً يداً بيد لتحقيق أهدافهم المشتركة في كافة مجالات العمل التنموي والإنساني، وفي مواجهة الكوارث والحروب والمجاعات والفقر والامية والجهل.

ويشهد العمل التطوعي القائم على "وقف الوقت" في البلاد الغربية نمواً مطرداً فقد أظهرت

أبرز الإحصائيات في الولايات المتحدة الأمريكية: تطوع أكثر من ٩٤,٢ مليون شخص. وأن معدل ما تطوع به الفرد الواحد ٤,٢ ساعة أسبوعياً. ومجموع عدد الساعات التي قدمها المتطوعون ٢٠,٥ بليون ساعة. وأن معدل ساعات التطوع موازياً لعمل ٩ ملايين موظف.

وقد بلغ مجموع ما تطوع به من وقت قيمة ١٧٦ بليون دولار أمريكي. وتقام هناك دورات وندوات عن أهمية هذا العمل، وألفت له العديد من الكتب، ويسمى المتطوعون هناك «وعد الأمة» أو «مستقبل الأمة».

وفي بريطانيا: ٢٢ مليون شخص يشاركون بالتطوع الرسمي كل عام. عشرة ملايين شخص يتطوع كل أسبوع بما يساوي ٩٠ مليون ساعة عمل. وتقدر القيمة الاقتصادية للتطوع بـ ٤٠ بليون جنيه استرليني سنوياً. وأن ستة من عشرة من المتطوعين قالوا: إن التطوع قدم لهم فرصة تعلم مهارات جديدة. و ٩٠٪ من السكان يتفقون على أن مفهوم المجتمع الذي يتطوع

أفراده هو مجتمع يعني بعضه ببعض. و ٨٠٪ من الناس يرفضون فكرة كون المتطوع أقل كفاءة من الموظف العامل بأجر^(١).

ويشار إلى أن العاملين في المجال التطوعي يتميزون عن غيرهم بالجدية والمثابرة مما جعل أرباب العمل يسعون لاستقطابهم ، فقد أشارت دراسة أجراها تايم بانك (Time Bank) عام ٢٠٠٨ على مئتي مؤسسة رائدة في المملكة المتحدة (بريطانيا) إلى أن: ٧٣٪ من أرباب العمل يفضلون توظيف شخص له خبرة في مجال العمل التطوعي على غيره. و ٩٤٪ من أرباب العمل يعتقدون أن العمل التطوعي قد يضيف لمهارات الموظفين.

و ٩٤٪ من الموظفين الذين تطوعوا ليتعلموا مهارات جديدة، استطاعوا تحسين وظائفهم ورواتبهم أو تمت ترقيتهم فيما بعد^(٢).

كما أننا نقف على أرقام مذهلة في مجال التطوع ووقف الوقت من قبل المتطوعين النصارى الذين يساهمون ببذل جزء من أوقاتهم وإجازاتهم؛ للتوغل في أصقاع شتى من أقطار العام الاسلامي لأجل الدعوة للنصرانية ، فهناك (٤) مليون موظف، و ١٣ ألف مكتبة، و ٢٢ ألف مجلة بلغات العالم^(٣).

فالحملات التنصيرية تنطلق من مفهوم خيرى في تنصير العالم، وغالباً من يقوم عليها ميدانياً متطوعون. وتزيد نفقاتها السنوية عن ثلاث مئة

(١) مقالة بعنوان "نشر ثقافة التطوع" د. فهد بن عبدالرحمن السويدان، جريدة الجزيرة العدد ١٤٣٧٥ الصادر يوم الإثنين ١٤ ربيع الأول ١٤٣٣هـ.

(٢) انظر : مقالة : العمل التطوعي أجر وصل مهارة ومآرب أخرى! الكاتب: فريق تحرير البوابة ، موقع بوابة موهبة-<http://www.mawhiba.org/articles/Pages/Details.aspx?str=117,46bc51e2-4c4b-451a-8688-21c444f8fdda>

(٣) انظر : جريدة الرياض ، العدد ٩٤١٢ .

وعشرين مليار (٣٢٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠) دولاراً، حسب آخر الإحصائيات عن نشرة الإرساليات الدولية لعام ٢٠٠٣ م. وتعمل على تنفيذ مشروعات تنموية في إفريقيا وجنوب شرق آسيا، وذلك مثل التدريب والتطبيب والتعليم وشق الطرق، وبناء المؤسسات التنموية، بل ربّما وصل الأمر إلى إنشاء مطارات تستخدمها الحملات التنصيرية لأغراضها التنصيرية وغيرها، وتتيح للأهالي استخدامها كذلك^(١).

كما تم استغلال وتوظيف القنوات الإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية في نشر النصرانية عبر طواقم من المنصرين جندوا لهذا الغرض ، وقد أورد الدكتور/ تركي الظفيري^(٢) في كتابه الفضائيات العربية التنصيرية إحصائيات مذهلة تبرز مدى اهتمام الجهات التنصيرية بهذا الجانب^(٣).

ومن خلال هذا العرض يتبين بجلاء أن الغرب طبق "وقف الوقت" في جميع المجالات التي يحتاجها المجتمع ، وتمكن من سد احتياجاته في المجالات الأكثر حاجة كالصحة والتعليم ، كما أنهم وظفوا مفهوم "وقف الوقت" دينياً حيث تمكنوا من استقطاب المتطوعين للانخراط في قوافل التنصير التي تجوب أقطار العالم وبلاد الأقليات المسلمة سعياً منهم في سلخ المسلمين من دينهم.

(١) انظر: الفضائيات العربية التنصيرية، د. تركي بن خالد الظفيري ، ص ٣٧٥ - ٣٧٨ ، ط١، الناشر: مجلة البيان ١٤٢٨هـ.

(٢) الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الأمير سطاتم بن عبد العزيز.

(٣) انظر: إحصائية التنصير للعام ٢٠٠٣ : ٣٢٠ بليون دولار تبرّعات للأغراض الكنسية، مجلة الكوثر ٣ ع ٤٢ (صفر ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٢م)، ص ٣٤، نقلاً عن نشرة أبحاث التنصير الدولية. International Bulletin of Missionary Research

كما يقول زويمر^(١) رأس المبشرين الغربيين في رسالة للمنصرين: (إن مهمة التنصير التي نذبتكم الدول المسيحية للقيام بها ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية ، وإنما أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لأصله له بالله ، وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها)^(٢) .

ومن خلال هذا العرض يتبين لنا مدى توسع الغرب في تطبيقهم لمفهوم "وقف الوقت" من خلال نشر ثقافة التطوع والتشجيع عليها على مستوى الأفراد والمؤسسات مما جعل من هذا الرصيد الضخم الذي يبذله المتطوعون في كافة المجالات التي يحتاجها المجتمع يدخر لصالح خزانة الدولة ، كما أن المؤسسات والمنظمات التنصيرية نجحت في استقطاب مئات الآلاف من الشباب والفتيات والكوادر المهنية المؤهلة وتحفيزهم ؛ لبذل جزء من أوقاتهم للسياسة في الأرض خصوصاً في بلاد المسلمين التي تعيش تحت وطأة الفقر والجهل كما في آسيا وأفريقيا على وجه الخصوص التي اكتسحتها قوافل التنصير في ظل غياب وضعف الجهود الدعوية للمؤسسات الإسلامية التي عانت من التحجيم بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما تلا ذلك من أحداث استغلت ؛ لتقليص العمل الدعوي بوجه عام.

(١) السموول أو صاموئيل شاتليهلو زويمر من أقطاب التنصير في البلاد العربية. ولد سنة ١٨٦٧م، وتوفي سنة ١٩٥٢م. ويعد رئيس المستشرقين في الشرق الأوسط. تولى تحرير مجلة العالم الإسلامي التي أنشأها مع ماكدونالد، وله آثار في العلاقات بين الإسلام والنصرانية. انظر: نجيب العقيلي. المستشرقون- ١٣٨/٣، ط٤، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م.

(٢) انظر: حزام المواجهة حرب التنصير في افريقيا / جبر الله عمر الأمين ، ومدبولي اسماعيل عثمان مراجعة / د / زغلول النجار ص١٩٤ / ط / الأولى / الدمام / ١٤١٤ هـ أشرف على طباعته / لجنة مسلمي أفريقيا، جذور البلاء ، عبدالله التل- ط ٢- بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. - ص ٢٧٥..

المطلب الثالث

تطبيقات وقف الوقت في المؤسسات الدعوية

يعاني العمل الخيري بشكل عام والدعوي بشكل خاص من قصور من قبل الجمعيات والمؤسسات الخيرية والدعوية في جانب التعريف بأنشطتها ومجالات العمل التي تحتاجها وذلك وفقاً لدراسة حديثة أطلقتها مؤسسة الملك خالد الخيرية^(١). كما برز ضعف ممارسة الشباب الجامعي للعمل التطوعي وفقاً لدراسة علمية^(٢) أجراها الدكتور فهد بن سلطان السلطان^(٣).

ولم أقف على إحصائيات دقيقة تظهر حجم المشاركين في الأعمال التطوعية ونسبهم التي تقع تحت مظلة الجمعيات والمؤسسات الخيرية والدعوية في عالمنا العربي والإسلامي وبالتالي يصعب مقارنتها بنسبتهم في الولايات المتحدة. ولكن المنجزات والمشاريع والبرامج الخيرية والدعوية توضح أن ثقافة العمل التطوعي آخذة في التمدد والازدياد في كافة الأقطار العربية والإسلامية .

ففي المملكة العربية السعودية بدأنا نلمس مزيداً من الاهتمام والعناية بالعمل التطوعي بوجه عام والدعوي على وجه الخصوص .

فعلى سبيل المثال يبلغ عدد المكاتب التعاونية للدعوة والإرشاد ودعوة الجاليات بالمملكة وفقاً لآخر إحصائية رسمية أصدرتها وزارة الشؤون

(١) جريدة الشرق الأوسط العدد (١٣٠٣١) الصادر يوم السبت ٦ / ١٠ / ١٤٣٥ هـ - ٠٢ أغسطس ٢٠١٤ م.

(٢) بعنوان "اتجاهات الشباب الجامعي الذكور نحو العمل التطوعي دراسة تطبيقية على جامعة الملك سعود".

بحث منشور برسالة الخليج العربي - مكتب التربية لدول الخليج العربي (١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م)

(٣) عضو هيئة التدريس بكلية التربية - جامعة الملك سعود.

الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد (٢٤٣) مكتباً في مختلف مناطق المملكة ومدنها وقرائها ويتولى مجالس إدارتها متطوعون بذلوا جزءاً من أوقاتهم للنهوض بأعبائها^(١).

كما تشرف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد على (١٣١) جمعية لتحفيظ القرآن الكريم منتشرة في أنحاء المملكة^(٢) يقوم على إدارة مجالسها محتسبون بذلوا جزءاً من أوقاتهم لإدارة هذه الجمعيات والارتقاء بعملها الدعوي.

وجتمعنا يزخر بطاقات شبابية ومهنية تتوق للإسهام في الأعمال والبرامج التطوعية ولكن تحتاج إلى من يحتويها ويستثمر طاقاتها ويوجهها التوجيه السليم.

وقد برزت في زماننا المعاصر تطبيقات مختلفة من شرائح متنوعة في المجتمع ساهمت بوقف جزء من وقتها خدمة لنشر دين الله تبارك وتعالى وبذلاً للمعروف والخير للغير. فتحت مظلة الرئاسة العامة لشؤون الحرمين نجد أنه " تفرغ قضاة وأعضاء من هيئة كبار العلماء وأساتذة جامعات خلال شهر رمضان للتدريس بالمسجد الحرام وتوعية المعتمرين والإجابة على تساؤلاتهم، إذ يحظى المسجد الحرام بأكثر من ٧٠ شيخاً وعدد من الدروس

(١) انظر : تقييم جهود وزارة الشؤون الإسلامية في مجال دعوة الجاليات في المملكة العربية السعودية من منظور استراتيجي مكاتب دعوة الجاليات في مدينة الرياض نموذجاً ، عبد الله بن محمد بن فطيم الحمادي ص ٣٠، رسالة مقدمة لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في العلوم الاستراتيجية تخصص الدراسات الاستراتيجية ، جامعة نايف للعلوم الأمنية ، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.

(٢) انظر : جريدة الرياض ، الأربعاء ٩ محرم ١٤٣٢ هـ - ١٥ ديسمبر ٢٠١٠م - العدد ١٥٥١٤.

الموزعة طوال فترات اليوم، والتي يدرسها نخبة من العلماء المرابطين في المسجد الحرام طيلة رمضان في مقدمتهم سماحة الشيخ صالح اللحيدان^(١) الذي يدرس طيلة شهر رمضان، والشيخ عبدالرحمن العجلان^(٢)، والذي فرغ نفسه للتدريس بالمسجد الحرام، حيث يدرس العلوم الشرعية بشكل يومي طوال العام، ويحرص الكثير من الطلاب على حضور درسه من كافة دول العالم الإسلامي ومعالي الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد^(٣) وغيرهم من كبار العلماء والدعاة^(٤).

فمجالات التطوع متعددة وطرقه كثيرة وأساليبه لا تحصى ، فلا يجب على المتطوع أن يملك مالا أو سلطة أو أن يؤدي جهداً بدنياً فيكفيه أن يتطوع بوقته ولو ساعة من نهار يقدم فيها للناس فائدة وعملاً ينتفعون منه ويكون له أجر جار .

فالكل يستطيع التطوع بوقته إذا قام بتنظيمه كل في مجال عمله وتخصّصه وخصوصاً مع التوسع في انتشار وسائل التواصل الاجتماعي والتي أصبحت الآن في متناول يد الجميع فتقدم الاستشارات المجانية وتوجيه النصح والإرشاد وحتى لو كتبت تغريده فيها توجيه معين بحسب تخصصك فذلك من التطوع بالوقت^(٥).

(١) رئيس مجلس القضاء الأعلى السابق.

(٢) رئيس محاكم التقصيم السابق.

(٣) رئيس مجلس القضاء الأعلى السابق وإمام وخطيب الحرم المكي.

(٤) جريدة عكاظ العدد (١٧١٢٤) رقم الصفحة (١٢) التاريخ: ١٤٣٤/٩/٦هـ.

(٥) انظر : صحيفة انست. <http://anastnews.com/articles.php?action=show&id=11>

مقالة م/ عثمان محمد بن هاشم ، بعنوان وقف الوقت.

فبذل جزء من الوقت واستقطاعه ؛ للإسهام في الأعمال التطوعية متعددة النفع يعد من "وقف الوقت" المندوب، فالحاجة قائمة لأن يفيد كل مكلف مجتمعه وأتمه بما تيسر من وقت يقطعته من يومه أو أسبوعه أو شهره ليسهم من خلال مهنته أو حرفته أو منصبه أو مكانته الاجتماعية لتقديم نفع ومصلحة للمحتاجين عن طريق المؤسسات والجمعيات الخيرية والدعوية والطبية والمهنية، والحاجة مازالت قائمة لتوسيع مفهوم "وقف الوقت" لدى كافة شرائح المجتمع^(١).

ومن النماذج التطبيقية المشرفة للعمل التطوعي الدعوي بالتعاون مع الجهات والأجهزة الحكومية قيام ٨٠٠ شاب من أهل مكة المكرمة عبر برنامج "شباب مكة في خدمتك" التابع لمشروع تعظيم البلد الحرام بمكة المكرمة للعام العاشر على التوالي، في تقديم الخدمات التطوعية الإنسانية لأهل مكة والوافدين إليها من المعتمرين والزوار، موزعين على أنشطة مختلفة تتمثل في خدمة الطائفين التي تخدم العاجزين والمسنين وذوي الاحتياجات الخاصة بدفع عرباتهم مجاناً، بالتعاون مع الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، حيث يعملون على مدار ٢٤ ساعة يومياً بالتناوب ، ومجموعة أخرى تقوم بمساندة رجال المرور في مواقف كدي، ويساهمون في تنظيم حركة السير وترتيب سيارات المعتمرين وهيئة المداخل والمخارج لها، بالتعاون مع إدارة مرور العاصمة المقدسة، وأخرى تقوم بالتوعية بحق الطريق وفسح المجال للزوار؛ منعاً للتكدس والزحام، بالتعاون مع قوة الأمن الوقائي

بشرطة العاصمة المقدسة ، وتقوم مجموعة أخرى من شباب مكة من كليات الطب بإسعاف المصابين في الحرم بالتعاون مع هيئة الهلال الأحمر السعودي، ونقل المصابين إن كانت الحالات حرجة إلى مستشفى أجياد، إضافة إلى عدد من الحملات التطوعية.

فالبرنامج يهدف إلى تعزيز الأخوة الإيمانية في نفوس الشباب، ونشر ثقافة التطوع في المجتمع المكّي، ويقدم خدمات جلييلة لأهل مكة والوافدين إليها ، وبلغ عدد المستفيدين من أنشطة برنامج "شباب مكة في خدمتك" منذ انطلاقه أكثر من ٦ ملايين مستفيد ولله الحمد؛ وذلك بفضل الله ثم بتعاون شركاء البرنامج من جهات حكومية وأهلية وخيرية^(١).

فهذه النماذج والمشاريع التطوعية في أساسها تقوم على مفهوم "وقف الوقت" تبين لنا بجلاء مدى تفاعل المتطوعين من شرائح وأطياف المجتمع مع مؤسسات الدولة متى ما أفسح المجال وأتيحت الفرصة لتقديم الخدمة ، وبذل الخير للغير طلباً للمثوبة والأجر من الله سبحانه وتعالى.

(١) وفقاً لما ذكره، أ. خالد بن عبدالله الوافي مدير برنامج "شباب مكة في خدمتك" انظر : صحيفة سبق

الغاية

النتائج :

- ١- مشروعية "وقف الوقت" وأنه من المنافع التي يؤجر المسلم على بذلها.
- ٢- أن لتطبيقات "وقف الوقت" شواهد متنوعة في التاريخ الإسلامي.
- ٣- ممارس الغرب لـ "وقف الوقت" من خلال إسهام الأفراد والمؤسسات في العمل التطوعي بمفهومه الواسع.
- ٤- ضعف تطبيقات "وقف الوقت" في المؤسسات الدعوية.
- ٥- حاجة المؤسسات الدعوية لطاقت بشرية تسد ما تعانیه من نقص في كوادرها لتمكّن من قيامها برسالتها الدعوية.
- ٦- أن "وقف الوقت" يسهم في دعم موازنة الدولة والمؤسسات الخيرية بطريقة غير مباشرة من خلال توفير الطاقات البشرية التي تباشر أعمالاً تطوعية خدمية دون مقابل.

التوصيات :

- ١- أن تتولى مؤسسات المجتمع المدني التسويق لمفهوم "وقف الوقت" عبر حملات إعلامية مكثفة لتمكّن من استقطاب الكفاءات والعقول التي تمكّنها من أداء دورها في خدمة المجتمع بصورة أكبر وبكلفة أقل.
- ٢- أن تتبنى وزارة التعليم إدراج مفردات ضمن المقررات الدراسية تتناول الحث على العمل التطوعي وإبراز "وقف الوقت" كأحد موارد الإنتاج في البلد.

- ٣- أن تقدم الوزارات المعنية امتيازات تشجيعية للقطاع الخاص الذي يسهم في تفرغ بعض منسوبيه لتقديم خدمات تطوعية تندرج ضمن "وقف الوقت" .
- ٤- التوسع في إقامة مؤتمرات وندوات علمية وورش عمل تناول إبراز مفهوم "وقف الوقت" وتنوع مجالاته.
- ٥- الاستفادة من التجارب الغربية المميزة في مجال "وقف الوقت" .

المراجع والمصادر

- ١- أخبار القضاة ، محمد بن خلف بن حيان ، دار النشر ، عالم الكتب ، بيروت .
- ٢- السلسلة الصحيحة ، للعلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني .
- ٣- الفضائيات العربية التنصيرية ، د. تركي بن خالد الظفيري ، ط ١ ، الناشر: مجلة البيان ١٤٢٨هـ .
- ٤- القاموس المحيط ، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار النشر : مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- ٥- المستشرقون ،نجيب العقيقي، ط٤ ، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م .
- ٦- المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ، الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت -، الطبعة :، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٧- المصنف ، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٣ ، ط ٢ ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي .
- ٨- تذكرة الحفاظ ، لأبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط ١ .
- ٩- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، لأبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ، ط ١ ، تحقيق : محمد سالم هاشم .
- ١٠- جمهرة اللغة ، تحقيق : رمزي منير بعلبكي الطبعة : الأولى .
- ١١- حزام المواجهة حرب التنصير في افريقيا / جبر الله عمر الأمين ، ومدبولي اسماعيل عثمان مراجعة / د / زغلول النجار ص١٩٤ / ط / الأولى / الدمام / ١٤١٤ هـ أشرف على

- طباعته / لجنة مسلمي أفريقيا، جذور البلاء، عبدالله التل - ط ٢ - بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١٢ - خطبة الحاجة - محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت ط ٣ - ١٣٩٧هـ.
- ١٣ - دراسات في الثقافة الإسلامية، د. رجب سعيد شهوان وآخرون، ، مكتبة الفلاح - الكويت ط ٢، عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ١٤ - رجحان الكفة في بيان نبذة من أخبار أهل الصفة - العلامة الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي - تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان وأبي حذيفة أحمد الشقران - ط ١ - ١٤١٥هـ / ١٩٩٥ - دار السلف للنشر والتوزيع - الرياض.
- ١٥ - صحيح سنن ابن ماجه - أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني - الشيخ ناصر الدين الألباني - ط ١ - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م - مكتبة المعارف - الرياض.
- ١٦ - صحيح مسلم (مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري) تحقيق فؤاد عبد الباقي كتاب الوصية - باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ١٧ - علم الاجتماع ومدارسه، د. مصطفى الخشاب، ط ١٣٨٧هـ، دار الكاتب العربي بمصر.
- ١٨ - على ساحل ابن تيمية للدكتور عائض بن عبدالله القرني، ط ١، الناشر مكتبة العبيكان، الرياض.
- ١٩ - معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي - ٣٦٧، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٤، ط ١، تحقيق: بشار عواد معروف، شعيب الأرنؤوط، صالح مهدي عباس.
- ٢٠ - مقصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل - محمد الأمين المحي - تحقيق د. عثمان الصيني - ط ١ - ١٤١٥هـ - مكتبة التوبة - الرياض.

- ٢١- المقنع في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل الشيباني- موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي- بدون تاريخ طبع- نشر المؤسسة السعودية- الرياض- السعودية.
- ٢٢- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، دار النشر : دار صادر - بيروت - ١٣٥٨ ، ط ١.
- ٢٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي ، الناشر : وزارة الثقافة والإرشاد القومي - مصر.
- ٢٤- النشر في القراءات العشر ، الحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت - ، تحقيق : علي محمد الضباع.
- الوقف في الشريعة والقانون - زهدي يكن - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - لبنان.

الرسائل والبحوث العلمية :

- ١- تقييم جهود وزارة الشؤون الإسلامية في مجال دعوة الجاليات في المملكة العربية السعودية من منظور استراتيجي مكاتب دعوة الجاليات في مدينة الرياض نموذجاً ، عبد الله بن محمد بن قطيم الحمادي ، رسالة مقدمة لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في العلوم الاستراتيجية تخصص الدراسات الاستراتيجية ، جامعة نايف للعلوم الأمنية ، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.
- ٢- "اتجاهات الشباب الجامعي الذكور نحو العمل التطوعي دراسة تطبيقية على جامعة الملك سعود" الدكتور فهد بن سلطان السلطان.

الصحف والمجلات

- ١- جريدة الرياض ، الأعداد : ٩٤١٢ ، ١٥٥١٤ ، ١٦٧٧٢ .
- ٢- جريدة الشرق الأوسط العدد
- ٣- جريدة عكاظ العدد ١٧١٢٤ .
- ٤- جريدة الجزيرة العدد ١٤٣٧٥ .

٥- صحيفة انستة <http://anastnews.com/articles.php?action=show&id=11>

٦- صحيفة سبق الالكترونية ٢ رمضان ١٤٣٥هـ <http://sabq.org/IKegde>

٧- مجلة الكوثر ٣ ع ٤٢ (صفر ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٢م).

المواقع الالكترونية :

١- موقع أ.د محمد بن عبدالغفار الشريف.

<http://www.dralsherif.net/Print.aspx?SectionID=4&RefID=506>

٢- موقع بوابة موهبة.

<http://www.mawhiba.org/articles/Pages/Details.aspx?str=117,46bc51e2-4c4b-451a-8688-21c444f8fdda>

٣- موقع سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز <http://www.binbaz.org.sa/mat/11375>

البحث رقم (٥)

المسؤولية الدعوية للداعي إلى الله تعالى في عيادات التجميل

إعداد

د. لولوة بنت سليمان الغنام

الأستاذ المساعد في قسم الدعوة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة

إن الحمد لله نحمده و نستعينه و نستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ؕ وَلَا تَمُونُوا ؕ إِنَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾^(١) ﴿يَا أَيُّهَا

النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا

اللَّهَ الَّذِي نَسِءَ لَوْنِيهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾^(٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا

اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ؕ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾^(٣)،^(٤).

أما بعد:

فإن من نعم الله على عباده أن شرّع لهم من الدين ما فيه خيرهم وصلاحهم، ومن الأحكام ما يحمي حقوقهم ويرعى واجباتهم، وأمرهم بما

(١) سورة آل عمران، الآية (١٠٢).

(٢) سورة النساء، الآية (١).

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان (٧٠، ٧١).

(٤) خطبة الحاجة "التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه"، أخرجها الإمام ابن ماجه بهذا اللفظ في كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، ح(١٨٩٢)، انظر: سنن ابن ماجه/ (ص٣٢٩)، لأبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني الشهير بابن ماجه، حكم على أحاديثها وأثارها وعلّق عليها المحدث الشيخ: محمد ناصر الدين الألباني، واعتنى بها: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، د:ت. وقد جمع أحاديث خطبة الحاجة وتبع طرقها وأثبت صحتها المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله- في رسالته: خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه/ (ص١٥-٤٣)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ..

فيه قيام معاشهم ومعادهم، كما أمرهم بالتناصح فيما بينهم والدعوة إليه - سبحانه- وهو مما ميز به عباده المؤمنين بسعيهم للخير ونبذهم للشر، وهو قاعدة في الشريعة الإسلامية تشمل كل جوانب الحياة، ومن ذلك المسائل المعاصرة التي يكثر الجهل فيها وتشتد الحاجة فيها إلى الدعاة ذوي العلم كمسائل التجميل، فقد أباحت الشريعة بسماحتها ويسرها ما يحقق للمرأة المسلمة ما جلبت عليه من حب الزينة والتجمل وفق ضوابط تحفظها من الانحراف عن الفطرة السليمة .

ولازال النساء يتحملن بما يستطعن منذ القدم إلا أنه في الوقت الحاضر زاد اهتمام النساء بالتجمل والتزين وخاصة فيما يتعلق بالبشرة والقوام والشعر وغيره مع تطور التقنيات العالمية المستخدمة في هذا المجال، ووفرة العيادات التي تقدم خدماتها بكل وسيلة تجذب النساء نحو إبراز أنوثتهن، وقد رافق ذلك هوسٌ بالجمال عند بعضهن؛ فأصبحت الواحدة لاتتورع عن ارتكاب كبيرة كالنمص والوشم تواعد الله صاحبها باللعن لأجل ذلك.

وفي هذا البحث سأبين بمشيئة الله مسؤولية الدعاة تجاه الدعوة إلى الله في عيادات التجميل، والتي تشمل عدداً من الموضوعات الدعوية التي تستوجب بيانها وتحليلتها للمدعويين من مرتادي هذا الميدان والمهتمين به ؛ وقد خصصت البحث في هذا الميدان لأسباب:

- ضرورة الدعوة إلى الله في عيادات التجميل، لأن الدعوة واجب يجب القيام به صيانة لحق الله ابتداءً بامتنال أمره، ولحماية المجتمعات من الفساد والانحلال الذي يترتب على فساد المرأة.

- كثرة موضوعات الدعوة وتنوعها في عيادات التجميل ما بين الدعوة لستر العورات والتحذير من التبرج والاختلاط والغش والتدليس والخلوات غير الشرعية والإسراف في المال بغير حاجة وغير ذلك.
 - انتشار عيادات التجميل وقوة الدعاية لخدماتها مع إقبال كبير من النساء على زيارتها.
 - جهل كثير من النساء بأحكام التجميل باستخدام تقنيات التجميل الحديثة مما يسهل وقوعهن في المحرم.
 - تجدد خدمات عيادات التجميل وتطورها يوماً بعد يوم يرافقه تجدد في المخالفات الشرعية مما يحدث فيها .
- ولما سبق يأتي هذا البحث لبيان المضامين الدعوية في العيادات التجميلية، ومسئولية الدعاة تجاهها، وقد جاء في ثلاثة فصول وثمانية مباحث كما يلي:

الفصل التمهيدي:

المبحث الأول: المسؤولية الدعوية للداعي إلى الله -تعالى-، تعريفها، ومشروعيتها، وأهميتها.

المبحث الثاني: الضوابط الشرعية في التجميل.

الفصل الأول: المسؤولية الدعوية الشرعية للداعية في عيادات

التجميل

المبحث الأول: التحذير من التبرج والسفور.

المبحث الثاني: التحذير من الاختلاط.

المبحث الثالث: التحذير من الغش والتدليس.

المبحث الرابع: التحذير من كشف العورات.

المبحث الخامس: التحذير من الإسراف بالمال.

الفصل الثاني: المسؤولية الدعوية للداعية تجاه خدمات التجميل.

المبحث الأول: المسؤولية الدعوية تجاه جراحات التجميل.

المبحث الثاني: المسؤولية الدعوية تجاه العناية بالبشرة .

المبحث الثالث: المسؤولية الدعوية تجاه زراعة وإزالة الشعر.

ثم خاتمة حوت أهم نتائج البحث.

أسأل الله التوفيق والسداد، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله

وصحبه أجمعين.

المبحث الأول

المسؤولية الدعوية للداعي إلى الله، تعريفها، ومشروعيتها، وأهميتها

المسؤولية (بوجه عام) : حال أو صفة من يُسأل عن أمر تقع عليه تبعته، وتطلق (أخلاقياً) على : التزام الشخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً^(١).
 وإذا كان تعريف الدعوة هو: «تبليغ الإسلام للناس، وتعليمه إياهم، وتطبيقه في واقع الحياة»^(٢)، فإنه يمكن تعريف المسؤولية الدعوية للداعي إلى الله -تعالى- بأنها: إلتزام الداعي إلى الله سبحانه بتبليغ الإسلام للناس، وتعليمه إياهم، وتطبيقه في واقع الحياة.

وتنطلق المسؤولية الدعوية من نصوص شرعية توجب الدعوة إلى الله -تعالى-، منها قول الله سبحانه: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣)
 ومنها قوله جلّ وعلا: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ بِلَاقِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٤).

(١) انظر: المعجم الوسيط/ص ٤١١، قام بإخراجه: ابراهيم مصطفى، وآخرون، المكتبة الإسلامية، استنبول، تركيا، ط: ٢، د: ٥.

(٢) المدخل إلى علم الدعوة /ص ٤٠، د. محمد أبو الفتح البياتوني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

ومنها قوله عز وجل: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُرْسِكِينَ﴾ (٨٧) (١)

ومن السنة قول رسول الله ﷺ: (بلغوا عني ولو آية..). (٢).

ويقوم بهذا الواجب العظيم الدعاة على مرّ العصور، يحملون همّ الدعوة ويقومون بوظيفة الرسل من الدعوة إلى الله سبحانه، وقد أثنى الله جل شأنه عليهم فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) (٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «الدعوة إلى الله واجبة على من أتبعه (أي الرسول ﷺ) وهم أمته، يدعون إلى الله كما دعا إلى الله...، وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقيين» (٤).

وبين ذلك سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله- فيقول: «وصرح العلماء أن الدعوة إلى الله عز وجل فرض كفاية بالنسبة إلى الأقطار التي يقوم فيها الدعاة. فإن كل قطر وكل إقليم يحتاج إلى الدعوة وإلى النشاط فيها، فهي فرض كفاية إذا قام بها من يكفي سقط عن الباقيين ذلك الواجب، وصارت الدعوة في حق الباقيين سنة مؤكدة وعملاً صالحاً جليلاً.

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، ح(٣٤٦١)، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل. انظر: موسوعة الحديث الشريف (الكتب الستة)/ص٢٨٢، اشراف ومراجعة: صالح بن عبدالعزيز بن محمد بن ابراهيم آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط٣، ١٤٢١هـ.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية/ج١٥/١٦٥، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، وساعده ابنه محمد، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ، د: ط.

وإذا لم يقيم أهل الإقليم أو أهل القطر المعين بالدعوة على التمام صار الإثم عاماً، وصار الواجب على الجميع، وعلى كل إنسان أن يقوم بالدعوة حسب طاقته وإمكانه، أما بالنظر إلى عموم البلاد فالواجب أن يوجد طائفة منتصبة تقوم بالدعوة إلى الله جلّ وعلا في أرجاء المعمورة تبلغ رسالات الله، وتبين أمر الله عز وجل بالطرق الممكنة»^(١).

ولا شك أن الواقع اليوم يستلزم من جميع المسلمين القيام بالدعوة إلى الله -تعالى- كل حسب علمه وطاقته، وذلك لكثرة المنكرات، فالدعوة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دُعي إليه، وذلك هو الأمر به، إذ الأمر هو طلب للفعل المأمور به واستدعاء له ودعاء إليه؛ فالدعاء إلى الله -تعالى- الدعاء إلى سبيله، فهو أمر بسبيله وسبيله تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر»^(٢).

وللدعوة إلى الله -تعالى- شأن عظيم في حفظ المجتمعات، وذلك ببناء الوازع الجماعي الذي يحول دون هتك مبادئ المجتمع المسلم وقواعده وآدابه العامة وأعرافه، ذلك أن للبيئة الاجتماعية أهمية قصوى في سلوك أفراد المجتمع، فإذا كان للمجتمع قواعد مرعية وآداب محفوظة ومبادئ محمية من سلطاته صعب على العصاة الخروج عليها، وترى في أنفسهم الحياء من مخالفة المجتمع والخروج عليه .

(١) الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله- / <http://www.binbaz.org.sa/mat/1769>

(٢) مجموع الفتاوى/ ج١٥/ ١٦٦.

أما إن كانت هذه المبادئ والقواعد منتهكة من غالب أفراد المجتمع، ولم تكن هناك سلطة تسعى للحفاظ عليها، بحجة أن تلك الأمور من الشؤون الخاصة أو الحريات الشخصية، سهل على الأفراد الخوض في المنكرات، بل إن العصاة يغرون الصالحين بسلوك نجههم، لأن الناس يحبون التشبه ببعضهم بعضاً، لذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾^(١).

لذا فإن تحمل الداعي إلى الله -تعالى- تعالى المسؤولية الدعوية بإخلاص وعلم وبصيرة يعمل على استقامة الموازين الاجتماعية واتزان المفاهيم واستقرارها حتى لا ينقلب المنكر معروفاً والمعروف منكراً. وبهذا نجد أن من أشد الأمور خطورة عند غياب الدعوة انتشار المنكرات ثم تواطؤ المجتمع على السكوت عنها ثم قبولها أخيراً! فإذا بلغت المنكرات درجة القبول عند الناس، وذلك بأن يروها أموراً معتادة لا مستنكر لها فضلاً عن الإنكار على مرتكبيها، إذا بلغ الحال إلى هذا الحد، فإن المجتمع يفقد موازينه المستقيمة وتذوب مفاهيمه الصحيحة لكل القيم الفضيلة، وعندئذ يعجز كل قانون عن التأثير في الناس لا سيما إذا عُدَّ ذلك من التدخل في الحريات الشخصية^(٢).

(١) سورة النور، الآية: ١٩.

(٢) انظر: تعزيز ثقافة الحسبة/ورقة عمل مقدمة لمؤتمر التطبيقات المعاصرة للحسبة في المملكة العربية السعودية كرسى الملك عبدالله بن عبدالعزيز للحسبة وتطبيقاتها المعاصرة بجامعة الملك سعود، إعداد د. صالح بن عبدالله بن حميد، عام ١٤٣٣هـ، منشورة في كتاب: السجل العلمي للمؤتمر، مطابع جامعة الملك سعود، وأيضاً في الموقع الشخصي للباحث / <http://ibnholmiaid.af.org.sa/node/1804>.

ومن هذا المنطلق تأتي أهمية الدعوة إلى الله -تعالى- في عيادات التجميل، فقد ظهر في وقتنا الحاضر البحث عن الجمال كمطلب ضروري عند البعض مع الانفتاح العالمي وغزو البث الفضائي لبيوت المسلمين وتقديم نماذج نسائية متبرجة من الممثلات والمذيعات وملكات الجمال باعتبارهن الأجل وفق معايير عالمية مما أورث هوساً بتقليدهن ومشابهتهن وساعدت التقنيات المتقدمة في التجميل على إقبال النساء على عيادات التجميل مع ما يرافق ذلك من ضعف الدعوة إلى الله -تعالى- في هذا الميدان الذي ترتب عليه الجهل بأحكام الشريعة أو التهاون بها؛ فأصبحنا نسمع عن نساء يكشفن عن وجوههن أو عوراتهن للطيب بلا ضرورة بحجة معالجة البشرة، وأخرى تستخدم تقنيات تجميلية محرمة بمسميات حديثة جهلاً بالحكم الشرعي أو تماوياً منهن، إضافة إلى الجرأة على تغيير خلق الله -سبحانه- بالعبث بالجسد نحتاً وصقلاً وتعبئةً وغير ذلك مما لا حاجة إليه.

ولذا يجب على الدعاة إلى الله الحرص على نشر الخير وتعليم الناس الأحكام الشرعية في هذا الميدان، فإن هذا من واجباتهم التي أمرهم الله جل شأنه بحملها وآدائها، وهي سبيل فلاحهم في الدنيا والآخرة.

المبحث الثاني

الضوابط الشرعية في التجميل

إن مسؤولية الدعاة في عبادات التجميل تنطلق من معرفة الضوابط الشرعية للتجميل إذ أن عدم الالتزام بها يخرج تقنيات التجميل عن كونها مباحة إلى التحريم، وهو ما يجب بيانه لعاملي ومرتادي هذا المجال، وهذه الضوابط من أولويات موضوعات الدعوة التي يجب طرحها في هذا الميدان، وهي مدخل كذلك لجملة من الموضوعات الدعوية التي تنضوي تحتها، ويمكن إجمالها فيما يلي:

الضابط الأول : ألا يكون التجميل بما يغير خلق الله-تعالى-:-

وهذا الضابط من أهم ضوابط التجميل المباح حيث جاء النص بتحريم تغيير خلق الله مطلقاً، كما أن بعض صور التجميل عُلِّلَ تحريمها بما فيها من تغيير خلق الله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ۝١١٧ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ وَعَالَكَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝١١٨ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مُنِيتَهُمْ وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلَيُبَسِّطَنَّ أَأَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مُرْتَهُمْ فَلَيَغَيِّرُكَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝١١٩﴾^(١)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لعن الله الواشحات والمستوشحات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله . قال : فبلغ

(١) سورة النساء، الآيات: ١١٧-١١٩.

ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأنته، فقالت: ما حديث بلغني عنك أنك لعنت الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله؟ فقال عبد الله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله، فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحِي المِصْحَفِ فما وجدته، فقال: لئن كنت قرأته لقد وجدته. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا آتَيْنَاكُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١).

ففي هذا الحديث تحريم الوشم والنمص والتفليج للتحميل، واللعن دليل على أن هذه الأمور من الكبائر، وقد جاء تعليل هذا اللعن بقوله: (المغيرات خلق الله)، «وهي صفة لازمة لمن يصنع الوشم والنمص والفليج»^(٢).

وأما قوله (المتفلجات للحسن): «يفهم منه أن المذمومة من فعلت ذلك لأجل الحسن، فلو احتاجت إلى ذلك لمداواة مثلاً جاز»^(٣).

ويمكن صياغة الضابط العام للتغيير المحرم على النحو التالي: ((إحداث تغيير دائم في خلقة معهودة))^(٤).

(١) سورة الحشر، الآية: ٧، والحديث أخرجه الإمام البخاري، ح(٥٩٣١)، في كتاب اللباس، باب المتفلجات للحسن، والإمام مسلم ح(١٢٠)، في كتاب الآداب، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة، والنامصة والمتنمصة، والمتفلجات، والمغيرات خلق الله تعالى. واللفظ له، انظر: موسوعة الحديث الشريف(الكتب الستة)/ص/٥٠٣، ١٠٥٧.

(٢) فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري/ج/١٠/٣٨٥، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تقدم وتحقيق وتعليق: عبدالقادر شيبه الحمد، ط١، ١٤٢١هـ، د: د.

(٣) فتح الباري /ج/١٠/٣٨٥.

(٤) تغيير خلق الله ضوابطه وتطبيقاته / ص٨، ورقة مقدمة إلى حلقة نقاش: (ضوابط وقواعد في اللباس والزينة والتجميل) تنظيم: الأمانة العامة بموقع الفقه الإسلامي، الأربعاء ٢٨ شعبان ١٤٣٠هـ، إعداد: د. صالح بن محمد الفوزان، الورقة منشورة في موقع الفقه الإسلامي /

وفيما يلي بيان أبرز قيود هذا الضابط:

((تغيير)): هذا التغيير إما أن يكون بإضافة كالحقن التجميلي والترقيع ونحوهما، وإما أن يكون بإزالة بعض أنسجة الجسم كسلفط الدهون، وإما أن يكون بتعديل مظهر بعض الأعضاء بتكبيرها أو تصغيرها أو شدّها .

((دائم)): المراد أن أثره يمتدّ بمكث مدة طويلة كالأشهر أو السنوات، ولا يلزم أن يدوم مدى الحياة، وهذا قيد يخرج التغيير المؤقت الذي لا يدوم أثره أكثر من عدّة أيام.

((خِلْقَة مَعهُودَة)): أي الخِلْقَة المعتادة التي جرت السنة الكونية بمثلها، فالمعتاد مثلاً في كبار السن وجود التجاعيد في وجوههم، أما الصغار فإن وجودها بشكل مشوّه يُعدّ خِلْقَة غير معتادة ولا معهودة، وتقيد التغيير بحدوثه في الخِلْقَة (العضو) يعني أن التغيير يظهر على العضو، وليس بإضافة شيء خارجي إليه .

وهذا القيد (خِلْقَة مَعهُودَة) يتناول التغيير لعدّة دوافع:

١- تغيير الخِلْقَة المعهودة لطلب زيادة الحسن كالوشم والنمص والتفليج وما يُلحق بها من الجراحات التجميلية التي تُجرى لخِلْقَة معتادة في عرف أوساط الناس.

٢- تغييرها للتعذيب كفقء العين وقطع الآذان ونحو ذلك .

٣- تغييرها للتكرّر والفرار من الجهات الأمنية .

ويخرج بهذا القيد تغيير الخِلْقَة غير المعهودة كما في علاج الأمراض والإصابات والتشوّهات والعيوب الخَلْقِيَّة أو الطارئة التي ينشأ عنها ضرر

حسي أو نفسي، كما أنه لا يتناول التغيير المأذون فيه شرعاً كالحتان وإقامة العقوبات الشرعية^(١).

وبهذا يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله- : « التجميل ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: ثابت دائم مثل: الوشر والوشم، النمص ... فهو محرم بل من كبائر الذنوب لأن النبي ﷺ لعن فاعله .

الثاني: ما كان على وجه لا يدوم، فإنه لا بأس به مثل التجميل بالكحل والورس ونحوه لكن بشرط أن لا يؤدي هذا إلى محذور شرعاً مثل أن يكون فيه تشبه بالنساء الكافرات، أو يكون ذلك من باب التبرج... فإن هذا يكون محرماً لغيره لا لذاته»^(٢)

الضابط الثاني : أن لا يكون التجميل تشبهاً بالكفار والفساق والجنس الآخر والحيوانات:

يجب أن يخرج التجميل عن التشبه بالكفار والفساق وتشبه المرأة بالرجل والرجل بالمرأة والتشبه بالحيوانات، وأصل هذا الضابط قوله ﷺ: (من تشبه بقوم فهو منهم)^(٣)

(١) انظر: تغيير خلق الله ضوابطه وتطبيقاته / ص ٨.

(٢) زينة المرأة بين الطب والشرع/ص ٤٢، للشيخ محمد بن عبدالعزيز المسند، مؤسسة المؤمن للتوزيع، الرياض، مكة، ط: ٢، ١٤١٦هـ.

(٣) أخرجه الإمام أبو داود، ح (٤٠٣١)، في كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، وقال العلامة المحدث الألباني: «حسن صحيح». انظر: سنن أبي داود/ ص ٦٠٢.

ويكثر في التحميل التشبه بالكفار والفساق من المشاهير، كمشابهة ممثلة مثلاً في شفتيها أو خديها أو حاجبيها ونحو ذلك، وحرَم الشرع التشبه بهم لما لتأثير المشابهة في الظاهر بمشابهة الباطن، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «إن الله جبل بني آدم بل سائر المخلوقات على التفاعل بين الشئيين المتشابهين، وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم...، ولأجل هذا الأصل وقع التأثر والتأثير في بني آدم واكتساب بعضهم أخلاق بعض بالمعاشرة والمشاكله، وكذلك الآدمي إذا عاش نوعاً من الحيوان اكتسب بعض أخلاقه؛ ولهذا صار الخيلاء والفخر في أهل الإبل، وصارت السكينة في أهل الغنم، وصار الجمَّالون والبغَّالون فيهم أخلاق مذمومة من أخلاق الجمال والبغال وكذلك الكلابون، وصار الحيوان الإنسي فيه بعض أخلاق الناس من المعاشرة والمؤالفة وقلة النفرة. فالمشابهة والمشاكله في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكله في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي. وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين هم أقل كفرةً من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقلّ إيماناً من غيرهم ممن جرَّد الإسلام، والمشابهة في الهدى الظاهر توجب أيضاً مناسبة واثلاًفاً»^(١).

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم/ ج١/ ٤٨٧، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية، تحقيق وتعليق: أ.د. ناصر عبدالكريم العقل، دار المسلم، الرياض، ط٥، ١٤١٥ هـ.

قال القرطبي -رحمه الله-: «لو خُصَّ أهل الفسوق والمجون بلباس منع لبسه لغيرهم، فقد يظن به من لا يعرفه أنه منهم، فيظن به ظن السوء، فيأثم الظان والمظنون فيه بسبب العون عليه»^(١).

ومن ذلك تحريم التشبه بالكفار والفساق في الوشم، بكافة أشكاله وإن تغيرت مسمياته، فالوشم محرم لذاته، كما تقدّم، وهو بالإضافة إلى ذلك أصبح في الوقت الحالي من أبرز علامات الكفار، إذ يكثر في الأفلام والمسلسلات الغربية إبراز وشم المشاهير رجالاً ونساءً في أجزاء مختلفة من أجسادهم، وانتشر كذلك عند فساد المسلمين، فيحرم فعله لما في ذلك من تشبه بالكفار، وتشبّه بالفساق.

كما يجرم أن يكون التجميل بما يُشبه المرأة بالرجل أو العكس، ويحدث في التجميل أن يطلب رجل تعبئة شفثيه أو خديه كالمرأة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن النبي ﷺ المختشين من الرجال والمترجلات من النساء، وقال: (أخرجوهم من بيوتكم)، قال: فأخرج النبي ﷺ فلاناً، وأخرج عمر فلانة^(٢).

وعنه قال: (لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال)^(٣).

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير/ج٦/١٣٥، للإمام محمد عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ.

(٢) أخرجه الإمام البخاري، ح(٥٨٨٦)، في كتاب اللباس، باب احراج المتشبهين بالنساء من البيوت. انظر: موسوعة الحديث الشريف(الكتب الستة)/ص٥٠١.

(٣) أخرجه الإمام البخاري، ح(٥٨٨٥)، في كتاب اللباس، باب المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال. انظر:

وأيضاً يحرم التشبه بالحيوان لما فيه من تغيير خلق الله-تعالى-، وحفظاً لكرامة الإنسان الذي فضله الله على سائر مخلوقاته، وإن من انتكاس الفطرة مشابهاً الأدي من لاعقل له، كما أن في ذلك مصادمة صريحة لنهي الشارع عنه، ولما فيه من رضا بالنقص في الخلقة، وانتقال عن كمال الخلقة إلى الخلقة الناقصة، وذنبٍ للنفس في مواضع الدم، حيث لم يرد في الكتاب والسنة التشبه بالحيوان إلا في موضع الدم والانتقاص، وإذا كان هذا موجباً للانتقاص والدم مع عدم القصد، فمعه من باب أولى^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

«وإذا كان التشبه بها-أي: الحيوانات- إنما كان على وجه الدم من غير أن يقصد المذموم التشبه بها، فالقاصد أن يتشبه بها أولى أن يكون مذمومًا، لكن إن كان تشبه بها في عين ما ذمه الشارع صار مذمومًا من وجهين، وإن كان فيما لم يذمه بعينه صار مذمومًا من جهة التشبه المستلزم للوقوع في المذموم بعينه»^(٢).

الضابط الثالث : أن لا يؤدي التجميل إلى ضرر:

جاءت الشريعة بحفظ النفس من التلف والضرر؛ ولذا يحرم العلاج بما يفضي لضرر أكبر فالقاعدة الشرعية جاءت: لا ضرر ولا ضرار، ويدخل

موسوعة الحديث الشريف (الكتب الستة) / ص ٥٠١.

(١) ضوابط التشبه المحرم في اللباس والزينة وتطبيقاته المعاصرة / ص ٤٢، محمد بن موسى بن مصطفى الدالي، الباحث بمركز الدراسات والبحوث الفقهية بموقع الفقه الإسلامي، بحث مقدم إلى الفعالية السابعة ضمن فعاليات موقع الفقه الإسلامي، البحث منشور في موقع الفقه الإسلامي /

<http://www.islamfeqh.com/Nawazel/Nawazelltem.aspx?NawazelltemID=505>

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ج ٣٢ / ٢٥٨، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، وساعده ابنه محمد، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦ هـ، ص: ط.

فيه: عدم جواز المعالجة بالأشد إذا أمكن المعالجة بالأخف، فإذا كان الأخف يقوم مقام الأشد ويحقق المصلحة المطلوبة فإنه لا يجوز التداوي بالأشد، لأن التداوي بالأشد هنا ضرر زائد بلا حاجة ولا ضرورة، وقد تقرر أنه لا ضرر ولا ضرار.

فكل تجميل تحسيني أدى إلى ضرر لا يجوز فعله، وإن جاء التجميل لإزالة ضرر لن يُزال إلا بضرر مثله لم يجز لقاعدة: الضرر لا يزال بمثله^(١).

الضابط الرابع: أن يحقق التجميل مصلحة معتبرة شرعا:

يجب أن يحقق التجميل مصلحة معتبرة في الشريعة الإسلامية، إذ لا اعتبار لأهواء الناس ورغباتهم، فإن الالتزام بهذا الضابط يحمي أصحاب الهوس الجمالي من العبث بأجسادهم، وفتح الباب للجراحات التجميلية دون اعتبار للقواعد الشرعية والنواحي الطبية والأعراف الإجتماعية يوقع الناس في مفاسد صحية ونفسية واجتماعية كثيرة ومن المعلوم أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

وقد أذن النبي ﷺ لرجل قطعت أنفه أن يتخذ أنفاً من ذهب مع كون الذهب محرماً على الرجال وذلك للضرورة فقط -وهي هنا النتن-، فقد جاء في حديث عَرْفَجَةَ بنِ أَسْعَدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: (قُطِعَتْ أَنْفِي يَوْمَ الْكُلابِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَاتَّخَذْتُ أَنْفًا مِنْ وَرَقٍ، فَأَنْتَنَ عَلَيَّ، فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَتَّخِذَ أَنْفًا مِنْ ذَهَبٍ)^(٢).

(١) انظر: القواعد الشرعية في المسائل الطبية /ص ١٠ وما بعدها، وليد بن راشد السعيدان، الكتاب منشور في الموقع الرسمي للمؤلف / <http://alsaeedan.net/play.php?catsmktba=44>.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي، ح (١٧٧٠)، في كتاب اللباس عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في شد الأسنان

ومن أكثر ما يحتج به البعض في الحاجة للتجميل وقوع الضرر النفسي عليهم، ومع اعتبار الشرع للأذى النفسي إلا أنه ليس على إطلاقه، فباعتبار ما كان ضرورياً دون غيره كإزالة تشوه أو عيب ظاهر ملفت للأنظار يصيب صاحبه بالحرج^(١).

الضابط الخامس: أن يقوم بعمل التجميل طيب مؤهل حاذق لعمله:

يجب أن يكون الطبيب الذي يقوم بالتجميل حاذقاً عارفاً بالطب كي لا يوقع المريض بالضرر، لحديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (من تطيب ولا يعلم منه طب فهو ضامن)^(٢) فعندما لا يكون الطبيب حاذقاً بل يكون متطبباً جاهلاً أو حاذقاً في جانب جاهلاً في جانب آخر، فإن المريض قد يصيبه من الضرر ما هو أكبر مما سعى إليه بالتجميل.

بالذهب، وحسنه العلامة المحدث الألباني. انظر: سنن الترمذي/ص ٤١٠. للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، حكم على أحاديثه وعلق عليه العلامة المحدث: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيده مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، د:ت. وأخرجه أبو داود في سننه، ح(٤٢٣٢)، في كتاب الخاتم، باب ما جاء في ربط الأسنان بالذهب، وقال العلامة المحدث الألباني: حسن. انظر: سنن أبي داود/ص ٦٢٩، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حكم على أحاديثه وعلق عليه العلامة المحدث: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيده مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، د:ت.

(١) للاستزادة في مدى اعتبار الضرر النفسي انظر: تغيير خلق الله ضوابطه وتطبيقاته / ص ١٠.

(٢) أخرجه الإمام أبو داود، ح(٤٥٨٦)، في كتاب الديات، باب فيمن تطيب بغير علم فأعتن. وقال العلامة المحدث الألباني: "حسن"، انظر: سنن أبي داود/ص ٦٨٧، والإمام ابن ماجه، ح(٣٤٦٦)، في كتاب الطب، باب من تطيب ولم يعلم منه طب، وحسنه المحدث الألباني، انظر: سنن ابن ماجه/ص ٥٨٠. للإمام أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، حكم على أحاديثه وعلق عليه العلامة المحدث: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيده مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، د:ت.

لذا فإن الطبيب في هذه الحالات يضمن بالإجماع ما تلف تحت يده من نفس أو عضو أو منفعة^(١).

ويحدث في التجميل من أخطاء الأطباء ما يقع في غيره من جوانب الطب إلا أن الضرر بجهل الطبيب في التجميل يخرج المريض من البحث عن الجمال إلى البحث عن المداواة، وهذا يخالف القاعدة الشرعية لا يُزال الضرر بضرر أكبر منه، ومثال ذلك: حقن خاطئ للبتوكس في الوجه مما يسبب ميلانه، أو عمل تعبئة دائمة في أماكن معينة في الجسم تسبب تفاعلات وأثاراً صحية سيئة.

الضابط السادس: أن يأذن المريض للطبيب بالقيام بالتجميل. يأتي هذا الضابط انطلاقاً من القاعدة الفقهية: لا يجوز لأحد أن يتصرف في ملك الغير إلا بإذنه^(٢).

وهذا مهم في حفظ حق المريض في معرفة خطوات العلاج وما يترتب عليه، خاصة أن بعض تقنيات التجميل لا يجوز فعلها . وينقسم الإذن إلى قسمين: إذن مطلق وإذن مقيد . فالإذن المطلق: هو أن يقول المريض للطبيب : أذنت لك أن تفعل أي شيء تحتاج إليه لعلاجي . وهذا النوع من الإذن مثلاً يطلبه الأطباء في حال

(١) انظر: المسائل الطبية والمعاملات المالية المعاصرة /ص ٢٥، من دروس الدورة العلمية بجامعة الراجحي بريدة لعام ١٤٢٥هـ من إلقاء د. : خالد بن علي المشيقح، اعتنى بها : أبو عبد الرزاق محمد الهوساوي، سامي بن محمد البكر. البحث منشور في الموقع الرسمي للمؤلف/
http://www.almoshaqeh.com/index.php?option=com_remository&Itemid=11&limit=50.&limitstart=0

(٢) انظر: القواعد الشرعية في المسائل الطبية /ص ٥٠.

خوفهم من وجود أمراضٍ أخرى يفاجئون بها بعد مباشرتهم للعمل الجراحي، فيحتاطون لذلك بأخذ الإذن المطلق من المريض قبل تحديده لأنهم يعلمون أنهم لا يستطيعون أخذ الإذن منه بعد ذلك .

والإذن المقيد : أن يقول لهم: أذنت لك أن تفعل هذه التقنية العلاجية المعينة فقط، وهذان النوعان معتبران شرعاً لأنه لا فرق في الإذن على وجه الإطلاق أو على وجه التقييد ما دام المأذون به جائزاً شرعاً^(١).

ولكن ليس للمريض أن يأذن للطبيب الجاهل لأن فاقده الشيء لا يعطيه فهذا البدن ملك لله عز وجل لا يملك أن يتصرف فيه في غير ما أذن له فيه شرعاً. وعلى هذا لو أراد شخص أن يجرح نفسه فهذا محرم ولا يجوز، فدل على أن إذن المريض لهذا الطبيب الجاهل أن يعالجه إذن في غير محله^(٢).

وعدم اعتبار الإذن عند القيام بالعلاج التجميلي قد يوقع الضرر على المريض، فبعض معالجات البشرة تحتاج لوقت طويل حتى ينتهي برنامجها مما يوقع المريض بالحرج وقد تفوت عليه بعض مصالحه، وبعضها مُكَلِّفٌ مادياً وعدم الاستئذان عند عملها يوقع بالغرر، والأهم من ذلك الوقوع في المحرمات ومن ذلك تجاوز إزالة شعر الوجه إلى إزالة شعر الحاجبين بدون استئذان المريض.

الضابط السابع: أن لا يترتب على عمل التجميل غش وتدليس وخداع

قال رسول الله ﷺ: (من غشنا فليس منا)^(٣)، فالغش محرم بجميع

أنواعه ومهما كانت مبرراته، فقلوه ﷺ: (فليس منا): أي ليس على طريقتنا

(١) انظر: القواعد الشرعية في المسائل الطبية /ص ٥١.

(٢) انظر: المسائل الطبية والمعاملات المالية المعاصرة/ص ٢٦.

(٣) أخرجه الإمام مسلم، ح(١٦٤)، في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا. انظر: موسوعة الحديث الشريف(الكتب الستة)/ص ٦٩٥.

ولا منهاجنا، قال النووي-رحمه الله-: «ومعناه عند أهل العلم أنه ليس ممن اهتدى بمدينا، واقتدى بعملنا وعملنا وحسن طريقتنا»^(١).

وكل تحمیل أفضى إلى الغش والتدليس والخداع لايحوز، ومن ذلك غش الخاطب بتحمیل يخفي العيب، ومنه وصل الشعر الذي لعن رسول الله ﷺ فاعلته، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن لي ابنة عريساً أصابتها حصبة فتمرق شعرها، أفصله؟ فقال: (لعن الله الواصلة والمستوصلة)^(٢).

ويحسن في نهاية هذا الجانب أن أبين مسألة تحتج بها بعض النساء عند دعوتهن أو الإنكار عليهن في بعض المخالفات الشرعية أو عند التهاون بهذه الضوابط وهي الاحتجاج بأن بعض مسائل التحمیل خلافية:

وكي يتبين الأمر يجب أن نعلم أن مسائل الخلاف تنقسم قسمين:

١- المسائل الخلافية غير الاجتهادية وهي التي ثبت فيها نص أو نصوص من الكتاب والسنة أو اجماع ثابت يدل على صحة أحد الأقوال، فالواجب حينئذ اتباع النص والإنكار على المخالف، حيث لا اجتهاد مع وجود نص .

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج/ج١/١٠٩. لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩٢هـ.

(٢) أخرجه الإمام مسلم، ح(١١٥)، في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامضة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله. انظر: موسوعة الحديث الشريف(الكتب الستة)/ص١٠٥٧.

٢- المسائل الخلافية الاجتهادية التي لم يثبت فيها نص يرجح أحد الأقوال، فهذه تسمى "المسائل الاجتهادية"، لأن مستند أراء العلماء فيها اجتهادهم أو اجتهاد غيرهم من العلماء، وهذه المسائل لا إنكار فيها، لأن كل واحد منهم لم يخالف نصاً، بل خالف اجتهاد مجتهد^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

«وقولهم مسائل الخلاف لا إنكار فيها ليس بصحيح؛ فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول بالحكم أو العمل. أما الأول فإذا كان القول يخالف سنة أو إجماعاً قديماً وجب إنكاره وفاقاً. وإن لم يكن كذلك فإنه يُنكر بمعنى بيان ضعفه عند من يقول المصيب واحد وهم عامة السلف والفقهاء. وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره أيضاً بحسب درجات الإنكار...، أما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع، وللاجتهاد فيها مساغ لم ينكر على من عمل بما مجتهداً أو مقلداً. وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد، كما اعتقد ذلك طوائف من الناس. والصواب الذي عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد ما لم يكن فيها دليل يجب العمل به وجوباً ظاهراً مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه فيسوغ إذا عدم ذلك فيها الاجتهاد لتعارض الأدلة المتقاربة أو لخفاء الأدلة فيها»^(٢).

(١) انظر : حكم الإنكار في مسائل الخلاف/ص ٧٢، أ.د. فضل إلهي، نشر: ادارة ترجمان الإسلام سي ٣٣٦، ط ١، ١٤١٧هـ.

(٢) بيان الدليل على بطلان التحليل/ص ١٤٥، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، المكتب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٨م.

ولذا يجب النظر في مخالفات عبادات التجميل هل هي خلافية أم اجتهادية؟

ومن ذلك عمليات تصغير الأنف وتكبير الأرداف ونحوها من غير ضرورة وهي مسائل خلافية غير اجتهادية لأنها خالفت نصاً بتحريم تغيير خلق الله، في قوله تعالى: ﴿وَالأَمْرُ لَهُمْ فَلْيَتَّخِذُوا خَلْقَ اللَّهِ﴾^(١) وقوله ﷺ في حديث لعن النامصة: (المُعَيَّرَاتُ خَلْقُ اللَّهِ)^(٢).

وكذلك الاحتجاج بكشف الوجه بأنها مسألة اجتهادية في حين أنها مسألة خلافية خالفت اجماعاً عملياً، قال الحافظ ابن حجر: «لم تزل عادة النساء قديماً وحديثاً يسترن وجوههن عن الأجانب»^(٣). ونقل ابن رسلان: «اتفاق المسلمين على منع النساء أن يخرجن سافرات الوجوه»^(٤).

لذا يجب على النساء تقوى الله والنظر في كل مسألة بتأمل فلاعبرة لقول كائن من كان إذا خالف بقوله النص الشرعي، ولتحرص المسلمة على دفع الهوى فإن الجمال زائل وهو أمر نسبي يختلف قياسه بين شخص وآخر، ومن الرضا بقضاء الله وقدره أن ترضى المرأة بما خلقها الله عليه من صورة، والأمر في مجمله لا يَحْتَمِلُ أن تفرط المسلمة بدينها لأجله، أو تستحق اللعن والطرده من رحمة الله بسببه، والله المستعان.

(١) سورة النساء، الآية: ١١٩.

(٢) سبق تخرجه.

(٣) فتح الباري/ج٩/٢٣٥-٢٣٦.

(٤) نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار/ج٦/٢٤٥، للإمام محمد بن علي بن محمد

الشوكاني، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٧٣م.

الفصل الأول

المسؤولية الدعوية الشرعية للداعية في عبادات التجميل

جاءت الشريعة الإسلامية بحفظ الضرورات الخمس وهي الدين والنفس والعرض والمال والعقل، وتضافرت الأدلة في التأكيد عليها؛ فهي أساس لاستقرار عيش الإنسان في هذه الحياة وبرعايتها تحفظ الحقوق وتسلم المجتمعات من النزاعات.

قال الإمام الشاطبي -رحمه الله-: « اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وعلمها عند الأمة كالضروري، ولم يثبت لنا ذلك بدليل معين، ولا شهد لنا أصل معين يمتاز برجوعها إليه، بل عُلمت ملاءمتها للشريعة بمجموع أدلة لا تنحصر في باب واحد»^(١).

قال الإمام أبو حامد الغزالي -رحمه الله-: « مقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة...»^(٢).

(١) الموافقات في أصول الشريعة/ج ١/٣٨، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي، عناية وضبط: محمد عبدالله دراز، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط ٢، ١٣٩٥هـ.
 (٢) المستصفي من علم الأصول/ج ١/١٧٤، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق: محمد عبدالسلام عبدالشافى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ.

وجميع موضوعات الدعوة في عيادات التجميل لا تخرج عن هذه الضرورات بشكل أو بآخر، وعلى رأس ذلك الدعوة إلى حفظ الدين، ومن ذلك: الدعوة إلى حفظ أحكام الشرع باجتنباب ما حرم الله سواء من العاملين في المجال الطبي أو المراجعين لهذه العيادات، ويندرج تحت ذلك جملة من الموضوعات الدعوية كالتحذير من اختلاط الرجال بالنساء وكشف الأطباء على النساء بغير ضرورة، وكشف العورات، والتبرج والسفور، والقيام بعمل النمص أو الوشم، والتحذير من تأخير أداء الصلوات لأن بعض جلسات التجميل تمتد لساعات وربما خرج وقت الصلاة، والدعوة إلى تحقيق الطهارة وخاصة عند وضع الكريمات الطبية والأقنعة التجميلية وغير ذلك.

ومن الدعوة إلى حفظ النفس: حفظها من تغيير ما خلقها الله عليه من صورة، وتجنب علاجها عند مراكز تجميلية غير موثوقة مما قد يؤدي إلى تشويهها بعاهة أو حرق أو وفاة أو غيره، والنفس ملك لله لا يجوز التصرف فيها إلا بما أذن الله به^(١).

ومن الدعوة إلى حفظ العرض: صيانة العرض من اختلاط الرجال بالنساء وما يفضي إليه ذلك من التحرشات الجنسية مما لا يخلو منه مستشفى مختلط.

(١) أغلقت وزارة الصحة في المملكة العربية السعودية أحد المراكز الطبية الأهلية لجراحة التجميل بالرياض بعد ثبوت مسؤولية المركز عن تدني مستوى الخدمة الطبية به وما نتج عنه من وفاة مريضة بعد إجراء عملية شفط دهون لها بالمركز، انظر: الموقع الرسمي لوزارة الصحة/

ومن الدعوة إلى حفظ المال: تجنب صرف الأموال الطائلة على جلسات تجميلية لايمتد أثرها إلا لأشهر معدودة، وربما دفعت الأموال بدون أثر يذكر، وخدمات بعض العيادات التجميلية ربحية بالمقام الأول ودعائية تستنزف أموال المخدوعات بدعوى تحقيق الجمال، ومن المتعارف عليه أن غالب جلسات التجميل لا تنتهي بل هي دائمة ويجب تكرارها دورياً.

أما الدعوة إلى حفظ العقل: فيظهر في التحذير من الهوس بالجمال عند البعض مما يترتب عليه المبالغة في تصور العيوب الذي يفضي للإكتئاب واعتزال الناس، وحدثت حالات انتحار في الغرب لأجل هذا الأمر^(١).

وسأبين في المباحث التالية مسؤولية الداعية تجاه بعض هذه الموضوعات الدعوية مما يجب بيانه للمدعويين.

(١) حصلت حالات انتحار عند نساء غريبات قمن بمراحات لتكبير الثدي بسبب عدم رضاهن عن الشكل بعد

الجراحة مما أدخلهن في اكتئاب وادمان على المخدرات والكحول، انظر: موقع طبيب دت نت /

<http://www.tbbee.net/ask/showthread.php?t=118046>

المبحث الأول

التحذير من التبرج والسفور

مما عمّت به البلوى في هذا الزمان التبرج والسفور، وأبرز المخالفات الشرعية في عبادات التحمّل تأتي من هذا الباب، ويختلف الحال ما بين ترك للحجاب بالكلية أو كشف للوجه والكفين فقط مع ستر باقي البدن أو ارتداء أنواع متبرجة للحجاب مع كشف نصف الوجه بالثام أو النقاب ونحو ذلك.

فبعض الطبيبات والممرضات وموظفات العيادة حاسراتُ الرأس، وغالبهن يغطين شعورهن فقط مع كشف الوجه في ميدان مختلط، وقد وقفت على مراكز تحمّل يبدو أنها تشترط الجميلات كموظفات استقبال مع ما يرافق ذلك من زينة وعطر ومكياج كامل للوجه باعتبار أن الجمال من أبرز خدمات المركز!

كما أن بعض مرتادات العيادة التحمّلية لا ترى بأساً في كشف وجهها للطبيب من غير ضرورة بحجة حاجتها للعلاج، على الرغم من وجود العديد من الطبيبات المسلمات ذوات المهارة والثقة، وبعضهن تميزن في مجال طب وجراحة الجلد.

إن تهاون المرأة بحجابها يصاحبه رقة في دينها وحياءها، ومن واجب الداعية إلى الله أن يبين أن الحجاب الساتر يمنع المرأة المسلمة من إظهار شيء من بدنها أمام الرجال من غير محارمها. وقد كانت الصحابيات أشد الناس استجابة لأمر الله بالحجاب لقوة إيمانهن.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّازِوَجِكَ وَبِنَائِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِكَنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَانِبَيْهِنَّ ذَلِكَ آدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ كُفْرَاتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴿٢﴾ (٢).

فمن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لَمَّا نزلت هذه الآية ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أخذن أزهرن فشققنها من قبل الحواشي فاحترمن بها (٣). قال ابن حجر: فاحترمن: «أي غطين وجوههن» (٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «وكشف النساء وجوههن بحيث يراهن الأجانب غير جائز، وعلى ولي الأمر الأمر بالمعروف والنهي عن هذا المنكر وغيره، ومن لم يرتدع فإنه يعاقب على ذلك بما يجره» (٥).

ويقول الشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله-: «ما يفعله بعض نساء هذا الزمان من التبرج بالزينة والتساهل في أمر الحجاب وإبراز محاسنهن للأجانب وخروجهن للأسواق متحلمات متعطرات أمر مخالف للأدلة الشرعية ولما عليه السلف الصالح، وأنه منكر يجب على ولاة الأمر من الأمراء والعلماء ورجال الحسبة تغييره، وعدم إقراره، كل على حسب طاقته

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

(٢) سورة النور، الآية: ٣١.

(٣) أخرجه الإمام البخاري، ح(٤٧٥٩)، في كتاب تفسير القرآن، سورة النور، باب ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾. انظر: موسوعة الحديث الشريف (الكتب الستة) / ص ٤٠٢.

(٤) فتح الباري / ج ٨ / ٣٥٧.

(٥) مجموع الفتاوى / ج ٢٤ / ٣٨٢.

ومقدرته وما يملكه من الوسائل والأسباب التي تؤدي إلى منع هذا المنكر، وحمل النساء على التحجب والتستر، وأن يلبسن لباس الحشمة والوقار، وأن لا يزاحمن الرجال في الأسواق»^(١).

المبحث الثاني: التحذير من الاختلاط.

حرم الإسلام اختلاط المرأة بالرجل من غير محارمها تقديرًا منه لدور المرأة في الحياة، فقد أكرمها بالرعاية والحماية وأمرها بالقرار في البيت لعظم دورها في تربية النشء المسلم، وحفظًا للأسرة من التفكك والضياع، فقرار المرأة في بيتها وعضها لبصرها من مكارم أخلاقها، وسدًا لذريعة الفتنة أمر الله جلّ شأنه عباده من الرجال والنساء على حد سواء بغض البصر ابتداءً، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾^(٣).

فكيف يمنعمهم من النظر ويبيح لهم الاختلاط؟ ومن لوازم الخلطة النظر؟ وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم)^(٤). وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (..ومن

(١) الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله - /http://www.binbaz.org.sa/mat/8231

(٢) سورة النور، الآية: ٣٠.

(٣) سورة النور، الآية: ٣١.

(٤) أخرجه الإمام البخاري، ح (٥٢٣٣)، في كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على المغيبة، والإمام مسلم، ح (١٣٤١)، في كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره. انظر:

كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم منها
فإن ثالثهما الشيطان»^(١).

ويقول النبي ﷺ في صفوف الحاضرين للمسجد للصلاة: (خير
صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها
أولها)^(٢).

قال النووي -رحمه الله- عند شرح الحديث: «وإنما فضل آخر صفوف
النساء الحاضرات مع الرجال لبعدهن من مخالطة الرجال ورؤيتهم وتعلق
القلب بهم عند رؤية حركاتهم وسماع كلامهم»^(٣).

فإذا خرجن من الصلاة فعليهن ألا يزحمن الطريق وألا يخترن وسطها
حتى لا يقتربن من الرجال، ويأمرهن الرسول ﷺ بذلك ويقول: (عليكن
بجافات الطريق) فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار
من لصوقها به^(٤).

موسوعة الحديث الشريف (الكتب الستة) /ص ٤٥٢، ٩٠١.
(١) أخرجه الإمام أحمد، ح(١٤٧٠٦)، انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل /ص ١٠٢٣، بيت الأفكار الدولية،
الرياض، ١٤١٩هـ، د:ط.
(٢) أخرجه الإمام مسلم، ح(١٣٢)، في كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول،
والإزدحام على الصف الأول والمسابقة إليها، وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام. انظر: موسوعة
الحديث الشريف (الكتب الستة) /ص ٧٤٧.
(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج /ج ٤/ ١٥٩.
(٤) أخرجه الإمام أبو داود في سننه، ح(٥٢٧٢)، في كتاب الأدب، باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق،
وحسنه العلامة المحدث الألباني . انظر: سنن أبي داود /ص ٧٨٨.

ولو كان الاختلاط جائزًا لما خصص لمن رسول الله ﷺ يوماً يعلمهن فيه، ولحضرن مجالس العلم مع الرجال، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه، تعلمنا مما علمك الله، قال: (اجتمعن يوم كذا وكذا). فاجتمعن، فأتاهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعلمهن مما علمه الله^(١).

ومن عرف واقع المستشفيات ومنها عبادات التجميل علم أن هذا الأمر حاصل، ويحصل الاختلاط بغير حاجة في غرف العيادات والاجتماعات وحفلات التكريم والاستقبال والتوديع وغيرها، وهو منكر بلا شك ومخالف لما جاءت به الشريعة من حفظ الأعراض وكل ما يؤدي إلى المساس بها.

ومن مسؤولية الدعوة إلى الله التحذير من هذا المنكر والدعوة إلى انشاء مستشفيات خاصة بالمرأة بكوادر نسائية كاملة تغني عن الحاجة للرجل خاصة في مجال التجميل فإن هذا التخصص ألصق بالمرأة لفطرتها على حب الزينة، وهذا ليس بأمر متعذر خاصة في بيئة محافظة كبيئتنا تزخر بالنساء المحافظات العفيفات من الطبيبات والمراجعات على حد سواء.

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، ح(٧٣١٠)، في كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة، باب تعليم النبي ﷺ أمته من الرجال والنساء مما علمه الله، ليس برأي ولا تمثيل. انظر: موسوعة الحديث الشريف (الكتب الستة) / ص ٦٠٩.

المبحث الثالث

التحذير من الغش والكذب

ذكرنا أن من ضوابط التجميل أن لا يؤدي إلى الغش والخداع فهو سلوك مرفوض في شريعة الإسلام، ويحرم القيام به، كما يحرم الكذب لقول رسول الله ﷺ: (... وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) (١)

ومن مسئوليات الداعية إلى الله في هذا المجال السعي إلى كشف صور الغش والكذب في واقع العيادات التجميلية وبيان حكمها والتحذير منها وتوعية الناس بضررها ونتائجها.

ويحصل الغش والخداع والكذب في التجميل في عدة صور:

– الغش والخداع والكذب في بيان مدى حاجة المريض للعلاج:

فبعض الأطباء يوهم المراجع بأن أنفه مشوه أو جلده مترهل ويضخم من العيوب المعهودة في خلقة البشر بهدف زيادة الربح المادي، وربما أوقع المريض في سلسلة من الجراحات أو يحوجه للمعالجة من أمراض طارئة بعد التجميل.

– الغش والخداع في خطوات المعالجة ونتائجها:

وهذه يحصل فيها الغش والكذب من قبل بعض الأطباء في إظهار سهولة خطوات العلاج بالإعراض عن البيان التفصيلي للحالة ومراحل علاجها ومدتها أو تضخيم النتائج الإيجابية للمعالجة بخلاف الواقع.

(١) أخرجه الإمام البخاري، ح(٦٠٩٤)، كتاب الأدب، باب قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)، وأخرجه الإمام مسلم، ح(١٠٥)، في كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، واللفظ له، انظر: موسوعة الحديث الشريف (الكتب الستة) / ص ٥١٤، ١١٣٣.

ومن ذلك القول بأن ليزر إزالة الشعر يزيل الشعر بجلسة واحدة أو يزيل الشعر بشكل كامل، والقول بوجود إبر لتصفية وتوحيد لون البشرة. ويحصل كثيرا إيهام المريض أن العلاج لا يستغرق إلا شهراً أو أياماً معدودات ليتفاجأ المريض أن الوقت الزمني الكافي لهذه المعالجة لا تقل عن ستة أشهر مثلاً.

ومن الغش قيام بعض النساء بإخفاء التجاعيد بحقن البوتكس ورفع الحواجب وتكبير الشفايف وغير ذلك حال الخطبة مع ما في بعض هذه المعالجات من حرمة لتغييرها لخلق الله.

– الغش والخداع في الكلفة المادية للعلاج:

درجت بعض عيادات التجميل على استدراج المريض لبعض المعالجات دون وضوح للتكلفة المادية لها، ففي الجلسة الأولى لا يتم إلا ذكر بعض خطوات العلاج فيتوهم المريض أن الأمر ينتهي بانتهاء خطوتين أو ثلاث مما ذكر ليتفاجأ بسلسلة من الجلسات التي لا تنقطع والتي لا يتم العلاج إلا بما مما يجعله ضحية لاستنزاف مالي غير متوقع.

– الغش في الكرمات والمواد المستخدمة في التجميل:

على الرغم من سعي الجهات المسؤولة على مراقبة جودة المواد المستخدمة في عيادات التجميل إلا أن السعي وراء ربح مادي عالي يدفع لاستخدام مواد أقل جودة وأقل سعراً وبالطبع أكثر ضرراً بالمستخدم. ويكون الغش في محتويات المستحضر وقد يكون في بيانات ملصق المستحضر، ويشمل الغش كذلك الظروف السيئة التي يتعرض لها المستحضر

في مرحلة التخزين مثل الضوء ونسبة الرطوبة العالية والأوكسجين ودرجة الحرارة وغيرها، وتؤدي مثل هذه الظروف إلى نمو كائنات حية في المستحضر تؤثر على جودته^(١).

- الغش في الأجهزة المستخدمة في التجميل :

من الطبيعي أن يجهل المريض أنواع الأجهزة المستخدمة في المعالجة وكيفية استخدامها ونتيجة لذلك يقع الغش والخداع في بعض الحالات. ومن أمثلة ذلك أن يطلب المريض إزالة الشعر بجهاز معين كجنتل ليز مثلاً وبدرجة معالجة اثنتي عشرة مع إقرار الطبيب بمناسبة ذلك له، وعندما يحين وقت العلاج يستبدل بجهاز أقل جودة أو يتم ضبط درجة المعالجة بأقل مما طلب بهدف زيادة عدد الجلسات.

(١) انظر : موقع هيئة الغذاء والدواء /

a/الغش+التجاري+في+مستحضرات+التجميل .Pages http://www.sfda.gov.sa/ar/drug/awareness/news/

المبحث الرابع

التحذير من كشف العورات

نظر الطبيب إلى عورة المريض بلا ضرورة أو حاجة ملحة محرم، وتشتمد الحرمة عند كشف الرجل على المرأة أو العكس. فالمرأة كلها عورة عند الرجل الأجنبي، فالنظر إلى قدمها أو ساقها نظر إلى عورة.

والأدلة على حرمة النظر كثيرة منها : قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَحْفَظُوا أَرْجُلَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣٠) وقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَيْدِيهِنَّ وَيَحْفَظْنَ أَرْجُلَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَابَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَالِدِ الَّذِينَ لَمْ يُظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣١) (١).

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد) (٢).

(١) سورة النور، الآية: ٣٠-٣١.

(٢) أخرجه الإمام مسلم، ح (٧٤)، في كتاب الحيض، باب تحريم النظر إلى العورات. انظر: موسوعة الحديث الشريف (الكتب الستة) / ص ٧٣٣.

قال النووي - رحمه الله - عند شرح الحديث: « ففيه تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة، وهذا لا خلاف فيه . وكذلك نظر الرجل إلى عورة المرأة والمرأة إلى عورة الرجل حرام بالإجماع »^(١)
 و عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله عوراتنا ما تأتي منها وما نذر؟ قال: (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو مما ملكت يمينك) فقال: الرجل يكون مع الرجل؟ قال: (إن استطعت أن لا يراها أحد فافعل)، قلت: والرجل يكون خالياً، قال: (فالله أحق أن يستحيا منه)^(٢).
 ويجب على الداعي إلى الله -تعالى- أن يبين أن علاج الأطباء للنساء لا يجوز إلا بشروط :

الشرط الأول: ألا توجد طبية .

الشرط الثاني: وجود الضرورة، أو الحاجة الملحة .

الشرط الثالث: أن يكون الكشف بقدر الحاجة، فإذا وجدت الحاجة لكشف جزء من الساق مثلاً، لم يجز الكشف أكثر من مقدار الحاجة فيه .
 وإذا كانت الحاجة تندفع برؤية طبيب واحد لم يجز أن ينظر إليها أكثر من واحد
 الشرط الرابع: وجود المحرم، فالكشف على المرأة الأجنبية مظنة الفتنة،
 ومن أعظم وسائل دفعها وجود المحرم^(٣).

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج/ج٤/٣٠.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي، ح(٢٧٦٩)، في كتاب الأدب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في حفظ العورة.

وقال المحدث العلامة الألباني: "حسن" . انظر: سنن الترمذي/ ص٦٢١.

(٣) انظر: كشف العورات في المستشفيات (الواقع والعلاج) / د. يوسف الأحمد، موقع صيد الفوائد/

وفي العيادات التجميلية غالب ما يقدم من خدمات يدخل تحت التحسيني غير الضروري، مع وجود طبيبات ذوات خبرة ومهارة، لذا فالحاجة للطبيب غير ملحة، ومن ذلك معالجة حب الشباب ومشاكل البشرة. أما كشف المرأة عورتها المغلظة أمام المرأة فلا يجوز لما تقدم، ومن ذلك جلسات إزالة الشعر بالليزر، وتتساهل بعض النساء في هذا بأن الكشف يكون أمام طبيبة كما هو الحال عند الولادة وتتجاهل شرط الضرورة والحاجة^(١).

المبحث الخامس: التحذير من الإسراف بالمال.

الإسراف هو: « إنفاق المال الكثير في الغرض الخسيس. وقيل: تجاوز الحد في النفقة »^(٢).

وهو من الموضوعات الهامة في ميدان عيادات التجميل لكون هذه العيادات ربحية في المقام الأول، ومن واجب الداعية أن يبين للناس أن المال نعمة من نعم الله وهو ضروري لقيام حياة الناس وقضاء شئوئهم، ولذا يجب عدم بذله فيما لا يجدي نفعاً في الدنيا والآخرة، وقد وجه الله عبادة بحفظ أموالهم فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَوْنُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾^(٣).

(١) مما يحمد لبعض المراكز التجميلية توفير الخدمة الذاتية للنساء الراغبات بإزالة الشعر بأجهزة الليزر بأنفسهن حفظاً للعورات.

(٢) التعريفات/ص ٤٠، للعلامة علي بن محمد الجرجاني، ضبطه وفهرسه: محمد بن عبدالحكيم القاضي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥.

وبالحكمة في تدبير المال وبذله يتميز الناس بعضهم عن بعض، فيمدح الكرم وبذل الصدقات، ويذم الإسراف والبخل في توازن لا يدركه إلا العقلاء.

قال الله تعالى ممتدحاً عباده المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝١٧﴾ (١).

وقال سبحانه في ذم المبذرين: ﴿وَمَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْمِسْكِينِ وَالْبَنِّ السَّبِيلِ وَلَا بُذْرًا تَبْذِيرًا ۝٣٦ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝٣٧﴾ (٢).

فإضاعة المال في غير وجهه يورث الحسرة والندامة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٣٧﴾ (٣).
والأمر لا يخلو من محاسبة العزيز الحكيم؛ فعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفق، وعن جسمه فيم أبلاه) (٤).

(١) سورة الفرقان، الآية: ١٧.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

(٤) أخرجه الإمام الترمذي، ح (٢٤١٧)، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب في القيامة، وقال: حديث حسن صحيح. وقال العلامة المحدث الألباني: صحيح. انظر: سنن الترمذي/ص ٥٤٤.

وفي عيادات التجميل تستنزف الأموال بلا حاجة في الغالب، فالمتعارف عليه أن جلسات التجميل وعمليات شد البشرة وحقنها وترميمها مستمر ودائم نظراً لتقلبات الجو وتأثير ضغوط الحياة وتقدم السن على البشرة والقوام، فحتاج المرأة باستمرار للشد والحقن وغيره، فضلاً عن أن العمليات الجراحية التحسينية كتقويم الأنف وشفط الدهون وغيرها ذات كلفة عالية.

فالدراسات تشير إلى أن إنفاق النساء على التجميل في دول مجلس التعاون يزيد عن ٣٢ مليار دولار سنوياً، ويشهد هذا الإنفاق تزايداً تصاعدياً مع الزمن. ومن جهة أخرى، تُقدر تكاليف عمليات التجميل بأنها تتراوح ما بين ثلاثة آلاف وأكثر من ٥٠ ألف ريال^(١).

إن ترف المرأة مع قلة العلم والدين والغفلة عن ما خلقنا لأجله من العبادة والإصلاح في هذه الأرض قد يجرها إلى سلسلة من المعالجات غير الضرورية سعياً وراء جمال لا يدوم، فليس المشرع للقيام بالتجميل توفر المال فقط، وإنما الحكمة تظهر في كيفية التصرف به، ولذا كانت هذه الصفة ميزة في حق نبي الله يوسف -عليه السلام-، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ۗ ﴾^(٢).

لذا ينبغي أن تدرك النساء أن هذا المال على وفرته بين يديها لا يجوز لمن بذله من غير حاجة وفي غير ما أباحه الله -سبحانه-، ويجب أن يدعن

(١) انظر: صحيفة الاقتصادية، السبت، ٠٧ شوال ١٤٣٣ هـ. الموافق ٢٥ أغسطس ٢٠١٢ العدد ٦٨٩٣ .

http://www.aleqt.com/2012/08/25/article_685966.html

(٢) سورة يوسف، الآية : ٥٥ .

التقليد والمحاكاة والمباهاة فما استقر القلب واستراح بمثل الاطمئنان لأمر الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، وإن الرضا والسعادة لاتأتي إلا باجتماع القلب وإقباله على الله .

الفصل الثاني

المسؤولية الدعوية للداعية تجاه خدمات التجميل

المبحث الأول: المسؤولية الدعوية تجاه جراحات التجميل.

جراحة التجميل ضرب من ضروب الطب لا يخلو من أهمية، ولأن الدعوة إلى الله -تعالى- شاملة لكافة شؤون الحياة فإن هذا المجال مما يجب أن يلقى عناية من الدعاة إلى الله ببيان أحكام ما يستجد فيه من خدمات، وهو عند الأطباء ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول: جراحة التجميل التي تدعو إليها الحاجة ضرورية .

ومقصودهم بكونه ضرورياً لمكان الحاجة الداعية إلى فعله، إلا أنهم لا يفرقون فيها بين الحاجة التي بلغت مقام الاضطرار (الضرورة) والحاجة التي لم تبلغه (الحاجة) كما هو مصطلح الفقهاء رحمهم الله .

وهذا النوع المحتاج إلى فعله يشتمل على عدد من الجراحات التي يقصد منها إزالة العيب سواء كان في صورة نقص، أو تلف، أو تشوه، فهو ضروري، أو حاجي بالنسبة لدواعيه الموجبة لفعله، وتجميلي بالنسبة لآثاره ونتائجه.

فمن الجراحات الضرورية الناتجة عن عيوب خلقية: الشق في الشفة العليا، والتصاق أصابع اليدين والرجلين، أو الجراحات التي تعالج عيوباً مكتسبة: وهي العيوب الناشئة بسبب من خارج الجسم كما في العيوب والتشوهات الناشئة من الحوادث والحروق. ومن ذلك : كسور الوجه الشديدة التي تقع بسبب حوادث السير مثلاً .

وهذا النوع من الجراحة الطيبة وإن كان مسماها يدل على تعلقه بالتحسين والتجميل إلا أنه توفرت فيه الدوافع الموجبة للترخيص بفعله .
فمما لا شك فيه أن هذه العيوب تضر الإنسان حسًا، ومعنى، وذلك ثابت طبيًا، ومن ثم فإنه يشرع التوسيع على المصابين بهذه العيوب بالإذن لهم في إزالتها بالجراحة اللازمة. ولا يشكل القول بجواز فعل هذا النوع من الجراحة، لأن هذا النوع لا يشتمل على تغيير الحلقة قصدًا، لأن الأصل فيه أنه يقصد منه إزالة الضرر، والتجميل والحسن جاء تبعًا^(١).

القسم الثاني: جراحة التجميل التحسينية - اختيارية - .
وهي: « تحسين منظر جزء من أجزاء الجسم الظاهرة»^(٢).
وتنقسم إلى نوعين:

النوع الأول: عمليات الشكل، ومن أشهر صورها ما يلي:

- تجميل الأنف بتصغيره، وتغيير شكله من حيث العرض والارتفاع .
- تجميل الذقن، وذلك بتصغير عظمها إن كان كبيرًا، أو تكبيره بوضع ذقن صناعية.
- تجميل الثديين بتصغيرهما إذا كانا كبيرين، أو تكبيرهما بحقن مادة معينة مباشرة في تحويف الثديين، أو بحقن الهرمونات الجنسية، أو بإدخال النهد الصناعي داخل جوف الثدي بواسطة فتحة في الطية الموجودة تحت الثدي .
- تجميل الأذن بردها إلى الوراء إن كانت متقدمة .

(١) انظر: أحكام الجراحة الطبية والآثار المترتبة عليها /ص ١٨٢-١٨٦، د. محمد بن محمد المختار الشنقيطي، مكتبة دار الصحابة، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ. والجراحة التجميلية، الجوانب القانونية والشرعية/ (ص ٤١)، د.نادية محمد فرماز، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ...

(٢) الجراحة التجميلية، الجوانب القانونية والشرعية/ص ٤٠.

- تجميل البطن بشد جلدتها وإزالة القسم الزائد بسحبه تحت الجلد جراحياً.
النوع الثاني: فإنه يجرى لكبار السن، ويقصد منه إزالة آثار الكبر

والشيخوخة، ومن صورته:

- تجميل الوجه بشد تجاعيده.
- تجميل الأرداف.
- تجميل الساعد، وذلك بإزالة القسم الأدنى من الجلد والشحم .
- تجميل اليدين، ويسمى في عرف الأطباء " بتحديد شباب اليدين "
- وذلك بشد التجاعيد الموجودة في أيدي المسنين والتي تشوه جمالها .
- تجميل الحواجب، وذلك بسحب المادة الموجبة لانتفاخها نظراً لتقدم العمر .

وهذا النوع من الجراحة لا يشتمل على دوافع ضرورية، ولا حاجة، وهي تتضمن في عدد من صورها الغش والتدليس وهو محرم شرعاً، كما أن بعض هذه الجراحات لا يتم فعلها إلا بارتكاب بعض المحظورات^(١).

ومع هذا اختلف المعاصرون في حكمها على اتجاهين:

الاتجاه الأول: يرى المنع منها وتحريمها؛ لأنّ فيها تغييراً لخلق الله تعالى؛ ولأنه قد وردت نصوص تدل على منع الوشم والنمص والتفليج والوصل وذلك

(١) انظر: أحكام الجراحة الطبية والآثار المترتبة عليها/ص ١٩١، وبحث القواعد والضوابط الحاكمة لعمليات التجميل/ حنان بنت محمد بن حسين جستنيه، الأستاذ المساعد بقسم القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بكلية التربية للبنات / بحث منشور في موقع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية/

لما فيها من تغيير طلباً للتحسين وهذا المعنى موجود في هذه العمليات، ولما فيها من غش وتدليس وأضرار ومضاعفات إلى غير ذلك من الأدلة^(١).

ومن ذلك ما ذهب إليه فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله- لما سئل : ما الحكم في إجراء عمليات التجميل؟

فقال : «التجميل نوعان: تجميل لإزالة العيب الناتج عن حادث أو غيره، وهذا لا بأس به ولا حرج فيه؛ لأن النبي ﷺ أذن لرجل قطعت أنفه في الحرب أن يتخذ أنفاً من ذهب. والنوع الثاني: هو التجميل الزائد وهو ليس من أجل إزالة العيب بل لزيادة الحسن وهو محرم لا يجوز، لأن الرسول ﷺ لعن النامصة والمتنمصة والواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة لما في ذلك من إحداث التجميل الكمالي الذي ليس لإزالة العيب»^(٢).

الاتجاه الثاني: يرى أن تبحث كل عملية تجميلية لوحدها، إذ من هذه العمليات ما دل الشرع على تحريمه والمنع منه، ومنه ما يمكن قياسه عليها، ومنها ما بحثه الفقهاء سابقاً أو يمكن تخريجه على أقوالهم فلا تُجعل العمليات كلها من هذا النوع في مرتبة واحدة^(٣).

ولعل التفصيل أرجح، وسبب ذلك أن الشرع مع نهيهِ عن الوشم والنمص والوصل جاء بالإذن بأنواع من الزينة والتحسين كصبغ الشعر مثلاً

(١) انظر: الضوابط الشرعية للعمليات التجميلية، ورقة علمية مقدمة لندوة: (العمليات التجميلية بين الشرع

والطب) / د. هاني بن عبد الله بن محمد الجبير، ص ١٤، نشر موقع صيد الفوائد مائلة:

<http://saaid.net/book/open.php?cat=4&book=3249>

(٢) فتاوى إسلامية/ج ٤/٤١٢، جمع وترتيب: محمد بن عبدالعزيز المسند، دار الوطن، الرياض، ط ١، ١٤١٥ هـ.

(٣) انظر: الضوابط الشرعية للعمليات التجميلية / ص ١٤.

وهذا يدل على أن تعميم العلة بمنع التحسين غير مقبول، والعلة متى فُقد اطرادها دَلٌّ على إبطال عليتها. والتعليل بقصد التحسين لا يصلح علةً للتحريم - أيضاً - لأننا نشهد من الشارع اعتبار قصد التحسين والتجميل لا المنع منه^(١).

وقد سئل سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله- عن حكم الإسلام في جراحة التجميل؟

فقال : « هذا فيه تفصيل: إذا كانت الجراحة لا تغير شيئاً مما أمر الله ببقائه فلا بأس، فإذا كان التجميل لا يتضمن نقشاً في وجه الإنسان وهو الوشم، ولا يتضمن قطع عضو وإنما ينوّر الوجه أو ينور البدن أو يعدل ما اعوج، كيدٍ فيها عوج تصلح، أو رجل فيها عوج، أو أنف فيه خلل يصلح فلا بأس بذلك، أو أسنان فيها خلل تصلح كطول بعضها أو ميلان بعضها أو سواد في سنه، أو شيء مما يمكن زواله وحصول الجمال من دون أن يخالف أمر الله في شيء من ذلك فلا حرج في ذلك، فالرسول ﷺ نهي عن الوشم، ونهي عن الوصل، ولم ينة عن التجميل (إن الله جميل يحب الجمال)، كذلك إذا كان في إصبع زائدة في الرجل أو في اليد فالصواب أنه لا حرج في إزالتها إذا قرر له الطبيب أن إزالتها لا خطر فيها، وهكذا لو كان هناك خرمٌ في الوجه أو في اليد يمكن إزالته بالعلاج فلا بأس، أو بقع سوداء في بدنه أو وجهه تمكن معالجتها كل هذا لا حرج فيه؛ لأنه تجميل لا يخالف أمر الله»^(٢).

(١) انظر: المرجع السابق / ص ١٤١.

(٢) من فتاوى برنامج: نور على الدرب، الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله-

ويمكن أن يتضح للداعي إلى الله حكم كل نوع من هذه الجراحات بضبطها بالضوابط الشرعية للتجميل مما ذكر سابقا إذ يتبين بها المباح من المحرم، ويجب توعية الناس بضرورة الرضا بالقضاء والقدر فهو ركن من أركان الإيمان ومن تمامه رضا المرء بما خلقه الله عليه من صورة، كما أن تتبع هوى النفس قد يهلكها بالسعي وراء الكمال.

المبحث الثاني

المسؤولية الدعوية تجاه العناية بالبشرة

إن السعي لبشرة ناعمة صافية هدف لمعظم النساء، ولا يتم جمال الوجه إلا بها، فنضارة الوجه وتألقه مرتبط بها، وهي من سمات أهل الجنة إذ وصفهم الله جل شأنه بقوله: ﴿وَجُوهٌ يُّؤَمِّدُ نَاعِمَةٌ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾^(١). وقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يُّؤَمِّدُ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾^(٢).

وكثر في الآونة الأخيرة زيارة النساء لعيادات التجميل من أجل هذا الأمر، وأصبحت مواعيد بعض العيادات تأخذ زمناً طويلاً لشدة زحام مراجعيتها، ولا شك أن هذا باب عظيم للدعوة إلى الله كون غالب المراجعين نساء يأتين من أجل علاجات تحسينية غير ضرورية فهن أصفى ذهنًا وأجدر بقبول الدعوة ممن يشتكي المرض.

وفي مجال العناية بالبشرة يأتي ما ينعمها ويلينها ويعالج ما يطرأ عليها من بشور وحبوب على رأس ذلك، وهذا مباح ولا بأس به إذا تجنبت المحرمات كالآدهان بكريمات نجسة تحتوي على دهن الخنزير مثلاً، أو ترتب عليه محاذير شرعية ككشف وجه المرأة للرجل وغير ذلك.

ومن أبرز معالجات البشرة تقشيرها لمعالجة آثار حبوب الشباب والكلف وهو على درجات متفاوتة ما بين سطحي يعالج البثور والتصبغات الجلدية وهو من باب التجميل المباح لأنه لا يغير لون البشرة ويؤمن فيها من

(١) سورة القيامة، الآيات: ٢٢-٢٣.

(٢) سورة الغاشية، الآية: ٨.

الضرر، وتقشير عميق وهو الذي يغير البشرة من لون إلى آخر ويترتب عليه أضرار محتملة ولا يجرى إلا بتحذير كامل وتحت مراقبة طبية مكثفة لاحتمال تأثير العملية على وظائف الجسم فهذا محرم لتغيير خلق الله وللضرر.

وقد سئل الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله: ما حكم كريم تقشير البشرة هذا الكريم يوجد في الأسواق فما حكم استخدام مثل هذه الكريمات؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، لا أدري ما هذا الكريم هل هو يلين البشرة وينعمها بدون تغيير اللون هذا لا بأس به لأنه من جملة أدوات التجميل، وأما إذا كان يغير البشرة من لونٍ إلى آخر فهذا محرم لأنه أشد من الوشم الذي لعن النبي صلى الله عليه وسلم فاعلته فقد لعن الواشمة والمستوشمة والوشم هو أن يغرز الجلد بلونٍ مخالفٍ لونه على وجه التطريز والوشى وأقبح من ذلك أن يكون الوشم على صورة حيوان هذا هو الجواب أنه إذا كان لتنعيم الجسم فلا بأس به وإذا كان لتغيير اللون فإنه محرم^(١).

وفي مجال البشرة أيضاً يأتي الوشم على رأس المحرمات التي توعد الله فاعله باللعن^(٢)، ومن صورته: التاتواج وهو نوع من أنواع الوشم، تستخدمه النساء لعمل مكياج للعينين برسم الكحل والحاجبين بلون ثابت وتلوين الشفتين ويستمر لسنوات تصل إلى خمس سنوات.

(١) فتاوى نور على الدرب (نصيحة) / موقع الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله-

http://www.ibnothaimeen.com/all/noor/article_5206.shtml

(٢) مضى تخريج الحديث في ص ٧ من هذا البحث.

وقد سئل الشيخ عبد الله بن جبرين - رحمه الله :
 ظهر حديثاً طريقة جديدة لعمل الكحل، وتحديد الشفاه بطريقة الوشم
 المؤقت الذي تصل مدته إلى ستة أشهر أو سنة؛ وذلك بدلاً من الكحل
 العادي، وقلم تحديد الشفاه، فما حكم ذلك ؟

فأجاب: « لا يجوز ذلك؛ لدخوله في مسمى الوشم، فقد (لَعَنَ النبي
 صلى الله عليه وسلم الوائِثَةَ والمُسْتَوْثِمَةَ)، فإن هذا التحديد للشفاه
 والعينين يبقى سنة أو نصف سنة، ثم يجدد إذا اندرس، ويبقى كذلك،
 فيكون شبيهاً بالوشم المحرّم. والأصل: أن الكحل علاج للعين، لونه أسود،
 أو رمادي، يكتحل به على الأهداب ومشافر العينين عند الرمذ، أو لحفظ
 العين عن المرض، وقد يكون جمالاً وزينة للنساء، كالزينة المباحة، فأما تحديد
 الشفاه بطريقة الوشم المؤقت: فأرى أنه لا يجوز، فعلى المرأة أن تبتعد عن
 المشتبهات والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم»^(١).

ومن تحميل البشرة الحقن التجميلي، ويكون بعدة أنواع:

- الحقن بالدهون: ويُراد به سحب الدهون من جسم الإنسان وحقنها
 في الجسم نفسه لأغراض تجميلية.
- الحقن بالبوتكس وهو: مادة شديدة السميّة تُستخرج من بعض
 أنواع البكتيريا، يُستعمل في مجال الجراحة التجميلية على هيئة حقن لا تحوي
 إلا مقداراً يسيراً جداً ليس فيه ضرر.

(١) موقع الإسلام سؤال وجواب/99629/http://islamqa.info/ar/ref/99629

- الحقن بالكولاجين وهو: مادة بروتينية تؤخذ من الجسم، وتُحقن في الوجه لملء التجاعيد وعلاج التشوهات.

والحقن بأنواعه إجراء مؤقت الغرض من استعماله يجب أن يقتصر على إزالة العيوب وتصحيح التشوهات التي تصيب الوجه والجسم كتجاعيد البشرة لشابة أمر غير معهود، أما استعماله للتدليس أو العبث وتغيير خلق الله تعالى كاستعماله لاختفاء تجاعيد كبار السن المعتادة فهو محرّم (١).

هذه أبرز خدمات العناية بالبشرة، وهي متجددة بشكل متسارع تبعاً للتقنيات العالمية في هذا المجال.

(١) انظر: الضوابط الشرعية لعمليات تحسين القوام والحقن التجميلي/ورقة علمية مقدمة لندوة "العمليات التجميلية بين الشرع والطب"، إعداد د. عبد العزيز بن فوزان الفوزان - أستاذ الفقه المشارك، ورئيس قسم الفقه المقارن بالمعهد العالي للقضاء - التي تقيمها إدارة التوعية الدينية بالمديرية العامة للشؤون الصحية بمنطقة الرياض، البحث منشور في منتديات رسالة الإسلام/

المبحث الثالث

المسؤولية الدعوية تجاه زراعة وإزالة الشعر

يتم زراعة الشعر عن طريق نقل بصيالات الشعر الطبيعية من المناطق الخلفية لفروة الرأس والجوانب المعروفة طبيًا بالمنطقة الواهبة وزرعها في المناطق الأمامية أو قمة الرأس والمعروفة بالمنطقة الموهوبة، وبعد العملية بـ ٢٤ ساعة تصبح الطعوم المزروعة جزءًا أصليًا من الجسم وتحصل على تروية دموية ويلتئم الجلد المحيط بما لينمو الشعر بعد ذلك بثلاثة شهور كباقي الشعر الطبيعي^(١).

ومع التقدم التقني اليوم أصبحت هذه المعالجة ميسورة، وربما تهاون البعض في الاستعانة بها فيما يخالف الشرع جهلاً بالحكم أو تهاوناً، ومن واجبات الداعي إلى الله -تعالى- توعية الناس بأحكام هذه المعالجات من زراعة الشعر وإزالته على حد سواء.

ففي مجال زراعة الشعر اختلف العلماء في حكمه فمنهم من قال بالجواز ومنهم من قال بالتحريم، وقد أفتى الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله- بجواز ذلك لأن هذا من باب ردّ ما خلق الله عز وجل، ومن باب إزالة العيب، وليس هو من باب التجميل أو الزيادة على ما خلق الله عز وجل، فلا يكون من باب تغيير خلق الله، بل هو من رد ما نقص وإزالة العيب، واستدل بما في قصة الثلاثة نفر الذي كان أحدهم أقرع وأخبر أنه يجب أن

(١) انظر: موقع مستشفى الجلدية والجراحة التجميلية: أوباجي/

يرد الله عز وجل عليه شعره فمسحه الملك فردّ الله عليه شعره فأعطي شعراً حسناً^(١).

ومن هنا نلاحظ أن القول بجواز زراعة الشعر مقيد بما إذا كان يقصد به إزالة العيب وردّ ما خلقه الله، أما إذا كان يقصد بما طلب زيادة الحسن فوق ما خلق الله بتكثير الشعر وزيادة غزارته فلا يجوز لعله تغيير خلق الله. وفي جانب إزالة الشعر تقدم عبادات التجميل خدمة إزالة الشعر بأجهزة الليزر كحتل ليز و الجنتل ياق والمدلايت، وأجهزة الضوء والتحليل الكهربائي.

والحكم في إزالة الشعر يختلف باختلاف موضع الشعر المراد إزالته فقد يكون مندوباً إليه، وقد يكون محرماً، وقد يكون مباحاً ولذلك فقد قسم العلماء الشعر إلى ثلاث أقسام:

- القسم الأول: ما نص الشرع على تحريم إزالته كشعر اللحية والحاجبين.
- القسم الثاني: ما نص الشرع على طلب إزالته كشعر الإبط والعانة.
- القسم الثالث: ما سكت عنه الشرع كشعر باقي الجسم مما يكون على الأيدي والأرجل والفخذين وغيره.

وبهذا ما كان يجرم إزالته من الشعر كشعر اللحية وشعر الحاجبين فإنه يجرم استخدام هذه التقنيات في إزالة هذا الشعر، ويجوز استخدامها في

(١) انظر: فتاوى البلد الحرام/ص ٦٩٠، تقدم: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، د:ط..

إزالة شعر الإبط، ويجرم ذلك في إزالة شعر العانة إذا استلزم كشف العورة لعدم وجود ضرورة، ويجوز استخدامها في إزالة ما سكت عنه الشرع كشعر اليدين والساقين^(١).

وما ذكر من جواز إزالة الشعر بالتقنيات الطبية الحديثة مقيد بمراعاة ضوابط التجميل مما ذكر سابقاً.

(١) انظر: أحكام زراعة الشعر وإزالته / د. سعد بن تركي الخثلان، عضو هيئة التدريس في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بحث مقدم إلى ندوة (العمليات التجميلية بين الشرع والطب) التي تقيمها إدارة التوعية الدينية بالمديرية العامة للشؤون الصحية بمنطقة الرياض، البحث منشور في موقع المنتقى الفقهي / http://fiqh.islammessage.com/NewsDetails.aspx?id=1157#_ftn29

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، له الحمد أولاً وآخراً، حمداً يليق بعظمته وجلاله سبحانه، وأشكره جلّ شأنه على تيسيره وامتنانه، ثم أن هذا البحث بصفحاته قد استوفى أركانه، ولا أزعج تمامه، فهو جهد لا يخلو من نقص وهو طبع البشر.

ويحسن هنا أن أبين بعض ماخرجت به من نتائج، وهي كما يلي:

١- أن التجميل والزينة بحد ذاتها مباحة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ

الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً

يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ (١).

٢- للتجميل ضوابط يجب الإلتزام بها وإلا خرجت من المباح للتحریم، ومن مسؤوليات الداعي إلى الله -تعالى- بيانها وتجليتها للعاملين في مجال التجميل والمستفيدين منه.

٣- من أبرز ضوابط التجميل أن ألا يؤدي إلى تغيير خلق الله أو إلى تشبه محرم.

٤- كل تجميل أدى إلى ضرر فهو محرم، والأصل في التجميل أن يكون لإزالة عيب أو ضرر.

٥- الغش والتدليس محرم بكافة أشكاله، سواء ماوقع من المريض أو الطبيب على حد سواء، ومن التدليس التجميل بما هو خلاف الواقع للخاطب مثلاً.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

- ٦- لا يخلو مكان مختلط من مخالقات التبرج والسفور ومنها عيادات التجميل، ويجب على الدعاة إلى الله مداومة الوعظ والإرشاد فيها.
- ٧- يجب حفظ العورات وعدم كشفها بغير حاجة ومن ذلك كشف المرأة وجهها للطبيب بغير ضرورة، ويشند التحريم فيما بين السرة والركبة.
- ٨- من الإسراف بالمال بذله في غير حاجة، ويقع ذلك في عيادات التجميل في معالجات غير ضرورية وذات أثر محدود وبكلفة عالية.
- ٩- جراحات التجميل منها ماهو ضروري ومنها ماهو تحسيني ؛ فأما الضروري فلا خلاف في إباحته لكونه يأتي لإزالة ضرر، وأما التحسيني فالراجع والله أعلم أن تبحث كل عملية تجميلية لوحدها، لاختلاف دواعيها ووما تستند إليه في الشرع، ومن الدعوة إلى الله توعية الناس بالفرق بينهما وحكم الله فيهما مع الإقبال الشديد على عمليات التجميل كتقويم الأنف وعمليات نحت الجسم.
- ١٠- في واقعنا المعاصر ومع تقدم تقنيات التجميل تعود بعض المحرمات بمسميات جديدة؛ كالوشم بمسمى التاتواج وتغير الاسم لا يغير من واقعه وهو محرم توعده الله فاعله باللعن وتجب الدعوة إلى تجنبه والتحذير من الوقوع فيه.
- ١١- من معالجات البشرة الحقن بكافة أنواعه، واستعماله للتدليس أو العبث وتغيير خلق الله تعالى كاستعماله لاختفاء تجاعيد كبار السن المعتادة وهو محرم .

١٢- زراعة الشعر إذا كانت لرد ما نقص وإزالة العيب فلا ينكر على فاعلها، أما لزيادة الحسن فلا تجوز.

١٣- في عيادات التجميل وغيرها يحرم إزالة شعر اللحية والحاجبين وما أفضى إليه بأي وسيلة كانت، ويجوز إزالة الشعر فيما أباح الشرع إزالته كشعر اليدين والرجلين، وفيما دعا إلى إزالته كشعر الإبط والعانة، ولكن يحرم إزالة شعر العانة وما كان من العورة إذا استلزم كشفها لعدم وجود ضرورة، وهو مما عم البلاء به.

هذا مظاهر للباحثة؛ والأمر فيه تجدد ويتطلب التأمل والاحتياط فيما تقدمه مراكز التجميل من خدمات فإن الأمر لا يخلو في غالبه من مخالفة شرع الله بشكل أو بآخر، ومما يسهم في رفع الوعي في هذا الجانب قيام الدعاة ببرامج إرشادية توعوية تحذ من الوقوع فيما حرم الله.

أسأل الله أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا فيهلكنا الهوى فنضل ونزل، إنه ولي ذلك والقادر عليه سبحانه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع

أولاً: الكتب:

- ١- أحكام الجراحة الطبية والآثار المترتبة عليها / د. محمد بن محمد المختار الشنقيطي، مكتبة دار الصحابة، الطبعة الثانية، ١٤١٥ هـ.
- ٢- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم/ لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية، تحقيق وتعليق: د. ناصر عبدالكريم العقل، دار المسلم، الرياض، ط٥، ١٤١٥ هـ.
- ٣- بيان الدليل على بطلان التحليل/ لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٩٨ م.
- ٤- التعريفات/ للعلامة علي بن محمد الجرجاني، ضبطه وفهرسه: محمد بن عبدالحكيم القاضي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٤١١ هـ.
- ٥- الجراحة التجميلية، الجوانب القانونية والشرعية/ د. نادية محمد قرماز، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ.
- ٦- حكم الإنكار في مسائل الخلاف/ د. فضل إلهي، نشر: ادارة ترجمان الإسلام سي ٣٣٦، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.
- ٧- زينة المرأة بين الطب والشرع/ للشيخ محمد بن عبدالعزيز المسند، مؤسسة المؤمن للتوزيع، الرياض، مكة، ط: ٢، ١٤١٦ هـ.

- ٨- سنن ابن ماجه/ للإمام أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، حكم على أحاديثه وعلق عليه العلامة المحدث: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيده مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، د:ت.
- ٩- سنن أبي داود/ للإمام أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني، حكم على أحاديثه وعلق عليه العلامة المحدث: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيده مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، د:ت.
- ١٠- سنن الترمذي/ للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، حكم على أحاديثه وعلق عليه العلامة المحدث: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيده مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، د:ت.
- ١١- فتاوى إسلامية/ جمع وترتيب: محمد بن عبدالعزيز المسند، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ.
- ١٢- فتاوى البلد الحرام/ تقديم: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، د:ط.
- ١٣- فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري/ للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تقديم وتحقيق وتعليق: عبدالقادر شيبه الحمد، ط١، ١٤٢١هـ، د: د.

- ١٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير/ للإمام محمد عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ.
- ١٥- القواعد الشرعية في المسائل الطيبة / وليد بن راشد السعيدان، الكتاب منشور في الموقع الرسمي للمؤلف <http://alsaeedan.net/play.php?catsmktba=44>
- ١٦- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية/ جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، وساعده ابنه محمد، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ، د:ط.
- ١٧- المدخل إلى علم الدعوة / لأبي محمد أبو الفتح البيانوني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٠هـ
- ١٨- المستصفي من علم الأصول/ لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق: محمد عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.
- ١٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل/ بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ، د:ط.
- ٢٠- المعجم الوسيط/ قام بإخراجه: ابراهيم مصطفى، وآخرون، المكتبة الإسلامية، استنبول، تركيا، ط٢، د:ت.
- ٢١- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج/ لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩٢هـ.

٢٢- الموافقات في أصول الشريعة/ لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي، عناية وضبط: محمد عبدالله دراز، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط ٢، ١٣٩٥هـ.

٢٣- موسوعة الحديث الشريف (الكتب الستة)/ اشراف ومراجعة: صالح بن عبدالعزيز بن محمد بن ابراهيم آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط ٣، ١٤٢١هـ..

٢٤- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار/ للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٧٣م.
ثانياً : الأبحاث وأوراق العمل:

١- أحكام زراعة الشعر وإزالته / د. سعد بن تركي الخثلان، عضو هيئة التدريس في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بحث مقدم إلى ندوة (العمليات التجميلية بين الشرع والطب) التي تقيمها إدارة التوعية الدينية بالمديرية العامة للشؤون الصحية بمنطقة الرياض، البحث منشور في موقع الملتقى الفقهي/

http://fiqh.islammassage.com/NewsDetails.aspx?id=1157#_ftn29

٢- تعزيز ثقافة الحسبة/ورقة عمل مقدمة لمؤتمر التطبيقات المعاصرة للحسبة في المملكة العربية السعودية كرسي الملك عبدالله بن عبدالعزيز للحسبة وتطبيقاتها المعاصرة بجامعة الملك سعود، إعداد / د. صالح بن عبدالله بن حميد، عام ١٤٣٣هـ، منشورة في كتاب: السجل العلمي للمؤتمر، مطابع جامعة الملك سعود، وأيضاً في الموقع الشخصي للباحث/

<http://ibnhomaid.af.org.sa/node/1804>

٣- تغيير خلق الله ضوابطه وتطبيقاته / ورقة مقدمه إلى حلقة نقاش:
(ضوابط وقواعد في اللباس والزينة والتجمل) تنظيم: الأمانة العامة بموقع
الفقه الإسلامي، الأربعاء ٢٨ شعبان ١٤٣٠هـ، إعداد: د. صالح بن
محمد الفوزان، الورقة منشوره في موقع الفقه الإسلامي /

<http://www.islamfeqh.com/Nawazel/NawazelItem.aspx?NawazelItemID=505>

٤- ضوابط التشبه المحرم في اللباس والزينة وتطبيقاته المعاصرة / محمد بن
موسى بن مصطفى الدالي، الباحث بمركز الدراسات والبحوث الفقهية
بموقع الفقه الإسلامي، بحث مقدم إلى الفعالية السابعة ضمن فعاليات
موقع الفقه الإسلامي، البحث منشور في موقع الفقه الإسلامي /

<http://www.islamfeqh.com/Nawazel/NawazelItem.aspx?NawazelItemID=505>

٥- الضوابط الشرعية لعمليات تحسين القوام والحقن التجميلي/ورقة علمية
مقدمة لندوة "العمليات التجميلية بين الشرع والطب"، إعداد د. عبد
العزیز بن فوزان الفوزان - أستاذ الفقه المشارك، ورئيس قسم الفقه
المقارن بالمعهد العالي للقضاء - التي تقيمها إدارة التوعية الدينية بالمديرية
العامة للشؤون الصحية بمنطقة الرياض، البحث منشور في منتديات
رسالة الإسلام /

<http://muntada.islammesssage.com/showthread.php?t=11913>

٦- الضوابط الشرعية للعمليات التجميلية، ورقة علمية مقدمة لندوة:
(العمليات التجميلية بين الشرع والطب) / د. هاني بن عبد الله بن

محمد الجبير، نشر موقع صيد الفوائد /

<http://saaaid.net/book/open.php?cat=4&book=3249>

٦- موقع طبيــــــــــــــــب دت نــــــــــــــــت

<http://www.tbceb.net/ask/showthread.php?t=118046/>

٧- موقع وزارة الصحة/

<http://www.moh.gov.sa/Ministry/MediaCenter/News/Pages/News-2012-02-18-004.aspx>

٨- موقع مستشفى الجلدية والجراحة التجميلية:أوباجي/

<http://www.obagihospital.com/hairdetail.html>

٩- موقع هيئة الغذاء والدواء /

<http://www.sfda.gov.sa/ar/drug/awareness/news/Pages>

+في+ مستحضرات+ التجميل .aspx

البحث رقم (٦)

قاعدة المشقة تجلب التيسير دراسة دعوية تأصيلية

إعداد

د. تركي بن عبدالله السكران

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المشارك

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ؕ وَلَا تَمُونُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ

اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا رِجَالًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا

اللَّهِ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣) (٤). أما بعد:

فإن الدعوة إلى الله تعالى أشرف وأعظم ما يتقرب به المسلم إلى ربه كما قال

تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ

الْمُسْلِمِينَ﴾^(٥)، وبما أنها كذلك فهي الأولى أن يؤتى بها على أكمل وجه، أو يُنشد

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية ١.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان ٧٠، ٧١.

(٤) هذه خطبة الحاجة، أخرجها الإمام أحمد (٣٩٢/١)، وأبو داود في كتاب النكاح، باب في خطبة الحاجة،

برقم: (٢١١٨) ط/١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ، والترمذي في جامعه، كتاب النكاح، باب ما جاء

في خطبة النكاح، برقم: (١١٠٦)، وقال: صحيح، ط/١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٢هـ، والنسائي كتاب

الجمعة، باب الدنو من الإمام يوم الجمعة برقم: (١٧٠٩)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح،

برقم: (١٨٩٣)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، ط/١، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٨هـ، وصححها الألباني في

كتابه: خطبة الحاجة (ص: ٩).

(٥) سورة فصلت، الآية ٣٣.

فيها الكمال على أقل الاحتمال. وإذا أُريدَ بما هذا المبلغ العظيم فليُبحث عن الطرق المعينة الموصلة إلى الكمال أو القرب منه.

ومما أصبح معلوماً عند الناس جميعاً، ومسلماً به عند العقلاء كافة، أن الشريعة الإسلامية لم تقصد إلى إعنات الناس، أو تكليفهم بما هو شاق عليهم، كما لم تجعل من وسائل العبادات، أو علامات الخضوع والانقياد لله رب العالمين تحميلهم فوق ما يطيقون، وإنما شرعت لهم ما هو في حدود طاقتهم، فما كلفوا به من الأوامر أو النواهي هو سهل وميسر تنفيذه؛ لما فيه من الواقعية والسماحة والتخفيف الذي يسهل على كل صاحب إرادة صحيحة النزول عنده والوقوف عند حدود الله تعالى فيه.

ولما بدأ الناس يأخذون بالسهل واليسير في أمورهم بسبب اختلاط المفاهيم الشرعية مع غيرها عندهم، انحرفوا وتساهلوا أو تشددوا وغالوا في فهم حقيقة المشقة المنفية شرعاً، والتيسير المراد الأخذ به والعمل به؛ لذا خصصت دراسة قاعدة المشقة تجلب التيسير، لتبين حقيقتها، وما تحمله في طياتها من معاني ودلالات، وربطها بمسائل الدعوة لتكون نبراساً للدعاة ومعيناً لهم في أداء واجبهم الدعوي النبيل.

وقد قرر فقهاؤنا عموماً أن هذه القاعدة هي إحدى القواعد الكبرى التي بني عليها الفقه ويتخرج عنها جميع رخص الشرع وتخفيفاته، وتعتبر أصلاً عظيماً من أصول الشرع التي صارت أصلاً مقطوعاً به لتوفر الأدلة عليها.

وفي هذا الصدد نقرأ كلاماً جميلاً لأحد أعلام المالكية ألا وهو الإمام أبو إسحاق الشاطبي -رحمه الله-، إذ يقول: (إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع)^(١).

(١) الموافقات (١/٥٢٠ - مشهور).

ولقد اعتنى علماءنا بهذه القاعدة اعتناء بالغاً ومن تكم المؤلفات:

١. قاعدة المشقة تجلب التيسير، دراسة نظرية - تأصيلية - تطبيقية ليعقوب بن عبد الوهاب الباحسين.
٢. المشقة تجلب التيسير: دراسة نظرية وتطبيقية لصالح بن سليمان بن محمد اليوسف.
٣. التحرير في قاعدة المشقة تجلب التيسير لعامر الزبياري.
٤. قاعدة: المشقة تجلب التيسير؛ مفهومها وتطبيقاتها للدكتور الشريف حمزة بن علي الكتاني.
٥. قواعد وضوابط التيسير في الشريعة. لشيخنا عبد الرحمن صالح العبد اللطيف.
٦. التيسير ورفع الحرج في العبادات في فقه الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت لنصحي محفوظ محمد.
٧. قاعدة المشقة تجلب التيسير وتطبيقاتها على الصوم والحج إعداد الطالب موري دوكوري أبو بكر سومارو.
٨. أثر قاعدتي المشقة تجلب التيسير ولا ضرر ولا ضرار في المسائل الطبية المستجدة لمحمد بن عبد العزيز اليميني.

مشكلة البحث:

تشكل مشكلة هذا البحث بما يلي:

- أولاً: هل قاعدة المشقة تجلب التيسير تستخدم مطلقاً لكل من يريد التيسير ولو بلا مشقة معتبرة شرعاً، أم منضبطة بضوابط الشرع.
- ثانياً: ما هي أهمية هذه القاعدة في المجال الدعوي.
- ثالثاً: وما هو الدور الذي تلعبه قاعدة المشقة تجلب التيسير بصفة خاصة، في بيان تيسير الدين الإسلامي ورفع الحرج عن المكلف عند امتثال الأوامر واجتناب النواهي؟

رابعاً: ما هي المعايير والشروط لاعتبار المشقة الجالبة للتيسير في المنظور الدعوي؟

أهداف البحث:

يصبوا هذا البحث إلى تحقيق هذه الأهداف التالية:

الأول: أهمية قاعدة المشقة تجلب التيسير في المجال الدعوي.

الثاني: بيان التيسير والسماحة واليسر التي جاء بها الدين الحنيف.

الثالث: وضع دراسة علمية بين يدي الباحثين والمفتين في مسائل الدعوة.

الدراسات السابقة:

١. التيسير في الدعوة إلى الله في ضوء الكتاب والسنة لأمل محمد العجلان.
٢. الاجتهاد الدعوي وإمكانات الوفاق للدكتور عبد الله الزبير عبد الرحمن صالح.
٣. التطبيقات الدعوية والتربوية للقواعد الفقهية الخمس الكبرى للدكتور عبد الرحمن بن أحمد الجرعي.
٤. القواعد الفقهية وتطبيقاتها الدعوية لحسام العيسوي إبراهيم.
٥. القواعد الفقهية الكلية وتطبيقاتها الدعوية، لمجد علي عبد الله القحطاني.
٦. القواعد الشرعية ودورها في ترشيد العمل الإسلامي لأبي البيانوني.
٧. اليسر والسماحة في الإسلام لفالح الصغير.
٨. القواعد والضوابط الفقهية المؤثرة في أحكام العمل الخيري لهاني بن عبد الله بن محمد الجبير.

منهج البحث:

سيستعج بإذن الله تعالى في كتابة هذا البحث المناهج التالية:

أولاً: ذكر مقدمة تمهيدية لكل مبحث تتضمن ما كل يندرج تحته من المطالب بشكل إجمالي.

ثانياً: ذكر الآيات القرآنية بالرسم العثماني.

ثالثاً: تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية.
 رابعاً: الاعتماد على أمهات الكتب ومصادرها الأصلية.
 خامساً: الاستفادة من المواقع العلمية شبكة الانترنت مع بيان اسم الموقع واسم كاتب المقالة.

سادساً: ربط المسائل الواردة في البحث بقاعدة المشقة تجلب التيسير، وما يتفرع عنها القواعد الفرعية أو المندرجة تحتها.
 سابعاً: عزو الأقوال إلى أصحابها في الحاشية.
 ثاسعاً: فقد جعلت البحث من مقدمة وثلاثة مباحث.
 أما في المقدمة فقد ذكرت فيها أهمية هذا البحث ومشكلته وأهدافه والدراسات السابقة ومنهج الباحث.

المبحث الأول: أهمية القواعد عموماً وقاعدة المشقة تجلب التيسير خصوصاً.

المطلب الأول: أهمية القواعد الشرعية.

المطلب الثاني: أهمية القواعد في المجال الدعوي.

المطلب الثالث: شرح قاعدة المشقة تجلب التيسير.

المطلب الرابع: المقصود من القاعدة.

المطلب الخامس: التطبيقات الدعوية لهذه القاعدة.

المطلب السادس: القواعد المرتبطة بقاعدة المشقة تجلب التيسير.

المبحث الثاني: أحكام التيسير.

المطلب الأول: نصوص التيسير من الكتاب والسنة.

المطلب الثاني: معنى اليسر وضوابطه وأنواعه.

المطلب الثالث: أقوال السلف في اختيار أيسر المذاهب، ومعنى الأخذ

بالأخف.

المطلب الرابع: معاني التيسير.

المطلب الخامس: أثر اليسر والسماحة في انتشار الإسلام:

المطلب السادس: مفهوم التيسير المعاصر.

المبحث الثالث: أحكام المشقة.

المطلب الأول: أقسام المشقة وضوابطها.

المطلب الثاني: قواعد في المشقة.

المطلب الثالث: تقصد المشقة في الشريعة الإسلامية.

المطلب الرابع: هل مقدار الأجر يكون على المشقة والجهد المبذول في العمل

أم هو على ما ينتج عن العمل من منفعة وخير وصلاح؟

المطلب الخامس: عبارة الأجر على قدر المشقة.

المطلب السادس: فقه الدعوة في ضوء التيسير ورفع الحرج.

خاتمة: بينت فيها نتائج البحث.

والله أسأل بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلا، أن يجعل هذا العمل مباركاً، وأن
ينفعني به في حياتي وبعد مماتي، وأن ينفع به إخواني الدعوة، وجميع من انتهى إليه،
وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم موافقاً لسنة سيد الناس أجمعين؛ فإنه سبحانه خير
مسئول، وأكرم مأمول، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله
وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المبحث الأول

أهمية القواعد عموماً وقاعدة المشقة تجلب التيسير خصوصاً

المطلب الأول

أهمية القواعد الشرعية

القواعد الكبرى لها أهمية بالغة للدعاة وبقدر اعتناء الداعي إلى الله بها بقدر سداد منهجه الدعوى، وبقدر إهماله لهذه القواعد بقدر دخول الوهن في دعوته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية ترد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت؟ وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات، فيتولد فساد عظيم)^(١).

وقال العلامة القرافي -رحمه الله-: (هذه القواعد مهمة في الفقه، عظيمة النفع، وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه ويشرف، ويظهر رونق الفقه ويعرف، وتتضح مناهج الفتوى وتكشف، ... ومن جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية؛ تناقضت الفروع واختلفت ... ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندارجها في الكليات، واتحد عنده ما تناقض عند غيره وتناسب)^(٢).

وقال الأستاذ مصطفى أحمد الزرقا - رحمه الله - في كتابه المدخل الفقهي العام: (فإن في هذه القواعد تصويراً بارعاً، وتنويراً رائعاً للمبادئ والمقررات الفقهية العامة، وكشفاً لآفاقها ومسالكها النظرية، وضبطاً لفروع الاحكام العملية بضوابط، تبين في كل زمرة من هذه الفروع وحدة المناط، وجهة الارتباط، برابطة تجمعها، وإن اختلفت موضوعاتها وأبوابها)^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٢٠٣/١٩).

(٢) الفروق، الإمام القرافي (٧١/١).

(٣) شرح القواعد الفقهية ص ١١.

وقال الشيخ السعدي - رحمه الله - في منظومة القواعد الفقهية: (١)

اعلم هُديت أن أفضل المننُ علم يزيل الشك عنك والدرن
ويكشف الحق لذي القلوب ويوصل العبد إلي المطلب
فاحرص عل فهمك للقواعد جامعـة المسائل الشوارد
فترتقي في العلم خير مرتقى وتقتفي درب الذي قد وُفِّقا
فهو يقول: إن ممن الله على العباد كثيرة، وأفضل ما من الله على عبده به هو
العلم النافع.

وضابط العلم النافع كما قلت في النظم أنه يزيل عن القلب شيتين: وهما:
الشبهات والشهوات.

فالشبهات: تورث الشك، والشهوات: تورث درن القلب وقسوته، وتثبط البدن
عن الطاعات.

فعلامة العلم النافع: أن يزيل هذين المرضين العظيمين، ويجلب للعبد في
مقابلتهما شيتين وهما: اليقين: الذي هو ضد الشكوك، الثاني: الإيمان التام الموصل
للعبد لكل مطلوب، المثمر للأعمال الصالحة: الذي هو ضد للشهوات.

فكلما ازداد الإنسان من العلم النافع: حصل له كمال اليقين، وكمال الإرادة،
ولا تتم سعادة العبد إلا باجتماع هذين الأمرين، وبهما تنال الإمارة في الدين، قال
تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
يُوقِنُونَ﴾ (٢)، ودرجات اليقين ثلاثة كل واحدة أعلى من الأخرى: علم اليقين، وعين
اليقين، وحق اليقين.

فعلم اليقين: في الدنيا كعلمنا الآن بالجنة والنار. وعين اليقين: إذا ورد الناس

(١) القواعد الفقهية للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

(٢) سورة السجدة الآية ٢٤.

القيامه ﴿ وَأَزْلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمَنَّيْنِ وَبَرَزْتَ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ ﴾^(١) فأروهما قبل الدخول، وحق اليقين: إذا دخلوهما.

وحاصل ذلك: أن العلم شجرة تثمر كل قول حسن، وعمل صالح، والجهل: شجرة تثمر كل قول وعمل خبيث.

وإذا كان العلم بهذه المثابة فينبغي للإنسان أن يحرص كل الحرص، ويجتهد كل الاجتهاد في تحصيله، وأن يديم الاستعانة بالله في تحصيله، ويبدأ بالأهم فالأهم منه، ومن أهمه: معرفة أصوله وقواعده التي ترجع مسأله إليها. وهذا لأن معرفة القواعد من أهم وأقوى الأسباب لتسهيل العلم وفهمه وحفظه، لجمعها المسائل المتفرقة بكلام جامع.

وقد جمع الناظم هذه القواعد بقوله:

واعلم بأن الفقه مبناه على خمس قواعد إذا ما جُتلى
لا يرفع اليقين شكاً، والضرر يُنفي، وتجلب المشقة اليسر
وتحكم العادات حيث لا تجور وبالمقاصد تبين الأمور
وإن الدعوة الإسلامية لا تكون سليمة وصحيحة ومنتجة إلا إذا تقيدت بتلك
القواعد الشرعية، وانضبطت بتلك الضوابط، ذلك لأن أبرز خصائصها أن تكون
على بصيرة، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي
وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٢).

وما ضعفت الدعوة الإسلامية على مدى الأيام، وما تخبط في طريقها، إلا بسبب بعدها عن تلك البصيرة المنشودة، ووقوعها في انحراف النمهج أو قصوره، وخطأ الأسلوب وضعف الوسيلة.

(١) سورة الشعراء: ٩٠ - ٩١.

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٨.

وما أحوج الدعاة اليوم إلى تفهم القواعد الشرعية، والانضباط بما ليقوموا بدعوتهم حق القيام، فيصلح الله لهم أعمالهم ويغفر لهم ذنوبهم، قال تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾^(١).

وقاعدة المشقة تجلب التيسير من أهم القواعد التي يحتاج إليها الدعاة عند قيامهم بالدعوة إلى الله، وذلك أن الدين الإسلامي - كما يقول الشيخ ابن سعدي - رحمه الله - (ميسر سهل في عقائده وأخلاقه وأعماله، وفي أفعاله وتركه ... كل مكلف يرى نفسه قادرا عليها لا تشق عليه ولا تكلفه)^(٢) اهـ.

ومن هذا المنطلق ينبغي أن يبدأ الدعاة مدركين هذا الأصل مستصحبين هذه الحقيقة.

(١) القواعد الشرعية ودورها في ترشيد العمل الإسلامي للبيانوني.

(٢) بحجة قلوب الأبرار، السعدي (ص ٧٧).

المطلب الثاني

أهمية القواعد في المجال الدعوي

قال الدكتور عبد الرحمن الجرعي ويقول^(١): (هناك اتجاه أصيل في الكتابة الدعوية مفاده ربط المباحث الدعوية والتربوية بالقواعد الفقهية والأصولية، وهو اتجاه أملتته الحاجة إلى التأصيل الشرعي لكثير من قضايا الدعوة، خاصة بعد ظهور اجتهادات غريبة عن الحس الإسلامي في بعض أوساط الدعاة، فلاستئارة بهذه القواعد يسهم في ضبط الاجتهادات الدعوية، كما أن هذه القواعد توفر مادة خصبة للدعاة ليفيدوا منها في الاستدلال والتفعيد والتنظير.

إن كتابة المباحث الدعوية في ظل هذه القواعد الفقهية أو الأصولية يسهم في ربط الاجتهادات الدعوية برباط شرعي متين منضبط، ويعطي للدعاة مرجعية موثوق بها خاصة أن القواعد الفقهية الكبرى تحظى باتفاق الغالبية من الفقهاء، كما أنها تبين عوار التصرفات الشاذة، التي تمارس في غفلة من الوعي، وغلبة الهوى أو الجهل. وهذا الاتجاه في الكتابة على حسب علمي حديث نسبياً، وإن لم يغفل بالكلية، وأنا هنا أشير إلى كتابات المعاصرين، أما السلف فإن حديثهم عن المباحث الدعوية يأتي ضمن فنون متعددة، ولعل الحاجة إلى أفراد المباحث الدعوية في تصانيف مستقلة - كما هو الحال الآن - قد أملاه التوسع في التخصصات. وأشار إلى نقطتين:

الأولى: أن الدعوة إلى الله قربة وعبادة، وهي ممارسة تنطلق من مشكاة الشريعة، فلا بد من مراجعة الخطوات ليعلم هل ممارساتنا الدعوية منطلقة من قواعد الشريعة، أم أننا وجدنا من قبلنا على سنن فنحن نتبعهم، وما دامت الدعوة عبادة فيجب أن تكون على مقتضى ما يرضاه الشارع الحكيم.

(١) د. عبد الرحمن بن أحمد الجرعي جامعة الملك خالد (كلية الشريعة).

وانظر: القواعد الفقهية وتطبيقاتها الدعوية لحسام العيسوي.

الثانية: أن التطبيقات الدعوية اجتهادية، خاضعة للمراجعة والتمحيص والإضافة والحذف، وتخضع كذلك لمعرفة البيئة الدعوية وما يعتريها من ممارسات، وما يكون. فيها من قضايا تحتاج إلى اجتهاد في تلمس الحكم الشرعي من خلال هذه القواعد، التي هي بمثابة المنارات الهادية في الطريق (اللاحق).

المطلب الثالث

شرح قاعدة المشقة تجلب التيسير

المَشَقَّةُ: الجهد والعناء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) (١).

وأصله من الشَّقِّ: نصف الشيء، كأنه قد ذهب نصف أنفسكم حتى بلغتموه، وشَقَّ علي الأمر أي: ثقل علي، ومنه قوله ﷺ: «لولا أن أشقُّ على أمي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» (٢)؛ والمعنى: لولا أن أثقل على أمي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة، وفي حديث أم زرع: «وجدني في أهل غنيمة بشق» (٣)، والشَّقُّ: الفصل في الشيء، كأنها أرادت أنهم في موضع حرج ضيق كالشَّقِّ في الجبل (٤).

تَجَلَّب: فهي من الجَلْبُ وهو: سوق الشيء من موضع إلى آخر، واستَجَلَّب الشيء: طلب أن يُجَلَّب إليه.

والجَلَّابُ: ما يُجَلَّب للبيع من كل شيء، وقيل الجَلَّابُ: الإبل التي تُجَلَّب إلى الرجل النازل على الماء ليس له ما يَحْتَمِل عليه فيحملونه عليها (٥).

والتيسير: من التيسر: وهو ضد العسر، ومنه قوله ﷺ: «إن الدين يُيسر» (٦)، وأراد بذلك ﷺ أنه سهل سمح قليل التشديد.

(١) سورة النحل الآية ٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجمعة، باب: السواك يوم الجمعة رقم الحديث (٨٨٧).

قال في الفيض (٣٣٩/٥): (وفيه ... وأن المشقة تجلب التيسير وإذا ضاق الأمر اتسع).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: حسن المعاشرة مع الأهل رقم الحديث (٥١٨٩).

(٤) النهاية (٤٩٢/٢)، لسان العرب (١٧٣/١٠)، تاج العروس (٤١٥/٢٥).

(٥) النهاية (٢٨٢/١)، لسان العرب (٢٧٨/١)، تاج العروس (١٧٠/٢).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الدين يسر رقم الحديث (٣٩).

وتمّة فرق لغويّ بين اليسر والتيسير، فاليسر صفة لازمة للشريعة الإسلامية، ومقصود من مقاصدها التشريعية جاء به الكتاب والسنة، وأنزله النبي ﷺ والسلف الصالح منزله، أمّا التيسير فهو من فعل البشر، ويعني جعل ما ليس بميسر في الأصل يسيراً، وهذا موطن الخلل.

والمراد بجلب المشقة للتيسير: أن المشقة سبب للتيسير، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾.

لذلك قال الشاعر: (٢)

إذا اشتد بك العسر ففكر في ألم فعر بين يسرين إذا أبصرته فأفرح

هذا باختصار شديد شرح مفردات قاعدة المشقة تجلب التيسير. وإليك في المطلب التالي المقصود منها.

(١) سورة الانشراح الآية ٥-٦.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٤/٤٦١).

المطلب الرابع

المقصود من القاعدة

ومعنى القاعدة: أن الصعوبة والعناء تكون سبباً للتسهيل، ويلزم التوسيع في وقت المضايقة، فالأحكام التي ينشأ عن تطبيقها حرج على المكلف ومشقة في نفسه أو ماله، فالشريعة تخففها بما يقع تحت قدرة المكلف دون عسر ولا حرج.

قال الدكتور المغدوي حفظه الله: (أن الأمور التي تلحق المشاق والمتاعب أو المخاوف على الداعية أو المدعو في باب الدعوة، تفتح لهم باب التيسير عليهم، ورفع الحرج والعنت عنهم، والإتيان من الأمور قدر المستطاع، ولكن بشرط عدم مصادمتها للنصوص، أو التكاليف الشرعية).

وقد أكد الفقهاء هذه القاعدة الهامة عندهم بقولهم: (المشقة تجلب التيسير؛ لأن الحرج مدفوع بالنص، ولكن التيسير مشروط بعدم مصادمتها نصاً، فإن صادمت نصاً روعي دونهما).

والمتأمل في هذه القاعدة يجد أنها تتضمن محورين هامين:

الأول: الدعاة: وما يكتنف بعض أعمالهم في بعض الأزمان والأماكن من عنت ومشقة، الأمر الذي قد يدخل بعض المشقة التي قد تضر بالدعاة، فهنا التيسير مطلوب على هؤلاء الدعاة، وعدم تحميلهم فوق طاقتهم.

الثاني: المدعو، وما قد يعترض طريقه من مصاعب ومشاق في تطبيق الشريعة الإسلامية، وتنفيذ أحكام الإسلام كاملة، وإقامة دين الله تعالى في النفس والمجتمع، فهنا التيسير والتخفيف على هؤلاء الناس، وخاصة الذين يعيشون تحت ظروف سياسية واجتماعية معينة، وخاصة في المجتمعات غير الإسلامية، كالأقليات الإسلامية في بلاد الغرب...^(١).

(١) الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية (ص ٣٢٧).

المطلب الخامس

التطبيقات الدعوية لهذه القاعدة

ومن التطبيقات الدعوية لهذه القاعدة^(١):

١. اليسر والبشارة أصل في أمور الدعوة، وهذا يقتضي البعد عن التكلف والتنطع والإعنات، وتحميل الناس ما يشق عليهم أو ينفرههم مما ليسوا ملزمين به شرعاً. وهذا يقتضي مراجعة الأساليب الدعوية، فإن بعضها فيه نوع إثقال يمكن التخفيف منه، وربما أورت نتيجة عكسية ...
٢. عندما يجد العالم أو المرابي عناصر أقل جودة لتحمل عنه العلم وأبجديات الدعوة، فلا يزهّد فيها بحجة عدم وجود العناصر الممتازة من طلاب العلم، فإن حاجة المجتمع ماسة لكل أبنائه، ولو ذهبنا إلى هذا الاشتراط لخلت كثير من الثغور. ولكنه التسديد والمقاربة التي أمرنا بها شرعاً.
٣. حين يصطدم الداعية ببعض المعوقات التي لا يخلو منها طريق الدعوة اللاحب - كما قال تعالى: ﴿الْعَرَّةَ ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمْنَا ۚ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ۝﴾^(٢) ويطرب على هذه المعوقات عدم قدرة الداعي على إنجاز الواجب الشرعي المناط به، أو القصور عن بلوغ المدى الذي اختطه لنفسه، فإن واجبه أن يسعى لتذليل الصعاب على قدر الجهد والطاقة، وبعد ذلك فما يعجز عنه هو معذور فيه، وليس أهلاً للوم بعد ذلك.

(١) التطبيقات الدعوية والتربية للقواعد الفقهية الخمس الكبرى (ص ٥٧-٥٨)، القواعد الفقهية وتطبيقاتها

الدعوية (ص ١٣).

(٢) سورة العنكبوت الآية ١-٣.

٤. الداعية والمربي حين يواجه واقعاً يحتاج إلى صبر، وتدرج في الإصلاح فهذه الحالة هي من العسر الذي يجلب تيسيراً، بل لا بد من التدرج حينئذ، باعتبار أن الدعوة واجبة، ولا يتم القيام بها إلا بهذه الطريقة، والقاعدة الشرعية تقول: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

٥. الدعوة إلى الله ﷻ واجبة على كل قادر، وهي حمل عظيم لا يستطيع النهوض به فرد واحد، فوجود هذا العبء العظيم يقتضي التعاون في أدائه، وتوزيع المهام على كل قادر، وألا نترك أهل الأهمم العليا وحدهم في الطريق، بل نتعاون تعاوناً تكاملياً، دون أن ننظر إلى قلة إسهام البعض بعين الانتقاص، بل نكون كما قال إقبال:

شرار الفأس دع من قال عنه أمن فأس؟ أمن حجر
٦. وفي الحسبة: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) منعت الشريعة إنكار المنكر لو أن ذلك الإنكار يستلزم ما هو أنكر منه، فقد كان النبي ﷺ وأصحابه -رضي الله عنهم- في مكة ولم يمسوا الأصنام التي حول الكعبة بسوء خشية أن يقع منكر أعظم وهو أن يقتلهم المشركون فتتوقف دعوة الإسلام، فلما عاد إلى مكة فاتحاً أنكر المنكر وحطم الأصنام، فالقاعدة في الشريعة الغراء هي: (المشقة تجلب التيسير)^(١).

هذا بعض ما ذكره الباحثون من فروع دعوية التي تدخل تحت القاعدة وإلا الأمثلة كثيرة جداً والمقصود هو تقريب المعاني لا الاستقصاء.

(١) التطبيقات الدعوية والتربية للقواعد الفقهية الخمس الكبرى (ص ٥٧-٥٨)، القواعد الفقهية وتطبيقاتها الدعوية (ص ١٣).

(٢) العلمانية - الليبرالية - الديمقراطية - الدولة المدنية في ميزان الإسلام (ص: ٤٦).

المطلب السادس

القواعد المرتبطة بقاعدة المشقة تجلب التيسير

من القواعد ذات الصلة بقاعدة: قاعدة (الميسور لا يسقط بالمعسور)، ومعناها أن الأمر الذي يستطيع المكلف فعله وهو يسير عليه، لا يسقط بما شق فعله عليه أو عسر، ودليل هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١)، وقوله: «إذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم»^(٢)، وقوله: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(٣).

قال الدكتور البيانوني حفظه الله: (ومن هنا وجب على من قدر على أداء الصلاة قاعداً أو على جنب أو بالإيماء أن يصلي كما يستطيع، ولا تسقط عنه الصلاة جميعها بسبب تعذر الإتيان ببعض أركانها).

وإن مثل هذه القاعدة: (الميسور لا يسقط بالمعسور) يمكن الاستفادة منها في جميع الحياة، ولا تقتصر على أحكام العبادات، فإذا عجز الدعاء عن تحقيق أمر الله في جميع جوانب الحياة لضعفهم أو لظروف خاصة بهم، وأمکنهم تطبيق أحكام الله في بعض الجوانب دون بعض، فلا يجوز لهم أن يتوقفوا عن تطبيق ما أمکنهم نظراً إلى ما عجزوا عنه من إقامة الدين كاملاً؛ فما لا يدرك كله لا يترك جله.

وكثيراً ما فهم بعض الدعاء خطأ مقولة مشهورة لبعض الدعاء وهي: "خذوا الإسلام جملة أو دعوه جملة" فذهبوا إلى ترك الممكن والمتيسر منه، وانتظروا تيسر تطبيق

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ، وقال الألباني: حديث صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه ص ١٣، رقم (٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: إذا لم يطق قائماً صلى على جنب رقم الحديث (١١١٧).

الإسلام كاملاً، أو وجهوا النقد الشديد اللاذع إلى من استطاع أن يطبق بعض الجوانب دون بعض، غافلين عن مثل هذه القاعدة الفقهية.

فهناك فرق بين من يستطيع أخذ الإسلام جملة ومن لم يستطع ذلك مع اعتقاده بوجود الأخذ به جميعاً، وسعيه إلى الأخذ به من جميع أطرافه، وبين من ظن أن بإمكانه أن يتخير من الإسلام بعض جوانبه ويترك بعضها، فيأخذ بشيء ويترك أشياء، مشوهاً بذلك وحدة الإسلام وكماله، وهذا هو الذي ينزل عليه قول: «خذوا الإسلام جملة أو دعوه جملة» اه^(١).

ومن القواعد التي لها صلة بقاعدة المشقة تجلب التيسير، قاعدة: درء المفسد مقدمٌ على جلب المصالح، ومنها أيضاً: "الموازنة بين المصالح والمفاسد، والمراد بدرء المفسد إزالتها، فإذا تعارضت مفسدة ومصالحة فدفع المفسدة مقدمٌ على جلب المصلحة في الغالب إلا أن تكون المفسدة مغلوبة، فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة، ولا نبالي بفوات المصلحة.

التطبيقات الدعوية لهذه القاعدة^(٢):

١. هجر أصحاب المنكرات المعلنين بها فيه مفسدة حصول التقاطع بين المسلمين، ولكن إذا كان في الهجر مصلحة كضعف شرهم، وخفيتهم أو رجوع العامة عن مثل حالهم، فهذه مصلحة أعظم من تلك المفسدة فيشرع ذلك وإلا فلا^(٣).
٢. لا يجوز أن يترك المسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، لما في ذلك من أذى بعض الناس والانتقام منه، ويغفل عن المصلحة الراجحة من ذلك، حتى يستولي الكفار والفجار على الصالحين الأبرار^(٤).

(١) القواعد الشرعية ودورها في ترشيد العمل الإسلامي (ص ١٣٩).

(٢) قواعد وضوابط فقه الدعوة عند شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٢٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠٦/٢٨).

(٤) المصدر السابق (٥١٣/١٠).

٣. لو أسلم بعض الملوك المسلمين وهو يشرب الخمر أو يفعل بعض المحرمات، فلو أنكر عليه ذلك أدى به إلى الردة عن الإسلام، لم ينه عنده من المنكرات لأن الإنكار هنا يستلزم ترك المعروف الراجح وهو الإسلام^(١).
٤. قول الداعية أو المعلم حق يستلزم فسادا أعظم من تركه ينهى عنه؛ لأن العبرة بمقدار ما يحقق هذا القول من المصالح ويدراً من المفاسد^(٢).
٥. لا يجوز إقامة الاحتفالات البدعية واستخدام الوسائل المحرمة كالسماع والدف ونحوهما من أجل جمع العصاة وأهل الكبائر وتبليغهم الدعوة؛ لأن الإحداث في الدين مفسدته أظم من مصلحة تنوير هؤلاء العصاة^(٣).
- ومن القواعد التي لها صلة قاعدة الوجوب معلق بالاستطاعة.

التطبيقات الدعوية لهذه القاعدة:

١. كل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم بالدعوة إلى الله بما يقدر عليه إذا لم يقم بها غيره، فما قام به غيره سقط عنه، وما عجز عنه لم يطالب به، لأن الوجوب معلق بالاستطاعة^(٤).
٢. الأصل إنكار المنكر باليد أو اللسان كل بحسب قدرته، فإذا قوي أهل الفجور وصاروا لا يصغون للأمر الناهي ويؤذونه، فلا يطالب بإنكار المنكر إلا بقلبه؛ لأنه غير قادر على الإنكار بلسانه ولا بيده^(٥).
٣. من آمن في دار الكفر وهو عاجز عن الهجرة لا يجب عليه من الشرائع ما يعجز عنها، بل الوجوب بحسب الإمكان^(١).

(١) المصدر السابق (٣٥/٣٢).

(٢) الفتاوى الكبرى (١٠/٥١٣).

(٣) المصدر السابق (١١/٢٦٠).

(٤) مجموع الفتاوى (١٤/٤٧٩).

(٥) المصدر السابق (٢/١١٠).

٤. يشرع للدعاة تأخير البلاغ والبيان لشيء من أمور الدين إلى وقت التمكن إذا كانوا لا يستطيعون بيانها في الحال^(٢).

ومن القواعد التي بمعنى قاعدة المشقة تجلب التيسير قاعدة ذكرها العلماء ونصها: دين الله وسط بين الغالي فيه والجاهلي عنه^(٣).

ومن فروعها الدعوية:

١. يجب على المصلحين الإنكار على الناس ما هم فيه من مخالفة الأوامر وارتكاب النواهي بالطريق الشرعي الوسط بلا اعتداء ولا تقصير^(٤).

٢. مخالطة الدعاة والمربين للناس مطلقاً خطأ، وترك مخالطتهم والعزلة عنهم خطأ، والصواب المشروع مخالطتهم بقدر ما فيه منفعة ومعاونة لهم على البر والتقوى، والعزلة عنهم بقدر ما يجم الدعاة أنفسهم ويتفقدون أحوالهم ويصلحون قلوبهم^(٥).

٣. الطريق الواجب على الدعاة والمصلحين هجر أهل البدع والإنكار عليهم إذا قدروا على ذلك، وكان في هجرهم مصلحة شرعية، وإذا لم يقدروا على ذلك يجب هجر بدعتهم وإنكارها ونهي الناس عنها، فهذا الطريق الوسط، فلا هم الذين هجروا وأنكروا بغير الطريق الشرعي، ولا هم الذين رضوا بالبدعة وسكتوا عنها^(٦).

(١) منهاج السنة (١٢٢/٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٥٩/٢٠).

(٣) مدارج السالكين (٥١٨/٢)، مفتاح دار السعادة، (ص ٧٤٠)، مجموع الفتاوى (٣٨١/٣).

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٣٦٠/٣).

(٥) المصدر السابق (٤٢٦/١٠).

(٦) المصدر السابق (٢١٣/٢٨).

المبحث الثاني

أحكام التيسير

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول

نصوص التيسير من الكتاب والسنة

وقد دل على هذه القاعدة أدلة شرعية منها:

١. نصوص القرآن:

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(١).

وقال أيضا: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٢).

وقال أيضا: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾^(٣).

وقال أيضا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٤).

وقال أيضا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٥).

٢. نصوص السنة:

السنة النبوية حافلة بمواضع عديدة تدل على اليسر، وهي على ثلاثة أنواع:

أ- أحاديث يستفاد منها سماحة هذا الدين ويسره:

(١) سورة البقرة الآية

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

(٣) سورة المائدة الآية ٦.

(٤) سورة الحج الآية ٧٨.

(٥) سورة النساء الآية ٢٨.

- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»^(١).
- عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً^(٢).
- عن جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لم يعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلماً ميسراً»^(٣).
- ب- أحاديث تفيد في جملتها خشية النبي ﷺ أن يكون قد شق على أمته:
- جاء عنه ﷺ أنه قال: «إني لأقوم إلى الصلاة وأنا أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز كراهية أن أشق على أمه»^(٤).
- عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ خرج من عندها وهو قرير العين طيب النفس، ثم رجع إليها وهو حزين، فقال: "إني دخلت الكعبة ووددت أني لم أكن فعلت؛ إني أخاف أن أكون قد أتعبت أمتي من بعدي"^(٥).
- ج- أحاديث يأمر أصحابه فيها بالتخفيف، وينكر عليهم فيها التشديد والغلو:
- قوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»^(٦).

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: صفة رسول الله ﷺ رقم الحديث (٣٥٦٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تحيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية رقم الحديث (١٤٧٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: من أحف الصلاة عند بكاء الصبي، رقم الحديث (٧٠٧).

(٥) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: ذكر الدليل على أن دخول الكعبة ليس بواجب إذ النبي ﷺ قد أعلم بعد دخوله إياها أنه ود أن لم يكن دخلها مخافة إتعب أمته بعده، وهذا كتركه ﷺ بعض التطوع والذي كان يجب أن يفعله لإرادة التخفيف على أمته ﷺ، رقم الحديث (٣٠١٤) قال الأعظمي: إسناده صحيح.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخولم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، رقم الحديث (٦٩).

- عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المنتطعون» ثلاثاً^(١).

٣. الآثار:

عن عمير بن إسحاق - رحمه الله - قال: لما أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقني منهم فما رأيت قوماً أيسر سيرة ولا أقل تشدداً منهم^(٢).

٤. أقوال العلماء:

يقول ابن عابدين -رحمه الله-: (إن كثيراً من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله، أو لحدوث ضرورة، أو لفساد الزمان بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه لزم منه المشقة والضرر، وخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير ودفع الضرر والفساد)^(٣).

ويقول العز بن عبد السلام -رحمه الله-: ((قاعدة) وهي أن من كلف بشيء من الطاعات فقد ر على بعضه وعجز عن بعضه فإنه يأتي بما قدر عليه ويسقط عنه ما عجز عنه لقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٤). وقوله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»، وبهذا قال أهل الظاهر^(٥).

ويقول الشاطبي -رحمه الله-: (كل أمر شاق جعل الشارع فيه للمكلف مخرجاً؛ فقصده الشارع بذلك المخرج أن يتحراه المكلف إن شاء، كما جاء في الرخص الشرعية المخرج من المشاق، فإذا توخى المكلف الخروج من ذلك على الوجه الذي شرع له؛ كان ممثلاً لأمر الشارع، آخذاً بالحزم في أمره، وإن لم يفعل ذلك؛ وقع في محظورين:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: العلم، باب: هلك المنتطعون، رقم الحديث (٢٦٧٠).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة: باب: كراهية الفتيا، رقم (١٢٨).

(٣) رسائل ابن عابدين (١٢٥/٢).

(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

(٥) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٧/٢).

أحدهما: مخالفته لقصد الشارع، كانت تلك المخالفة في واجب أو مندوب أو مباح.

والثاني: سد أبواب التيسير عليه، وفقد المخرج عن ذلك الأمر الشاق، الذي طلب الخروج عنه بما لم يشرع له^(١).

وقال الثوري -رحمه الله-: (إنما الفقه الرخصة من ثقة أما التشديد فيحسنه كل أحد)^(٢).

٥. من المعقول:

تشريع الرخص يدل على مراعاة مصالح العباد ورفع الحرج والمشقة عنهم بالتخفيف.

هذه أدلة التيسير باختصار، فما معنى اليسر وما هي ضوابطه وأنواعه.

(١) الموافقات (١/٥٣١).

(٢) المجموع للنووي (١/٤٦).

وانظر: فقه الأولويات في ظل الشريعة الإسلامية (١٠٧).

المطلب الثاني

معنى اليسر وضوابطه وأنواعه

اليُسْر مقصد من مقاصد الدين الكبرى، جعله الله تعالى أساساً لكل ما أمر به ونهى عنه في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وأمرنا أن نلتزمه في فهمنا للدين والعمل به والدعوة إليه؛ فقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(١)، وقال ﷺ: «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره»^(٢) وفي لفظ: «إنكم أمة أريد بكم اليسر»^(٣).

والتيسير مقصد شرعي عظيم، وهو من سمات الشريعة المحمدية، ومن محاسن الحنيفية السمحة، بيد أن ذلك لا يسوغ التساهل في أحكام الشريعة، وإنما يكون تحقيق هذا المقصد باتباع الكتاب والسنة في هذا، وبذلك يحصل التيسير، ويرتفع الحرج، وتندفع المشقة بين الناس؛ وقد بَوَّب الإمام البخاري على ذلك فقال: كتاب الإيمان، باب الدين يسر. قال ابن القيم -رحمه الله-: (فهى حنيفية في التوحيد وعدم الشرك، سمحة في العمل وعدم الآصار والأغلال بتحريم الطيبات والحلال، فيعبد سبحانه بما أحبه، ويستعان على عبادته بما أحله)^(٤).

وقال أبو إسحاق الشاطبي -رحمه الله-: (وقد سمي هذا الدين الحنيفية السمحة؛ لما فيها من التسهيل والتيسير)^(٥).

(١) سورة البقرة الآية.

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٥٩٣٦).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٢٠٣٤٧).

(٤) شفاء العليل (ص ٣٠٣).

(٥) الموافقات (١/٣٤١).

وقال أبو محمد ابن حزم - في كلامٍ نفيسٍ له - : (كل أمر من الله تعالى لنا فهو يسر، وهو رفع الحرج، وهو التخفيف، ولا يسر ولا تخفيف ولا رفع حرج أعظم من: شيء أدى إلى الجنة ونجى من جهنم، وسواءً كان حظراً أو إباحة، ولو أنه قتل الأنفس والأبناء والآباء^(١)).

وعند استقراء جملة من نصوص الشريعة، وتقليب النظر وإمعان الفكر فيها، نعلم خطأ بعض الفضلاء في كيفية تطبيق هذا المقصد العظيم، على الأحكام الشرعية. فقد أخرج الإمام مسلم برقم (٦٥٣) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ أعمى، فقال: يا رسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له، فيصلي في بيته. فرخص له، فلما ولى دعاه، فقال: «هل تسمع النداء بالصلاة؟» فقال: نعم. قال: «فأجب»، وفي رواية^(٢): "إني رجل ضيرير البصر، شاسع الدار، ولي قائد لا يلائمني"، ومع كل ما قدمه هذا الضيرير من الأعذار، لم يرخص له النبي ﷺ في شيء من ذلك.

وأيضاً أخرج البخاري في صحيحه برقم (٥٢٠٥، ٥٩٣٤)، ومسلم برقم (٢١٢٣) عن عائشة - رضي الله عنها - أن جارية من الأنصار تزوجت وأنها مرضت فتمعّط شعرها فأرادوا أن يصلوها فسألوا النبي ﷺ فقال: «لعن الله الواصلة والمستوصلة».

وهنا أيضاً لم يجوّز عليه الصلاة والسلام وصل الشعر لهذه الفتاة مع حداثة عهدها بعرس، وحاجتها لترتيبها لزوجها.

وأخرج البخاري برقم (٥٣٣٦)، ومسلم برقم (١٤٨٨)؛ عن أم سلمة تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد

(١) الإحكام (١٧٦/٢).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الصلاة، باب: التشديد في ترك الجماعة، وقال الألباني: حديث حسن

صحيح، انظر: صحيح سنن أبي داود ص ٩٢، رقم (٥٥٢).

اشتكت عينها، أفنكحها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا» مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: «لا»، ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعشراً، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول».

فهذا رسول الرحمة واليسر والهدى عليه الصلاة والسلام يمنع المحتدة من الاكتحال؛ لأنه من الزينة، مع أن استخدامه هنا ليس بغرض الزينة، بل بغرض التداوي، ولم يكن ذلك شافعاً لإباحته بحجة التيسير على المرأة.

وقد وضع أهل العلم^(١) ضوابط وشروطاً للأخذ بمبدأ التيسير والترخص ورفع الحرج؛ منها:

١. تحقق العذر الداعي للأخذ بالرخصة يقيناً، لا ظناً.
 ٢. قيام الدليل الشرعي على الأخذ بالرخصة:
 ٣. الاقتصار على موضع الحاجة، وعدم مجاوزة النص الشرعي في ذلك.
- قال أبو إسحاق الشاطبي - رحمه الله - عن هذه الشريعة المحمدية: (إنما أتى فيها السماح مقيداً بما هو جارٍ على أصولها، وليس تتبع الرخص ولا اختيار الأقوال بالتشهي بثابت من أصولها.. ثم نقول: تتبع الرخص ميل مع أهواء النفوس والشرع جاء بالنهي عن اتباع الهوى)^(٢).

- وهذه نظرة عابرة نجلي فيها شيئاً من روائع يسر هذه الشريعة:
١. من تيسيره تعالى كذلك تيسيره لعباده الكتاب الذي أنزله إليهم وجعله أيسر كتبه، وأكثرها بركة وشمولاً، وروعة وسلاسة وبلاغة، وهدى ورحمة وشفاء.
 ٢. من يسر الشريعة الإسلامية، يسر إدراكها وتعلمها ومعرفتها والإمام بها؛ بل لقد كان الرجل يأتي إلى النبي ﷺ فيعلمه الإسلام في لحظات، ويشرح له الدين في

(١) رفع الحرج لابن حميد (ص ١٤٣، ١٤٥-١٤٦)، منهج التيسير المعاصر للطويل (ص ٥٥-٥٦).

(٢) الموافقات (٩٩/٥). وانظر: مقدمة كتاب كيف نفهم التيسير: لشيخ عبد الله السعد (ص ١١) بتصرف

- كلمات، وشواهد ذلك كثيرة جداً؛ منها أن معاذاً -رضي الله عنه- قال للنبي ﷺ: يا رسول الله! أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله عليه؛ تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»^(١).
٣. ومن يسر الشرعية يسر تكاليفها وأوامرها وطاعاتها؛ فأركانها التي تقوم عليها خمسة، وهي في غاية اليسر؛ فأولها مجرد كلمة تقال باللسان، وتعتقد بالجان، وهي الشهادتان، وبها يعصم الإنسان دمه وماله وعرضه ويدخل في دائرة المسلمين.
٤. ومن يسر الشريعة كثرة المباحات، وقلة المحرمات والممنوعات، فالأصل في كل شيء الحل إلا ما جاء الشرع بتحريمه، سواء في المعاملات أو المأكولات أو المشروبات أو الملابس.
٥. من يسر الشرعية سهولة المعتقد، ووضوح المنهج، وصفاء الدين، فلا تعقيد، ولا غموض، بل عقيدة سهلة سلسة واضحة، جلية نقية، متوافقة مع صفاء الفطرة، ونقاء النفس، وسلامة العقل.
٦. ومن يسر الشريعة أن جعل الله تعالى ما تميل إليه النفوس من شهوات ورغبات، وبعض مظاهر اللعب واللهو عبادات، فيستمتع الإنسان بها، وكذلك يناب عليها ويؤجر.
٧. ومن يسر الشريعة أن تقوى الله تعالى والصدق معه وعمل الصالحات يسر للمرء طريق الجنة، ويسهل عليه التكاليف، قال تعالى: ﴿يَجْعَلُ لَهُمِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَحَمَلَ صِلِحًا فَاهَلُهُ جِزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾^(٣).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب: أبواب الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، وقال الألباني: حديث صحيح، انظر: صحيح سنن الترمذي ص ٥٩٠، رقم (٢٦١٦).

(٢) سورة الطلاق الآية ٤.

(٣) سورة الكهف الآية ٨٨.

حاصل الكلام أن اليسر في الشريعة الإسلامية ثلاثة أنواع:

النوع الأول: تيسر معرفة الشريعة والعلم بها وسهولة إدراك معانيها وأحكامها، فحملتها الأوائل من الأميين قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾^(١)، وقال تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ، يَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطُوتِ﴾^(٢).

تيسير القرآن: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(٣) ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِلِسَانِكَ

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٤).

أ- فهو ميسر تلاوة لخلوة من التعقيد اللفظي.
ب- ميسر للحفظ.

ج- سهولة الاتعاظ به لشدة تأثيره في القلوب لاشتماله على القصص والحكم والأمثال.
د- تلذذ القلب وطرب الأذان بسماعه.

النوع الثاني: تيسير الأحكام:

تيسير الأحكام الاعتقادية: تعريف الأمور الإلهية بما يسع فهمه فحضت على النزول في الفلك والمخلوقات وما عسر فهمه فأرشدك الله إلى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٥).

التيسير في الأحكام العملية: فقدر على الشارع أمية المدعوين واختلاف أفهامهم، كتعليق أوقات الصلاة بحركة الشمس والصوم والإفطار بالغروب وطلوع الفجر ودخول رمضان بهلاله.

(١) سورة الجمعة الآية ٢٠.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٨.

(٣) سورة القمر الآية ٥٤.

(٤) سورة الدخان الآية ٥٨.

(٥) سورة الشورى الآية ١١.

يسر الأحكام الشرعية العملية:

١. يسر أصلي فيما شرع من الأحكام من أصله ميسرا لا عنت فيه.
 ٢. اليسر التخفيفي وهو ما وضع في الأصل ميسرا غير أنه طرأ فيه النقل بسبب ظروف استثنائية وأحوال تخص بعض المكلفين، فيخفف الشارع عنهم ذلك الحكم الأصلي.
- فمن اليسر الأصلي: إعفاء الصغير والمجنون من الأحكام التكليفية. وإعفاء النساء من صلاة الجمعة ووجوب صلاة الجماعة. واشترك في الزنى أربعة شهود، وللرجم الإحصان، واستثنى الولي الفقير من عدم الأكل من مال اليتيم تخفيفا عليه.
- ومن اليسر التخفيفي: السماح للولي بمخالطة مال اليتيم بعد ما كان ممنوعا:
- ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ﴾^(٢)،
- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾^(٣)، أي شق عليكم بإيجاب عزل نفقة اليتيم.
- ومن السنة تجنب النبي ﷺ ما كان سببا في التكاليف الشاقة على المسلمين فمن حث أصحابه على ترك السؤال حتى لا يفرض علينا) مثل الحج.
- وقال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»، (وكان يجب اليسر على الناس). تركه قيام رمضان جماعة.
- النوع الثالث:** أمر الشريعة للمكلفين بالتيسر على أنفسهم وعلى غيرهم كما كان النبي ﷺ يفعل بالفتوى ويأمر بذلك أصحابه.

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٠.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٠.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٢٠.

المطلب الثالث

أقوال السلف في اختيار أيسر المذاهب ومعنى الأخذ بالأخف

حذر علماء السلف من تتبع الرخص^(١)، وشواذ المسائل، وزلات العلماء، وغريب الأقوال، فقد اشتد نكيرهم على من يسلك هذا المسلك. قال سليمان التيمي -رحمه الله-: (إن أخذت برخصة كل عالم؛ اجتمع فيك الشركه).

قال ابن عبد البر -رحمه الله-: (هذا إجماعٌ لا أعلم فيه خلافاً)^(٢).

وقال الأوزاعي -رحمه الله-: (من أخذ بنوادير العلماء خرج من الإسلام)^(٣).

وقال الحسن البصري -رحمه الله-: (شرار عباد الله: ينتقون شرار المسائل يُعمون بما عباد الله)^(٤).

وقال عبد الرحمن بن مهدي -رحمه الله-: (لا يكون إماماً في العلم من يحدث بالشاذ من العلم)^(٥).

وأخرج البيهقي^(٦): عن إسماعيل بن إسحاق القاضي قال: دخلت على المعتضد فدفع إليّ كتاباً نظرت فيه وكان قد جُمع له الرخص من زلل العلماء وما احتج به كل منهم لنفسه، فقلت له: (يا أمير المؤمنين مصنف هذا الكتاب زنديق). فقال: (لم تصح هذه الأحاديث؟)، قلت: «الأحاديث على ما رويت، ولكن من أباح المسكر

(١) انظر بحث: تتبع الرخص لهشام السعيد. موقع الدرر السنينة للشيخ علوي السقاف.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٩٢/٢).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢١١/١٠).

(٤) الآداب الشرعية (٧٧/٢).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/٩).

(٦) أخرجه السنن الكبرى (٢١١/١٠).

لم يبيح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبيح الغناء والمسكر، وما من عالم إلا وله زلة، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه»، فأمر المعتضد فأحرق ذلك الكتاب. وقد نصّ الإمام أحمد - رحمه الله - على من تتبع الرخص فأخذ بها؛ بأنه: فاسق^(١).

بل حكى أبو محمد ابن حزم - رحمه الله -: (الإجماع على أن تتبع رخص المذاهب من غير استناد إلى دليل شرعي، فسق لا يجل)^(٢).

ولذا قيل: (من طلب الرخصة من الإخوان عند المشورة، ومن الفقهاء عند الشبهة، ومن الأطباء عند المرض؛ أخطأ الرأي، وحمل الوزر، وازداد مرضاً)^(٣). قال أبو العباس ابن تيمية - رحمه الله -: (فالواجب على من شرح الله صدره للإسلام إذا بلغته مقالة ضعيفة عن بعض الأئمة أن لا يحكيها لمن يتقلدها، بل يسكت عن ذكرها إن تيقن صحتها، وإلا توقّف في قبولها، فما أكثر ما يحكى عن الأئمة ما لا حقيقة له، وكثير من المسائل يخرجها بعض الأتباع على قاعدة متبوعه، مع أن ذلك الإمام لو رأى أنها تُفضي إلى ذلك لما التزمها، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، ومن علم فقه الأئمة وورعهم علم أنهم لو رأوا هذه الحيل وما أفضت إليه من التلاعب بالدين؛ لقطع بتحريمها من لم يقطع به أولاً)^(٤).

الحاصل أن القول بتتبع الرخص يترتب عليه مفسد عظيمة، منها:
أ- الاستهانة بالدين، فلا يكون مانعاً للنفوس من هواها، ومن مقاصد الشرع إخراج الإنسان عن داعية هواه، والقول بإباحة تتبع الرخص فيه حث لإبقاء الإنسان فيما يحقق هواه.

(١) الإنصاف (٢٩/٣٥٠ - مع الشرح الكبير).

(٢) الموافقات (٤/١٣٤).

(٣) الآداب الشرعية (١/٣٤٨).

(٤) بيان الدليل (ص ١٥٧).

ب- الانسلاخ من الدين بترك اتباع الدليل إلى اتباع الخلاف، ثم إنه لا يوجد محرّم إلا وهناك من قال بإباحته إلا ما ندر من المسائل المجمع عليها، وهي نادرة جداً.

ج- انخراط قانون السياسة الشرعية بترك الانضباط إلى أمر معروف، فتضيع الحقوق، وتعطل الحدود، ويجترئ أهل الفساد.

د- إفضائه إلى القول بتلفيق المذاهب على وجه يخرق إجماعهم^(١).

والواجب على المستفتي أن يتحرى من يوثق في علمه وديانته؛ حتى يسلم له دينه، ولذا يقول سفيان الثوري: (إنما الرخصة من ثقة، أما التشديد فيحسنه كل أحد)^(٢).

قال سحنون وهو من أئمة المالكية - لما سئل عمّا يأتيه أهل الشام من الرخص في الفتيا -: (يؤخذ هذا العلم من الموثوق بهم في دينهم، المحسوس بخيرهم، فإن أخذوا بالتشديد فعن علم، وإن أخذوا بالرخص فعن علم)^(٣).

ولذا اشترط بعض العلماء في المفتي ألا يكون متساهلاً؛ قال أبو المظفر السمعاني: « المفتي من استكمل فيه ثلاثة شرائط:

١. الاجتهاد.
٢. العدالة.
٣. والكف عن الترخيص والتساهل.

(١) الموافقات (٨٣/٥).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٣٦/٢).

(٣) ترتيب المدارك وتقرب المسالك (٣٤٤/١) ترجمة أبي داود العطار.

وللمتساهل حالتان:

إحدهما: أن يتساهل في طلب الأدلة وطرق الأحكام ويأخذ ببادئ النظر وأوائل الفكر وهذا مقصر في حق الاجتهاد ولا يحل له أن يفتي، ولا يجوز أن يستفتى.
والثانية: أن يتساهل في طلب الرخص وتأول السنة فهذا متجاوز في دينه وهو آثم من الأول^(١).

فأين هذا من فعل بعض المعاصرين اليوم من الدعوة إلى التيسير، وهم في الحقيقة يعنون بذلك التساهل.

وقارن بين هذا وقول أبي عمرو ابن الصلاح -رحمه الله-: (لا يجوز للمفتي أن يتساهل في الفتوى، ومن عُرف بذلك لم يُجَزَّ أن يُستفتى، وذلك قد يكون بأن لا يثبت ويسرع بالفتوى، قبل استيفاء حقاها من النظر والفكر، وربما يحمله على ذلك توهمه أن الإسراع براعة، والإبطاء عجز ومنقصة، وذلك جهل، ولئن يبطيء ولا يخطيء أكمل به من أن يعجل فيضل ويُضِل^(٢)).

وقد تدرّج دعاة التيسير في العصر الحديث بما روي عن السلف والأئمة المتبعين بإحسان، من استحباب الأخذ بالرخص.

ومن ذلك، قول قتادة -رحمه الله-: (ابتغوا الرخصة التي كتَبَ الله لكم)^(٣).
وقول سفيان الثوري -رحمه الله-: (إنما العلم عندنا الرخصة من ثقة، فأما التشديد فيُحسنه كل أحد)^(٤).

(١) صفة الفتوى لابن حمدان (ص ٢٢).

(٢) أدب المفتي والمستفتي (ص ١١١).

(٣) تحفة المولود (ص: ٨).

(٤) آداب الفتوى للنووي (ص: ٣٧).

وقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (إذا فعل المؤمن ما أُبِيح له قاصداً العدول عن الحرام لحاجته إليه فإنه يثاب على ذلك)^(١).

وقول ابن القيم - رحمه الله -: (الرخص في العبادات أفضل من الشدائد)^(٢).

وقول الشاطبي - رحمه الله -: (المفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل إلى طرف الانحلال، والدليل على صحة هذا أنه الصراط المستقيم، الذي جاءت به الشريعة، فإنه قد مر أن مقصد الشارع من المكلف، الحمل على التوسط من غير إفراط ولا تفريط، فإذا خرج عن ذلك في المستفتين خرج عن قصد الشارع، ولذلك كان ما خرج عن المذهب الوسط مذموماً عند العلماء الراسخين)^(٣).

ولو تأملنا ما أوردناه لما رأينا فيه دليلاً على التيسير الذي يُدندُنْ حوله المعاصرون، فقتادة - رحمه الله - يدعو إلى الترخّص حيث شرع الله الرخصة، فيقول: (ابتغوا الرخصة التي كتّبت الله لكم)، وابن تيمية - رحمه الله - يذكر الاستغناء بالحلال عن الحرام، وليس الإفتاء بعدم حرمة الحرام أصلاً، أو اختيار قول من يعدل عن التحريم إلى التحليل أو يجرّد الكراهة، وإن ضَعُفَتْ حُجَّتُهُ، ووهت شُبُهَتُهُ. أما ابن القيم - رحمه الله - فكلامه في الرخص في العبادات، وهذا لا خلاف فيه، خلافاً لدعاة التيسير الذين وقعوا في تحليل الحرام، ونفي الكراهة عن المكروه، وشتان ما بين المذهبين.

وما يُروى عن سفيان - رحمه الله - لا يؤخذ منه الترخيص بإسقاط الواجب، أو تحليل الحرام، ولكنه موجّه إلى ما ينبغي أن يفتي به العالم من وقع في حرج متيقن ليعينه على القيام بما وَجَبَ عليه، لا لِيُسَقِطَهُ عنه،

(١) مجموع الفتاوى (٤٨/٧).

(٢) شرح العمدة (٥٤١/٢).

(٣) الموافقات (٢٦٧/٥).

ونبّه هنا إلى أنّ ما روي عن السلف الصالح، في الحث على التمسك بالعزائم، والتحذير من الترخّص المجرد عن الدليل، أضعاف ما روي عنهم في التيسير والترخيص، والعدل أن يُجمَع بين أقوالهم، لا أن يُسَقَط بعضها، أو يُضْرَب بعضها ببعض^(١).

فرع: معنى الأخذ بالأخف:

مسألة الأخذ بالأخف. فهذه على قسمين:

القسم الأول: إذا كان الأخذ بالأخف معارضاً ومصادماً لنصوص الشريعة فهنا لا يجوز الأخذ بالأخف.

ومن أخذ هنا بالأخف من أجل التيسير فإن هذا التيسير على غير الأصول الشرعية.

وقد بين ذلك الشاطبي - رحمه الله - فقال: (أن الذين يتبعون رخص المذاهب بنوا على ذلك مسألة: هل يجب الأخذ بأخف القولين أو بأثقلهما. ورد على من قال بالأخذ بالأخف هنا)^(٢).

فالقول بالأخف وما يقابله لا يصحان. لأن الواجب الأخذ بالدليل الشرعي سواءً قضى الدليل بالأخف أم بالأثقل.

القسم الثاني: إذا تعارضت الأدلة. ولا مرجح بينها. واحتار المفتي والفقهاء لتعارض الأدلة أمامه. فما الذي يأخذ به. على خلاف بين أهل العلم.

فمنهم من قال: يأخذ بالأخف.

ومنهم من قال يأخذ بالأحوط.

ومنهم من قال: يخيّر المستفتي.

(١) انظر: مقال نقض دعاوى من استدلت بيسر الشريعة على التيسير في الفتاوى للدكتور أحمد بن عبد الكريم

نُجيب الشريف. موقع شبكة النور.

(٢) الموافقات (١٠٤/٥).

ورجح ابن القيم أن المفتي في مثل هذه الحال يتوقف. وهو ظاهر ترجيح شيخ الإسلام ابن تيمية.

والخلاف في هذا القسم خلاف سائغ.

فمن أخذ بالأخف فهذا اجتهاده ولا يجوز اتهامه بالتساهل المخالف للشرعية.

ومن أخذ بالأحوط فهذا اجتهاده ولا يجوز اتهامه بالتشدد.

فالخلاف هنا سائغ. بخلاف القسم الأول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (وهذا كما إذا تعارضت أدلة (المسألة

الشرعية) عند الناظر المجتهد، وعند المقلد، فإنه لا يرجح شيئاً... الخ^(١)).

قال ابن القيم - رحمه الله -: (الفائدة الحادية والخمسون: إذا اعتدل عند المفتي

قولان ولم يترجح له أحدهما على الآخر، فقال القاضي أبو يعلى: له أن يفتي بأيهما

شاء، كما يجوز له أن يعمل بأيهما شاء. وقيل: بل يخير المستفتي فيقول له: أنت مخير

بينهما؛ لأنه إنما يفتي بما يراه، والذي يراه هو التخيير، وقيل: بل يفتيه بالأحوط من

القولين.

قلت: الأظهر أنه يتوقف، ولا يفتيه بشيء حتى يتبين له الراجح منهما؛ لأن

أحدهما خطأ، فليس له أن يفتيه بما لا يعلم أنه صواب، وليس له أن يخيره بين الخطأ

والصواب، وهذا كما إذا تعارض عند الطبيب في أمر المريض أمران خطأ وصواب، ولم

يتبين له أحدهم لم يكن له أن يقدم على أحدهما، ولا يخيره، وكما لو استشاره في

أمر، فتعارض عنده الخطأ والصواب من غير ترجيح لم يكن له أن يشير بأحدهما ولا

يخيره، وكما لو تعارض عنده طريقان مهلكة وموصلة ولم يتبين له طريق الصواب لم

يكن له الإقدام ولا التخيير، فمسائل الحلال والحرام أولى بالتوقف، والله أعلم أه^(٢).

(١) الفتاوى (١٠/٤٧٢).

(٢) إعلام الموقعين (٤/٢٩٧).

المطلب الرابع

معاني التيسير

التيسير له معانٍ أخرى:

- منها: أن الله تعالى لا يكلف الناس بما يطيقون، بل بما هو في وسعهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (وتأمل قوله ﷻ:

﴿لَا أُؤْسِعُهُمْ﴾^(١)، كيف تجد تحته أهم في سعة ومنحة من تكاليفه، لا

في ضيق وحرَج ومشقة؛ فإن الوُسْع يقتضي ذلك؛ فافتضت الآية أن ما كلفهم به من غير عُسر لهم ولا ضيق ولا حرَج، بخلاف ما يقدر عليه الشخص؛ فإنه قد يكون مقدوراً له ولكن فيه ضيق وحرَج عليه. وأما وسعُه الذي هو منه في سعة فهو دون مدى الطاقة والمجهود، بل لنفسه فيه مجال ومتسع^(٢).

- ومنها: أن العمل وإن كان فيه مشقة إلا أن الله تعالى يجعله سهلاً بطرائق كثيرة.

أ- منها: أنه يغير طبيعته الشاقة فيجعلها سهلة، كما ذكر الشيخ بالنسبة للقرآن الكريم ذكراً وتدبراً وفهماً.

ب- ومنها: أن يجد المؤمن في العمل لذة روحية، حتى إنه ليكاد ينسى ما فيه من مشقة. وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء.

ج- ومنها: أن يريد المؤمن تحقيق غاية يحبها لكنه يعلم أنها لا تتحقق إلا بعبادة معينة فيحرص عليها طلباً لتلك الغاية المحبوبة فتهدون عليه؛ كما في قوله تعالى عن

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/١٣٧).

الصلاة: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَتَلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكُتُبِ وَأَقْرَبَ الصَّلَاةِ إِبْرَ الصَّلَاةِ تَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾^(٢).

وكان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفتطر رجلاه قالت عائشة: يا رسول الله! أتصنع هذا وقد عُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! فقال: «يا عائشة! أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٣). فحرصه ﷺ على شكر ربه وهو شعور له لذة لا تعدلها لذة هو الذي يسر له هذا العمل الذي يبدو شاقاً.

د- ومنها: أن الله تعالى قد يزيل مشقات العمل حتى لا يكاد يبقى منها شيء؛ فأشق شيء على الإنسان أن يُقتل لكن رسول الله ﷺ يقول: «ما يجد الشهيد من مسِّ القتال إلا كما يجد أحدكم من مسِّ القرصة»^(٤).

لكن رغم هذا فقد يحدث التعسير في الدين شرعاً أو قدراً، ويكون عقاباً من الله تعالى لبعض الناس.

مثال التعسير شرعاً: ما قال الله تعالى فيه: ﴿فِيظَلَمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُجَلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾^(٥).

(١) سورة البقرة الآية ٤٥-٤٦.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم الحديث (٢٨٢٠).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل المرابط، وقال الألباني: حديث حسن صحيح، انظر: صحيح سنن الترمذي ص ٣٩١، رقم (١٦٦٨).

(٥) سورة النساء الآية ١٦٠.

وأما التعسير القُدري فيكون بسبب سوء فهم بعض الناس للدين والزامهم أنفسهم بما لم يلزمهم به الله تعالى من أنواع العنت. وهذا هو الذي يحدث لأناس من هذه الأمة التي اختار الله لها الحنيفية السمحة والتي قال الله تعالى عن رسولها:

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۗ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) (٢).

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

(٢) مفهوم اليسر في الدين. لجعفر شيخ إدريس. مجلة البيان عدد (٢٣٥).

المطلب الخامس

أثر اليسر والسماحة في انتشار الإسلام

مما لا شك فيه أن للسماحة^(١) والتيسير أثرا واضحا في سرعة انتشار الإسلام ودوام بقائه بين الأمم والشعوب التي اعتنقته، والتاريخ يشهد أن سرعة امتثال الأمم للشرائع ودوامهم على آتباعها، إنما كانت على مقدار اقتراب تلك الشرائع من السماحة والتيسير، فإذا بلغت بعض الشرائع من الشدة حدا يتجاوز أصل السماحة، لحقت الشدة والمشقة والعنت بآتباعها، ولا يلبثون إلا أن ينصرفوا عنها أو يفرطوا في بعض تعاليمها ...

يقول أحد الباحثين: (فمن أسباب انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ... أنه دين بسيط، سهل القواعد والأصول، لا يحوج المتدين به بعد الإيمان بالوحدانية وفرائض العبادة إلى شيء من الغوامض التي يدين بها أتباع العقائد الأخرى، ولا يفقهون ما فحواها)^(٢).

ويقول آخر عن يسر العقيدة الإسلامية: (بأن ذلك هو أهم سبب في انتشار الإسلام حتى بين المسيحيين أنفسهم)^(٣).

(١) السماحة أول أوصاف الشريعة وأكبر مقاصدها والسماحة سهولة المعاملة فيما اعتاد الناس فيه المشادة، فهي وسط بين الشدة والتساهل، ولفظ السماحة هو أرشق لفظ يدل على هذا المعنى، يقال سمح فلان إذا جاء بمال له. قال المنقح الكندي:

ليس العطشاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل
فالسماحة أخص من الجود، ولهذا قابلها زياد الأعجم بالندى في قوله:
إن السماحة والمروءة والندى
في قُبْسَةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ

(٢) الإسلام في القرن العشرين (ص ١٩-٢٠).

(٣) المدخل إلى الثقافة الإسلامية. د. محمد رشاد سالم (ص ٢٣٥).

نماذج وصور من سماحة الإسلام مع المسلمين الجدد:

عمل الإسلام على التدرج في دعوة الناس إليه وتكليفهم بتعاليمه وتشريعاته، لأن ذلك ادعى إلى قبوله وترسيخ العمل بتشريعاته وأحكامه وفضائله واحدة بعد الأخرى، ومما يذكر في هذا المقام ما رواه الشيخان أن النبي ﷺ قال لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «أدعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم»^(١).

ففي هذا الحديث لم يعتمد النبي ﷺ إلى تكليف المدعويين إلى الإسلام بكل تشريعاته وأحكامه دفعة واحدة وعلى الفور وفي وقت واحد، وإنما يسر لهم الأمر، وتدرج معهم شيئاً فشيئاً حتى يرغبهم في الإسلام ويحببهم به ...

وفي حادثة أخرى رواها أحمد^(٢) أن شاباً قال: يا رسول الله، إئذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به، فقال لهم النبي ﷺ قَرَّبُوهُ، فدنا منه حتى جلس بين يديه، فقال له: «أتجبه لأملك؟» فقال الشاب: لا، جعلني الله فداك، قال: «كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أتجبه لابتنتك؟» قال: لا، جعلني الله فداك، قال: «كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتجبه لأختك؟» حتى ذكر العمة والخالة، والشابُّ يقول في كل مرة: لا، جعلني الله فداك ... ثم وضع النبي ﷺ يده على صدره وقال: «اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصِّن فرجه»، قال: فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا.

(١) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في سننه، كتاب: الزكاة، باب إخراج الزكاة من بلد إلى بلد، رقم الحديث

(٢٥٢٢).

(٢) برقم (٢٢٢١١)، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٠٦٦) وإسناده صحيح. انظر تخرجه في الصحيحة

برقم (٣٧٠).

صُوْرُ التيسير في الشَّرْع، ولا تكاد تنحصر في باب أو لأحد، والداحل في الإسلام له نصيبه الوافر من هذا التيسير.

فمن ذلك: التيسير في عدم الإنكار على المسلم الجديد عند خطفه؛ فعن أنس -رضي الله عنه- قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ترموه - أي: لا تقطعوه - دعوه»، فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القدر، إنما هي ليذكر الله ﷻك والصلاة وقراءة القرآن»^(١)، وفي رواية: قال ﷺ: «دعوه، وهريقوا على بوله سخلاً من ماء، أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»^(٢).

ومن التيسير على المسلم الجديد: ألا يوجب على نفسه ما ليس بواجب، كقضاء ما فاتته من الطاعات قبل إسلامه، إذ هو ليس ملزماً بالقضاء، ومثل ذلك قد يُنْقَره من الإسلام، ولم يُوجب ذلك أحد من العلماء، وقد سئل السيوطي -رحمه الله- عن مسألة الكافر إذا أسلم، وأراد أن يقضي ما فاتته في زمن الكفر من صلاة وصوم وزكاة، هل له ذلك؟ وهل ثبت أن أحداً من الصحابة -رضي الله عنهم- فعل ذلك حين أسلم؟

فقال: (الجواب: نعم، له ذلك، وذلك مأخوذاً من كلام الأصحاب إجمالاً وتفصيلاً: أمّا الإجمال، فقال النووي في شرح المهذب: اتفق أصحابنا على أن الكافر الأصلي لا تجب عليه الصلاة والزكاة، والصوم والحج، وغيرها من فروع الإسلام، ومردأهم: أنهم لا يُطالبون بها في الدنيا مع كُفْرهم، وإذا أسلم أحدُهم لم يلزمه قضاء الماضي، فاقتصر على

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الطهارة، باب: وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء، من غير حاجة إلى حفرها، رقم الحديث (٢٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الطهارة، باب: صب الماء على البول في المسجد، رقم الحديث

نفي اللزوم، فيبقى الجواز، وعبارة المهذب فإذا أسلم لم يُخاطب بقضائها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَآذٍ سَلَفَ﴾^(١)، ولأنَّ في إيجاب ذلك عليه تنفيراً، فغُفِيَ عنه، فاقْتَصَرَ على نفي الإيجاب، فيبقى الجواز والاستحباب^(٢).

وقال ابن عثيمين -رحمه الله-: (فأما الكافر فلا يجب الصيام عليه، ولا يصحُّ منه؛ لأنَّه ليس أهلاً للعبادة، فإذا أسلم في أثناء شهر رمضان لم يلزمه قضاء بقية الأيام الماضية لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَآذٍ سَلَفَ﴾^(٣)، وإن أسلم في أثناء يوم منه لزمه، أمسك بقية اليوم؛ لأنَّه صار من أهل الوجوب حين إسلامه، ولا يلزمه قضاؤه؛ لأنَّه لم يكن من أهل الوجوب حين وقتِ وجوب الإمساك^(٤)).

ومن هنا:

فإنَّ على المسلم الجديد أن يفقه أحكام الإسلام، ويعلم تيسيره وسماحته، وعلى القائم بالدعوة بين المسلمين الجدد أن يدرك أنَّ التيسير أصلٌ في دين الإسلام، وهو من الوسائل الرئيسة في تثبيت المسلم الجديد على الإسلام، وبقائه عليه، أمَّا التشديد والتعسير، فليس من منهج النبوة، وهو ينقِر المسلم عن الإسلام، ويبعده عنه. إن مهمة أهل الإسلام أن يحسنوا عرض هذا الدين للبشر من جهة أساليب الدعوة وطرائقها، ومن جهة التمثل بتعاليم الإسلام في السلوك.

(١) سورة الأنفال الآية ٣٨.

(٢) الحاوي (٣١/١).

(٣) سورة الأنفال الآية ٣٨.

(٤) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٢٠/٢٢٦).

إن التأثير بالسلوك من أبلغ وسائل الدعوة، فلربما دخل الإنسان في الإسلام بسبب حسن سلوك مسلم عايشه، وفي أحاديث النبي ﷺ ما يشهد بوضوح الأمر بتغيب الناس إلى الإسلام، وتأليف قلوبهم، والمنع من تنفيرهم عن هذا الدين الخفيف، فمن تلك الأحاديث: قول النبي ﷺ لمعاذ لما أطال بالناس الصلاة: «أفتان أنت يا معاذ»^(١).

قال الإمام النووي -رحمه الله-: (أي منفر عن الدين وصاد عنه)^(٢).
وفي حديث آخر وفي السبب نفسه قال ﷺ: «يأيتها الناس إن منكم منفريين، فمن أمّ الناس فليتجاوز»^(٣).

(١) رواه البخاري، كتاب: الأدب، باب: من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً، رقم الحديث (٦١٠٦).

(٢) شرح صحيح مسلم (٤/١٨٢).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: من شكأ إمامه إذا طول، رقم الحديث (٧٠٤).

المطلب السادس

فهم التيسير المعاصر^(١)

مفهوم منهج التيسير المعاصر عند العلمانيين: لقد اتخذ دعاة العلمانية والعصرنة من التيسير باباً يتسللون منه لينالوا من الشريعة، بل ويعطلوا كثيراً من النصوص القطعية الثابتة، فهم يرون أن من التيسير أن يكون التشريع من حق العلمانية، وليس من حق الإسلام أن يحكم المجتمع ويشترع له ويحلل ويحرم، ويرون أن التيسير يقتضي أن لا تبقى المفاهيم والمعتقدات والقيم على حالها، بل لابد من مواكبة العصر. ويمثلون لهذا بأمثلة كثيرة كالربا، والفوائد البنكية، وكون ميراث المرأة نصف ميراث الرجل، وحجاب المرأة، وقطع يد السارق، ونحو ذلك. ولعل الفساد الذي لحق بعقول هؤلاء هو أنهم لم يفرقوا بين اليسر واللذة والشهوة؛ لأن المنافع ليست هي ما يوافق الأغراض والشهوات دائماً، ولم يفرقوا بين اليسر الموهوم واليسر الحقيقي.

أسباب ظهور منهج التيسير المعاصر: والأسباب الداعية لظهور هذا المنهج كثير متعددة، نكتفي هنا بذكر بعض منها:

أولاً: الجهل بأحكام الشريعة ومقاصدها: وهذا السبب يدور حول ثلاث محاور:

١. الجهل بالنصوص الشرعية.
٢. سوء فهم النصوص الشرعية.
٣. الجهل بمقاصد الشريعة.
٤. الجهل بما تقول إليه الأحكام.

(١) وللاستزادة في الموضوع: انظر: منهج التيسير المعاصر لعبد الله الطويل وهو كتاب نفيس للغاية. وانظر أيضاً: التسليم للنص الشرعي والمعارضات الفكرية المعاصرة لفهد العجلان.

ثانياً: ردة فعل لظاهرة الغلو: فمن أهم أسباب التيسير غير المنضبط أنه انعكاس لما حصل من غلوّ وتشدد عند البعض، كانت نتيجته ردة فعل قوية في الاتجاه المعاكس.

ثالثاً: ترغيب الناس في الدين: من الواجب على أهل الإسلام أن يُحسنوا عرض هذا الدين للناس، ويجيبونه إليهم، وذلك بطرق الوسائل والأساليب الدعوية التي من شأنها ترغيب الناس في الدين، فلا ينتهجون من أساليب الدعوة ما يُعطي صورة سيئة عن الدين.

رابعاً: إتباع الهوى: والمقصود بالهوى: كل ما خالف الهدى الشرعي من الكتاب والسنة، ومن ذلك إتباع أهواء العامة والجرى وراء إرضائهم بالتساهل، ويدخل فيه كذلك حب الظهور والشهرة بين الناس.

خامساً: مسaire الواقع (ضغط الواقع): تجدد من المعاصرين من يركب الصعب والذلول لتطويع النصوص للواقع، على حين يجب أن يُطوِّع الواقع للنصوص، لأن النصوص هي الميزان المعصوم الذي يحتكم إليه ويعوّل عليه، والواقع يتغير فلا ثبات له ولا عصمة، ولهذا يجب رد المتغير إلى الثابت، وغير المعصوم إلى المعصوم.

سادساً: المؤثرات البيئية: المؤثرات البيئية تندرج تحت قسمين أساسيين:

الأول: الأسباب الداخلية:

١. المؤثرات المكانية: ولعل من أبرز الأمثلة هنا هو الإمام مالك فقد نشأ في المدينة المنورة حيث ينتشر حقاظ الحديث ورواته، مما أغنى ثروة الإمام مالك الفقهية المستندة في الغالب إلى الآثار وأقوال الصحابة والتابعين، ولذلك ألف كتابه الشهير (الموطأ).

٢. المؤثرات الزمانية: وقد وردت بعض الأحكام في السنة النبوية بنيت على رعاية أحوال الناس وأخلاقهم في زمن النبوة، ثم تبدلت أحوال الناس بعدهم، فتغيرت

الفتاوى، فعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: (لو أدرك النبي ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن كما مُنعت نساء بني إسرائيل)^(١).

٣. المؤثرات العرفية: قال ابن القيم -رحمه الله-: (ومن أفتى الناس بمجرد المنقول على اختلاف عرفهم وعوائدهم، وأزمنتهم وأمكنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم: فقد ضل وأضل، وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبب الناس كلهم على اختلاف بلادهم وعوائدهم وأزمنتهم وطبائهم، بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم، بل هذا الطبيب الجاهل، وهذا المفتي الجاهل أضر على أديان الناس وأبدانهم والله المستعان)^(٢). هذا بالنسبة للعرف المعتبر الصحيح، أما العرف الفاسد: وهو ما يخالف أحكام الشريعة وقواعدها الثابتة، مثل: تعارف الناس على كثير من المنكرات، كالتعامل بالربا، وشرب الخمر، وحلق اللحية، ونحوها، فهذا عرف غير معتبر، إلا أن بعض دعاة منهج التيسير المعاصر عدّ هذا العرف سبباً للتيسير.

٤. المؤثرات العلمية: إن تأثر العالم والمفكر بمشربه العلمي ووسطه المعرفي الذي استقى منه علومه ومعارفه أمر لا يختلف فيه اثنان، فالعالم يتأثر بشيخه، وهذا ملاحظ معلوم؛ فالشيخ لا بد أن يترك أثراً على تلميذه، إما في منهجه في التأليف أو طريقته في الاستنباط أو بتبني بعض آرائه، أو في كل ما سبق وربما أكثر. ومن أبرز الأمثلة المشهورة عند أهل العلم الأثر الواضح الذي تركه شيخ الإسلام ابن تيمية على تلميذه ابن القيم -رحمهما الله تعالى-، فقد كان التلميذ كأنه جزء فُدّ من شيخه.

الثاني: الأسباب الخارجية:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب: خروج النساء إلى المساجد بالليل والغلس، رقم الحديث (٨٦٩).

(٢) إعلام الموقعين (٦٦/٣).

١. الترغيب في الدخول في الإسلام: من تتبع أحوال بعض دعاة فقه التيسير المعاصر يرى أن هذا السبب قد طغى على كتاباتهم، وأن الترغيب في الدخول إلى الإسلام يمثل همّ الأكبر لبعضهم فجزاهم الله خيراً، لكن هذا الهم على جلالته مثّل مزلقاً أهدرت فيه كثير من قواعدنا العلمية وقضايانا الفقهية ومسائلنا الدينية.
٢. كثرة الهجرة والابتعاث إلى بلاد الغرب: إن الكثير ممن هناك تسيطر على عقليته مظاهر الانبهار والتأثر سلباً بفكر المجتمع الغربي وسلوكه، وعند الرجوع إلى أرض الوطن يكون سفيراً لتوجهات فكرية وسلوكية تنتمي إلى حضارة أجنبية، والتاريخ شاهد على ذلك، فقد عاد كثير من المبتعثين المسلمين إلى بلادهم وهم يحملون أفكار الغربيين لا علومهم وتقدمهم، فكانوا نواة لحركة تغريبية في العالم الإسلامي.
٣. الانبهار بالحضارة الغربية: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (فالانتفاع بآثار الكفار والمنافقين في أمور الدنيا جائز، كما يجوز السكنى في ديارهم ولبس ثيابهم وسلاحهم ... وأخذ علم الطب من كتبهم مثل الاستدلال بالكافر على الطريق واستطبابه، بل هذا أحسن، لأن كتبهم لم يكتبوها لمعين من المسلمين حتى تدخل فيها الخيانة)^(١).

آثار ظهور منهج التيسير المعاصر:

أولاً: الآثار التشريعية:

١. التفلت من بعض الأحكام الشرعية:

فمن باب ما يسمى بفقه الأولويات ظهرت اختلالات كثيرة في مراتب الأعمال والأحكام الشرعية - لأجل الأخذ بالتيسير - في كثير من كتابات أصحاب هذا الاتجاه، ومن أبرز ما نتج عن ذلك أمران:

(١) مجموع الفتاوى (١١٤/٤)

الأول: التهوين بالمسائل الفرعية: ولقد ضُيِّع كثير من السنن، بل الواجبات، بحجة الاهتمام بقضايا الأمة الكبرى وتفعيل فقه الأولويات، وإنك لترى وتسمع من إذا أنكرت عليه تقصيرا في ترك سنة أو واجب أو ارتكاب لمحظور سارع بإجابتك بأن الأمة يحيط بها أعداؤها من كل مكان ويكيدون لها وأنت تنكر عليّ هذه المسألة؟!

الثاني: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فأصحاب هذا المنهج يدعون إلى ترك الإنكار في أي مسألة خلافية، وقد سُئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله-: هل يُنكر على المرأة التي تكشف الوجه أم أن المسألة خلافية، والمسائل الخلافية لا إنكار فيها، فأجاب -رحمه الله-: (لو أننا قلنا المسائل الخلافية لا ينكر فيها على الإطلاق، ذهب الدين كله حين تتبع الرخص، لأنك لا تكاد تجد مسألة إلا وفيها خلاف بين الناس)^(١).

٢. الإخلال بمقاصد الشريعة: ويتمثل هذا في عدة أمور، منها: التوسع في تحديد مقاصد الشريعة: بعدم الاختصار على ما ذكره فقهاء الأمة واتفقوا عليه فيما يدخل ضمن الضروريات والحاجيات والتحسينات.

ثانياً: الآثار السلوكية:

١. التفرّق.
٢. الوقوع في المحظورات. ولعل من أبرز المحظورات:
 - أ- التعامل بالربا.
 - ب- تحرير المرأة.
٣. النيل من شعائر الإسلام وعلمائه: من ذلك النيل من المتمسكين ببعض الشعائر الإسلامية كتوفير اللحية مثلا، فنجد أن ذلك أصبح مجالاً رجباً - مع الأسف - للنيل من صاحبها ووصفه بما لا يليق. يقول محمد الغزالي -رحمه الله-: (وهناك

(١) لقاء الباب المفتوح (٣٣-٣٤/٦٦).

من حلق رأسه وشواربه بالموسى، وأطلق شعر لحيته على نحو يشعرك بأن كل شعرة أعلنت حرباً على جارحها، فهناك امتداد وتنافر يثيران الدهشة، قلت في نفسي: لم يبق إلا أن يخلق حاجبيه بالموسى هي الأخرى لتكتمل الدمامة في وجهه، ولم أر مساءلته لم فعل ذلك؟ لأني أعلم إجابته، سيقول: هذه هي السنة^(١).

٤. التقليد والتبعية للغرب: لقد زعم بعض المسلمين أننا في حاجة إلى التقليد والتبعية للغرب في كل شيء، نعتاد عاداتهم ونلبس لباسهم ونأكل طعامهم، ومن ذلك ما كتبه مدير مجلة الأزهر يقول: (إن الأمم الإسلامية لفي حاجة إلى تقليد الغربيين في كل شيء حتى ملامههم ومراقصهم وإلحادهم إن أرادت أن تبلغ شأوهم في حلبة الحياة)^{(٢)(٣)}.

(١) مستقبل الإسلام (ص ٨٣).

(٢) موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين لمصطفى صبري (١/٣٦٩).

(٣) انظر: منهج التيسير المعاصر، دراسة تحليلية لعبد الله الطويل.

المبحث الثالث

أحكام المشقة

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول

أقسام المشقة وضوابطها

المشقة أنواع:

- الأول: مشقة غير مقدور عليها: كتكليف المقعد بالقيام، والإنسان بالطيران ونحو ذلك، فهذه لا يرد بها التكليف والنصوص دالة على ذلك.
- الثاني: مشقة داخلية تحت قدرة المكلف، وهي أقسام:
 ١. مشقة خفيفة: كأدنى وجع في الأصبع أو الرأس ونحو ذلك، فهذا لا أثر له في التخفيف والترخص؛ لأن تحصيل مصالح العبادات أولى من دفع مثل هذه المفسدة التي لا أثر لها.
 ٢. مشقة عظيمة: وهي الخارجة عن حدود المعتاد: بحيث يؤدي امتثال التكاليف إلى خلل في نفس المكلف أو ماله أو أطرافه، فالمشقة هنا خارجة عن المعتاد وموجبة للتخفيف والترخص؛ لأن حفظ النفوس والأطراف لإقامة مصالح الدين أولى من تعريضها للفوات في عبادة أو عبادات، مثل الاغتسال من الجنابة مع شدة البرد، وصيام المريض والحامل.
 ٣. مشقة في الحدود العادية وداخلية تحت القدرة البشرية: وهي لا تنفك عن العبادة غالباً وهي موجودة في المسائل الدنيوية كمشقة العمل وكسب العيش، فهذه وإن كانت مشقة لكن النفس قادرة عليها، بل لو ترك الإنسان العمل من أجلها لعدّ ذلك سفهاً وعجزاً، وهذه مثل مشقة البرد في الوضوء والصوم

في الحر ومشقة السفر للحج والعلم والمشقة في إقامة الحدود ونحو ذلك، فهذه المشقة لا أثر لها في إسقاط العبادة ولا تمنع التكليف وليست سببا للترخص).

ويشترط في المشقة التي تجلب التيسير أمور، وهي:

١. ألا تكون مصادمة لنص شرعي، فإذا صادمت نصاً روعى النص دونها.
 ٢. أن تكون المشقة زائدة عن الحدود العادية، أما المشقة العادية فلا مانع منها لتأدية التكاليف الشرعية، كمشقة العمل.
 ٣. ألا تكون المشقة مما لا تنفك عنها العبادة غالباً، كمشقة البرد في الوضوء والغسل، ومشقة الصوم في شدة الحر وطول النهار، ومشقة السفر في الحج.
 ٤. ألا تكون المشقة مما لا تنفك عنها التكاليف الشرعية، كمشقة الجهاد، وألم الحدود، ورحم الزناة، وقتل البغاة والمفسدين والجناة. فهذه المشقات لا أثر لها في جلب التيسير ولا التخفيف، لأن التخفيف عندئذ إهمال وتضييع للشرع. والمشاق أنواع، ولا بد من بيانها لتفهم هذه القاعدة بالشكل الجيد.
- قال الشاطبي - رحمه الله -: (... فمثل هذا يسمى مشقة بهذا الاعتبار؛ لأنه إلقاء بالمقاليذ، ودخول في أعمال زائدة على ما اقتضته الحياة الدنيا)^(١).
- ويقول العز بن عبد السلام - رحمه الله - هذا الوجه: (هذه المشاق كلها لا أثر لها في إسقاط العبادات والطاعات، ولا في تخفيفها، لأنها لو أثرت لفاتت مصالح العبادات والطاعات في جميع الأوقات، أو في غالب الأوقات، ولفات ما رتب عليها من المثوبات والباقيات)^(٢).
- وقال ابن القيم - رحمه الله -: (إن كانت المشقة مشقة تعب، فمصلح الدنيا والآخرة منوطة بالتعب، ولا راحة لمن لا تعب له، بل على قدر التعب تكون الراحة)^(٣).

(١) الموافقات (٢/٢٠٩).

(٢) قواعد الأحكام (٢/٩).

(٣) إعلام الموقعين (٢/٨٦).

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه المشقة المعتادة تختلف باختلاف الأعمال فليس المشقة في الصلاة - مثلاً - كالمشقة في الصيام أو الحج أو الجهاد، ولكن كما قرر الإمام الشاطبي - رحمه الله - في الموافقات أنّ (كل عمل في نفسه له مشقة معتادة فيه توازي مشقة مثله من الأعمال العادية، فلم تخرج عن المعتاد إلى الجملة)^(١).

وكما تختلف المشاق العادية باختلاف الأعمال؛ فإنها تختلف بالأزمان والأمكنة والأحوال، فإسباغ الوضوء في السبرات غيره في الزمان الحار، وليس القيام إلى الصلاة من النوم مع قصر الليل أو لشدة البرد، كالقيام لها في غير هذين الحالين^(٢).

ومحل الفائدة من هذه الإشارة: تحقيق أنّ المشقة نسبية يحتاج فهمها إلى دقة نظر بالنسبة لكل عمر في ذاته، وإلاّ اختلطت على الناظر أنواع المشاق، فتختلط الأحكام المترتبة عليها، وهو أمر في غاية الأهمية يقول الشاطبي - رحمه الله -: (المشقة قد تبلغ في الأعمال المعتادة ما يظن أنّه غير معتاد، ولكنه في الحقيقة معتاد، ومشقته في مثلها مما يعتاد ... وإذا لم تخرج عن المعتاد لم يكن للشارع قصد في رفعها)^(٣).

ضوابط للمشقة: وضع العلماء بناء على هذا ضوابط للمشقة، إذا تحققت حصل التيسير. وهذه الضوابط هي:

١. أن لا تكون من المشاق التي لا تنفك عنها العبادة غالباً، لأن هذه لا تؤثر في التخفيف، بل هي مرادة للشارع، وهي جزء من المقصود بالتكليف، بل إنما التكليف سمي تكليفاً لما فيه من الكلفة وشيء من مشقة، فلذا فإن المشقة وحصول التعب الشديد والتعرض للقتل الحاصل من الجهاد، ليست مشقة مسقطاً للتكليف، وكذلك المشقة الحاصلة في طلب العلم والسهر في تحصيله

(١) الموافقات (٢/٢٦٩).

(٢) المصدر السابق (٢/٢٧٠).

(٣) المصدر السابق (٢/٢٧١).

وانظر: درء المشقة في الشريعة الإسلامية، د. القرشي عبد الرحيم البشير.

ليست مسقطه له، وكذلك المشقة العادية الحاصلة في الصوم ليست مسقطه له، وكذلك فقد أمرنا الله تعالى بالقصاص، وبرجم الزاني المحسن، وقطع يد السارق، ولاشك أن في هذا مشقة، سواء على المقام عليه الحد، أو على مقيمته، ولكن هذه المشقة لا تُسقط حكم القصاص والرجم وقطع اليد.

٢. أن تكون المشقة خارجة عن المعتاد في مثلها، وإن أمكن فعل العبادة معها. مثالها: -المريض في رمضان الذي يخاف إن صام، زيادة مرضه أو بقاء شفائه، جاز له الفطر في رمضان وقضائه متى شفي من مرضه، الخوف من الاغتسال للجنابة من شدة البرد بأن لا يجد مكاناً يؤويه ولا ثوباً يتدفأ به، ولا ماء مستحناً، جاز له التيمم، المريض مرضاً شديداً الذي يشق عليه الوقوف، يصلي جالساً.

٣. أن تكون المشقة واقعة حقيقة لا توهمها؛ لأنه ربما ظن المكلف عدم قدرته وهو قادر، كالمريض الذي يفطر في نهار رمضان لكونه مريضاً دون أن يتيقن حصول المشقة له في الصوم، ولكن إذا كانت المشقة مظنوننة ظناً غالباً فإن الظن الغالب كالحقق .

المطلب الثاني

قواعد في المشقة

الأولى: لا تكليف بدون مشقة، وإن كانت المشقة الحاصلة بكلّ تكليف بحسبه، وهي متفاوتة، فإذا جاز لنا تحيّر أيسر المذاهب دفعاً لكلّ مشقة، ترتّب على ذلك إسقاط كثيرٍ من التكاليف الشرعيّة.

قال الشاطبي -رحمه الله-: (المقصد الشرعي من وضع الشريعة هو إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد الله اضطراراً)^(١).
وقال الإمام شمس الدين ابن القيم -رحمه الله-: (لو جاز لكل مشغول وكل مشقوق عليه الترخيص ضاع الواجب وضمحل بالكلية)^(٢).

وقال أيضاً في معرض كلامه عن رخص السفر: (إنّ المشقة قد عُلقَ بها من التخفيف ما يناسبها، فإن كانت مشقة مرض وألم يُضِرُّ به جاز معها الفطر والصلاة قاعداً أو على جنب، وذلك نظير قصر العدد، وإن كانت مشقة تعبٍ فمصلح الدنيا والآخرة منوطٌ بالتعب، ولا راحة لمن لا تعب له بل على قدر التعب تكون الراحة فتناستت الشريعة في أحكامها ومصلحتها بحمد الله ومَنِّه)^(٣).

وقال ابن رجب -رحمه الله-: (إن أحب الأعمال إلى الله ما كان على وجه السداد والاقتصاد والتيسير دون ما كان على وجه التكلف والاجتهاد والتعسير، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٤)، وقال تعالى:

(١) الموافقات (٢/١٢٨).

(٢) إعلام الموقعين (٢/١٣٠).

(٣) المصدر السابق (٢/١٣١).

(٤) سورة البقرة الآية.

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٢)، وكان النبي ﷺ يقول: «يسروا ولا تعسروا»، وقال ﷺ: «فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»^(٣).

الثانية: ما ورد في التحذير والتنفير من التشديد والتعسير والمشاقّة والتنطع، والتعمق - وما إلى ذلك - على النفس والغير، لا يدلُّ على التخيير (أو التخير) في الأحكام الشرعيّة، لدلالة النصوص على التكليف بالأشدّ في مواضع كثيرة، ولأنّ النسخ بالأشدّ ممّا جاءت به الشريعة بالاتفاق، فضلاً عن حمل جمهور أهل العلم لنصوص النهي عن التنطع ونحوه على ما كان فيه مجاوزة للمشروع، كالوصال في الصيام، فهو ممّا نُهي عنه، وإن كان مقدوراً عليه بدون مشقّة، بخلاف الصوم المشروع فلا يسقط عمّن وجب عليه حتى وإن ثبتت مشقّته، ما دام مقدوراً عليه، وقد تقدّم ذكر بعض أقوال أهل العلم في أنّ الأصل في التكليف، أنّه قائمٌ على المشقّة المقدور عليها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (التشديد تارة يكون باتخاذ ما ليس بواجب، ولا مستحب، بمنزلة الواجب والمستحب في العبادات، وتارةً باتخاذ ما ليس بمُحرّم، ولا مكروه، بمنزلة المحرم والمكروه في الطيبات، وعُغِّل ذلك بأن الذين شددوا على أنفسهم من النصارى، شدّد الله عليهم لذلك، حتى آل الأمر إلى ما هم عليه من الرهبانية المبتدعة، وفي هذا تنبيه على كراهة النبي ﷺ لِمِثْل ما عليه النصارى من الرهبانية المبتدعة، وإن كان كثير من عبّادنا قد وقعوا في بعض ذلك، متأولين معذورين، أو غير متأولين ولا معذورين)^(٤).

(١) سورة المائدة الآية ٦.

(٢) سورة الحج الآية ٧٨.

(٣) الحجّة في بيان الحجّة (ص ٤٦).

(٤) الاقتضاء (١/١٣١).

وقال ابن القيم -رحمه الله-: (نهى النبي ﷺ عن التشديد في الدين، وذلك بالزيادة على المشروع، وأخبر أن تشديد العبد على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه؛ إما بالقدر، وإمَّا بالشرع؛ فالتشديد بالشرع كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل، فيلزمه الوفاء به، وبالقدر كفعل أهل الوسواس، فإنهم شدّدوا على أنفسهم، فشَدّد عليهم القدر، حتى استحکم ذلك، وصار صفةً لازمة لهم^(١)).

المشقة ليست مقصودة في الشرع، ولذا قال رسول الله ﷺ للشيخ الذي نذر أن

يمشي وكان يهادي بين ابنيه: «إن الله عن تعذيب هذا لنفسه لغني» وأمره أن يركب^(٢).

قال العز بن عبد السلام - رحمه الله - مقررًا ذلك: (لا يصلح التقرب بالمشاق، لأن

القرب كلها تعظيم للرب سبحانه وتعالى، وليس عين المشاق تعظيماً ولا توقيراً)^(٣).

وقال أيضاً: (إن قيل: ما ضابط الفعل الشاق الذي يؤجر عليه أكثر مما يؤجر على

الخفيف؟ قلت: إذا اتحد الفعلان في الشرف والشرائط والسنن والأركان، وكان أحدهما شاقاً

فقد استويا في أجرهما لتساويهما في جميع الوظائف، وانفرد أحدهما بتحمل المشقة لأجل الله

سبحانه وتعالى، فأثيب على تحمل المشقة لا على عين المشاق، إذ لا يصح التقرب

بالمشاق، لأن القرب كلها تعظيم للرب سبحانه وتعالى، وليس عين المشاق تعظيماً ولا

توقيراً)^(٤).

وقال شيخنا عبد الكرم الخضير - حفظه الله - في شرح زاد المستقنع: (المشقة

ليست مقصود شرعي لذاتها، بل إذا جاءت تبعاً لمطلب شرعي أجر الإنسان عليها،

أم المشقة بذاتها فليست مقصوداً شرعياً، فلو قال شخص يعني بدلاً من أحج على

(١) الإغائة (١/١٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: النذر، باب: من نذر أن يمشي إلى الكعبة، رقم الحديث (١٦٤٢).

(٣) قواعد الأحكام (١/٣٦).

(٤) المصدر السابق (١/٣٦). وانظر: منزلة الاتباع في ضوء الوحيين لفصل البعداني. وهي مطبوعة في مجموع

بعنوان حقوق النبي ﷺ (ص ١٠٦).

الطائرة أمشي مشياً لأنه أعظم في المشقة فهو أعظم أجراً، نقول: لا، يقول: بدلاً من أسلك الطريق المختصر الميسر المعبد المذلل اسلك طريقاً أبعد منه من غير تعبيد ولا تذليل لينال أكبر قدر من المشقة، نقول: لا، المشقة ليست مقصودة لذاتها: لكن إذا كانت العبادة أو المأمور به شرعاً لا يمكن إتيانه إلا بهذه المشقة أجز عليها الإنسان. حاصل كلام أهل العلم أن المشقة لا تطلب لذاتها وهي غير مرادة في الشرع، لكن المشقة غير المقصودة التي تلحق المكلف بسبب أدائه للعمل المشروع تزيد في ثوابه كما سيأتي تقريره.

المطلب الثالث

تقصد المشقة في الشريعة الإسلامية

ترى بعض الجهلاء يستحب أداء مناسك الحج حافياً تقريباً إلى الله^(١)، حتى يتحقق فيه قول النبي ﷺ لعائشة: «أجرك على قدر نصبك»، ولحديث جابر في صحيح مسلم^(٢) قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد» قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم» وفي رواية^(٣) فقالوا: ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا. والذي يظهر أن تقصد المشقة ممنوع لما يأتي:

أولاً: لا يجوز للإنسان أن يتقصد المشقة عند أدائه لأي عبادة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (قول بعض الناس: الثواب على قدر المشقة ليس

(١) كل حديث في فضل الحج ماشياً لا يصح كحديث: «من حج من مكة ماشياً حتى يرجع إلى مكة كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة، كل حسنة مثل حسنات الحرم، قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: لكل حسنة مائة ألف حسنة»، وحديث: «إن للحجاج الراكب بكل خطوة تحطوها راحلته سبعين حسنة، والماشي بكل خطوة يحطوها سبعمائة حسنة»، وحديث: «للماشي أجر سبعين حجة، وللراكب أجر ثلاثين حجة». انظر: الضعيفة برقم (٤٩٥) (٤٩٦) (٤٩٧).

وانظر: فصل البيان بضعف أحاديث فضل مشاة الحجاج على الركبان لأبي محمد الألفي الإسكندري. اختلف أهل العلم في استحباب عمل النسك في الحج والسعي بين المشاعر مشياً أم ركوباً أيهما أفضل؟ على قولين لأهل العلم: من قال أن الركوب أفضل قال هذا فعل النبي ﷺ فقد ركب، ومن قال أن المشي أفضل قال أن المشي فيه نصب وتعب ومشقة وهو أعظم للأجر. والذي يظهر والله أعلم أن الركوب والمشى لا يظهر بينهما تفضيل، وإنما التفضيل هو أن تؤتى المناسك كما جاءت عن النبي ﷺ على الوجه المشروع، إن كان الركوب أسمع للإنسان فركب، وإن كان المشي أسمع للإنسان فيمشي. انظر: صفة حج النبي ﷺ للطريفي (ص ٧٧).

(٢) برقم (٦٦٥).

(٣) برقم (٦٦٥).

بمستقيم على الإطلاق، كما يستدل به طوائف على أنواع من الرهبانيات والعبادات المبتدعة، التي لم يشرعها الله ورسوله، من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات، ومثل التعمق والتنطع الذي ذمه النبي ﷺ حيث قال: «هلك المنتنعون» وقال: «لو مدّ لي الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم» مثل الجوع أو العطش المفرط الذي يضر العقل والجسم، ويمنع أداء واجب أو مستحبات أنفع منه، وكذلك الاحتفاء والتعري والمشى الذي يضر الإنسان بلا فائدة، مثل حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يصوم وأن يقوم قائماً ولا يجلس ولا يستظل ولا يتكلم، فقال النبي ﷺ: «مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه» (١).

ثم قال -رحمه الله-: (فأما كونه مشقاً فليس سبباً لفضل العمل ورجحانه، ولكن قد يكون العمل الفاضل مشقاً فضله لمعنى غير مشقته، والصبر عليه مع المشقة يزيد ثوابه وأجره، فيزداد الثواب بالمشقة ... فكثيراً ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب، لا لأن التعب والمشقة مقصود من العمل، ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب، هذا في شرعنا الذي رفعت عنا فيه الآصار والأغلال، ولم يجعل علينا فيه حرج، ولا أريد بنا فيه العسر، وأما في شرع من قبلنا فقد تكون المشقة مطلوبة، وكثير من العباد يرى جنس المشقة والألم والتعب مطلوباً مقرباً إلى الله، لما فيه من نفرة النفس عن اللذات والركون إلى الدنيا، وانقطاع القلب عن علاقة الجسد، وهذا من جنس زهد الصابئة والهند وغيرهم) (٢).

ثانياً: النيات في العبادات معتبرة في الشرع، فلا يصلح منها إلا ما وافق الشرع، قال الإمام الشاطبي -رحمه الله-: (إذا كان قصد المكلف إيقاع المشقة فقد خالف قصد الشارع من حيث إن الشارع لا يقصد بالتكليف نفس المشقة، وكل

(١) مجموع الفتاوى (٦١٠/١٠).

(٢) المصدر السابق (٥٥/١).

قصد يخالف قصد الشارع باطل، فالقصد إلى المشقة باطل، فهو إذاً من قبيل ما ينهى عنه، وما ينهى عنه لا ثواب فيه، بل فيه الإثم إن ارتفع النهي إلى درجة التحريم، فطلب الأجر بقصد الدخول في المشقة قصد مناقض^(١).

<http://www.saaid.net/Doat/saud/4.htm> - [7]

وقال أيضاً: (ونهي عن التشديد أي النبي عليه الصلاة والسلام شهير في الشريعة، بحيث صار أصلاً قطعياً، فإذا لم يكن من قصد الشارع التشديد على النفس، كان قصد المكلف إليه مضاداً لما قصد الشارع من التخفيف المعلوم المقطوع به، فإذا خالف قصده قصد الشارع بطل ولم يصح، هذا واضح وبالله التوفيق)^(٢).

ثالثاً: باستقراء الأدلة الشرعية فإن الشارع لم يقصد إلى التكاليف بالمشاق والإعنات، لقوله تعالى ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٣)، وقوله ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْهِمْ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾^(٤)، وقوله: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٥)، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾^(٦)، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٧)، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾^(٨).

(١) الموافقات (٢/٢٢٢)

(٢) المصدر السابق (٢/٢٢٩).

(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

(٥) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

(٦) سورة البقرة الآية.

(٧) سورة الحج الآية ٧٨.

(٨) سورة النساء الآية ٢٨.

وقوله ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة»^(١)، وما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً^(٢).

رابعاً: لو قصد الشارع التكاليف بالمشقة لما حصل الترخيص، فالرخص الشرعية أمر مقطوع به، ومعلوم من الدين بالضرورة، وهي لرفع الحرج والمشقة الواقعة على المكلفين، كرخص القصر، والفطر والجمع بين الصلاتين.
خامساً: ثبت في شريعتنا ما يمنع من التكلف والتنطع في دين الله، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكَلَّفِينَ﴾^(٣) وقوله ﷺ: «عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا»^(٤).

سادساً: نقل الإمام الشاطبي الإجماع على عدم وجود التكليف بالمشاق غير المعتادة في الشريعة.

(١) أخرجه أبو بكر بن سلمان الفقيه في مجلس من الأمالي (١/١٦)، والخطيب في التاريخ (٢٠٩/٧)، وابن النجار في ذيل تاريخ بغداد (٥/١٨) عن جابر مرفوعاً بإسناد ضعيف، فيه مسلم بن عبد ربه، ضعفه الأزدي، وضعف إسناده العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١٤٩/٤)، ولكن قال العلامي؛ كما في فيض القدير: (مسلم؛ ضعفه الأزدي، ولم أجد أحداً وثقه، ولكن له طرق ثلاث، ليس يبعد أن لا ينزل بسببها عن درجة الحسن).

وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١٩٢/١) عن حبيب بن أبي ثابت مرفوعاً، وهو مرسل. وأخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (٢٠٤/٢) عن أبي أمامة مرفوعاً: «إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكن بعثت بالحنيفية السمحاء»، وإسناده ضعيف.

وأخرجه أحمد في المسند (١١٦/٦، ٢٣٣)، عن عائشة، وفي آخره: «إني أرسلت بحنيفية سمحة» وسنده حسن، وحسنه ابن حجر في تعليق التعليق (٤٣/١) وفيه: (وفي الباب عن أبي بن كعب وجابر وابن عمر وأبي أمامة وأبي هريرة وأسعد بن عبد الله الخزاعي وغيرهم)، ونحوه في هدى الساري (ص ١٢٠).
فائدة: استنبط منه الشافعية قاعدة إن المشقة تجلب التيسير انظر: فيض القدير (٢٠٣/٣)

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة ص الآية ٨٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: أحب الدين إلى الله أدومه، رقم الحديث (٤٣).

سابعاً: لو قصدت المشقة في كل مرة وداوم عليها المكلف، لوجدت مشقة غير معتادة وحرَج كبير، ممَّا يفضي إلى ترك العبادة بالكلية والانقطاع عنها، وهذا النوع لم تأت به الشريعة الإسلامية، فشرع الله جل وعلا لنا الرفق والأخذ من الأعمال بما لا يحصل ملاماً، ونَبه النبي ﷺ على ذلك فقال: «القصد القصد تبلغوا»^(١) [13] - <http://www.saaid.net/Doat/saud/4.htm> لذلك نهي النبي ﷺ عن التنطع وقال: «هلك المتنطعون»^(٢)، أما استدلالهم بحديث: «بني سلمة دياركم تكتب آثاركم»^(٣).

فالجواب أن الحديث لا دليل فيه على قصد نفس المشقة، فقد جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري ما يفسره فإنه ﷺ: «كره أن تُعرى المدينة قبَل ذلك، لئلا تخلو ناحيتهم من حراستها».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل، رقم الحديث (٦٤٦٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

المطلب الرابع

هل مقدار الأجر يكون على المشقة والجهد المبذول في العمل أم هو على ما ينتج عن العمل من منفعة وخير وصلاح؟

أقوال أهل العلم فيها:

القول الأول: إن الأجر على قدر المشقة.

قال القرافي - رحمه الله -: (والأصل أن قاعدة كثرة الثواب كثرة الفعل، وقاعدة قلة

الثواب قلة الفعل؛ فإن كثرة الأفعال في القربات تستلزم كثرة المصالح غالباً)^(١).

وقال السيوطي - رحمه الله - في القاعدة التاسعة عشرة: (ما كان أكثر فعلاً كان

أكثر فضلاً)^(٢)؛ ومن ثم كان فصل الوتر أفضل من الوصل لزيادة النية والتكبير

والسلام، وصلاة النفل قاعدة على النصف من صلاة القائم، ومضطجعاً على النصف

من القاعد، وإفراد النسك أفضل من القرآن^(٣).

أدلة القول الأول:

أولاً: قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ

أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ

وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِنًا يَعْزِطُ الْكُفَّارَ

وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٤).

(١) الفروق (٢/١٣٣).

(٢) الأشباه والنظائر (ص ١٤٣).

(٣) القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة (٢/٧٣١).

(٤) سورة التوبة الآية ١٢٠.

ثانياً: قوله ﷺ لعائشة -رضي الله عنها-: «أجرك على قدر نصبك»^(١).
ثالثاً: قوله ﷺ لما سئل عن أي الأعمال أفضل؟ قال: «أحزمها»^(٢)، وأحزمها:
أقواها وأشدّها.

رابعاً: عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: كانت ديارنا نائية عن
المسجد، فأردنا أن نبيع بيوتنا فنقترب من المسجد فنهانا رسول ﷺ؛ فقال: «إن لكم
بكل خطوة درجة»^(٣).

خامساً: عن أبي بن كعب -رضي الله عنه- قال: كان رجل لا أعلم رجلاً أبعد
من المسجد منه، وكان لا تحطئه صلاة، قال: فقليل له أو قلت له: لو اشتريت حماراً
تركبه في الظلماء وفي الرمضاء. قال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد
أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي. فقال رسول الله
ﷺ: «قد جمع الله لك ذلك كله»^(٤)، وفي رواية: «إن لك ما احتسبت»^(٥).

القول الثاني: إن الأجر على قدر المنفعة، وبه قال العز بن عبد السلام وابن
تيمية والمقري والشاطبي وابن حجر رحمهم الله تعالى.

قال العز بن عبد السلام -رحمه الله-: (قد علمنا من موارد الشرع ومصادره أن
مطلوب الشرع إنما هو مصالح العباد في دينهم ودنياهم، وليست المشقة مصلحة، بل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الحج، باب: بيان وجوه الإحرام، وأنه يجوز أفراد الحج والتمتع والقران،
وحواز إدخال الحج على العمرة، ومتى يجزئ القارن من نسكه، رقم الحديث (١٢١١).

(٢) قال المزني: هو من غرائب الأحاديث، ولم يروى في شيء من الكتب الستة، انتهى.
انظر: المقاصد الحسنة (ص ١٣٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد، رقم الحديث (٦٦٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد، رقم الحديث (٦٦٣).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد، رقم الحديث (٦٦٤).

الأمر بما يستلزم المشقة بمثابة أمر الطبيب المريض باستعمال الدواء المرّ البشع، فإنه ليس غرضه إلا الشفاء^(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (ومما ينبغي أن يعرف أن الله ليس رضاه أو محبته في مجرد عذاب النفس وحملها على المشاق حتى يكون العمل كلما كان أشق كان أفضل، كما يحسب كثير من الجهال أن الأجر على قدر المشقة في كل شيء؛ لا ولكن الأجر على قدر منفعة العمل ومصلحته وفائدته، وعلى قدر طاعته أمر الله ورسوله؛ فأَي العملين كان أحسن وصاحبه أطوع وأتبع كان أفضل؛ فإن الأعمال لا تتفاضل بالكثرة وإنما تتفاضل بما يحصل في القلوب حال العمل^(٢))، وقال -رحمه الله-: (ولكن خير الأعمال ما كان لله أطوع ولصاحبه أنفع)^(٣).

وقال المقري -رحمه الله-: (الأجر على قدر تفاوت جلب المصالح ودرء المفاسد؛ لأن الله ﷻ لم يطلب من العباد مشقتهم ولكن الجلب والدفع)^(٤).

وقال الشاطبي -رحمه الله-: (ليس للمكلف أن يقصد المشقة في التكليف نظراً إلى عظم أجرها؛ فإن المقاصد معتبرة في التصرفات فلا يصلح منها إلا ما وافق الشارع. فإذا كان قصد المكلف إيقاع المشقة فقد خالف قصد الشارع من حيث إن الشارع لا يقصد بالتكليف نفس المشقة، وكل قصد يخالف قصد الشارع باطل، فالقصد إلى المشقة باطل، فهو إذن من قبيل ما ينهى عنه، وما ينهى عنه لا ثواب فيه بل فيه الإثم إن ارتفع النهي عنه إلى درجة التحريم، فطلب الأجر بقصد الدخول في المشقة: قصد مناقض)^(٥).

(١) قواعد الأحكام (٣٧/١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٥٠/٢٧١).

(٣) المصدر السابق (٢٢/٣١٣).

(٤) القواعد (٢/٤١١).

(٥) الموافقات (٢/٢٢٢).

وقال العز بن عبد السلام - رحمه الله -: (قد علمنا من موارد الشرع ومصادره أن مطلوب الشرع إنما هو مصالح العباد في دينهم ودنياهم، وليست المشقة مصلحة، بل الأمر بما يستلزم المشقة بمثابة أمر الطبيب المريض باستعمال الدواء المرّ البشع، فإنه ليس غرضه إلا الشفاء)^(١).

ويقول الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: (تقصد التعب في العبادة قد لا يكون فيه أجر، لكن إذا كانت العبادة لا تأتي إلا بالتعب كانت أفضل، وهذه مسألة ينبغي للإنسان أن ينتبه لها، وهي: هل تقصد التعب في العبادة أفضل أم الراحة؟ الجواب: الراحة أفضل، لكن لو كانت العبادة لا تأتي إلا بالتعب كانت المشقة والتعب أفضل فيها أحر ولهذا قال النبي ﷺ فيما يرفع به الدرجات ويكفر به الخطايا: إسباغ الوضوء على المكاره ولكن لا نقول للإنسان إذا كان يمكنك أن تسخن الماء، فالأفضل أن تذهب إلى الماء البارد وتتوضأ لا نقول هذا ما دام يسر الله عليك، فيسر على نفسك)^(٢).

وقال ابن حجر - رحمه الله - معقباً على النووي - رحمه الله - في قوله: (ظاهر الحديث «أجرك على قدر نصيبك» أن الثواب والفضل في العبادة يكثر بكثرة النصب والنفقة): «وهو كما قال، لكن ليس ذلك بمطرد، فقد يكون بعض العبادة أخف من بعض وهو أكثر فضلاً وثواباً بالنسبة إلى الزمان كقيام ليلة القدر بالنسبة لقيام ليالٍ من رمضان غيرها، وبالنسبة للمكان كصلاة ركعتين في المسجد الحرام بالنسبة لصلاة ركعتين في غيره، وبالنسبة إلى شرف العبادة المالية والبدنية كصلاة الفريضة إلى أكثر من عدد ركعاتها أو أطول من قراءتها ونحو ذلك من صلاة النافلة، وكدرهم من الزكاة بالنسبة إلى أكثر من التطوع)^(٣).

(١) قواعد الأحكام (١/٣٧).

(٢) الشرح الممتع، كتاب الصيام (٦/٤٨٤).

(٣) الفتح (٦/٣١١).

أدلة القول الثاني:

أولاً: الاستقراء؛ حيث استقرأ العلماء مصادر الشريعة ومواردها فوجدوا أنها لا تقصد الأمر بالشاق، ولا ترتب عليه كثرة الأجر بالدرجة الأولى.

والاستقراء قطعي ضروري لا يُناهض بأقل منه.

ثانياً: الأحاديث، ومنها:

- عن عقبه بن عامر أنه قال: نذرت أختي أن تمشي إلى بيت الله حافية، فقال ﷺ: «إن الله لغني عن نذرها، مُرها فلتركب»^(١).

- حديث جويرية -رضي الله عنها- في تسيبها بالحصى أو النوى وقد دخل ﷺ عليها ضحى، ثم دخل عليها عشية، فوجدها على تلك الحال، فقال لها: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لرجحت»^(٢).

- قوله ﷺ: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه؛ فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا»^(٣).

- أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس، فقال: «ما هذا؟» قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم، ويصوم، فقال ﷺ: «مروه فليجلس وليتكلم وليتم صومه»^(٤).

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: النذر، باب: من رأى عليه كفارة إذا كان في معصية، وقال الألباني:

حديث صحيح، انظر: صحيح سنن أبي داود ص ٥٠٤، رقم (٣٢٩٧)

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الذكر والدعاء والاستغفار والتوبة، باب: التسيب أول النهار وعند النوم، رقم الحديث (٢٧٢٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: النذر، باب: النذر فيما لا يملك وفي معصية، رقم الحديث (٦٧٠٤).

وناقش الفريق الثاني أدلة القائلين بأن الأجر على قدر المشقة، وكانت ردودهم كما يلي:

- وجه المقرري الحديثين («أجرك على قدر نصبك» و«أفضل العبادات أحمرها» بأن ما كثرت مشقته قلَّ حظ النفس منه، فكثرت الإخلاص فيه، وبالعكس فالثواب في الحقيقة مرتب على الإخلاص لا المشقة^(١)).

- رد الشاطبي وغيره على من استدل على أن الشريعة تقصد إلى التكليف بالشاق بأمور:

أولاً: هذه الأحاديث لا دليل فيها على قصد المشقة؛ فحديث جابر جاء بما يفسره عند البخاري في زيادة مفادها "أن بني سلمة أرادوا أن يتحولوا عن منازلهم، فينزلوا قريباً من النبي ﷺ، قال: فكره رسول الله ﷺ، أن يعروا المدينة، فقال: «ألا تحسبون آثاركم؟!»، قال ابن حجر: (نه بهذه الكراهة على السبب من منعهم من القرب من المسجد، لتبقى جهات المدينة عامرة بساكنها)^(٢).

ثانياً: إن ما أورده معارض بنهي رسول الله ﷺ للذين أرادوا التشديد بالتبتل حين قال أحدهم: «أما أنا فأصوم ولا أفطر»، وقال الآخر: «أما أنا فأقوم ولا أنام»، وقال الثالث: «أما أنا فلا آتي النساء»؛ فأنكر ذلك عليهم وأخبر عن نفسه أنه يفعل ذلك كله، وقال: «من رغب عن سنتي فليس مني»^(٣).

وفي الحديث: «رد التبتل على عثمان بن مظعون، ولو أذن له لاختصينا»^(٤).

- أمر آخر يضيفه الشاطبي وهو التدليل على أن الشرع لم يقصد من التكليف بالمشاق الإعناء فيه بما يلي:

(١) القواعد (٤١١/٢).

(٢) الفتح (١٤٠/٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، رقم الحديث (٥٠٦٣).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: النكاح، باب: ما يكره من التبتل والخصاء، رقم الحديث (٥٠٧٣).

أولاً: النصوص الدالة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ

حَرَجٍ﴾^(١).

ثانياً: ما ثبت أيضاً من مشروعية الرخص، كالقصر والفطر ونحوهما.

ثالثاً: الإجماع على عدم وقوعه وجوداً في التكليف، وهو يدل على عدم قصد الشارع إليه، ولو كان واقعاً لحصل في الشريعة التناقض والاختلاف.

الترجيح:

مما سبق عرضه من الأدلة والأقوال والاعتراضات الواردة عليها يتبين أن الراجح هو القول الثاني، للأمور الآتية:

- الأدلة العامة القوية التي بينت أن الشريعة تهدف إلى جلب المصالح ودرء المفاسد بوسائل ليس فيها تعنت وتشديد على العباد، منها قوله تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٢).

- سلامة أدلة القائلين بهذا القول من الاعتراضات؛ حيث لم يعترض القائلون بأن الأجر على قدر المشقة على أدلتهم.

وأخيراً:

فما أجدد الدعاة إلى تفهم هذه القاعدة، وتلقينها لكل من سلك طريق الدعوة؛ حيث يطغى الحماس أحياناً خدمة لدين الله - سبحانه - ونشراً لدعوة الله، فيرى السالك أنه كلما بذل جهداً ازداد أجراً دون النظر إلى العائد الذي يعود به على الدعوة، فيقع في الخبط والفوضى، وأحياناً يفسد أكثر مما يصلح.

فكانت هذه القاعدة لتبين لهذا الصنف أنه ليس المقصود أن يتعب نفسه بل

المقصود نشر الدين، وإن أدى ذلك إلى جهد ومشقة فلن يحرم أجرها ﴿مَا كَانَ

(١) سورة الحج الآية ٧٨.

(٢) سورة البقرة الآية.

لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ
عَنْ نَفْسِهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَا يَطْشُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ
عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾.

كما أن هذه القاعدة تحتاج إلى اجتهاد في تحقيق المناط والموازنة بين المشقة
المصاحبة للعمل والمنفعة العائدة من العمل، فإنه كثيراً ما تبذل جهود عظيمة لخدمة
دين الله ونشر الدعوة، وبمقارنة مع المنفعة تكون إهداراً للطاقات والجهود في غير
المكان المناسب، وهذا لا ينبغي في دين الله.

لذا وجب الرجوع إلى العلماء العاملين الربانيين أهل الفقه في دين الله، والبصيرة
بالدعوة إلى الله، والخبرة في ميدان العمل، فهم أهل الاجتهاد في هذا الباب، ويجب
الرجوع إليهم والانتظام معهم؛ لتتوجه الطاقات والجهود المهدرة إلى المكان المناسب،
في الظرف المناسب، للمرحلة المناسبة.

(١) سورة التوبة الآية ١٢٠.

المطلب الخامس

عبارة الأجر على قدر المشقة

من أقاويل الصوفية (الأجر على قدر المشقة) وهي غير مستقيمة على إطلاقها، وصوابها: (الأجر على قدر المنفعة) أي منفعة العمل وفائدته كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-.

قال العلامة بكر أبو زيد في معجم المناهي اللفظية (ص ٨٠): (الأجر على قدر المشقة: هذه العبارة من أقاويل الصوفية، وهي غير مستقيمة على إطلاقها، وصوابها: (الأجر على قدر المنفعة) أي منفعة العمل وفائدته كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وغيره).

وهذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (مما ينبغي أن يُعرف أن الله ليس رضاه أو محبته في مجرد عذاب النفس وحملها على المشاق، حتى يكون العمل كل ما كان أشق كان أفضل، كما يحسب كثير من الجهال أن الأجر على قدر المشقة في كل شيء، لا ! ولكن الأجر على قدر منفعة العمل ومصلحته وفائدته، وعلى قدر طاعة أمر الله ورسوله؛ فأبي العملين كان أحسن وصاحبه أطوع وأتبع كان أفضل، فإن الأعمال لا تتفاضل بالكثرة، وإنما تتفاضل بما يحصل في القلوب حال العمل. ولهذا لما نذرت أخت عقبة بن عامر أن تحج ماشية حافية؛ قال النبي ﷺ: «إن الله لغني عن تعذيب أختك نفسها، مرها فلتركب»، وروي: أنه أمرها بالهدى، وروي بالصوم. وكذا حديث جويرية في تسييحها بالحصى أو النوى، وقد دخل عليها ضحى ثم دخل عليها عشية، فوجدها على تلك الحال، وقوله لها: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لرجحت».

وأصل ذلك أن يعلم العبد أن الله لم يأمرنا إلا بما فيه صلاحنا، ولم ينهانا إلا عما فيه فسادنا، ولهذا يثني الله على العمل الصالح، ويأمر بالصلاح والإصلاح وينهى عن الفساد.

فإنه سبحانه إنما حرم علينا الخبائث لما فيها من المصرة والفساد، وأمرنا بالأعمال الصالحة لما فيها من المنفعة والصلاح لنا، وقد لا تحصل هذه الأعمال إلا بمشقة؛ كالجهاد، والحج، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وطلب العلم؛ فيحتمل تلك المشقة ويثاب عليها لما يعقبه من المنفعة، كما قال النبي ﷺ لعائشة لما أعتمرت من التنعيم عام حجة الوداع: «أجرك على قدر نصبك»، وأما إذا كانت فائدة العمل منفعة لا تقاوم مشقته؛ فهذا فساد، والله لا يحب الفساد.

ومثال ذلك منافع الدنيا، فإن من تحمل مشقة لربح كثير أو دفع عدو عظيم كان هذا محموداً، وأما من تحمل كلفاً عظيمة ومشاقاً شديدةً لتحصيل يسير من المال أو دفع يسير من الضرر كان بمنزلة من أعطى ألف درهم ليعتاض بمئة درهم، أو مشى مسيرة يوم ليتغدى غدوة يمكنه أن يتغدى خيراً منها في بلده.

فالأمر المشروع المسنون جميعه مبناه على العدل والاقتصاد والتوسط الذي هو خير الأمور وأعلها؛ كالفردوس؛ فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، فمن كان كذلك فمصيره إليه أن شاء الله تعالى.

هذا في كل عبادة لا تقصد لذاتها؛ مثل الجوع، والسهر، والمشى.

وأما ما يُقصد لنفسه؛ مثل معرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه؛ فهذه يشرع فيها الكمال، لكن يقع فيها سرف وعدوان بإدخال ما ليس منها فيها، مثل أن يدخل ترك الأسباب المأمور بها في التوكل، أو يدخل استحلال المحرمات وترك المشروعات في المحبة؛ فهذا هذا، والله سبحانه وتعالى أعلم^(١).

سئل العلامة ابن عثيمين -رحمه الله-: هل يتعمد المسلم المشقة لحديث: «أجرك على قدر مشقتك»؟

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/٢٧١).

الجواب: رأيت الآن لو كان الماء حارًا يشق عليك: هل الأفضل أن تتوضأ بالماء الحار أم بالماء المناسب؟ أيهما أشق؟ الحار.

إذا كان عليه جنابة في ليالي الشتاء، هل الأرفق به أن يسخن الماء ويغتسل، أو يغتسل بالماء البارد؟ الماء البارد أسهل وأفضل، الحديث يقول: (إذا تعبت في العمرة) ما قال: اتعبي فيها. أي: إذا تعبت في العمرة وزاد العمل؛ فالأجر على قدر التعب، إنسان مثلاً يذهب إلى المسجد ويصلي جماعة ويتعب بعض الشيء، وإنسان يذهب بسهولة، الأول يؤجر على مشقته؛ لكن لا نقول: اطلب الإشفاق على نفسك؛ بل إن طلب الإشفاق على النفس من الأمور المذمومة؛ ولهذا نهي النبي ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص أن يصوم كل الدهر، وأن يقوم كل الليل؛ لما فيه من المشقة. وقرأ قول الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾^(١).

أما: «أجرك على قدر نصيبك»؛ فالمعنى: أنك إذا تعبت في نسكك فلك أجر على التعب؛ كإنسان يطوف والمطاف واسع، وإنسان يطوف بمشقة، الثاني أكثر أجرًا من الأول؛ لكن لا نقول: انتظر حتى يوجد الرحام الشديد وطف^(٢).

(١) لقاء الباب المفتوح (اللقاء: ١٩/السؤال: ٢١).

(٢) سورة النساء الآية ١٤٧.

المطلب السادس

فقه الدعوة في ضوء التيسير ورفع الحرج^(١)

التيسير على الناس ورفع الحرج والمشقة عنهم من المقاصد العظيمة في الدعوة إلى الله ﷻ، كما قال تعالى في شأن الرسول ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٥)، والآيات الدالة على يسر الشريعة والدين في كتاب الله العزيز كثيرة متضافرة.

والأحاديث الواردة في بيان أهمية هذا المقصد العظيم، ومكانته كثيرة متضافرة أيضاً، حتى قال الإمام الشاطبي -رحمه الله-: (إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع"^(٦))، ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَنِي مُعْتَبًا وَلَا مُتَعْتَبًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُبْسِرًا»^(٧).

(١) فقه الدعوة الإسلامية في ضوء المقاصد الشرعية للدكتور: بشير عبد العالي شمام.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥.

(٤) سورة النساء الآية ١٢٨.

(٥) سورة الحج الآية ٧٨.

(٦) الموافقات: ١/٥٢٠.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تحييز أمرأتي لا يكون طلاقاً إلا بالبيّنة. حديث

وكان ﷺ يذكر بهذا المقصد العظيم، ويحلي به وصاياه للدعاة، فعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»^(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والرواح وشيء من الدلجة»^(٢)، وعنه أيضا قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣٨٤) قَالَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرَّكْبِ فَقَالُوا أَيْ رَسُولَ اللَّهِ كُفِّنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نَطِيقُ: الصَّلَاةَ، وَالصِّيَامَ، وَالْجِهَادَ، وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُتْرِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نَطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ». قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلِكَ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٣٨٥) فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: في الأمر بالتيسير وترك التثفير.. حديث رقم:

.٤٦٢٢

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الوحي، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، حديث رقم: ٣٥١.

قَبِيلًا ﴿ قَالَ: نَعَمْ ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ ﴿ قَالَ: نَعَمْ ﴿ وَأَعْفُ عَنَّا
وَأَغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿ ﴿ قَالَ:
نَعَمْ ﴿^(١)

فما على الداعية إلى الله إلا أن يسلك في دعوته التيسير والبشارة^(٢)، وأن يترفق بالناس، ولا يحملهم ما لا يطيقون، حتى في العقيدة عليه التركيز على أصولها وأركانها، وما يجب على المكلف اعتقاده، في حق الله ورسوله، والإقرار بجميع ما جاء به الرسول من أمر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتصديقه في كل ما أمر به ونهى عنه، والانقياد له في جميع ذلك، كل ذلك على سبيل الإجمال، وأما التفصيل فلكل مكلف على حسب ما يطيق^(٣).

وليكن له في سنة الله مع الخلق عبرة، (وذلك أن الله يَعْلَمُ خلق الخلق غير علمين بوجوه مصالحهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾^(٤)، ثم وضع فيهم العلم بذلك على التدرج والتربية؛ تارة بالإلهام كما يلهم الطفل التقام الثدي ومصه، وتارة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، رقم الحديث (١٢٥).

(٢) ومن الأولويات عند الدعاة الدعوة إلى العقيدة، قال تعالى: ﴿ يَصْطَلِحِي السَّجِنَ أَرْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَجِدُ الْقَهَّارُ ﴿ ﴿ سورة يوسف: الآية ٣٩.

قال البيضاوي في أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١٦٤/٣): (وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة، بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الإلهية فإن استحقات العبادة إما بالذات وإما بالغير وكلا القسمين منتف عنهما، ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره ولا يرتضي العلم دونه. ولكن أكثر الناس لا يعلمون فيخطون في جهالاتهم.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٢٧/٣٤-٣٢٨) بتصرف.

(٤) سورة النحل الآية ٧٨.

بالتعليم؛ فطلب الناس بالعلم والتعلم لجميع ما يستجلب به المصالح وكافة ما تدرأ به المفاسد؛ إنهاضاً لما جبل فيهم من تلك الغرائز الفطرية، والمطالب الإلهامية؛ لأن ذلك كالأصل للقيام بتفاصيل المصالح - كان ذلك من قبيل الأفعال، أو الأقوال، أو العلوم والاعتقادات، أو الآداب الشرعية أو العادية^(١).

فالداعية إذا علم الناس أصول الإيمان على الإجمال، أو وجدهم بها عالمين، كان الأولى به أن يركّز لهم على مقتضيات الإيمان وآثاره، وربط ذلك بواقع حياتهم، وهذا أجدى وأنفع من المضي بهم إلى مزيد من المسائل والفروع التي لا يحتاجها إلا المتخصصون، أو هي من القضايا الميتة التي عفا عليها الدهر وخاض فيها أناس بحسب ما اقتضاه عصرهم، وقد مضى عصرهم، ومضت قضاياها، واستقبلنا نحن عصراً جديداً بقضايا وتحديات جديدة، فلتكن دعوتنا مواكبة للعصر انطلاقاً من ثوابت الدين لا من متغيرات العقول والعصور.

وعن يسر العقيدة وخلوها من التعقيد يقول الشاطبي -رحمه الله-: (ومنها أن تكون التكاليف الاعتقادية والعملية مما يسع الأمي تعقلها ليسعه الدخول تحت حكمها، أما الاعتقادية فأن تكون من القرب للفهم والسهولة على العقل بحيث يشترك فيها الجمهور، من كان منهم ثاقب الفهم، أو بليداً، فإنها لو كانت مما لا يدركه إلا الخواص لم تكن الشريعة عامه، ولم تكن أمية، وقد ثبت كونها كذلك)^(٢).

ومن التيسير في مجال الدعوة أن يعامل من كان ذا شأن في الدولة أو في قبيلته بالتي هي أحسن ويرفق به، حتى لا يترتب على الإغلاظ إليه ما هو شر من منكره، وما هو أقبح من عمله، والدليل على ذلك: أنه ﷺ كان يعامل رأس المنافقين عبد الله بن أبي سلول بتلطف، ولم يشتد عليه لأنه كان رئيساً لقومه ويخشى من عصبية قومه

(١) الموافقات ١/٢٨٤، ٢٨٥.

(٢) الموافقات (٨٨/٢).

له فيكون من ذلك فتنة للجماعة، لذلك كان النبي ﷺ يرفق به حتى مات عن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- قال: غزونا مع رسول الله ﷺ وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجل لعاب فكسع^(١) أنصاريًا، فغضب الأنصاري غضبا شديدا، حتى تداعوا وقال الأنصاري: يا لأنصار ... وقال المهاجري: يا للمهاجرين ... فخرج النبي ﷺ فقال: «ما بال دعوى أهل الجاهلية؟ ثم قال ما شأنهم؟». فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري، قال: فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها خبيثة».

وقال عبد الله بن أبي سلول أقدم تداعوا علينا لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فقال عمر ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث؟ لعبد الله فقال النبي ﷺ: «لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه»^(٢).

(١) الكسع أن تضرب بيدك أو برجلك بصدرك قدمك على دبر إنسان، لسان العرب لابن منظور مادة (كسع)،

٣٠٩/٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المناقب باب: باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، رقم الحديث: ٣٣٣٠.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على أفضل خلق الله،

وبعد:

فقد أنعم الله علي بإتمام هذا البحث فله تمام الشكر وأكمله، وأسأله أن ينفع به، ويعظم الأجر والثوبة لكاتبه وقارئه ومن استفاد منه. ولا أدعي فيه الكمال، ولكني بذلت فيه جهدي وفكري مع اعترافي بالتقصير والنقص البشري، فما كان فيه من صواب فذلك فضل الله وتوفيقه، وما كان فيه من نقص أو تقصير فهو مني وأسأله العفو والغفران. وفي ختامه أخص أهم نتائجه وتوصياته في الآتي:

١. القواعد الشرعية لها أهمية كبرى وخصوصا في المجال الدعوي
 ٢. مكانة قاعدة المشقة تجلب التيسير وذكر بعض الفروع الدعوية.
 ٣. معنى التيسير وذكر ضوابطه وشروطه وأثره في الدعوة إلى الله.
 ٤. نظرة على التيسير المعاصر.
 ٥. ذكر أقسام المشقة وقواعدها.
 ٦. المشقة لا تقصد في الشريعة الإسلامية.
 ٧. الأجر يكون على قدر المنفعة لا على قدر المشقة.
 ٨. بيان فقه الدعوة في ضوء التيسير.
- وفي الختام أسأل الله الذي خلقنا من العدم، وأسبغ علينا وافر النعم، وعلمنا ما لم نكن نعلم، أن ينفعنا بما جاد به الفكر وسطره القلم، ويغفر لنا ما زل به الفهم أو حاد به القلم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.
- وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. إعلام الموقعين عن رب العالمين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٣. الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية، للدكتور عبد الرحيم المغذوي، دار الحضارة الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ.
٤. بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، لأبي عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الكريم الدريني، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
٥. تاج العروس من جواهر القاموس، لأبي الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقّب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
٦. التسليم للنص الشرعي والمعارضات الفكرية المعاصرة، لفهد بن صالح العجلان، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ.
٧. الحاوي للفتاوي، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، عام النشر: ١٤٢٤هـ.
٨. العلمانية، الليبرالية، الديمقراطية، الدولة المدنية في ميزان الإسلام، جمع وترتيب اللجنة العلمية بجمعية الترتيل تحت إشراف الشيخ محمد عبد العزيز أبو النحاح الخبير بمجمع فقهاء الشريعة وعضو الاتحاد العلمي لعلماء المسلمين بالمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة، قدم له، أ. د. محمد نعيم محمد هاني الساعي أستاذ الفقه وأصوله وعضو مجمع فقهاء الشريعة وعضو لجنته الدائمة للإفتاء، الطبعة الثالثة.

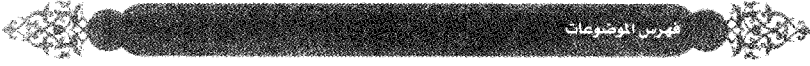
٩. فقه الأولويات في ظلال مقاصد الشريعة الإسلامية، د. عبد السلام عيادة، دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.
١٠. فيض القدير شرح الجامع الصغير، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة الأولى: ١٣٥٦هـ.
١١. الفروق "أنوار البروق في أنواء الفروق"، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقراقي (المتوفى: ٦٨٤هـ)، عالم الكتب، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ.
١٢. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي (المتوفى: ٦٦٠هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة.
١٣. قواعد وضوابط فقه الدعوة عند شيخ الإسلام ابن تيمية، لعابد الثبتي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.
١٤. القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، لمحمد الزحيلي، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
١٥. كيف نفهم التيسير، لفهد بن سعيد، دار المحدث، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.
١٦. لسان العرب، لأبي الفضل محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤١٤هـ.
١٧. مجموع الفتاوى، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ.

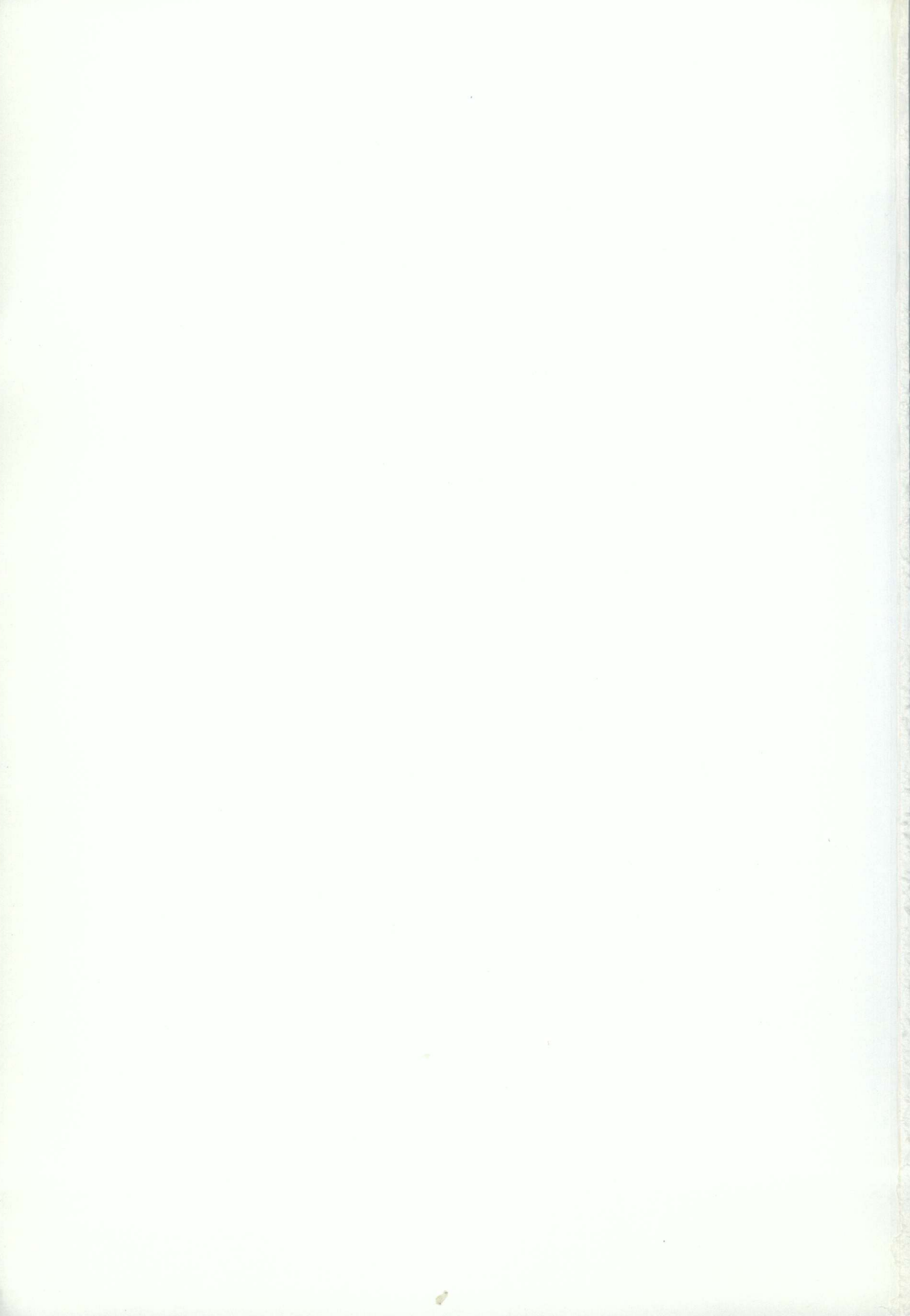
١٨. معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ، لبكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد (المتوفى: ١٤٢٩هـ)، دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.
١٩. منهج التيسير المعاصر - دراسة تحليلية -، لعبد الله بن إبراهيم الطويل، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.
٢٠. الموافقات، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
٢١. النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ.

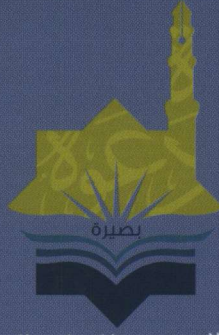
الفهرس

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٦	قواعد النشر
٩	المقدمة
١١	بلاغة الخطاب الدعوي في سورة نوح <small>عليه السلام</small>
١١٣	آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم
٢٥٧	المسؤولية الدعوية تجاه المريض النفسي
٣٢٣	تعزيز ثقافة وقف الوقت
٣٦١	المسؤولية الدعوية للداعي إلى الله تعالى في عيادات التجميل
٤٢٧	قاعدة المشقة تجلب التيسير دراسة دعوية تأصيلية
٥١٥	الفهرس







الجمعية السعودية لدراسات الدعوة
Saudi association for da'wah studies

الرؤية :

أن تكون الجمعية رائدة في خدمة الدعوة الإسلامية، من خلال تطوير الأفراد والمؤسسات العاملة في مجال تخصص الجمعية.

الرسالة :

تقديم برامج علمية واستشارية وتدريبية عالية الجودة للمتخصصين والمهتمين بالدعوة الإسلامية، أفراداً كانوا أو مؤسسات.

الأهداف :

- تهدف الجمعية السعودية لدراسات الدعوة إلى ما يلي :-
- تنمية الفكر العلمي في مجال الدراسات الدعوية والعمل على تطويره وتنشيطه.
- تحقيق التواصل العلمي لأعضاء الجمعية.
- تقديم المشورة العلمية في مجال الدراسات الدعوية.
- تطوير الأداء العلمي والمهني لأعضاء الجمعية.
- تيسير تبادل الإنتاج العلمي، والأفكار العلمية في مجال الدراسات الدعوية بين الهيئات والمؤسسات المهنية داخل المملكة وخارجها.

مطابع الجامعة

الرياض - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - المعهد العالي للدعوة والاحتساب
صندوق البريد : ٤٨٤٧ الرمز البريدي : ١١٤١٢ هاتف : ٠٩٦٦١١٢٥٨٥١٣٢
البريد الإلكتروني : bsserah@gmail.com